

تأليف

فريد إسماعيل التوني

الناشر

مكتبة الضياء

جدة – ت : ٦٨٩٣٨٦٤

الطبعة الأولــى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م


بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

وكانت لجنة المناقشة مكونة من :

١ - الدكتور عبد الشكور محمد أمان العروسي	مشرفاً
٢ - الدكتور رضا نعسان معطي	مناقشاً
٣ - الدكتور أحمد محمد البناني	مناقشاً

وقد حصل الكاتب على تقدير ممتاز .

تقـريــــظ

د . أحمد محمد بناني

رئيس قسم الإعلام الإسلامي

بجامعـــة أم القـــرى

لـرســـــالة

« عبودية الكائنات لرب العالمين »

فريد إسماعيل التوني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريـــــظ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام المهتدين ، وخير خلق الله أجمعين سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين .

وبعـــــد

لقد شرفني الله عز وجل وأكرمني بالتعامل مع هذه الرسالة القيمة التي هي الآن بين يدي القارىء الكريم كتاباً مطبوعاً مرتين :

المرة الأولى حين وردني خطاب فضيلة عميد الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى بتكليفي بالاشتراك في مناقشة هذه الرسالة . فأتاح لي ذلك فرصة ثمينة لقراءتها قراءة متأنية وفحصها فحصاً دقيقاً . إذ يتوقف على ذلك منح صاحبها درجة الماجستير في العقيدة الإسلامية أو حجبها عنه .

والمرة الثانية حين طلب مني فضيلة مؤلف هذه الرسالة الشيخ / فريد إسماعيل التوني ، وفضيلة الزميل الشيخ / عبد الشكور محمد أمان العروسي المشرف على هذه الرسالة حين كتابتها ، طلبا مني أكتب تقريظاً مناسباً لها ، لعزم صاحبها على طباعتها وإخراجها في كتاب ينتفع به الناس بدلاً من تركها في دواليب المخطوطات التي طالما حوت كنوزاً علمية غالية ، ولكنها محجوبة عمن هم في أمسِّ الحاجة إليها من أبناء المسلمين ممن لا يملك الوقت ولا القدرة للوصول إليها في خزاناتها والاستفادة منها .

والحق يقال إن هذه الرسالة « فريدة » في موضوعها كما أن صاحبها « فريد » في اسمه و « فريد » في اختياره لهذا الموضوع في قسم العقيدة . فقد تعود القرّاء أن يقرأوا في كتب العقائد عبارات المتكلمين « المنمقة » وإشارات الفلاسفة « المحذلقة » وتعقيدات علم الكلام الذي سموه علم أصول الدين ، حتى اضطر كثير من السلف الصالح في مؤلفاتهم في العقيدة إلى ذكر تلك الجمل والعبارات الشاقة في فهمها بل وفي تراكيبها وطريقة النطق بها كقولهم في تعريف الكذب أنه « ذكر الشيء لا على ما هو به » أي على غير الحقيقة ، وذلك لضرورة الردّ على أصحاب الضلال من الفلاسفة والمتكلمين . ولم تنج رسالة – في علمي القاصر – كتبت في فرع العقيدة وأصول الدين في كثير من جامعات العالم الإسلامي من وجود مباحث كلامية ثقيلة . وقد خلت هذه الرسالة من ذلك كله ، ومع ذلك فقد حظيت بتقدير « امتياز » ؛ لأنها لمست جانب العقيدة من أصدق مداخله وأيسرها وأبسطها موضوعاً . فوافقت الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، واستقت من ينابيع الكتاب الكريم والسنة المطهرة مباشرة بدون أدنى حاجة لمزج ذلك بشيء من مستنقعات الفلسفة اليونانية . ولا مستقذرات الخرافات الهندوكية الظالمة أو الفارسية الحاقدة أو الرومانية الضالة الفارغة .

وهكذا بدأت هذه الرسالة خطاً فريداً لم يسبقها مثلها في هذا الفن في عصرنا الحديث ، وأماما ألفه علماء السلف في ذلك فلا يخفى على أحد وعلى رأس القائمة في هذا المجال رسالة الإمام الجليل أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية « العبودية » تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته وجمعنا به في الصالحين . فهو من أوائل من نبهوا إلى ضرورة العودة بعلوم العقيدة إلى منابعها الأصلية وأخذها ببساطتها الفطرية وعدم التأثر بما ألفه علماء الفلسفة وعلماء الكلام من عبارات وإشارات ورموز ومصطلحات أساءت إلى الأمة الإسلامية وأبعدتهم عن تلقي الدين الخالص من ينابيعه الصافية وفهمه بنفس طريقة السلف الصالح دون تعقيد ولا مبالغة .

يقول رحمه الله في رسالته (تفسير سورة الإخلاص) :

« والمقصود هنا أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا إذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقهم لا على إطلاق الإثبات ولا على إطلاق النفي .

وأهل البدع (بالعكس) ابتدعوا ألفاظاً ومعاني إما في النفي وأما في الإثبات وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم الذي يجب اعتقاده والبناء عليه ثم نظروا في الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها . فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فرعاً له ومشكلاً إذا لم يوافقه . وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية . جميع كتبهم توجد على هذا الطريق . ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وبين السبل المخالفة له وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك . اهـ[1] .

ولقد نقلت لك أخي القارىء كلام الإمام ابن تيمية ليتبين لك كيف وجَّه العلامة رحمه الله طلبة العلم الشرعي للتنبيه إلى ما وقع فيه أصحاب الفرق من ضلال وما يجب أن ينتهجه المتمسكون بمذهب السلف الصالح وهم الفرقة الناجية بإذن الله تعالى وكيف استفاد أخونا الكريم صاحب هذا الكتاب من تلك التوجيهات الغالية وأخرج لنا عملياً هذا الكتاب الذي يعرض أمور العقيدة بعيداً عن متاهات الفرق الضالة والحمد لله .

أما أبواب هذه الرسالة وفصولها وما تضمنته من موضوعات ومباحث شيقة ووقفات إيمانية رائعة فلن أتعرض لشيء من ذلك في هذا التقريظ إذ لابد أن يطلع

---

(١) تفسير سورة الإخلاص – لابن تيمية / صـ ٦٣ – ط دار الطباعة المحمدية بالأزهر .

عليه القارىء بنفسه ويعيش مع عبودية الكائنات بعقله وحسه علّه أن يستفيد من ذلك زيادة في الإيمان وثباتاً في اليقين . جمعنا الله وإياه مع عباده الصالحين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

كتبـــــــه

الفقير إلى عفو ربـــه القـدير

د . أحمد محمد بناني

في ١٨ / ٢ / ١٤١٣ هـ

رئيس قسم الإعلام الإسلامي بجامعـة
أم القـرى - مكـــة المكـــرمة

جزء من كلمة الدكتور / رضا نعسان معطي

(من واقع المناقشة)

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، عبد الله ورسوله وعلى آله وأصحابه أجمعين ؛ أما بعـد

فقد سمعنا عن أهمية هذا الموضوع وهو العبودية لله رب العالمين ويكفي أن نذكّر بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونَ** ﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] .

فلاشك أن الباحث الأخ / فريد بذل جهدًا طيبًا في إكمال هذا البحث ، وهو جهد يُشكر عليه .

ولاشك عندما نتحدث عن ميزات هذا البحث ، فإن الباحث – في الحقيقة – قدم موضوعاً جديداً . وحسبه أن فتح فيه الطريق للدارسين . كما أن الباحث ذكر أنه لم يعتمد بالنسبة للأحاديث إلا ما صح منها وهذه ميزة هامة في الحقيقة . الأمر الآخر الذي يُشكر للباحث أنه اعتمد على الدعوة السلفية وأنها هي المنهج الفكري الوحيد الذي يجب على المسلمين أن يكونوا عليه إذا أرادوا أن يكوّنوا المجتمع المسلم .

وهذه الرسالة الطيبة التي بذل فيها الباحث – حقيقة – جهداً طيباً مشكوراً . والموضوع الذي كتب فيه موضوع مبتكر – في الحقيقة – والمفروض أن يؤلف فيه مؤلفات كثيرة ومع الأسف أننا لا نجد إذا رجعنا إلى الكتب القديمة والمعاصرة لا نجد في هذا إلا كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمة الله عليه – « العبودية » الكتاب المعروف . فالكاتب – رحمه الله – شق هذا الطريق وجاء بهذا الكتاب ، وجمع نصوصاً طيبة ، واستوفى – حسب علمي – كل ما يتصل بقضية العبودية وتسخير الكائنات لله رب العالمين .

ونرجو الله تبارك وتعالى أن يوفقنا جميعًا للخير واتباع الحق والهدى والرشاد . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؛؛

قال تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

[الإسراء : ٤٤]

وقال عليه الصلاة والسلام :

« ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله إلا سبح الله بحمده إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم » [صحيح الجامع / ٥٤٧٥]

مقـــدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذِى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعـــد :

فإن الله عز وجل خلق الكائنات كلها لعبادته سبحانه من الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد ، وغيرها من الموجودات . وفطرها سبحانه على توحيده ، والاعتراف بألوهيته ، والإقرار بفقرها واحتياجها وخضوعها له جل وعلا .

إلا أننا نجد العجب من أمر هذا الكائن البشري من انصرافه وبُعده عن العبودية الحقة لله تعالى ، وانشغاله بملذات الدنيا وشهواتها . هذا مع فضل الله عز وجل على هذا الإنسان بنعمه الكثيرة التي لا تُعد ولا تُحصَى . كما قال تعالى : **﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾**

[إبراهيم : ٣٤]

كما فضَّله سبحانه على كثير من مخلوقاته . فقال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بنِي آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

ومع ذلك فقد كان الإنسان في مجموعه أقل عبودية لله عز وجل وأكثر معصية له وجحودًا به سبحانه واستكبارا منه على مقام العبودية ، فذم الله تعالى الإنسان على كفره فقال تعالى : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾ [عبس : ١٧] .

وفي المقابل لهذا الكائن البشري ، نجد كائنات أخرى من حيوانية ونباتية وجمادية وغيرها . تقوم بعبوديتها نحو خالقها وتتقرب إليه سبحانه بعبادات من التسبيح والسجود والصلاة والدعاء والخوف والقنوت والاستغفار وغيرها .

فعجبا من هذا الإنسان الذي وصل كفر بعضه فزعم أن لله ولدًا وشريكًا .

وكان رد فعل الكائنات الأخرى من السماوات والأرض والجبال عظيمًا إذ أدركت عظم هذه الفِرية وكادت تتفطر منها كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السمٰوات والأرض يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩١] .

ولقد استوقفني هذا الأمر ، فكان أهم أسباب اختياري لهذا الموضوع للبحث فيه حيث شعرت أن تلك الكائنات أشد خشية لله جل وعلا من كثير من الإنس الذين يسمعون هذا الإد المفترى ليل نهار ويعيشون بين ظهراني قائليه ولا تهتز لهم جارحة بخلاف الكائنات غير البشرية .

ثم تتبعت آيات أخرى تتحدث عن الكائنات الجمادية والنباتية والحيوانية وغيرها . فوجدتها تعبد الله عز وجل فأخذت أجمع تلك النصوص من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، فوجدتها تدل على عبودية جميع الكائنات لله تعالى . ووجدت كلام العلماء في توجيه معاني تلك النصوص مختلفا بين مَنْ يقول بعبودية الاختيار ، ومَنْ يقول بعبودية الجبر والاضطرار والتسخير ، فأردت أن أُبيّن وجه الصواب في هذا مؤيدًا بالنصوص الشرعية .

وكان من الأسباب التي حملتني على اختيار هذا الموضوع هو المادية التي غلبت على البشر في عصرنا هذا وتفشي الإلحاد وانتشار إنكار وجود الله تعالى بين صفوف الشباب وغيرهم متخذين الدعوة المادية منهجهم وعقيدتهم ، وينظرون إلى الإسلام وأهله نظرة استخفاف وازدراء . غافلين عن آيات الله عز وجل الكونية والتنزيلية . فأردت أن أبين لهؤلاء وأمثالهم أن الكائنات كلها تدعو إلى الإيمان بالله تعالى لا إلى الكفر به وإنكار وجوده . بل إن كثيرا من الكائنات غير البشرية أكثر عبودية لله تعالى من كثير من الكائن البشري ، ولذلك نعى الله تعالى على مَنْ جحد وكفر به سبحانه من هذا الكائن البشري . فقال تعالى : ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وقال : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

فلعل في ذلك عودة لمن لا يزال على مقربة من الجادة وتنازعه نفسه بين الإيمان والإلحاد . قال تعالى : ﴿ **إن فِي ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقَى السمع وهو شهيد** ﴾ [ق : ٣٧] .

ولقد تحريت في هذا البحث البعد عن الخلافات الجدلية – قدر الإمكان – لإبراز الغاية من الرسالة وهي عبودية الكائنات لرب العالمين ، دون التعرض للخلافات والمشكلات التي تُخرِج الرسالة عن مضمونها الأساسي ، وتبعد القاريء عن تلك الغاية .. فمثلا : عند الكلام عن عبودية الأرض وعبودية الشمس والقمر ، حاولت إبراز عبوديتهم لله تعالى وخضوعهم له سبحانه دون التعرض لكروية الأرض ودورانها وثبوتها ، ولا عن دوران الشمس ولا عن إمكانية الوصول إلى القمر ولا الكلام عن أوصافها وأحجامها ومسافاتها وأبعادها إلى غير ذلك من الأمور التي لست متخصصا فيها للكلام عنها من جهة ، وكذا مضمون الرسالة لا يستدعيها من جهة أخرى .

هذا وقد التزمت – قد المستطاع – بنقل الأحاديث الصحيحة . وهو ما جعلني أستبعد بعض الكائنات كالضب والغنم وغيرها حيث إن حديث الضب قد ضعفه البعض منهم : ابن حجر الهيثمي في مجمع الزوائد ، وكذا ابن كثير

في البداية والنهاية . كما استبعدت الأحاديث التي لها علاقة بالكائنات المذكورة آنفا ولكنها ضعيفة و لم تصل درجة الصحة مكتفيا بما ذكر عنها بالأدلة الصحيحة .

وقد كانت الصعوبات التي واجهتني في بحثي قليلة ، حيث كانت المراجع ومصادر البحث متوفرة ولله الحمد . إلا أن من تلك الصعوبات :

١ – أن بعض نصوص الكتاب المقدس – عندهم – مما في العهد القديم أو العهد الجديد والتي يستدل بها بعض الكُتَّاب ، كنت أحاول الرجوع إلى الأصل لإثباتها . وكانت لديّ نسخة إنكليزية أراجع منها ، فكنت أجد صعوبة في فهم الكثير منها حيث إن اللغة الإنكليزية التي كُتبت بها قديمة ، ويصعب على ناطقي الإنكليزية أنفسهم فهمها لذا فإنهم يرجعون إلى القواميس لتيسير الفهم أو تقريبه وهو ما واجهته بنفسي ولكن كان الحمل أكثر ، إلى أن حصلت على نسخة عربية من مشرفي الفاضل الدكتور / عبد الشكور ، فساعدتني كثيرًا في الرجوع إلى أصل النصوص .

٢ – ولكن كانت ثمة صعوبة أخرى لبعض النصوص حيث أن بعض الكُتَّاب لا يثبت مكانها في الكتاب المقدس أحيانا ، ومنها الصلاة الخاصة بالنصارى ، فقد ذكره الدكتور / أحمد شلبي ولم يحدد موضعه في الأناجيل . وكذا ذكر أن بولس كان يجتهد برأيه في كثير من المسائل أو بشرح ما قاله عيسى عليه السلام . فأخذت أبحث عن نصوص تفيد ما ذهب إليه الدكتور / شلبي ، وبعد صعوبة وجدت شيئا عن ذلك . (وقد أثبته في موضعه في المبحث الثاني : العبادات عند النصارى ، من الفصل الرابع من الرسالة) .

٣ – مبحث طريق النجاة الذي يبحث عن الحلول العملية وطريق خلاص المسلمين مما هم فيه من البعد عن العبودية الحقة لله جل وعلا . فقد واجهت صعوبات جمة في إيجاد حل يكون له تطبيق في الواقع الخارجي حيث وجدت أن كثيرًا من الكُتَّاب المسلمين ممّن لا نطعن في نياتهم قد وضعوا حلولًا

تصطدم في تطبيقها مع الواقع الخارجي . أو حلولا لا يمكن تطبيقها إلا في عالم الخيال . هذا وقد استعنت بالله عز وجل في هذا - وغيره - ثم بمشورة الكثير من الشيوخ الأفاضل الذين وجدوا هم كذلك الأمر عسرًا وصعبا بل وصفه بعضهم بأنه متعذر للغاية . إلى أن توصلت ولله الحمد والمنّة إلى ما دونته في الرسالة في حث العلماء والدعاة والمصلحين على الالتزام أولا بالعبودية الحقة لله جل وعلا حيث كثر فيهم العلم وعم فيهم عدم العمل به . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] .

وقد عملت جاهدًا على تجميع عبودية كل ما هو كائن وتكلمت عن كل منها على حدة ممن ذكروا في النصوص الشرعية من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة مع تصنيفها وتقسيمها مما هو في عالم الغيب وعالم الشهادة وهي :

(١) الإنس : فقد تكلمت عنهم عموما ثم الأنبياء عليهم السلام حيث هم أعلاهم وأفضلهم ثم أتباع الأنبياء .

(٢) الحيوانات : ومنها : الدواب عموما ، والبقرة ، والجمل ، والحيتان ، والديك ، والذئب ، والفرس ، والنملة ، والهدهد .

(٣) النباتات : ومنها : الشجرة والعذق والساق .

(٤) الجمادات : ومنها : أعضاء الإنسان ، والبحر ، والبر ، والجبال ، والرعد ، والرياح ، والسحاب ، والسماوات ، والأرض ، والشمس ، والقمر ، والطعام ، والظلال ، والنجوم .

(٥) الأحياء الغيبية : وهم : الملائكة ، والجن والشياطين .

(٦) الجمادات الغيبية : ومنها : الجنة ، والنار ، والقلم ، والعرش .

وتشتمل هذه الرسالة على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

أما المقدمة : فقد سبقت الإشارة إليها .

وأما الخمسة فصول فهي على الترتيب :

الفصل الأول : واشتمل على ما يلي :
مفهومات تتعلق بالعبودية وبالكائنات في مبحثين .
المبحث الأول : مفهوم العبودية ومكانتها وأنواعها .
المبحث الثاني : مفهوم الكائنات وأنواعها .

الفصل الثاني : عبودية عالم الشهادة ، وفيه تمهيد وسبعة مباحث .
أما التمهيد فيتعلق بالكلام عن : دواعي العبودية من الفطرة والشرائع والآيات الكونية .
وقد قسمت مباحث عبودية عالم الشهادة إلى قسمين :
القسم الأول : عبودية الإنس .. وفيه أربعة مباحث :
المبحث الأول : وفيه الكلام عن أنواع العبادات ، وبيان المنهج الإسلامي في تحقيق العبودية .
المبحث الثاني : عبودية الأنبياء عليه السلام . وفيه قسمان :
(أ) عبودية أولي العزم من الرسل .
(ب) عبودية الرسل من غير أولي العزم .
المبحث الثالث : أفردت فيه الكلام عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام من بين الأنبياء وتكلمت فيه عن : تحقيق العبودية التامة في شخصية النبي ﷺ .
المبحث الرابع : عبودية أتباع الأنبياء .
القسم الثاني : عبودية الحيوان والنبات والجماد . وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :
فأما التمهيد : ففيه بيان ما لهذه الكائنات من عقل وإدراك تقوم على أساسه بالعبودية .
وأما المبحث الأول : فهو عن : عبودية الحيوانات .
وأما المبحث الثاني : فعن : عبودية النباتات .
وأما المبحث الثالث : فعن : عبودية الجمادات .

وقد فصلت آنفا مفردات الحيوانات والنباتات والجمادات التي سنتكلم عنها بما يغني عن إعادته هنا .

الفصل الثالث : وفيه الكلام عن عبودية عالم الغيب الذي هو مقابل لعالم الشهادة .. وفيه قسمان كذلك .

القسم الأول : الأحياء الغيبية .

ونقصد بها الملائكة والجن والشياطين ، وهو في مبحثين :

المبحث الأول : عبودية الملائكة .

المبحث الثاني : عبودية الجن والشياطين .

القسم الثاني : من عالم الغيب هو الجمادات الغيبية . وهو في مبحثين :

المبحث الأول : عبودية الجنة والنار

المبحث الثاني : عبودية القلم والعرش

الفصل الرابع : حيث يتحدث عن العبادات في الأديان الكتابية المحرفة وبُعدها عن تحقيق العبودية لنبين بالمقابلة مع ما كتبناه في المبحث الأول من عبودية عالم الشهادة في أنواع العبادات ، وبيان المنهج الإسلامي في تحقيق العبودية . فهذا الفصل يبين ما في الديانتين اليهودية والنصرانية من تحريف وتنقيص للذات الإلهية والمبالغة في رفع العبد إلى مرتبة الألوهية من خلال أسفارهم . وذلك في مبحثين :

المبحث الأول : العبادات عند اليهود .

المبحث الثاني : العبادات عند النصارى .

ثم نأتي إلى ختام الرسالة :

الفصل الخامس : الذي يتحدث عن المسلمين وإضاعتهم للعبودية الحقة لله جل وعلا والأسباب التي أدت بهم إلى ذلك وآثارها . ثم الأمل في طريق الخلاص والفكاك . وذلك لربط موضوع الرسالة بالواقع الذي نعيشه ، لذا فقد حرصت على تدوين أهم النقاط الرئيسية في ذلك ، والابتعاد عن السرد التاريخي وغير المفيد ، وليس له علاقة بصلب الرسالة .

وذلك في ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : أسباب الانحراف .. وهو يبحث عن الأسباب الرئيسية التي أدت بالمسلمين إلى ما هُم عليه من البُعد عن عبودية الله عز وجل .

المبحث الثاني : آثار الانحراف وفيه الآثار الناجمة والناشئة عن الأسباب السابقة والتي أهمها الضعف والذل والهوان ، وغيرها كثير .

المبحث الثالث : طريق النجاة .. وفيه أمل ودعوة إلى المسلمين للعودة إلى دينهم على يد أهم ركن ودعامة في المجتمع الإسلامي وهم العلماء والدعاة والمصلحون .

ثم نأتي إلى الخاتمة :

وفيها أهم النقاط التي توصلت إليها في هذا البحث ، كما دونت فيها بعض الاقتراحات التي رأيت أهميتها ورجوت الأخذ بها .

ثم أرفقت بعد الخاتمة بفهرس الأعلام الذين ذُكِروا في الرسالة وكذا الذين سقطوا سهوا للرجوع إليهم .

هذا .. وأسأل الله عز وجل أن يأجرني على عملي هذا ، وأن يكون خالصًا لوجهه عز وجل لا حظ للشيطان فيه .. إنه نعم المولى ونعم النصير .. وخير مَنْ سُئِل وحسبي فيه أني أتجه إلى كل من يخشى الله تعالى ويتقيه إلى الرجوع إلى العبودية لله تعالى الحقة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ..

فريد إسماعيل التوني
مكـة المكـرمـة

الفصل الأول
مفهومات

وفيه :

- المبحث الأول : مفهوم العبودية
- المبحث الثاني : مفهوم الكائنات



المبحث الأول

مفهوم العبودية

قبل أن نشرع في بسط الكلام عن عبودية الكائنات يلزمنا أن نبين ما تعنيه كلمة « عبودية » حتى يتضح المقام ، مستعينين برب العباد على ذلك .

(١) كلمة « عبودية » في اللغة :

يقول ابن منظور [١] – رحمه الله تعالى – :

« عبد » : « العبد » : الإنسان حرا كان أو رقيقا . يُذهَب بذلك إلى أنه مربوب لباريه عز وجل .

ويقال : فلان « عبْد » بيِّن العبودة والعبودية والعبدية .
وأصل العبودية : الخضوع والتذلل .
ويقال للمسلمين : عباد الله ، يعبدون الله .
والتعبد : التنسك . والعبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع .
وفلان عابد : وهو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره [٢] .
وذكر الرازي [٣] في مادة « عبد » أن :

---

(١) هو : محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الأفريقي ثم المصري ، ولد سنة ٦٣٠ هـ وتوفي سنة ٧١١ هـ ، صاحب كتاب لسان العرب . (بغية الوعاة – السيوطي / جـ ١ – ص ٢٤٨) .

(٢) لسان العرب – لابن منظور / مجلد ٢ – ص ٦٦٤ .

(٣) هو : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، هبط مصر ودخل الشام ثم رحل عنها إلى قونية وكان بها سنة ٦٦٦ هـ . اختلف في وفاته ، والراجح أنه توفي بعد سنة ٦٩١ هـ ، وترك مؤلفات منها : مختار الصحاح في اللغة وأسئلة القرآن وأجوبتها في التفسير . (من مقدمة نسخة مختار الصحاح سنة ١٣٦٩ هـ – سنة ١٩٥٠ م . مطبعة مصطفى البابي بمصر) .

عبْد : ضد الحر ، وجمعه عبيد ، وعباد .
وتقول : عبْد بيِّن العبودة والعبودية .
وأصل العبودية : الخضوع والتذلل .
و« التعبيد » : التذليل .
يقال : طريق « معبد » .
والعبادة : الطاعة ، و« التعبد » التنسك [1] .

وفي تاج العروس : « العبدون » جمع « عبد » واعتبر فيه معنى الوصفية التي هي الأصل .

وقال بعض أئمة الاشتقاق :
أصل العبودية : الذل والخضوع .
وقال آخرون : « العبودية : الرضا بما يفعل الرب ، والعبادة : فعل ما يرضى به الرب » [2] .

وفي المصباح [3] : « عبدت الله » : (أعبده – عبادة) وهي : الإنقياد والخضوع ، والفاعل (عابد) والجمع (عباد) و(تعبدته) : دعوته إلى الطاعة .

وذكر ابن فارس [4] – رحمه الله تعالى – :

العبد : خلاف الحر . وأصله : من الخضوع والذل .

يقال طريق معبَّد . والعبادة : الطاعة .
وعَّبدت فلانا : اتخذته عبدًا .
والبعير المعبَّد : المذلل [5] .

---

(١) مختار الصحاح – فخر الدين الرازي / ص ٤٠٧ .
(٢) تاج العروس – محمد مرتضى الزبيدي / جـ ٢ – ص ٤٠٩ .
(٣) المصباح المنير – أحمد بن علي الفيومي / مجلد ١ – ص ٣٨٩ .
(٤) هو : أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني الرازي ، توفي سنة ٣٩٥ هـ ، وكان عالما لغويا . (ترجمته من كتاب مجمل اللغة – تحقيق هادي حسن حمودي) .
(٥) مجمل اللغة – لابن فارس / جـ ٣ – ص ٤٣٥ .

وقيل : « العبادة » : الطاعة والخضوع [1] .

وقيل : معناها الخضوع والتذلل . أي : استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقيادًا لا مقاومة معه ولا عدول عنه ولا عصيان ، حتى يستخدمه هو حسب ما يرضى وكيفما يشاء . ومن هذا الأصل اللغوي نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والإطاعة والتأله والخدمة والقيد والمنع [2] .

وقيل : العبودية والعبادة هي الطاعة [3] .

فمما تقدم نلحظ أن بعض التعريفات السابقة اهتم واضعوها بعبودية الإنس فقط أو الإنس والجن معًا حيث هم دون غيرهم المكلفون – على رأي الجمهور – فلم يراعوا في التعريف عبودية الكائنات الأخرى ، وهو ما يهمنا في موضوع بحثنا . ولكن من التعريفات السابقة نستطيع أن نجد معنى عاما لعبودية الكائنات كلها . فهو لا يخرج عن : « الخضوع والانقياد والطاعة لله تعالى » . سواء أكان بالاختيار أم بالتسخير ، وهذه المعاني الثلاث تشترك فيها الكائنات كلها .

(٢) وأما حقيقة العبودية في الشرع :

فترتبط ارتباطًا وثيقًا بكلمة « العبادة » وإن ذكر بينهما فرق فقيل : العبودية : الرضا بما يفعل الرب ، والعبادة : فعل ما يرضى به الرب .

وقيل : إن الذي يسقط عن الإنسان يوم القيامة هو العبادة لا العبودية لأن العبودية أن لا يرى متصرفا في الدارين إلا الله تعالى [4] .

وقيل : العبادة : هو فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه .

---

(١) كمال الإعلام بتثليث الكلام – محمد بن مالك / جـ ٢ – ص ٤٠٣ .
(٢) المصطلحات الأربعة – أبو الأعلى المودودي / ص ٩٥ – ٩٦ .
(٣) القاموس المحيط – محمد بن يعقوب الفيروز أبادي / جـ ١ – ص ٣٢٢ .
(٤) تاج العروس / جـ ٢ – ص ٤٠٩ .

والعبودية : الوفاء بالعهود وحفظ الحدود والرضا بالموجود والصبر على المفقود [1] .

وبالبحث عن حد شرعي للعبودية ، وجدت أن معظم من تكلم عنها يتكلم عنها بإحالتها إلى تعريف العبادة ، فكأنها والعبادة شيء واحد أو مترادفان .

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية [2] - رحمه الله تعالى - أن هناك مرادفات أخرى لكلمة « العبودية » فقال : « والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء : مقصودها واحد » [3] .

وقال ابن القيم [4] - رحمه الله تعالى - : « فالعبودية اسم جامع لمراتب أربع من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته على لسان رسله عليهم السلام .

وقول اللسان : الإخبار عن قول القلب بما فيه من الاعتقاد والدعوة إليه والذب عنه وتبين بطلان البدع المخالفة والقيام بذكره وتبليغ أوامره .

وعمل القلب : كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره ، والمعاداة فيه والخضوع والذل له .. ، وغير ذلك من أعمال القلب .

---

(١) التعريفات - الجرجاني / ص ١٢٧ .

(٢) هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام - أبو العباس تقي الدين بن تيمية ولد سنة ٦٦١ هـ ، وتوفي سنة ٧٢٨ هـ ، آية في التفسيرة ، فصيح اللسان ، له مؤلفات تبلغ ثلاث مائة مجلد (الأعلام - الزركلي / جـ ١ - ص ١٤٤) .

(٣) العبودية - ابن تيمية / ص ٢٩ .

(٤) هو : محمد بن أبي بكر الدمشقي - ولد سنة ٦٩١ هـ ، وتوفي سنة ٧٥١ هـ ، تتلمذ على ابن تيمية ، أغرى بحب الكتب فجمع منها عددا عظيما وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا . (الأعلام - الزركلي / جـ ٦ - ص ٥٦) .

وأعمال الجوارح : كالصلاة والحج والجهاد وغيرها [١] .

كما ذكر – رحمه الله تعالى – مرادفات « للعبودية » فقال : « أوصى الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام ، وكان يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا : أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم عليه السلام حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين » [٢] .

فملة أبينا إبراهيم عليه السلام : التوحيد .

ودين محمد عليه الصلاة والسلام : ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا .

وكلمة الإخلاص هى : شهادة أن لا إله إلا الله .

وفطرة الإسلام هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلا وانقيادًا وإنابة » أ.هـ [٣] .

والمقصود من « فطرة الإسلام » هي ما خلق الله تعالى عباده عليه من عبادته وحده سبحانه والاستسلام والخضوع له ، ولكن الشياطين قد أثرت على تلك الفطر فحولتها من حال العبودية لله عز وجل إلى حال عبد فيه البشر آلهة معه سبحانه أو غيره . وقد أشار الحديث الصحيح إلى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام مخبرًا عن رب العزة : « وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » [٤] .

---

(١) مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية / جـ ١ – ص ١٠٠ .
(٢) الحديث رواه أحمد في مسنده / ٣ – ٤٠٦ ، ٤٠٧ .
(٣) مدارج السالكين – لابن قيم الجوزية / جـ ٣ – ص ٤٨١ .
(٤) مسلم / ك : الجنة – ب : في أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم في الدنيا .
(ومختصره / ح – ١٩٧٣) .

يذكر ابن تيمية – رحمه الله – كلامًا قريبًا من القول السابق فيقول : « والتوحيد الذي جاء به الرسل إنما تضمن إثبات الألوهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالي إلا له ، ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا من أجله » أ.هـ [1] .

وحول هذا المعنى لمرادفات العبودية أشار ابن أبي العز [2] – رحمه الله تعالى – فقال : « وتوحيد الألوهية يقال له : توحيد العبادة لأن المألوه معناه المعبود . بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب هو : توحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له . فحقيقة هذا التوحيد : أن يعبد الله وحده لا يشرك بعبادته أحد أو شيء من خلقه سواء في الأفعال أو الأقوال » .هـ [3] .

وهذا هو حقيقة توحيد الألوهية .

وذكر ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في موضع آخر أن العبودية هي الدين . فالدين كله داخل في العبادة . وقد ثبت في الصحيح أن جبريل عليه السلام لما جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان . قال في آخر الحديث : « هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم » [4] .

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال : دنته فدان ، أي : أذللته فذل . ويقال : يدين الله ويدين لله ، أي : يعبد الله ويطيعه ويخضع له .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية / جـ ١ – ص ٢٢٤ .

(٢) هو : العلامة صدر الدين علي بن علاء الدين بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي ، ولد سنة ٧٣١ هـ ، اشتغل بالعلوم وكان ماهرا في دروسه وفتاويه ، توفي سنة ٧٩٢ هـ .
(شذرات الذهب / جـ ٦ – ص ٣٢٦) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية / ص ٧٩ .

(٤) بخاري / ك : الإيمان – ب : سؤال جبريل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام والإيمان .

والعبادة أصل معناها : الذل أيضًا [1] .

وعليه فإن أكمل العباد عبودية أتمهم لله تعالى ذلا وخضوعا .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « إن تمام العبودية يكون بتكميل مقام الذل والانقياد . وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا لله وانقيادا وطاعة ، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقهره وذليل لربوبيته فيه وتصرفه وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه » [2] .

فيتضح مما سبق أن « العبودية » هي توحيد الألوهية ، وهي توحيد العبادة ، وهي التوحيد الذي جاءت به الرسل ، وهي فطرة الإسلام ، وهي ملة أبينا إبراهيم عليه السلام ، وهي دين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وهي كلمة الإخلاص ، وهي الحنيفية السمحة ، وهي الطاعة والاستقامة ، وهي الصراط المستقيم .

هذا ما يظهر من المعنى الشرعي لمدلول كلمة « العبودية » ، وإذا تأملنا فيما دلت عليه من المعنى اللغوي المتقدم فإننا نجد أنها لا تخرج عن هذه المعاني الآتية : الخضوع والذل والإطاعة والاستسلام والانقياد . ومن ثَمَّ نستطيع أن نتوصل إلى حد شرعي لمعنى « العبودية » وهو : الخضوع والمحبة لله عز وجل بإفراده سبحانه بالعبادة بما شرع .

وقلنا : « الخضوع والمحبة لله » لأنهما أصلان رئيسيان في عبودية الله تعالى .

وعلى هذا التعريف فإنه تشترك فيه الكائنات كلها في خضوعها له سبحانه وتعالى ، وتوحيدها وإفرادها له عز وجل ، قائمة بأعمال تعبدية سواء ظاهرية أم باطنية .

وللوصول إلى هذه العبودية يجب علينا أن نحقق العبادة التي شرعها الله تعالى لنا من أوامره ونواهيه ، وأن تكون خالصة له سبحانه دون سواه .

---

(١) العبودية – لابن تيمية / ص ٨ ، ٩ .

(٢) مفتاح دار السعادة – ابن القيم / جـ ١ – ص ٢٨٩ .

فالعبودية وصف قائم بالعبد ، فإنهم يقولون : رجل عبد [1] . فهي صفة وفي أعلى مراتب المدح للمرء ، وكلما ازداد المرء قربا إلى الله تعالى وتحققا من اتباع شرعه سبحانه وعبادته حق العبادة ، كانت درجته من العبودية بقدر ذلك . فالناس يتفاوتون في وصف العبودية تفاوتا كبيرا ، وإن وصفوا بها جميعا ، فقد مدح الله عز وجل نبيه أيوب عليه السلام بهذا الوصف بقوله تعالى : ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٣٠] ، وكذلك أيضا وصفه سبحانه ومدحه لسليمان عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٤٣] .

فعبودية هذين النبيين وغيرهما من الأنبياء ليست كغيرهم من بقية البشر .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – بعدما ذكر ما يتم به حصول العبودية : « والناس في هذا على درجات متفاوتة لا يحصي طرفيها إلا الله ، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم أتمهم عبودية لله » أ.هـ [2] .

ومن سوى بين هؤلاء الأنبياء في عبوديتهم لله تعالى وبين غيرهم من بقية البشر ، فقد بَعُد عن الصواب وقال بقول المرجئة [3] بأن الإيمان لا يتبعض

---

(١) تاج العروس / جـ ٢ – ص ٤٠٩ .

(٢) العبودية – لابن تيمية / ص ٥٥ .

(٣) المرجئة : الإرجاء على معنيين :

أحدهما : بمعنى التأخير ، كما في قوله تعالى : ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾ [الأعراف : ١١١] أي : أمهله .

والثاني : إعطاء الرجاء .

أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد . وأما بالمعنى الثاني فظاهر ، فإنهم كانوا يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة . وقيل : الإرجاء : تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضى بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار . فعلى هذا : فالمرجئة والخوارج فرقتان متقابلتان . =

ولا يتفاضل أهله فيه ، فسووا بين إيمان الملائكة وإيمان أبي بكر الصديق وإيمان عوام المسلمين .

وسوف أحاول بمشيئة الله تعالى في هذا البحث بيان تفاوت الناس في تحقيقهم العبودية لله تعالى . وحتى يزداد الأمر وضوحا فإني أشرع في بيان مدلول .

(٣) كلمة « العبادة » في الشرع :

فهي : الأعمال الصالحة الإرادية التي تؤدى لله تعالى ويفرد بها .

وقولنا : « الأعمال » تشمل جميع الأعمال من العبادات الظاهرة كالصلاة والحج والجهاد والسجود وغيرها ، والعبادات الباطنة كالتوكل والاستعانة والإنابة والنية ، والعبادات القولية كالذكر والتسبيح وقراءة القرآن وغيرها ..

وقولنا : « الصالحة » نعني بذلك أن يكون لها أصل في مشروعيتها من الكتاب والسنة الصحيحة .

وقولنا : « الإرادية » أي : تقع بالاختيار فيثاب على فعلها ويعاقب على تركها .

وأما قولنا : « لله تعالى » ليتم بذلك الإخلاص في العبادة بإفراده سبحانه .

وقولنا : « يفرد بها » ليتم بذلك التوحيد الكامل في الألوهية والربوبية .

فالأعمال تحتاج إلى ركيزتين هما :

(١) الإخلاص فيها .　　　(٢) أن تكون صوابا .

يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : « والعبادة لها أصلان :

= وقيل الإرجاء : تأخير علي (رضي الله تعالى عنه) عن الدرجة الأولى إلى الرابعة فعلى هذا : فالمرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان . وهم فرق كثيرة .

(راجع : الملل والنحل - للشهرستاني / جـ ١ - ص ١٣٩ . ولمزيد من معرفة آرائهم راجع : مقالات الإسلاميين / ص ١٣٢ ، الفرق بين الفرق / ص ٢٠٢) .

أحدهما : أن لا يعبد إلا الله .

والثاني : أن لا يعبد إلا بما أمر وشرع ، لا يعبد بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع ، قال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فالعمل الصالح ، هو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ولا في السنة الصحيحة فإنها وإن قالها من قالها وعمل بها من عمل بها ليست من العمل الصالح . وأما قوله تعالى : ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده سبحانه ، وكان عمر بن الخطاب [(١)] – رضي الله تعالى عنه – يقول : « اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا » . وقال الفضيل بن عياض [(٢)] – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ [الملك : ٣] : أخلصه وأصوبه .

قالوا : يا أبا علي .. ما أخلصه وما أصوبه ؟

قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص ما كان لله تعالى ، والصواب أن يكون على السنة » أ.هـ [(٣)] .

وقد عرف ابن تيمية – رحمه الله تعالى – « العبادة » بأنها : « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالصلاة والزكاة

---

(١) هو : أبو حفص العدوي الفاروق الصادق المحدث الملهم ، القرشي العدوي ، أمير المؤمنين ، ولي الخلافة بعد أبي بكر الصديق ، استشهد في ذي الحجة سنة ٢٣ هـ .

(تذكرة الحفاظ / جـ ١ – ص ٥) ، (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٥٤) .

(٢) هو : فضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، أبو علي ، الزاهد المشهور ، أصله من خراسان وسكن مكة ، ثقة عابد إمام ، توفي سنة ١٨٧ هـ . كان كثير الحديث . (تذكرة الحفاظ / جـ ١ – ص ٢٤٥) ، (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ١١٣) .

(٣) العبودية / ص ٢٩ ، ٣٠ .

والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ... وأمثال ذلك من العبادة » [١] .

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا [٢] – رحمه الله تعالى – : « تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشيء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها . وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه » أ.هـ [٣] .

وقيل : إن العبادة لها معنيان عام وخاص .

فالعبادة بالمعنى العام هي : « عمل العبد الإرادي الموافق لطلب المعبود » .

وأما العبادة بالمعنى الخاص فهي : « الأعمال الخاصة المحددة التي كلف العبد بالقيام بها تمرينا عمليا له على الخضوع الكامل » .. وهي ما يعبر عنه بالشعائر التعبدية [٤] .

وقيل هي : فعل ما يرضى به الرب [٥] .

وهذا التعريف الأخير يشمل عبادة الكائنات كلها وهو المقصود من بحثنا . أما التعريفات السابقة فقد عنيت بصفة خاصة بعبادة البشر .

---

(١) العبودية / ص ٥ ، ٦ .

(٢) هو : محمد رشيد بن علي بن رضا شمس الدين القلموني البغدادي الأصل . صاحب مجلة « المنار » ولد سنة ١٢٨٢ هـ بمدينة قلمون بطرابلس الشام ثم رحل إلى مصر ولازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه ، عالم بالتفسير والتاريخ والأدب له كتب أشهرها تفسير القرآن ولم يكمله ، توفي سنة ١٣٥٤ هـ . (الأعلام . الزركلي / جـ ٦ – ص ١٢٦) .

(٣) تفسير المنار – محمد رشيد رضا / جـ ١ – ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٤) العبادة – د. محمد أبو الفتح البيانوني / ص ١٦ – ١٨ .

(٥) تاج العروس / جـ ٢ – ص ٤٠٩ .

(٤) استعمال القرآن لكلمة « العبادة » :

وأما عن استعمال القرآن الكريم لكلمة « العبادة » فقد ذكر الأستاذ أبو الأعلى المودودي [(١)] – رحمه الله تعالى – بعد تحليله للاشتقاق اللغوي لمادة « عبد » وأنها لها معان مختلفة فقال ما ملخصه :

١ – العبد : المملوك خلاف الحر .
٢ – والعبادة : الطاعة مع الخضوع .
٣ – عبده عبادة : تأله له ، والتعبد : التنسك .
٤ – عبد به : لزمه فلم يفارقه .
٥ – ما عبدك عني : ما حبسك عني .

ثم قال : « وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم رأينا أن كلمة « العبادة » قد وردت فيه غالبا في المعاني الثلاثة الأولى ، ففي بعض المواضع قد أُريد بها :

(أ) المعنيان الأول والثاني معًا – يريد معنى العبودية والإطاعة – .
(ب) وفي الأخرى : المعنى الثاني وحده – أي الإطاعة – .
(جـ) وفي الثالثة : المعنى الثالث فحسب – أي التأله – .

كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آن واحد . ثم أورد الأمثلة على كل موضع . فذكر – رحمه الله تعالى – :

(١) أن الموضع الأول : وهو معنى العبودية والإطاعة . في مثل قوله تعالى : ﴿ **فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون** ﴾ [المؤمنون : ٤٧] . وقوله تعالى : ﴿ **وتلك نعمة تمنُّها عليَّ أن عبَّدت بنِى إسرائيل** ﴾ [الشعراء : ٢٢] . فالمراد بالعبادة في كلتا الآيتين هو العبودية والإطاعة ، فقال فرعون : إن قوم موسى وهارون عابدون لنا : أي عبيد لنا وخاضعون لأمرنا .

---

(١) هو : أبو الأعلى المودودي – ولد سنة ١٩٠٣ م بمدينة أورنك أباد بالباكستان ، كان صحفيا ، دافع عن مصالح وحقوق المسلمين ورد افتراءات غاندي على الإسلام وهاجم الغزو الفكري وواجه القاديانية ، وأسس الجماعة الإسلامية في لاهور سنة ١٩٤١ م وكان عالما جليلا وله مؤلفات كثيرة ترجم كثير منها إلى العربية . توفي سنة ١٩٧٩ م (من مجلة المجتمع – العدد رقم / ٤٥٦ بتاريخ ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٧٩ م) .

وقال موسى عليه السلام : أن عبدت بني إسرائيل ، أي : اتخذتهم عبيدا تستخدمهم حسبما تشاء .

(٢) وفي الموضع الثاني : أُريد بها المعنى الثاني فحسب . وهو الطاعة . في مثل قوله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنِي آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ [يس : ٦٠] .

والظاهر أنه لا يتأله أحد الشيطان في هذه الدنيا بل كل يلعنه ويطرده من نفسه لذلك فإن الجريمة التي يصم بها الله تعالى بني آدم يوم القيامة ليست تألههم للشيطان في الحياة الدنيا ، بل إطاعتهم لأمره واتباعهم له . ومنها قوله تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ – إلى قوله تعالى – ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لكم علينا من سلطان بل كنتم قوما طاغين** ﴾ [الصافات : ٢٢ – ٣٠] .

فيتضح بإمعان النظر في هذه المحاورة التي حكاها القرآن بين العابدين وبين ما كانوا يعبدون أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة والأصنام التي كان يتأله لها القوم . بل المراد أولئك الأئمة والدعاة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح . ونظيره قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا** ﴾ [التوبة : ٣١] .

والمقصود باتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله هو إطاعة أحكامهم بدون سند من عند الله تعالى أو الرسول ، وهذا المعنى أشار إليه الرسول عليه الصلاة والسلام في تعريفه العبادة لعدي بن حاتم [١] – رضي الله تعالى عنه – لما قرأ أمامه الآية السابقة ، فقال عدي : إنهم لم يعبدوهم . فقال عليه الصلاة والسلام : « إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ،

(١) هو : عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي ، كان على دين النصرانية ، صحابي شهير ، وكان ممن ثبت على الإسلام في الردة ، وحضر فتوح العراق وحروب علي ، مات سنة ٦٨ هـ (تقريب التهذيب / جـ ٢ – ص ١٦) .

فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » الحديث [1] .

(٣) وأما الموضع الثالث : وهو أن العبادة بمعنى التأله ، باتخاذ المعبود إلها سواء أكان حقا أم باطلا (من الجن والملائكة والإنس وغيرهم) .

كما في قوله تعالى : ﴿ **قل إنّي نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنِيَ البينات من ربِّى** ﴾ [غافر : ٦٦] . وقوله تعالى : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربِّى عسَى أن لا أكون بدعاء ربِّى شقيا فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ [مريم : ٤٨ ، ٤٩] .

فالمراد بالعبادة هنا ، الدعاء والاستغاثة بغير الله تعالى وتأليه سواه كما في قوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] .

أي أهؤلاء يا ملائكتي اتخذوكم آلهة تعبدون من غيري ؟!! فأنكرت الملائكة ذلك ونزهت الله تعالى واعترفت بأن المشركين قد اتخذوا مردة الجن آلهة يعبدونهم من دون الله تعالى .

(٤) وتأتي في بعض المواضع وتشمل المعاني الثلاثة في آن واحد من العبودية والإطاعة والتأله . وذلك في قوله تعالى : ﴿ **إن كل من فى السمٰوات والأرض إلا آتِى الرحمن عبدا** ﴾ [مريم : ٩٣] . وهنا تشمل جميع الكائنات في عبوديتها لله عز وجل وإطاعتها له وتوحيدها له سبحانه . وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىْء فاعبدوه وهو على كل شىْء وكيل** ﴾ [الأنعام : ١٠٢] . وقوله تعالى : ﴿ **ولله غيب السمٰوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه** ﴾ [هود : ١٢٣] .

---

(١) ترمذي / ك : تفسير القرآن – سورة التوبة . (وصحيحه / رقم ٢٤٧١) .

مما سبق بيانه يتضح لنا أن العبادة تشمل جميع الشعائر التعبدية وتشمل جميع ما أمر الله تعالى به ونهى عنه ، كما تشمل إفراد الله تعالى في أسمائه وصفاته ، وإفراده سبحانه في الألوهية والربوبية .

يقول الأستاذ محمد قطب – حفظه الله تعالى – : « إن العبادة المطلوبة من العباد هي إفراد الله بالألوهية والربوبية ، الذي يشمل توحيد الله في ذاته وأسمائه وصفاته ، والتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية ، والالتزام بما أنزل الله ، وعدم اتخاذ شرع من مصدر سواه سواء على سبيل المضاهاة لشرع الله كما كان يفعل التتار قبل إسلامهم من اتخاذ « الياسق » الذي يجمع أحكاما من القرآن وأحكاما من مصادر أخرى ، أو على سبيل التشريع المطلق ، أي تنحية شرع الله جملة واتخاذ شرع غيره .

هذه العبادة – على هذه الصورة – هي التي تخرج الناس من الشرك وتجعلهم مسلمين وهذا هو الإخلاص في حده الأدنى ، الذي لا يقبل الله من الناس أقل منه ، ولا تقوم بغيره حقيقة الإسلام في داخل النفوس ولا في واقع الحياة (أما الدرجات العليا فمرهونة بمقدار الطاعات التي يتقدم بها العباد إلى الله ، ومقدار الحرص على الالتزام بما أقر به القلب واللسان) أما الاعتقاد بأن هناك شركاء لله في الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو النفع أو الضر ... إلخ ، أو التوجه لغير الله بالشعائر التعبدية ، أو التشريع بغير ما أنزل الله ، أو الرضا بغير ما أنزل الله ، فهو الشرك الذي يخرج الناس من الإسلام » [1] أ.هـ .

---

(١) واقعنا المعاصر – محمد قطب / ص ٣٦ .

العبوديـــة ومكانتهـــا

العبودية هي الغاية المطلوبة من الخلق لله عز وجل والتي خلقهم من أجلها كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ [الذاريات : ٥٦ - ٥٨] .

وقد ذكر القرطبى [١] - رحمه الله تعالى - فى تفسيره لهذه الآية أن قوله تعالى : ﴿ **ليعبدون** ﴾ أي ليذلوا ويخضعوا لي [٢] .

وقيل : إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم .

وقيل : إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا [٣] .

وجاء فى تيسير الكريم الرحمن ما نصه : « هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها وبعث جميع الرسل يدعون إليها ، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه ، وكلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل فهذا الذي خلق الله تعالى المكلفين لأجله ، فما خلقهم لحاجة منه إليهم » [٤] أ.هـ .

فالعبودية : هي التي من أجلها أرسل الله تعالى الرسل لدعوة الناس إليها فقام واحد منهم [٥] بدعوة قومه إليه سبحانه قائلا لهم : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

---

(١) هو : محمد بن أحمد بن فرح الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي ، كان صالحًا زاهدًا ورعًا ، من تصانيفه : تفسيره جامع الأحكام ، والتذكار في أفضل الأذكار ، توفي سنة ٦٧١ هـ (طبقات المفسرين - للداودي / جـ ٢ - ص ٦٥ - ٦٦ وطبقات المفسرين للسيوطي / ص ٢٨ - ٢٩) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي / جـ ١٧ - ص ٥٦ .

وذكر مثله الشوكاني في فتح القدير / جـ ٥ - ص ٩٢ .

(٣) راجع : تفسير القرآن العظيم - لابن كثير / جـ ٤ - ص ٢٣٨ .

(٤) تفسير الكريم الرحمن - لعبد الرحمن بن ناصر السعدي / جـ ٧ - ص ١٨١ .

(٥) سيأتي إن شاء الله تعالى بيان لذلك في المبحث الثاني من الفصل الثاني والخاص بالأنبياء وتحققهم العبودية لله تعالى .

فكانت هي الغاية من دعوة الرسل جميعا لأقوامهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فِي كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**[1] ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحِي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

* وهي أول ما أمر الله تعالى به رسله أن يقوموا بها ويحققوها في أنفسهم ، وأول ما يأمرون بها أقوامهم . والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى كثيرة .

فهذا موسى عليه السلام كان أول ما أوحى الله تعالى به إليه قوله تعالى : ﴿ **إننِي أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنِي وأقم الصلاة لذكرِي** ﴾ [طه : ١٤] .

* وهي أول ما نطق به عيسى عليه السلام أمام قومه من بني إسرائيل وكان وحيا إليه وهو في المهد فقال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **وإن الله ربِّي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ [مريم : ٣٦] ، كما كانت دعوته كذلك حين أرسل إليهم ، فقال تعالى : ﴿ **وقال المسيح يا بنِي إسرائيل اعبدوا الله ربِّي وربكم** ﴾ [المائدة : ٧٢] .

وكانت شهادة عيسى عليه السلام يوم القيامة ليظهر براءته مما افتراه عليه قومه في قوله تعالى إخبارا عنه : ﴿ **ما قلت له إلا ما أمرتنِي به أن اعبدوا الله ربِّي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم** ﴾ [المائدة : ١١٧] .

أي أن العبودية هي الأمر الذي أوجبه الله تعالى على خلقه . وذكر الأمر في « أمرتني » مع فعل الأمر في « اعبدوا » يفيد تأكيد هذه الغاية التي يحبها الله تعالى ويأمر بها . ولكن قوم عيسى عليه السلام بعدوا عن هذه الغاية التي من أجلها خلقوا وإليها دعوا وأمروا ، فافتروا على نبيهم بقولهم إنه الله أو ابن الله فكفروا بذلك – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

يقول الله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله**

---

(١) الطاغوت : كل ماعُبِدَ من دون الله تعالى من إنس أو جن أو ملائكة أو صنم .

ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ [التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

يقول الفخر الرازي – رحمه الله تعالى – في بيان كفر النصارى :

« لو تأملنا لعلمنا أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى لأن عابد الوثن لا يقول إن هذا الوثن خالق العالم وإله العالم ، بل يجريه مجرى الشيء الذي يتوسل إليه به إلى طاعة الله ، أما النصارى فإنهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح جدا » [1] أ.هـ .

وهذا المعنى العظيم والمقصود وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وعدم عبادة غيره كائنا من كان ، ولو كان نبيا مرسلا أو ملكًا مقربًا قد أبرزه أبو بكر الصديق [2] – رضي الله تعالى عنه – وأعلنه حين قطع به حيرة الشاكين في موت النبي ﷺ فقال : « أما بعد .. فمن كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٤] [3] .

* وكما أمر عيسى عليه السلام بالعبودية فقد أمر بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال تعالى : ﴿ **قل إنّي أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به** ﴾ [الرعد : ٣٦] . وقال : ﴿ **إنما أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ [الزمر ١١] .

---

(١) التفسير الكبير – الفخر الرازي / جـ ١٦ – ص ٣٢ .

(٢) هو : عبد الله بن عثمان بن عامر التيمي القرشي ، خليفة رسول الله ﷺ ، أول من أسلَم من الرجال ، وشهد المشاهد كلها ، وحمل الراية في غزوة تبوك ، وحج بالناس في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وصلّى بهم في مرضه عليه الصلاة والسلام الأخير ، وكان أحب الناس إليه عليه الصلاة والسلام ، كنيته أبو بكر ، توفي سنة ١٣ هـ . (الإصابة / جـ ٢ – ص ٣٤١ – ٣٤٤ ، تذكرة الحفاظ / جـ ١ – ص ٢) .

(٣) بخاري / ك : جنائز – ب : الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه .

وأمره الله تعالى بأن يلازم هذه العبودية إلى موته عليه الصلاة والسلام . فقال تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ [1] [الحجر : ٩٩] .

* وهي الكلمة التي أمر الله تعالى نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام أن يجمع أهل الكتاب عليها ويدعوهم إليها . فقال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن الأمم السابقة وأمره لها بعبوديته تعالى . فقال عز من قائل : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ [البينة : ٥] .

* وأخبر سبحانه وتعالى أنها (العبودية) الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل بقوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله** ﴾ [البقرة : ٨٣] .

* كما أخبره تعالى أنها كانت وصية الأنبياء عليهم السلام لأبنائهم ، فوصى بها يعقوب عليه السلام أبناءه قبل وفاته . قال تعالى : ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدِى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

---

(١) تعليق : واليقين في الآية هو الموت بإجماع أهل التفسير ، ويدل عليه قوله تعالى في سورة المدثر حكاية عن أهل النار : ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ وليس كما يزعم الصوفية أنه الحقيقة الكونية فيكون المرء بعد الوصول إليها وليًّا عارفًا تسقط عنه التكاليف الشرعية . فيلزمهم على قولهم الضال أن يكون الكفار أيضا قد وصلوا إلى الحقيقة الكونية ليس في الدنيا بل وهم في النار يعترفون بها !! كما يلزمهم أيضا على قولهم الفاسد أنه صلى الله عليه وسلم توفي ولم يصل إلى الحقيقة لأن الثابت عنه عليه الصلاة والسلام أنه مات ولم يترك العبادة قط !! -

راجع : تفسير القرآن العظيم - ابن كثير / جـ ٢ - ص ٥٦٠ .
أضواء البيان - الشنقيطي / جـ ٣ - ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

* وبيَّن سبحانه أن العبودية هي المطلب الأول من عباده المؤمنين بعد استخلافهم في الأرض وتمكين الله تعالى لهم . فقال تعالى :

﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فِي الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذِى ارتضَى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننَى لا يشركون بَى شيئا ﴾ [النور : ٥٥] .

* **والعبودية** : هي العهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على آدم عليه السلام وذريته بالعبادة له وأشهدهم على أنفسهم بأنه سبحانه ربهم ، والمستحق للعبادة دون غيره فأقروا وشهدوا . قال تعالى : **﴿ وإذ أخذ ربك من بنِى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾** [الأعراف : ١٧٢] . وقوله تعالى : **﴿ ألم أعهد أليكم يا بنِى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونِى هذا صراط مستقيم ﴾** [يس : ٦٠] . فالعهد هو اجتناب عبادة الشيطان وتحقيق عبودية الله تعالى وحده .

* وهي الصراط المستقيم الذي ذكره الله تعالى في قوله : **﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾** [الفاتحة : ٦] . وهي جلية في قوله تعالى مخبرًا عن قول عيسى عليه السلام : **﴿ وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾** [مريم : ٣٦] . وقوله تعالى : **﴿ وأن اعبدونِى هذا صراط مستقيم ﴾** [يس : ٦٠] .

* وأخبر النبي ﷺ أنها حق الله تعالى على العباد في الحديث الصحيح بقوله : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » (١) .

* ومن أجلها قاتل رسول الله ﷺ الكفار لتكون هي العليا . فقال : « أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » (٢) .

---

(١) بخاري / ك : اللباس – ب : إرداف الرجل خلف الرجل .

(٢) مسلم / ك : الإيمان – ب : أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .
(ومختصره / ح رقم ٦) .

وفي المسند عن ابن عمر [١] - رضى الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له » [٢] .
كما أمر صلى الله عليه وآله وسلم عليًا - رضي الله تعالى عنه - أن يقاتل من أجلها لمَّا أعطاه الراية . فجاء في الحديث وفيه : « .. فسار علي شيئا ثم وقف ولم يلتفت فصرخ : يا رسول الله .. على ماذا أقاتل الناس ؟

قال : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » [٣] .

* وهي ما قضى الله تعالى به لعباده قضاء شرعيا [٤] . فقال تعالى : ﴿ **وقضَى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

---

(١) هو : العالم الزاهد المتبع أثر النبي ﷺ ، أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولد سنة ٣ من البعثة المحمدية ، عرض نفسه على النبي ﷺ يوم بدر فرده لصغر سنه وكذلك في أُحد ، وأجاز له في غزوة الخندق ، اشتهر بشدة حبه لآثار النبي عليه الصلاة والسلام وقد مدحه الرسول عليه الصلاة والسلام وأثنى عليه ووصفه بالصلاح ، توفي عام ٧٤ هـ .
(تقريب التهذيب / مجلد ١ - ص ١٧١ ، تذكرة الحفاظ / جـ ١ - ص ٣٧) .

(٢) مسند أحمد / ٢ - ٥٠ .

(٣) مسلم / ك : فضائل الصحابة - ب : فضائل علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - .
(مختصره / ح رقم ١٦٤٠) .

(٤) بخلاف القضاء الكوني الذي لا يتخلف ، كقضائه سبحانه بخلق سبع سموات في قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : ١٢] فهذا قضاء كوني حتمي فالله تعالى قدره وقضاه وإن لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب صاحبه ، وأما القضاء الشرعي فهو يتخلف بمعنى أنه يوجد ، ولكن يوجد نقيضه فالله عز وجل قضى بعبادته سبحانه لا بعبادة غيره ولكن وجد من يعبد غير الله تعالى من الجن والملائكة والأصنام وغيرها .. لكن لو قلنا بأن عبادة الله تعالى قضاء كوني فهذا يقتضي أن كل مَنْ عبد صنمًا أو وثنا أو غيره يكون عابدًا لله تعالى حقيقة ، وهذا القول لا يقول به عاقل ، وإن كان قد قاله طائفة ضالة من المبتدعة كابن عربي وغيره ، ممن ذكرهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة في الفتاوى (جـ ٢ / ص ١٢١) ، كما ذكر القضاء الكوني والشرعي في الفتاوى (جـ ١١ / ص ٢٦٥) ولمزيد من الإيضاح راجع : (شفاء العليل لابن القيم - ص ٢٨٠) ، (شرح العقيدة الطحاوية - =

* وهي أول الواجبات على العبد وليس كما تقول المعتزلة [1] وأهل الأهواء [2] . جاء في شرح الطحاوية ما نصه : « ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله ، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم ،بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان » [3] أ.هـ .

* وهي أول ما أمر به رسول الله ﷺ معاذًا بن جبل [4] – رضي الله تعالى عنه – أن يدعو إليه أهل اليمن فقال له : « إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » [5] .

= ص ١١٤) . وكذا صفة الإرادة فهي قسمان أيضا : **كونية** كما في قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٨٢] بخلاف **الإرادة الشرعية** التي في قوله تعالى : ﴿ وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ [آل عمران : ١٠٨] .

(١) المعتزلة : هم فرقة من المبتدعة ، سموا بهذا الإسم لاعتزالهم ما قالته الأمة ، افترقوا إلى عشرين فرقة ، كل تكفر غيرها من فرقهم . يقولون جميعهم بخلق القرآن وبنفي رؤية المؤمنين ربهم جلا وعلا في الآخرة وينفون الشفاعة ، ويقولون إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر ولكنه بين المنزلتين ، كما فرقوا بين الذات والصفات وأنه سبحانه لا يخلق الشر .

لمعرفة مزيد من التفاصيل من آرائهم يراجع : (مقالات الإسلاميين / من ص ١٥٥ – ص ٢٧٨) ، (الفرق بين الفرق / ص ٢٠ ، ٢٤ ، ص ١١٤) ، (نشأة الفكر الفلسفي – للدكتور علي سامي النشار / جـ ١ – ص ٣٧٣) ، (الملل والنحل – للشهرستاني / جـ ١ – ص ٤٣) .

(٢) راجع مذكرة العقيدة التي تدرس على طلبة السنة المنهجية بقسم العقيدة – جامعة أم القرى – عام ١٤٠٥ هـ من / ص ١٠ – ٣٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية / ص ٧٥ .

(٤) هو : معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي . صحابي جليل ، أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وأحد الستة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ ، بعث قاضيا ومرشدا لأهل اليمن ، عالما بالأحكام والقرآن ، شهد بدرًا وما بعدها . توفي سنة ١٨ هـ .

(الأعلام – للزركلي / جـ ٧ – ص ٢٥٨) . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٥٥) .

(٥) بخاري / ك : الزكاة – ب : لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة .

أي اختصاصه سبحانه وتعالى بالعبادة ، ولنلحظ أن أهل اليمن الذين أرسل إليهم معاذ من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوجود الله تعالى ولكن لا يؤمنون بعبوديته واستحقاقه للعبادة دون سواه .

* وكما أن عبودية الله تعالى ، أول الواجبات على العباد فإن عبادة غير الله تعالى من أعظم المحرمات التي حرمها الله تعالى على عباده بقوله عز وجل : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا** ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

والآية فيها تحريم جازم لعبادة غير الله تعالى . فهو سبحانه الخالق الرازق الذي أسبغ على المخلوقات كلها نعما لا تحصى ولا تعد ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] . فاستحق سبحانه أن يعبد وحده ولا يشرك به . ولهذا قال : ﴿ **ولا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** ﴾ [البقرة : ٢٢] .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (١) - رضي الله تعالى عنهما - قال : قلت : يا رسول الله .. أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك » (٢) . فالشرك بالله تعالى هو أعظم المحرمات التي حرمها الله عز وجل على عباده . لذا حث رسول الله ﷺ على اتقاء الحرمات وأعظمها هو الشرك بالله تعالى . فعن أبي هريرة (٣) - رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله ﷺ « اتق المحارم تكن أعبَد الناس » (٤) .

---

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن . من السابقين الأولين ، ومن كبار الصحابة فضلا وعلما وقربا من رسول الله ﷺ ، أول من جهر بقراءة القرآن بمكة المكرمة ، توفي سنة ٣٢ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ - ص ٤٥٠ ، الأعلام / جـ ٤ - ص ١٣٧) .

(٢) بخاري / ك : تفسير القرآن - سورة البقرة .
ومسلم / ك : الإيمان - ب : أي الذنب أكبر . (ومختصره / ح رقم ٥١) .

(٣) هو : عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، الصحابي الجليل ، صاحب رسول الله ﷺ ولزمه وواظب عليه رغبة في العلم وكان من أحفظ الصحابة ، قدم المدينة سنة ٧ هـ ، وأسلم وشهد خيبر ، توفي سنة ٥٧ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ - ص ٤٨٤ ، الإصابة / جـ ٤ - ص ٢٠٢) .

(٤) الترمذي / ك : زهد . (وصححه / ح رقم ١٨٧٦) .

واعلم – رحمك الله تعالى – أن تحقيق العباد لعبوديتهم الحقة تجاه خالقهم لا ينتفع الله عز وجل منها بشيء ، كما لا تضره معصيتهم وبعدهم عن العبودية . إذ هو الغني سبحانه ، والعباد مفتقرون إليه .

وقد قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] : إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم [(١)] .

فالله عز وجل لا تنفعه طاعة العباد ولو كانوا كلهم طائعين ، ولا تضره معصيتهم ولو كانوا كلهم مذنبين . فعن أبي ذر – رضي الله تعالى عنه – عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « .. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدْخِلَ البحر . يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجدها خيرا فليحمد الله عز وجل . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » [(٢)] .

ومع ذلك – فهو سبحانه يحب أهل الطاعة من عباده ويحب التزامهم بالعبودية الحقة ، ويباهي بهم ملائكته الكرام [(٣)] كما أنه سبحانه لا يرضى لهم الكفر .. ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ [الزمر : ٧] ، ويحب التوابين منهم ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ويفرح سبحانه لتوبة المسيء

---

(١) تقدم تفسير هذه الآية / ص ١٥ .

(٢) مسلم / ك : الظلم – ب : في تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة .

(٣) سيأتي بمشيئة الله تعالى توضيح لذلك في ص ١٠٠ .

منهم .. لقوله عليه الصلاة والسلام : « الله يفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » [1] . ويستحي عز وجل أن يرد دعاء مَنْ توجه إليه بإخلاص وذلك لحديث سلمان الفارسي – رضي الله تعالى عنه – عن النبي ﷺ قال : « إن الله حيي كريم ، يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما خائبتين » [2] . كما يحب المتقين من عباده ، والمحسنين والصابرين ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ [التوبة : ٤] . ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] . ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

وهذه المحبة متبادلة [3] بين الرب سبحانه وبين عباده المؤمنين فالعباد يحبون ربهم جل وعلا ، من خلال طاعتهم له واتباعهم أوامره سبحانه واجتنابهم نواهيه على ألسنة رسله – لقوله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقد بيَّن الله عز وجل محبة العباد له في قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وأما عن المحبة المتبادلة بين الله عز وجل وعباده ففي قوله تعالى : ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

لاشك أن الذي يعفو ويصفح ويفرح لتوبة عبده ويريد الخير بعباده المؤمنين ، هو من يحب ، وهو الله سبحانه وتعالى . لذا تظهر صفة المحبة التي هي من صفات الكمال الواجبة في حق الله تعالى فهو سبحانه أرحم بالعباد من الأم بولدها كما قال ﷺ : « الله أرحم بعباده من هذه – المرأة – بولدها » [4] .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « قد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له » [5] .

---

(١) متفق عليه : بخاري / ك : دعوات – ب : التوبة ، مسلم / ك : التوبة – ب : الحض على التوبة .

(٢) ترمذي / ك : الدعوات – ب : ١١٨ (وصحيحه ح / ٢٨١٩) .

(٣) خلافا لما أنكرته الجهمية من حقيقة المحبة من الجانبين فأنكروا بذلك أن يكون إبراهيم خليلا . (راجع : شرح العقدية الطحاوية / ٣٢٨) .

(٤) مسلم / ك : التوبة – ب : الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها (ومختصره ح / ١٩٢٦) .

(٥) مجموع الفتاوى / جـ ٢ – ص ٣٥٤ .

أنواع العبودية

قسَّم كثير من أهل العلم العبودية – كما سنرى بعد قليل من كلامهم – إلى قسمين : عام وخاص

وجعلوا العبودية العامة هي عبودية القهر والتسخير لنفاذ أمر الله تعالى في كل شيء فلا يقدر كائن أن يمتنع عن شيء جبله الله تعالى عليه . وبهذا المعنى العام يشمل جميع الكائنات ، ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فِي السمٰوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وأما العبودية الخاصة فجعلوها عبودية طاعة واختيار ، وخصوا بها الإنس والجن دون غيرهم من الكائنات كلها – على خلاف في الملائكة – ومن ثَمَّ جعلوا عبودية الكائنات الجمادية والحيوانية والنباتية عبودية قهر وتسخير ، ولم يثبتوا لها طاعة أو اختيار . ونحن في بحثنا هذا سوف نبين بمشيئة الله تعالى أن لهذه الكائنات اختيارا وطاعات تقوم بها تجاه ربها [١] وأنها ليست مقهورة بالكلية . ونظرا لأن معظم من كَتب في أنواع العبودية كان يعني بصفة خاصة عبودية الإنس والجن . فإنهم لم يتعرضوا لعبودية الكائنات الأخرى .

فابن تيمية – رحمه الله تعالى – تكلم عن نوعي العبودية فقال : « إن العبد يراد به المعبَّد الذي عبَّده الله فذلله ودبره وصرفه ، وبهذا الإعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله الأبرار منهم والفجار والمؤمنون والكفار وأهل الجنة وأهل النار ، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته ، وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر . فما شاء كان وإن لم يشاءوا وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن . كما قال تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فِي السمٰوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾ [آل عمران : ٨٣] . – ثم قال – : « المعنى الثاني

---

(١) سيأتي الكلام عن عبودية هذه الكائنات في القسم الثاني من الفصل الثاني بمشيئة الله تعالى ص ٢٣٤ .

من معنى العبد ، وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابدا لله لا يعبد إلا إياه فيطيع أوامره وأمر رسله ويوالي المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه الكافرين والفاسقين ، وهذه العبادة متعلقة بألوهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد (لا إله إلا الله) بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده أو يعبد معه إلها آخر . وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها وبها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله . وأما العبد بمعنى المعبَد سواء أقر بذلك أو أنكره فذلك المعنى يشترك فيه المؤمن والكافر » أ.هـ [1] .

وقال – رحمه الله تعالى – في موضع آخر : « وقوله تعالى : ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** ﴾ و ﴿ **سبحان الذى أسرَى بعبده ليلا** ﴾ . فإن العبد تارة يعنى به المعبَّد فيعم الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتِي الرحمٰن عبدا** ﴾ ، وتارة يعنى به العابد فيخص ، ثم يختلفون فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل ، فكانت الإضافة في حقه أكمل مع أنها حقيقة في جميع المواضع » [2] أ.هـ .

ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة : « العبودية نوعان : عامة وخاصة .

فالعبودية العامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية القهر والملك . قال تعالى : ﴿ **إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتِي الرحمٰن عبدا** ﴾ [مريم : ٩٣] – ثم قال – وأما النوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر . قال تعالى : ﴿ **يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ [الزخرف : ٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ [الزمر : ١٧ ، ١٨] ، وقال : ﴿ **وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ [الفرقان : ٦٣ ، ٦٤] . فالخلق كلهم عبيد ربوبيته ، وأهل طاعته وولايته هم عبيد ألوهيته » .

---

(١) العبودية / ص ١١ ، ١٤ .

(٢) مجموع الفتاوى – لابن تيمية / جـ ٥ – ص ١٠٥ .

(٣) مدارج السالكين – لابن القيم / جـ ١ – ص ١٠٥ .

فنجد من كلامهم السابق أنهم عنوا بعبودية الإنس دون غيرهم من الكائنات الأخرى ، إلا أن تقسيمهم لأنواع العبودية يشترك فيه الكائنات كلها .

فالمعنى العام وهو القهر والتسخير يشمل جميع الكائنات كلها ، وأما المعنى الخاص فيشمل المؤمنين الموحدين من الكائنات كلها باتباع أوامره سبحانه وتمجيده وتقديسه عز وجل . فكل مطيع من هذه الكائنات له مع عبوديته العامة لله تعالى عبودية خاصة ، وكل بحسبه . أما العصاة من الكائنات الأخرى فهم محرومون من نعمة العبودية الخاصة داخلون ومقهورون تحت العبودية العامة شاءوا ذلك أم أبوا ، لنفاذ أمر الله تعالى فيهم . قال تعالى : ﴿ **إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتِي الرحمن عبدا** ﴾ [مريم : ٩٣] ، وقال : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِي السمٰوات ومن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ [الحج : ١٨] .

فنجد أن جميع الكائنات – دون من كفر من الإنس والجن – قد عبدت ربها وأدت خضوعها الكامل بالسجود لخالقها وباريها و لم تعترض إلا هذا الكائن وهو الإنسان الذي فصَّل الله تعالى فيه أمره ، فمنهم مَنْ عبده تعالى اختيارا منه ، ومنهم مَنْ عبده تعالى كرها وقهرًا وذلك لنفاذ سنن ومشيئة الله تعالى فيهم وفي غيرهم من الكائنات الأخرى ، فقال تعالى : ﴿ **وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ .

فالذين كفروا وجحدوا بربهم لم يخرجوا عن مشيئة خالقهم رغم كفرهم به تعالى ، حتى مَنْ قال منهم : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ وهو فرعون اللعين لم يخرج عن مشيئة الله تعالى من الاحتياج والافتقار إليه سبحانه من الأكل والشرب والنوم والموت والغرق الذي أُصيب به . فكلها من لوازم العبد التي لا تنفك هي وغيرها عنه . فسنن الله الكونية والتي شاءها الله عز وجل بأن تكون في البشر وغيرهم من الكائنات الأخرى تخضع لها الكائنات كلها شاءوا أم أبوا . مثل النمو من الصغر والكبر والشيخوخة والأكل والشرب والنوم والراحة والإخراج وما يحصل في داخل الأجسام الإنسانية والحيوانية والنباتية من الهضم والتنفس وعمل القلب

في تنظيم الدورة الدموية . فكل هذا وغيره كثير مما خلقه الله تعالى بحكمته ، خضع له الإنسان خضوعا كاملا . ليس له – مثلا – أن يوقف الدورة الدموية لمدة معينة أو يُعمِل الجهاز التنفسي في وقت دون آخر ، فالكثير الذي في الآية ﴿ **وكثير حق عليه العذاب** ﴾ مع كفرهم وجحودهم بالله تعالى مقهورون وخاضعون لله عز وجل كرها لا اختيار لهم فيه بل خاضعون لنفاذ أمر الله تعالى فيهم في الأمور السابقة وغيرها ، وهذا المعنى العام للعبودية وهو الخضوع والقهر . وهم العباد المقصودون في مثل قوله تعالى : ﴿ **إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتِي الرحمن عبدا** ﴾ [مريم : ٩٣] . وكذلك في الحديث القدسي : يقول الله تعالى : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » (١) .

وأما العبودية الخاصة ، فأهلها خاضعون لله عز وجل فيما أمر مجتنبون لما نهى عنه باختيار منهم ، فهم المستحقون دون غيرهم الإضافة التشريفية لخالقهم بكونهم عبادا له سبحانه . وهم غير معصومين من الوقوع في المعاصي والآثام ، ولكن كلما قويت عزائمهم وزادت طاعتهم لله تعالى وابتعدوا عن الذنوب ازدادوا قربا إليه سبحانه وارتفعوا في مراتب العبودية . وهم المعنيون في آيات كثيرة في مثل قوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ [الفرقان : ٦٣] . وقوله تعالى : ﴿ **جنات عدن التِي وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾ [مريم : ٦١] . وقوله : ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** ﴾ [الإنسان : ٦] .

فعباد الله حقا هم الذين اتبعوا أمر ربهم واجتنبوا غواية الشياطين ، فكانوا هم الخواص من عباد الله تعالى – من المعنى العام – ونالوا الجنان بعبوديتهم له سبحانه والقرب منه ، والأمن من غواية الشيطان .

* * *

---

(١) مسلم / ك : الظلم – ب : في تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة .
(ومختصره / ح رقم ١٨٢٨) .

المبحث الثاني

مفهوم الكائنات

كلمة « كائنات » هي جمع لمفرد « كائن » ، ومنها الكون وجمعه « أكوان » و« كونيات » . شاع استخدام هذه الكلمة في كثير من العلوم ، الدينية منها والبحتة [1] ، استخداما يتناسب مع أصحاب كل فن من هذه العلوم فيتركون بذلك المعنى المطلق العام لكلمة « الكائنات » وهو « الموجودات » ويأخذون منها معنى خاصا يفيد علمهم ويدل عليه .

فعلماء الهيئة أو الفلكيون يعنون بها : الفضاء الواسع الذي في السماء بما فيه من أجرام سماوية وأفلاك وكواكب وشمس وقمر ونجوم وليل ونهار ، وأبعاد تلك الأجرام عن بعضها البعض ، وبعدها عن الأرض وما تبع ذلك .

وأما البيولوجيون – علماء الأحياء – فيعنون بـ « الكائن » تلك الخلية الأولى التي يتكون منها الإنسان والحيوان والنبات ويسمونها بـ « الكائن الحي » أو « الأميبا » .

وأما عند الفيزيقيين – علماء الطبيعة – فيقصدون بالكون ما عدا الإنسان والحياة من بقية المكونات الأخرى الحية منها والجامدة [2] .

ونحن هنا في بحثنا هذا نورد الكلام عن الكائنات بمعنى أشمل وأعم ، ولسنا بصدد فن معين من العلوم لتخصيص كلمة « الكون » بهذا القدر من المعنى

---

(١) والعلوم البحتة هي العلوم التي تستند إلى التجارب والمشاهدات كالكيمياء والفيزياء والرياضيات وغيرها .

(٢) راجع : محمد سعيد البوطي – كبرى اليقينات الكونية / ص ٢٦١ .

مع ما هو معروف من أنها في الحقيقة مرادفة لكلمة « الوجود » – كما سنبين إن شاء الله تعالى بعد قليل – فينبغي أن تشمل كل ما أوجده الله تعالى .

فالكون لغة : هو الحدث – من الحدوث – والكائنة : الحادثة ، أي وُجدت بعد العدم .

ونقول : الله مكون الأشياء : مخرجها من العدم إلى الوجود . وقيل : الكون : مصدر كان التامة ، يقال : كان يكون كونا : أي وجد واستقر [1] . والاستقرار هنا بمعنى الظهور ولا يفهم منه أنه يثبت ولا يبيد فكل حادث هالك ، وكما قيل : إن ما جاز عدمه استحال قدمه .

وذكر الجرجاني [2] في التعريفات أن الكون : « اسم لما حدث دفعه . وقيل : الكون حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة فيها » [3] .

ولكنه تعريف غير منضبط ، حيث إن الصورة والمادة كائنان . ثم ذكر بعد ذلك أن الكون : عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم ، لا من حيث إنه حق ، وإن كان مرادفا للوجود المطلق العام .

وعند النظر نجد أن الكون مرادف للوجود ، وهذا ما يظهر من التعريفات .

وعند الحكماء [4] « الكون » هو الوجود بعد العدم .

---

(١) لسان العرب – لابن منظور / جـ ١٧ – ص ٢٤٥ .

(٢) الجرجاني : هو علي بن محمد علي السيد الزين أبو الحسن الحنفي الشهير بالشريف الجرجاني . من أعلام الحنفية ، ولد سنة ٧٤٠ هـ . فيلسوف ومن كبار علماء العربية ، درس في شيراز ، وله نحو خمسين مصنفا .. منها : التعريفات وشرح مواقف الإيجي ، مقاليد العلوم ، ترجيح مذهب أبي حنيفة ، توفي سنة ٨١٦ هـ .

(تاريخ بغداد للخطيب البغدادي / جـ ٣ – ص ٤٣٣) ، (الأعلام – للزركلي / جـ ٥ – ص ٧) .

(٣) التعريفات / ص ٣٦٥ .

(٤) الحكماء صنفان : **الأول** : الحكماء الإشراقيون ورئيسهم أفلاطون .

والثاني : الحكماء المشّاءون ورئيسهم أرسطو . (من كتاب التعريفات للجرجاني / ص ٨٢) .

والكائن وهو الموجود المخلوق المصنوع ، مقهور وخاضع وذليل ، فالكون خاضع لمكونه وصانعه وموجده فمن الكون اشتقت كلمة « استكان » أي ذل وخضع ، فكل كائن استكان لمكونه .

وقيل : كون الشيء أي أحدثه وأوجده .

والكون : مصدر لكان وهو عالم الوجود .

والكائن : الحادث . والكائنات : الموجودات [1] .

والكائنات والكوائن جمع كائن .

وجاء في كتاب الصحاح في اللغة والعلوم [2] أن : الكون : واحد أكوان .

والاستكانة : الخضوع ، والتكوين : نشأة الشيء ونموه .

وسفر التكوين [3] : فيه نشأة العالم .

وقيل الكون : عبارة عن وجود العالم .

وقيل : هو الأجرام التي يتكون منها العالم .

وقيل : هو العالم في نظامه المُحكَم المرتب .

والكونيات : علم الكونيات يبحث في القوانين العامة للعالم من حيث أصله وتكوينه .

مما سبق من التعريفات نجد أن لفظ « الكائنات » مرادف للموجودات وللمخلوقات . وعلى هذا فهي تشمل « كل ما سوى الله عز وجل » حيث أن الله تعالى هو الموجِد والمكون والخالق لها ، فكل ما سوى الله عز وجل مخلوق ومكوَّن .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين – محمد فريد وجدي / جـ ٨ – ص ٢٤٢ .

(٢) الصحاح في اللغة والعلوم – نديم مرعشلي ، وأسامة مرعشلي / مجلد ٢ – ص ٤٢٠ .

(٣) سفر التكوين هو أول سفر من الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام من قبل اليهود والنصارى على أنها التوراة المنزلة – وليست كذلك – وهي موجودة في كتب العهد القديم كالآتي : التكوين / اللاويين / الخروج / العدد / التثنية .

أنـواع الكـائنـــات

تنقسم الكائنات إلى أكثر من تقسيم :

التقسيم الأول :

علويات وسفليات وجرى على هذا النحو من التقسيم بعض العلماء ومنهم القزويني [1] - رحمه الله تعالى - في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . وكان يقصد بالعلويات ما يتعلق بالسماء وأبراجها والكواكب ومداراتها والشمس والقمر وما يتصل بذلك من علم الفلك ، كما أضاف غيره هنا إلى العلويات الملائكة والجنة والكرسي والعرش .

أما المخلوقات السفلية في نظر القزويني فهي ما دون الأفلاك العلوية من النار والهواء والماء والتراب والرياح والسحاب والأرض والجبال والأشجار والبحار والأنهار والأحجار والحيوانات والإنسان والنبات والطيور .

وأما التقسيم الثاني للكائنات :

فهو عالم الغيب وعالم الشهادة . ويقصد بعالم الغيب : كل ما غاب عنك ، وجمعه غياب أو غيوب [2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ [البقرة : ٣] بمعنى أنهم يؤمنون بالله ويؤمنون بما غاب عنهم مما أخبرهم به النبي ﷺ من أمر البعث والجنة والنار وكل ما غاب عنهم مما أنبأهم به فهو غيب .

---

(١) القزويني : عالم عربي يكنى بأبي عبد الله - وهو : زكريا بن محمد بن محمود القاضي ، كان إماما عالما فقيها ، ولد في مدينة قزوين عام ٦٠٠ هـ ، ورحل إلى دمشق وتولى القضاء بواسط والحلة في زمن المعتصم العباسي ، وتوفي سنة ٦٨٢ هـ .

(من مقدمة كتاب / عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات / ص ٧) .

(٢) راجع : القاموس المحيط / جـ ٣ - ص ٤٣١ .

وقيل الغيب : خلاف الشهادة ، وكل ما غاب عن الإنسان . سواء كان محصلا في القلوب أو غير محصل فهو غيب [1] .

الغيب في استعمال الشرع :

روي عن ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - قال : « الغيب ما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر الله تعالى في القرآن » .

وزاد قتادة [2] - رحمه الله تعالى - : آمنوا بالله وملائكته واليوم الآخر والحياة والموت [3] .

كما قيل بأنه : القضاء والقدر .

والذي اختاره القرطبي وابن كثير [4] - رحمهما الله تعالى - من ذلك : أن هذه الأقوال كلها لا تتعارض وأن الغيب يقع على جميعها فكلها متقاربة وفي معنى واحد حيث إن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به [5] .

ومن الغيب ما هو غيب بالنسبة للإنسان ولكن قدَّر الله عز وجل له بالخروج إلى عالم الشهادة . كنطق الحديد (من المسجلات والتليفونات والتلفاز) . وكتقارب الزمان والمكان (بالطائرات والتليفون والفاكس ميل وغيرها) فهذه الأمور التي كانت تُعَد غيبًا لا يُتوصل إليه بالحس صارت في أيامنا هذه مما يتناوله الحس .

---

(١) راجع : المعجم الوسيط / جـ ٢ - ص ٦٧٤ .

(٢) هو : قتادة بن دعامة بن عزيز البصري ، كان رأسا في الفقه وأيام العرب والنسب مات بواسط سنة ١١٧ هـ . (تذكرة الحفاظ - الذهبي / جـ ١ - ص ١٢٣) .

(٣) راجع : تفسير الطبري / جـ ١ - ص ١٠١ .

(٤) هو : إسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين أبو الفداء ، محدث متقن ومفسر نقاد ، من تصانيفه تفسير القرآن العظيم ، والبداية والنهاية . توفي سنة ٧٧٤ هـ .

(انظر : طبقات المفسرين - للداودي : جـ ١ - ص ١١٠) .

(٥) راجع : الجامع لأحكام القرآن / جـ ١ - ص ١٦٣ . تفسير القرآن العظيم / مجلد ١ - ص ٤١ .

هذا وقد تكون بعض الأشياء في عالم الشهادة فيقدر الله تعالى لها أن تصبح غيبا بالنسبة لمَن لم يروها كحوادث الأُمم السابقة ، فقد كانت مشهورة لأهل ذلك الزمان ، ومع هذا فقد سمَّاها الله تعالى غيبا فقال تبارك وتعالى : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾ [هود : ٤٩] .

وأما عالم الشهادة فيشمل ما هو مشاهد ومحسوس في حياة المخلوقات . وهو يقابل عالم الغيب .

وقيل : « عالم الغيب والشهادة » : أي ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بهما .

والشهود والشهادة : الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة .

والشهادة : قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة [١] .

والتقسيم الذي اخترناه هو التقسيم الثاني . حيث استعمله كثير من أهل السنة لثبوته في القرآن الكريم والسنة المطهرة بالكلام عن عالم الغيب والشهادة .

وسأبدأ بمشيئة الله تعالى الكلام عن عالم الشهادة لقربه إلينا نحن البشر ، إذ نحن فيه ومنه أيضا .

★ ★ ★

---

(١) راجع : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – للفيروز أبادي / جـ ٣ – ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .



الفصل الثاني
عبودية عالم الشهادة

وفيه

* **تمهيد** : **دواعي العبودية .**
* **القسم الأول** : **عبودية الإنس .**
- المبحث الأول : أنواع العبادات وبيان المنهج الإسلامي في تحقيق العبودية .
- المبحث الثاني : عبودية الأنبياء .
- المبحث الثالث : تحقق العبودية في شخصية النبي ﷺ .
- المبحث الرابع : عبودية أتباع الأنبياء .
* **القسم الثاني** : **عبودية الحيوان والنبات والجماد .**
- المبحث الأول : عبودية الحيوانات .
- المبحث الثاني : عبودية النباتات .
- المبحث الثالث : عبودية الجمادات .



تمهيد

دواعي العبودية

إن الكلام عن عبودية عالم الشهادة يشمل عبودية كل من الإنس ، والحيوان ، والنبات ، والجماد . وهذه الكائنات المشاهدة على هذه الدنيا ، أهمها على الإطلاق : الإنس . إذ خلق الله تعالى ما سواه من الكائنات وسخرها له لتعينه على أداء مهمته في القيام بعبوديته نحو خالقه جل وعلا الذي خلقه وخلق الكثير من الكائنات الأخرى له . وقد فطر الله تعالى الكائنات كلها على الإقرار به سبحانه ، وفطرها على إفراده جل وعلا . إلا أننا نجد أن الإنس من بين تلك الكائنات قد فسدت فطرة الكثير من هذا الكائن وبعدت عن العبودية الحقة لخالقها ، لذا فكان من حكمة الباري جل وعلا أن قضى بوجود دواعي أخرى تكون عونا لهذا المخلوق – الإنس – للرجوع إلى عبوديته لخالقه عز وجل ، إضافة إلى ما هو مركوز فيه من الفطرة السليمة في الاعتقاد بالله سبحانه ، إن هو رجع وآمن .

تعتبر العبودية الحقة من أسمى الغايات التي يجب على البشر السعي إليها والعمل على تحقيقها ليسعدوا بذلك في الدارين . وهناك بواعث تدفع البشر إلى الإيمان بعبوديتهم لخالقهم جل وعلا ، والعمل على تحقيقها فيهم . وهذه البواعث والدواعي قد جعلها الله تعالى حكمة منه ورحمة بعباده ، حتى يتم محاسبتهم بناء عليها . هذه الدواعي هي :

(١) الفطرة .

(٢) الشرائع .

(٣) الآيات الكونية .

(١) الفطرة :

أسس الله عز وجل جميع الكائنات على الإقرار به وبوحدانيته ، وكذا الإنسان قد خُلق على فطرة موحدة تقر بوحدانية الله تعالى ، وأنه سبحانه مدبر هذا الكون ، وموجده ، وأن البشر كلهم مفتقرون إليه سبحانه ، وهو الغني المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص . هذا الشعور ثابت في كل كائن ، وفي كل نفس إنسانية ، كبيرة أو صغيرة مؤمنة أو كافرة ، عالمة أو جاهلة . ولا يستطيع الإنسان دفعه ، إذ هو من أبين البدهيات عنده أنه مخلوق ، عاجز ، فقير لا يقوم بنفسه بحال في دفع مكروه عنه أو جلب نفع إليه ، فمغروس فيه هذه الحقائق التي تدفعه لا محالة إلى موجده وصانعه الذي تصمد إليه الأفئدة ، وبيده ملكوت كل شيء وأحاط بكل شيء علمًا . فهذا ما فطرت النفوس عليه ولا سبيل إلا بردها إليه . ولا يلتفت إلى بعض من تنكر لهذه الفطرة وجحد وجود الباري جل وعلا من الدهريين وغيرهم من الملاحدة الذين يعتبرون قلة مريضة في المجتمع البشري في كل عصر . فهؤلاء قد فسدت فطرتهم وتلطخت باتباع الأهواء والجري وراء الشهوات . ولذا فإنهم لو رجعوا عن غيهم وعادوا إلى رشدهم لصفَت فطرتهم وعادت إليهم ولاعترفوا بخالقهم جل وعلا وألوهيته ، ولخضعوا له سبحانه .

ومما يؤكد على أن الفطرة هي أول دواعي العبودية الحقة لله جل وعلا ، قوله عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » [١] . فذكر عليه الصلاة والسلام الأديان الباطلة التي يوصي بها الآباء الأبناء وينشئونهم عليها ، دون ذكر الإسلام ، إذ هو المركوز في النفوس ابتداء ، وكل مولود مفطور عليه .

وكذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح فيما يرويه عن رب العزة : « وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عَن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمَرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به

---

(١) متفق عليه :
بخاري / ك : التفسير – ب : سورة الروم .
، مسلم / ك : القدر – ب : كل مولود يولد على الفطرة .

سلطانًا » [1] . أي أن الله تعالى قد خلق العباد كلهم على الإسلام ، إلا أن الشياطين قد أغوت – وما زالت تغوي – الكثير منهم فأخرجتهم عن هذه الفطرة بعبادة آلهة معه سبحانه وتعالى أو دونه .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في توضيح معنى الفطرة : « فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة الإسلام ، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ . وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة ، والقبول للعقائد الصحيحة » [2] أ.هـ .

ولا يلزم من إخباره ﷺ بهذا أن يكون كل مولود عند ولادته عالما بالإسلام وبأركانه وشروطه ونواقضه ، وإنما الأمر هو أن لو ترك كل مولود وشأنه دون مؤثرات أخرى باطلة لدفعته فطرته الموحدة إلى الاعتقاد بوجود إله حق فرد صمد تتجه القلوب إليه رغبة ورهبة .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين بالإسلام بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا ، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام ، بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلمًا » [3] .

هذه الفطرة – وهي الإسلام – قد غرسها الله عز وجل في قلوب عباده وأخذ سبحانه منذ الأزل ميثاقا من آدم وذريته بذلك وأقرهم على تلك الفطرة . فقال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

---

(١) مسلم / ك : الجنة – ب : في أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم في الدنيا . (ومختصره / ح رقم ١٩٧٣) .

(٢) الفتاوى / مجلد ٤ – ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق / ص ٢٤٧ .

فأخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بنى آدم فأشهدهم على أنفسهم بأنه لا إله لهم غيره ولا رب لهم سواه . وقد ورد ذكر هذا الإقرار في السنة الصحيحة عن النبي ﷺ قال : « أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان – يعني عرفة – فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها ، فنثرهم بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قُبُلا قال : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ »[1] .

فلاشك أن الإقرار بربوبية الله تعالى أمر فطري ، وأن الشرك به سبحانه فأمر طارىء حادث ، كما بيّنه النبي ﷺ في حديث مسلم – السابق الذكر – وأنه بفعل إغواء الشياطين . فإذا علم العبد أن له ربا أوجده انتقل بعد ذلك إلى توحيد الألوهية الذي يفرد الله تعالى فيه بالعبادة له دون سواه ، فلا يليق له أن يعبد أحدا إلا مَنْ أوجده ، وإلا يكون قد أتى بأكبر الذنوب وأعظمها على الإطلاق ، كما ورد في الحديث حين سئل عليه الصلاة والسلام : أي الذنب أكبر عند الله قال : « أن تدعو لله ندًّا وهو خلقك »[2] .

(٢) الشرائـــع :

لما كان إغواء الشياطين في تحويل البشر من الوحدانية لله عز وجل إلى الإشراك به سبحانه ، وأقسم الشيطان على إفساد البشر وتغيير هذه الفطرة ، وهي الإسلام . فقال تعالى إخبارا عن قول الشيطان : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [ص : ٨٢] .

– لما كان هذا – جعل الله تعالى بحكمة منه ، باعثا ثانيا من دواعي عبوديته الحقة وهو إنزال الشرائع من عنده سبحانه إلى من فسدت فطرتهم لتخرجهم

---

(١) رواه أحمد / ١ – ٢٧٢ ، السنة لابن أبي عاصم / جـ ١ – ٢٠٢ ، السلسلة الصحيحة / ح رقم ١٦٢٣ .

(٢) مسلم / ك : الإيمان – ب : أي الذنب أكبر (ومختصره / ح رقم ٥١) .

من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية لله عز وجل ، وذلك عن طريق بعثة الرسل ، فيصطفي الله تعالى من البشر أناسا لهم من الصفات الحميدة والأعمال الفريدة ما يؤهلهم على حمل ما كلفوا بتبليغه من الشرائع من قِبَل مُرسِلهم جل وعلا فيؤيدهم بمعجزات تكون تثبيتا لهم على ما هم عليه من الحق المبين فتطمئن قلوبهم بها ، وعونا لهم في تصديق أممهم لهم والإيمان بما أُنزِل إليهم من ربهم ، والإذعان له فيصبرون على أذى أقوامهم في سبيل الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ دينه . حتى تقوم الحجة على البشر من قِبَل خالقهم عن طريق رسله بتبشيرهم بالجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المحققين لعبوديته جل وعلا ، وإنذارهم بالنار التي أعدها الله تعالى للزائغين عن عبوديته الحقة . قال تعالى : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وما كان الله تعالى ليعذب قوما دون أن يبعث إليهم من يدلهم ويرشدهم إلى عبادته جل وعلا . فقال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ [الإسراء : ١٥] .

ونظرًا لما يعلمه الله عز وجل عن نفسية البشر الذين بعدوا عن فطرة الحق بعدما كانوا عليها ، وأنهم سيحتجون إذا لم يرسل إليهم رسلا ، أرسل الله تعالى رسله إليهم لقطع الحجة عنهم . قال تعالى : ﴿ **ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى** ﴾ [طه : ١٣٤] .

ولذا فإنا نجد السؤال الموجه إلى الكافرين وإلى الزائغين عن عبودية الله جل وعلا من قِبَل الملائكة هو قولهم : ألم يأتكم رسل ؟!

يقول تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ [الزمر : ٧١] .

ويقول تعالى : ﴿ **تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألتهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير** ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

فبعثه الرسل من أعظم نعم الله تعالى على عباده ، ومن رحمته سبحانه بهم . فيقول تعالى عن نبينا محمد ﷺ : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . وكل الرسل الذين بعثهم الله عز وجل إلى البشر يدعون إلى غاية واحدة ألا وهي عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به ، إلا أن شرائع كل رسول مع قومه مما بينه الله تعالى له قد تختلف من شريعة قوم وآخرين ، فعن اتحاد الغاية يقول تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [النحل : ٣٦] . وأما عن اختلاف الشرائع فيقول تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وعلى هذا فإن الشرائع التي من عند الله تعالى وأنزلها على عباده عن طريق رسله تعتبر باعثا للعباد على تحقيق عبوديتهم الحقة لخالقهم جل وعلا وفق أوامره ونواهيه سبحانه .

(٣) الآيات الكونية (والتقدم العلمي) :

دعا الله تعالى في كتابه العزيز أصحاب العقول المستنيرة إلى التفكر في آياته الكونية . كما حثهم على التدبر في آياته المتلوة . فكلاهما آيات ودلائل تؤدي إلى معرفة الله تعالى حق معرفة والإيمان به والإقرار بألوهيته لخلقه أجمعين . وقد جاءت كثير من النصوص في هذا منها : قوله تعالى : ﴿ **إن فِى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التِى تجرِى فِى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [البقرة : ١٦٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **إن فِى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولِى الألباب** ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وقوله : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ [الأنعام : ٩٧] ، وقوله : ﴿ **إن فِى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [الرعد : ٣] .

وقد تضمن القرآن أسلوبا رائعا في الإقناع للوصول إلى حقيقة ألوهية الله عز وجل وعبودية المخلوقين مستخدما في ذلك الحث على التفكر في الكون بآفاقه الواسعة وأنواع مخلوقاته المختلفة من حيث تكوينها وميولها وغرائزها وصفاتها

بما يظهر قوة الأسلوب القرآني في الإقناع بحقيقة الألوهية . في مثل قوله تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شيْء أم هم الخالقون** ﴾ [الطور : ٣٥] ، وقوله : ﴿ **أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** ﴾ [الواقعة : ٦٩] [1] . وقوله : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ [المؤمنون : ٩١] . وكذا المحاورة التي جرت بين إبراهيم عليه السلام وبين نمرود اللعين . فقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذِى حاج إبراهيم فِى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربِّى الذِى يحيِى ويميت قال أنا أحيِى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتِى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذِى كفر والله لا يهدِى القوم الظالمين** ﴾ [البقرة : ٢٥٨] . وقوله تعالى : ﴿ **وكذلك نرِى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربِّى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربِّى فلما أفل قال لئن لم يهدِنى ربِّى لأكونن من الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربِّى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنِّى برِىء مما تشركون * إنِّى وجهت وجهِىَ للذِى فطر السمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** ﴾ [الأنعام : ٧٥ - ٧٩] .

وقد كان الهدف من حث العباد على التفكر والتدبر في خلق الله تعالى هو الوصول إلى عبوديتهم لله تعالى والإقرار بها وذلك لمن أراد الهداية والوصول إلى الحق المبين ، لما اعتراه من عوارض الغواية التي أفسدت فطرته . وأما من استنارت عقولهم وسلمت فطرتهم فإنهم يؤمنون بالله تعالى إيمانا راسخا ، كما تزيد إيمانهم به سبحانه الآيات المشاهدة والتي أخبر الله تعالى عنها في كتابه ، ومنها الظواهر العلمية التي تتحقق أمام أعينهم يوما بعد يوم ، ولكنهم يؤمنون بها ابتداء فيزدادون إيمانا مع إيمانهم قال تعالى : ﴿ **ليزداد الذين آمنوا إيمانا** ﴾ [المدثر : ٣١] .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين : **أحدهما** : النظر إلى مفعولاته ، **والثاني** : التفكر في آياته

---

(١) راجع الآيات في سورة الواقعة من ٥٧ - ٧٤ .

وتدبرها . فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة » [1] .

ولا زلنا حتى يومنا هذا نسمع عن اكتشافات واختراعات حديثة في مجالات العلوم البحتة المختلفة ، يجد لها بعض العلماء المسلمون أصلا ودليلا على وجودها في كتاب الله تعالى أو سنة نبيه ﷺ .

قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ [يوسف : ١٠٥] .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – في معنى هذه الآية : « سنظهر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسوله ﷺ بدلائل خارجية » [2] .

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن غيبيات ، جاء العلم الحديث يؤكدها ويبيِّن صدقها . والغيبيات من هذا النوع كثيرة . ولا نريد من سياق هذه الأمثلة أن نجعل العلم الحديث حكما على الإسلام وفي صدق دعواه ، فرسالة الإسلام مؤيدة بالأدلة القاطعة . بل نريد هنا لنبين أن العلم مهما بلغ شأنه فهو شاهد بحقيقتها وليعلم أصحاب القلوب المريضة أن العلم الحقيقي لا يمكن أن يصطدم مع حقائق القرآن . إذ أن مُنزله هو الله عز وجل الخالق لهذا الكون والعالم به وبقوانينه وسننه . فكثير مما توصل إليه العلم الحديث اليوم يكون قد أثبته القرآن أو أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام بقرون مضت .

من هذه الآيات الكونية :

---

(١) الفوائد / ص ٢٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم / جـ ٤ – ص ١٠٥ .
(وراجع : تفسير الجواهر – طنطاوي جوهري / جـ ١٩ – ص ٢٤٥ – ٢٤٩) .

١ – ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .
فقد بينت الآية أن الذي يرتفع في طبقات الجو العليا يضيق صدره ويصعب عليه التنفس . وها هو العلم الحديث يؤكد ويبين أن ذلك يعود إلى نقص نسبة الأوكسجين في طبقات الجو العليا ، والذي هو أساس في عملية التنفس ويستفيد منه الإنسان في الحياة . فجاء العلم الحديث مؤكدا ومعللا لها [١] .

٢ – يقول تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلَى قادرين على أن نسوِّىَ بنانه** ﴾ [القيامة : ٣ ، ٤] .
هذه الآية الكريمة وجهت الأنظار إلى أمر معجز ومذهل وهو أن أطراف الأصابع في الناس جميعا لا تتشابه ، بل تختلف من إنسان لآخر ، ولا يوجد ثَم اتفاق بين اثنين من البشر . هذا وإن كان ظاهرها التشابه والتقارب . فجاء العلم الحديث ليؤكد صدق هذه الآية ، حتى إن بصمات الأصابع استخدمت مؤخرا للتمييز بين الناس ولاكتشاف المجرمين [٢] .

٣ – ويقول تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق** ﴾
[العلق : ١ ، ٢] .
جاء العلم الحديث يبرهن أن الحيوان المنوي الذي خُلق الإنسان منه يشبه في شكله دودة العلق تماما . وذلك بواسطة المجاهر الدقيقة [٣] .

٤ – يقول تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مِمَّ خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ [الطارق : ٥ – ٧] .
فهذه الآية ظاهرة في الإعجاز حيث لم يعرف إلا منذ خمسين عاما فقط

---

(١) راجع : روح الدين الإسلامي – عفيف عبد الفتاح طبارة / ص ٥٥ .
(٢) راجع : تفسير الجواهر / جـ ١٩ – ص ١٥٤ – ١٦٠ .
(٣) روح الدين الإسلامي / ص ٦٣ .

أن منّي الرجل يكون من صلبه أي من ظهره ، وأن بويضات الأنثى تكون من عظام ترائبها أي صدرها [1] .

٥ – وقال الله تعالى : ﴿ **سبحان الذِى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ [يس : ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

فقد نصت الآيتان الكريمتان أن الكون كله يقوم على الزوجية في كل شيء ، ولم تعلم هذه الحقيقة عمليا إلا في هذا العصر الذي تقدم فيه العلم وازدهر ، حتى الذرة نفسها تتكون من الكترونات ذات الشحنة السالبة والبروتونات ذات الشحنة الموجبة . وأما النيوترون الموجود في نواة الذرة فهو عبارة عن تعادل شحنة سالبة مع شحنة موجبة .

إلى غير ذلك من المكتشفات الحديثة [2] والتي لها أصل بنص شرعي من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ ، وتدعو في جملتها إلى ألوهية الله تعالى وتعتبر باعثا قويا للعباد على عبوديتهم لله جل وعلا .

وسوف نحاول في هذا الفصل إبراز العبودية الحقة للكائنات التي في عالم الشهادة والتي يعنينا منها ما هو في القسم الأول وهو عبودية الإنس بما يظهر الجانب السلبي في هذا الكائن (الإنسان) ، والجانب الإيجابي ، ومدى تأثير الدواعي السابقة (الفطرة والشرائع والآيات الكونية) على عبوديته نحو خالقه جلا وعلا .

* * *

---

(١) راجع : الله العلم الحديث – عبد الرزاق نوفل / ص ١٤٥ .

(٢) مما تجدر الإشادة به ما تقوم به هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي ، من مجهودات طيبة في هذا المجال لربط المكتشفات الحديثة والنظريات العلمية بآيات الله تعالى المتلوة والكونية لإظهار عظم الإسلام وبيان المعجزة القرآنية الخالدة .

القســم الأول

عبوديــة الإنـس

التعريف بالإنس :

هم البشر ، الواحد إنسي ، والجمع أناسي ، وإن شئت جعلته إنسانا ثم جمعه على أناسي . قال تعالى : ﴿ وأناسِيَّ كثيرا ﴾ [الفرقان : ٤٩] . ويُقال للمرأة : إنسان ولا يُقال : إنسانة ، والإنسان هو نوع العالم والجمع : الناس .

وإنما سُمي إنسانًا لما عُهد إليه فنسيَ .

إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسِيَ ولم نجد له عزما ﴾ (١) [طه : ١١٥] .

والإنس والبشر والناس والعباد – هم الذين حملوا أمانة التكليف .

وقيل : سمي بذلك لأنه يأنس ويؤنس به – وهو الصحيح – وقيل : إن روح الإنسان تأنس بالحق وجسمه يأنس بالخلق (٢) .

استعمال القرآن للفظ « العباد » :

وردت لفظة « عباد » في القرآن الكريم وأُريد بها :

(١) عامة الناس مؤمنهم وكافرهم .
(٢) المؤمنون منهم فقط .
(٣) الأنبياء .
(٤) الملائكة .

---

(١) راجع : حياة الحيوان الكبرى – الدميري / جـ ١ – ص ٣١ .
(٢) بصائر ذوي التمييز – الفيروز أبادي / جـ ٢ – ص ٣١ .

(٥) سائر المخلوقات .

(٦) الكفار .

(١) العباد العوام – المؤمنون منهم والكافرون – :

هم المعنيون في آيات كثيرة في القرآن الكريم وأضيفوا إلى الله تعالى ، كما في قوله تعالى : ﴿ **والله بصير بالعباد** ﴾ [آل عمران : ١٥] .

وقوله : ﴿ **والله رءوف بالعباد** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وقوله : ﴿ **وما الله يريد ظلما للعباد** ﴾ [غافر : ٣١] .

وقوله : ﴿ **والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد** ﴾ [ق : ١٠] .

وقوله : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ [الأنعام : ١٨] .

وقوله : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فِي الأرض** ﴾ [الشورى : ٢٥] .

وقوله : ﴿ **إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ [غافر : ٤٨] .

فالكل عباد الله تعالى ، كما يتضح من الآيات الكريمة السابقة ، وذلك لحكم الله تعالى النافذ فيهم ، واطلاعه عليهم ، ورعايته لهم ، ورزقه إياهم ، وسريان أمره سبحانه وأقداره فيهم .

(٢) أما لفظ « العباد » الذي يقصد به المؤمنون بالله تعالى وحدهم :

فكما في قوله تعالى : ﴿ **قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم** ﴾ [الزمر : ١٠] .

وقوله : ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** ﴾ [الإنسان : ٦] .

وقوله : ﴿ **جنات عدن التِي وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾ [مريم : ٦١] .

وقوله : ﴿ **ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وقوله : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادِى الصالحون** ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

فهؤلاء العباد هم الذين تشرفوا بالإضافة إلى ربهم حقا دون غيرهم فكانوا عباد الله المخلصين ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ [الصافات : ١٢٨] ، وكانوا عباد الله

المؤمنين : ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ [الصافات : ١٣٢] ، وكانوا عباد الله الصالحين : ﴿ **وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾ [النمل : ١٩] .

فهؤلاء العباد وصلوا إلى مراتب العبودية لله تعالى وتفاوتوا فيها ، وذلك باختيار منهم وتوفيق من الله تعالى لهم ، وطوعا منهم وامتثالا لأوامر خالقهم واتباعا لأوامر رسلهم فكانوا حقا عباد الله تعالى [1] .

(٣) كما يطلق « العباد » على الأنبياء والمرسلين :

كما في قوله تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾ [الصافات : ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿ **قل الحمد لله وسلام علَى عباده الذين اصطفَى** ﴾ [النمل : ٥٩] .

(٤) كما يطلق « العباد » على الملائكة :

كما في قوله تعالى : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ [الأنبياء : ٢٦] .

وقوله : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا** ﴾ [الزخرف : ١٩] .

(٥) ويطلق « العباد » على جميع المخلوقات في عالم الغيب وعالم الشهادة :

كما في قوله تعالى : ﴿ **إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا** ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٦) وجاء لفظ « العباد » وقصد بهم الكفار فقط ، دون غيرهم من بقية العباد .

كما في قوله تعالى : ﴿ **ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ [يس : ٣٠] .

وقوله : ﴿ **أأنتم أضللتم عبادِى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل** ﴾ [الفرقان : ١٧] .

إن جميع الكائنات التي في عالم الغيب وعالم الشهادة بأصنافها المختلفة

---

(١) فكما تقول لآخر : ما رأيك في فلان ؟ فيقول : إنه رجل .. أي مستوفي صفات الرجولة الكاملة ، وإن كان المتكلم والمخاطب والغائب رجالا .

وصفاتها المتباينة تخضع لله عز وجل . والذي يهمنا هنا من أصناف الكائنات كلها هو الإنسان ، حيث جعله الله تعالى خليفة في الأرض لأداء مهمة عظيمة قد كُلف للقيام بها على أكمل وجه ، ألا وهي الأمانة التي عُرِضَت على السموات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ إشفاقا لا عصيانا ، فحملها الإنسان بما فيها ليحقق عبوديته لله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] . فكان الإنسان مميزا عن كثير من المخلوقات الأخرى لما وُكِلَ إليه من أمانة التكليف ، وأمده سبحانه بنعم كثيرة لا تحصى ولا تعد لتكون عونا له على القيام بتلك المهمة ، من السمع والبصر والعقل والإدراك وغيرها : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، كما فضله سبحانه على كثير من المخلوقات الأخرى ﴿ **ولقد كرمنا بنِي آدم وحملناهم فِي البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، بل إنه سبحانه سخر له كثير من الكائنات التي تؤدي عبوديتها لله عز وجل في السماء والأرض . ﴿ **وسخر لكم ما فِي السمٰوات وما فِي الأرض جميعا منه** ﴾ [الجاثية ١٣] . فكان من الواجب أن يخضع هذا الإنسان لله عز وجل خضوعا كاملا ، ويؤدي عبوديته على الوجه الأكمل لما أسبغ عليه من النعم الكثيرة ، ومنح من الرعاية الإلهية الواسعة ، أو على الأقل يكون شاكرًا لفضل المُنعِم عليه . ولكن مما يؤسِف أننا نجد الكثير من هذا الصنف من بين الكائنات ، كفر به سبحانه وجحد بنعمه وعصاه ، ولم يستح منه سبحانه ولم يقدره حق قدره . فكان من العجب أن يكفر الإنسان بربه ويجحد بآياته ونعمه ، ولهذا قص الله علينا في كتابه الكريم عن كفره وجحوده مع استمرار فضله سبحانه وعطائه له وعنايته به ، فقال تعالى : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

فكان الأولى بهذا الإنسان بعدما أُوتي كل ما سأل ، وبعد أن أعطي جميع تلك النعم ، أن يكون شكورًا لا كفورًا ، فيكون الخبر عنه « إن الإنسان لشكور » ، ولكن عجبا أن يكون هذا الإنسان بعد تلك النعم ظالما لنفسه ولربه كافرًا أي جاحدًا بربه ونعمه .

إن كثيرًا من الكائنات في عالم الشهادة لم تُعط من العناية والنعم بقدر ما خول هذا الإنسان ، إلا أنها قد أدت عبوديتها لله سبحانه إلا الشياطين وعصاة الجن وغيرهم من بعض الكائنات الأخرى التي بدر منها عصيان [1] . كما أن معصية تلك الكائنات التي بدرت منها ، لا تساوي المعصية التي وقع فيها كثير من هذا الإنسان . فمعصيته دائمًا أشد وأنكى ، حتى إن إبليس لم يجرؤ على مثل ما قاله بعض هذا الإنسان ، وهذا يظهر من أقوالهم وأفعالهم . فانظر إلى هذه الأقوال التالية بإمعان لكي تحكم على هذا الإنسان :

- فمنهم القائل : (أنا ربكم الأعلى وأن هذه الأنهار تجري من تحتي) .
- ومنهم القائل : (إن الله هو المسيح بن مريم) و (إن الله ثالث ثلاثة) .
- ومنهم القائل : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) .
- ومنهم القائل على ما آتاه الله تعالى من النعم والأموال :
  (إنما أوتيته على علم عندي) .
- ومنهم القائل : (ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة) .
  (ولا تأتينا الساعة) .
- ومنهم القائل : (أنا أحيي وأميت) .
- ومنهم القائل على سبيل التحدي والإنكار : (من يحيي العظام وهي رميم) ؟!
  و(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) .
- ومنهم القائل عن كلام الله تعالى : (إن هذا إلا سحر يؤثر) .
  و(إن هذا إلا قول البشر) .
  و(إن هذا إلا أساطير الأولين) .
- ومنهم القائل على رسل الله تعالى من البشر :
  (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) .

---

(١) سيأتي بيانه في مقدمة الكلام عن عبودية « الحيوان والنبات والجماد » .

و(إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) .

و(ساحر أو مجنون) .

و(هذا ساحر كذاب) .

- ومنهم القائل عن عباد الله تعالى من الملائكة : (إنهم بنات الله) .
- ومنهم القائل للمؤمنين : (إنا بالذي آمنتم به كافرون) .
- ومنهم القائل : (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) .

و(قلوبنا غلف) .

و(يد الله مغلولة) .

و(إن الله فقير) .

و(لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) .

- ومنهم القائل للمؤمنين لتثبيط هممهم : (لا تنفروا في الحر) .

و(لا تنفقوا على من عند رسول الله) .

و(ائذن لي ولا تفتني) .

- ومن يقول أيضا : (ليخرجن الأعز منها الأذل) .
- كما قال أقوالا كثيرة وما زال يقول حتى وجدنا في عصرنا هذا من يقول : « إن شريعة الله تعالى لا تصلح لهذا الزمان » .
- وآخر يقول : « إن حدود التعزير التي وضعها الله تعالى في كتابه للسارق وللزاني وللقاذف ولقاطع الطريق ، وحشية وهمجية » !!
- وآخر يقول : « إن الطبيعة هي التي خلقت العالم » .

إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التي تفوه بها بعض هذا الإنسان على مر الأزمان - وما زال يتفوه - والتي تدل في جملتها على تجرئه على مقام الألوهية واستكباره على العبودية ، ونحن هنا نتكلم عن الكثير من هذا الإنسان الذي طغى واستكبر من خلال أقواله وأفعاله .

وليس بمستغرب أن نجد ذكر الإنسان في كثير من آيات القرآن الحكيم ، على وجه الذم ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ،

وقوله : ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ [الإسراء : ١١] ، ﴿ **وكان الإنسان كفورا** ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، ﴿ **وكان الإنسان قتورا** ﴾ [الإسراء : ١٠٠] ، ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلا** ﴾ [الكهف : ٥٤] . وهذا حق لاشك فيه .

وقوله تعالى : ﴿ **بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيّان يوم القيامة** ﴾ [القيامة : ٥ ، ٦] .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾ [عبس : ١٧] !!

وقوله : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى** ﴾ [العلق] .

وقوله : ﴿ **إن الإنسان لفِي خسر** ﴾ [العصر : ٢] .

فتبًّا لمَنْ كفر من الإنسان لعظيم كفره بالله تعالى وجحوده بنعم خالقه ، ويا سبحان الله العظيم . ما أحلمه على هذا المخلوق الضعيف الذي خُلِق من ماء مهين . كرمه الله تعالى ، فأبى إلا المعصية ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فِي أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾ [التين : ٤ ، ٥] .

فقد بيَّن الله عز وجل سجود الكائنات كلها وخضوعها له سبحانه ، ولما جاء ذكر سجود الإنسان فرَّق فيه فمنهم مَنْ سجد طوعًا منه واختيارًا ، ومنهم مَنْ خضع لله تعالى كرهًا .

فقال تبارك وتعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِي السمٰوات ومن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [الحج : ١٨] .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية : « ويتدبر القلب هذا النص فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك ، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم ، وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان ، إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله وتتجه إليه وحده دون سواه ، تتجه إليه وحده في وحدة واتساق ، إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق

﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ فيبدو هذا الإنسان عجيبًا في ذلك الموكب المتناسق »[1] أ.هـ .

ولكن إن كان هذا هو حال هذا الكائن كما قدمنا ما يثبت كفره وجحوده وعصيانه . فلسائل أن يقول : أين عبوديته لله تعالى إذًا ؟!!

فأقول : إن ما قدمناه سابقًا هو الوجه الغالب على الكثير من هذا النوع من الكائنات فقد قال تعالى : ﴿ **إن فِي ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ [الشعراء : ٨] .

وقال عز من قائل : ﴿ **وقليل من عبادِىَ الشكور** ﴾ [سبأ : ١٣] .

فهؤلاء القلة المذكورة التي استحقت خلافة الله تعالى في الأرض وأدت الأمانة التي وكلت إليها وقامت بعبوديتها لله عز وجل حقًّا ، هي التي سنتكلم – بمشيئة الله تعالى – عنها بالتفصيل وعن أفرادها . فمنهم مَنْ ترقى إلى منزلة العبودية حتى وصل إلى مراتب الصالحين ، ومنهم مَنْ في مراتب الشهداء ، ومنهم مَنْ وصل إلى مراتب الصدِّيقين ، ومنهم مَنْ اصطفاه الله تعالى على الخلق أجمعين وهم أنبياؤه ورسله ومنهم مَنْ اصطفاه من هؤلاء وجعلهم أُولي العزم من جميعهم ، ومنهم مَنْ اصطفاه على أُولي العزم من الرسل وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

وسوف نتكلم تباعًا عن عبودية الأنبياء[2] ، وعبودية أتباعهم[3] ، أما هنا فإنا نتكلم عن عبودية عموم الإنس ، وعن مَنْ هداه الله تعالى إلى الصراط المستقيم واتبع أمر ربه تعالى وأمر رسله وتوصل إلى المراتب العالية من مراتب العبودية ليكونوا نبراسا لأتباعهم في الوصول إليها . فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) في ظلال القرآن / المجلد ٤ – ص ٢٤١٤ .

(٢) سيأتي بالتفصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل / ص ١٤٥ .

(٣) سيأتي بالتفصيل في المبحث الرابع من هذا الفصل / ص ٢١٤ .

إن المُطيعين من الإنس يتفاوتون فيما بينهم تفاوتًا عظيمًا في العبودية ، ولهم مراتب عديدة لا يعلمها إلا رب العباد ، وهم بحسب أعمالهم وحسب علمهم .

ذكر ابن القيم – رحمه الله تعالى – عن مراتب العبودية فقال : « إن للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل .

فأما مراتبها العلمية فمرتبتان :

إحداهما : العلم بالله تعالى . **والثانية** : العلم بدينه .

فأما العلم به سبحانه ، فخمس مراتب : العلم بذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه .

والعلم بدينه مرتبتان : إحداهما : دينه الأمري الشرعي وهو الصراط المستقيم الموصل إليه .

والثانية : دينه الجزائي ، المتضمن ثوابه وعقابه ، وقد دخل في هذا العلم العلم بملائكته وكتبه ورسله .

وأما مراتبها العملية فمرتبتان :

إحداهما : مرتبة لأصحاب اليمين . **والثانية** : مرتبة السابقين المقربين .

فأما مرتبة أصحاب اليمين : فأداء الواجبات ، وترك المُحرَّمات ، وارتكاب بعض المكروهات ، وترك بعض المُستحبات .

وأما مرتبة المقربين : فالقيام بالواجبات والمندوبات ، وترك المُحرَّمات والمكروهات زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم متورعين عما يخافون ضرره ، وهؤلاء يأتون طاعات وقربات .

ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله سبحانه » [1] أ.هـ .

---

(١) مدارج السالكين / جـ ١ – ص ١٠٧ – ١٠٩ .

وقد أُمِرَ هذا الإنسان بأن يُعْمِل أعضاءه في طاعة الله تعالى ولا يعملها في معصيته ، فأعضاء الإنسان آلات يستخدمها في كل عبادة يتقرب بها إلى الله عز وجل ويحقق بها عبوديته له سبحانه . لذا فإن العبودية منقسمة على أعضاء هذا الإنسان كلها .

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله تعالى – كلامًا وافيًا عن انقسام العبودية على أعضاء الإنسان فقال (ما ملخصه) : « إن العبودية منقسمة على الأعضاء بالنسبة للإنسان على : القلب واللسان والجوارح وكل منها له عبودية تخصه ، ولكل منها حكمها الشرعي الذي يدور بين الوجوب ،الاستحباب والحرام والكراهية .

فعبودية القلب : يلزمها القيام بواجباته من الإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية الصالحة .

ثم قال : والمقصود أن يكون ملك الأعضاء – وهو القلب – قائمًا بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته . ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » [١] .

وأما عن المُحرَّمات التي على القلب فهي : الكِبْر ، والرياء ، والعجب ، والحسد ، والغفلة ، والنفاق . وهذه الآفات تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها .

ثم ذكر – رحمه الله تعالى – عبودية اللسان وواجباته من النطق بالشهادتين وتلاوة ما يلزم من قراءة القرآن وتتوقف عليه صحة الصلاة ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال .

---

(١) بخاري / ك : الإيمان – ب : فضل من استبرأ بدينه .
مسلم / ك : المساقاة والمزارعة – ب : أخذ الحلال وترك الشبهات .

وأما مستحباته : فتلاوة القرآن ، وذكر الله تعالى ، والمذاكرة في العلم النافع .

ثم ذكر - رحمه الله تعالى - عبودية الجوارح فقال : « فعلى السمع واجبات . هي الاستماع إلى دعوة الإسلام والقرآن وخطبة الجمعة ، كما يحرم سماع البدع والأغاني والمعازف .

وأما النظر فواجبه النظر إلى المصحف وإلى مخلوقات الله عز وجل وآلائه الكونية الدالة على وحدانيته .

ومُحرَّماته : النظر إلى المرأة الأجنبية ، وإلى العورات .

وأما اليد : فواجبها مساعدة المحتاج بها ، ورمي الجمار في الحج .

ومستحباتها : إزالة الأذى عن الطريق .

ومُحرَّماتها : قتل النفس بغير الحق ، والسرقة ، وضرب من لا يحل ضربه .

وأما القدم : فواجبها السعي إلى المساجد للجماعات .

وحرامها : المشي إلى ما يُغضب الله عز وجل » [١] أ.هـ .

ممَّا سبق يتبين توزيع العبودية على أعضاء الإنسان كلها . وقد ذكر النبي ﷺ ما يجب على هذه الأعضاء من الصدقات لتكفير ما تعمل من سوء وبيَّن هذه الصدقات التي تمحو السيئات ، فقال ﷺ : « يصبح على كل سلامى [٢] من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكَر صدقة ، ويجزيء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » [٣] .

---

(١) مدارج السالكين / جـ ١ - ص ١٠٩ - ١٢٢ .

(٢) هي عظام الأصابع ، وهي التي بين كل مفصلين من أصابع الإنسان ، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله . (مختصر مسلم / ص ١٠١) .

(٣) مسلم / ك : الصلاة - ب : صلاة الضحى ركعتان (ومختصره / ح رقم ٣٦٤) ، انظر السلسلة الصحيحة / ح ٥٧٧ .

وبذلك التقسيم على الأعضاء كلها يتفاوت الناس جميعًا في مقدار قيامهم بعبودية الله تعالى ، بل إن الأعضاء في الجسد الواحد تتفاوت في الأداء . وتبعا لذلك ، فإن عبودية الإنس لله تعالى تكون فيها زيادة ونقصان . وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « كلما قوي طمع العبد من فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه ، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له ، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، وكما قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره وأفضَل إلى من شئت تكن أسيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره » [1] .

وقال – رحمه الله تعالى – : « فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية ممَّا سواه » [2] .

وقال – رحمه الله تعالى – : « والعبد كلما ذل لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعا له كان أقرب له وأعز له وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية الله » [3] .

ومن ثَمَّ يكون العبد كلما خضع لله تعالى ، وذل له سبحانه وامتثل أوامره ، كان أكثر عبودية لله تعالى وأكثر افتقارًا واحتياجًا إلى الله ، ولكنه في الوقت نفسه أكثر حرية من عبودية البشر وأكثر إعزازًا على الكافرين والطغاة والعصاة . فيجعل الله تعالى غنى هذا العبد في قلبه ويمنحه قوة من عنده سبحانه كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ [محمد : ٧] .

وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال : « مَنْ كانت الدنيا همه ، فرق الله

---

(١) العبودية / ص ٤٤ – ٤٥ .

(٢) المصدر السابق / ص ٥٣ .

(٣) الفتاوى / جـ ١ – ص ٣٩ .

عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومَنْ كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة [١] » [٢] .

فعزة المؤمن واستعلاؤه وغناه ، كامِن في عبوديته لله تعالى وحده وخضوعه له . وفي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – يرفعه إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال : « يقول الله سبحانه وتعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك » [٣] .

الخواص والعوام من عباد الله تعالى :

أوضحنا في الفصل الأول مفهوم العبودية ، وأنها تنقسم إلى عبودية عامة وعبودية خاصة .

فاعلم – رحمك الله تعالى – أن الناس كلهم عباد الله تعالى المسلمون منهم والكافرون ولكن عباد الله المخلصون هم الذين استحقوا الإضافة التشريفية لله تعالى ، لما أتوا من العبادات الصالحة التي تقربهم إلى خالقهم . وأما العباد الكافرون فإضافتهم لله لما خضعوا لمشيئة خالقهم ونفاذ حكم الله تعالى وسريان أقداره فيهم ، وهذه الأشياء كلها يشترك فيها جميع العباد الصالحون وغيرهم ، ولكن الصالحين خصوا بشرف هذا اللقب ، بفضل عبادتهم وإيمانهم بالله تعالى وتحقيقهم العبودية الحقة لله تعالى .

فقد ذكر ابن تيمية – رحمه الله تعالى – الصنفين فقال : « فإن العبد تارة

---

(١) (أتته الدنيا وهي راغمة) : أي مقهورة . والحاصل أن ما كتب للعبد من الرزق يأتيه لا محال إلا أنه من طلب الآخرة يأتيه بلا تعب . ومَن طلب الدنيا يأتيه بتعب وشدة .
(صحيح ابن ماجة – الألباني / مجلد ٢ – ص ٣٩٣) .

(٢) ابن ماجة / ك : زهد – ب : الهم بالدنيا . (وصحيحه / ح رقم ٣٣١٣) .

(٣) ابن ماجه / ك : زهد – ب : الهم بالدنيا . (وصحيحه / ح رقم ٣٣١٥) .

يعني به المعبَّد فيعم الخلق كما في قوله تعالى : ﴿ **إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتِي الرحمن عبدا** ﴾ . وتارة يعني به العابد فيخص ، ثم يختلفون ، فمن كان أعبد علمًا وحالا كانت عبوديته أكمل فكانت الإضافة في حقه أكمل ، مع أنها حقيقة في جميع المواضع » [1] أ.هـ .

وهذا يجعلنا نسلم بإدخال الكافرين في عموم عباد الله تعالى في مثل قوله تعالى : ﴿ **إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتِي الرحمن عبدا** ﴾ [مريم : ٩٣] ، وبدليل قوله : ﴿ **كل له قانتون** ﴾ [البقرة : ١١٦] .

وقوله : ﴿ **وله أسلم من فِي السمٰوات والأرض** ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وقوله : ﴿ **وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ [الحج : ١٨] .

فالكل عباد الله تعالى وذلك من وجوه :

الأول : علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه .

الثاني : دعاؤهم إياه عند الاضطرار ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ **حتَّى إذا كنتم فِي الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ [يونس : ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **وإذا مسكم الضر فِي البحر ضل من تدعونَ إلا إياه** ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

الثالث : خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقدار ومشيئة من الهرم والأكل والنوم والمرض والمصائب والموت .

الرابع : فقر المخلوقات إلى الله تعالى . بمعنى حاجتها كلها إليه وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به ، وهذا أول درجات الافتقار ، (كما يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى –) [2] .

---

(١) الفتاوى / جـ ٥ – ص ١٠٥ .
(٢) الفتاوى : جـ ١ – ص ٤٥ .

فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى محدثها ، وأن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الرازق ، وأن الحاجة إلى التنفس ، وأنه لا حياة إلا به دليل على افتقار المخلوق إلى الخالق القادر الواهب للإنسان النفس ، وهكذا .

فالعباد كلهم يشتركون في الافتقار إليه سبحانه حتى في المصائب التي يصابون بها .

ولكنهم يفترقون فيما بينهم افتراقًا كبيرا ، فعباد الله تعالى من الكفار ، والعصاة يصابون بالمصائب ويواجهونها بجَزَع وسخط ، ولكن عباد الله الخواص يقابلون هذه المصائب بالصبر والرضا لقضاء الله تعالى والذكر له بقولهم إنا لله وإنا إليه راجعون . وكذلك بالنسبة للأكل والشرب . فعباد الله تعالى العوام من الكافرين والعصاة يأكلون ويشربون كما تأكل الأنعام ، أما عباد الله تعالى الخواص فيأكلون الأكلة فيسمون الله تعالى عليها ويحمدونه ، ويشربون الشربة فيحمدون الله عليها . وهكذا بالنسبة لجميع احتياجاتهم وافتقارهم ، وجميع ما يحصل لهم من أقدار الله تعالى وحكمه ، هم دائمون على الذكر والشكر والثناء على الله عز وجل .

وقد سبق بيان اشتراك المؤمنين وغيرهم في مسمى « العباد » ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء . قال تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون** ﴾ [ن : ٣٥ ، ٣٦] ، وقال ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون** ﴾ [السجدة : ١٨] .

مراتب العباد في العبودية :

ذكرنا آنفا أن العباد يتفاوتون فيما بينهم في تحقيق العبودية حسب ما يأتون من العبادات التي تقربهم إلى الله تعالى . ذلك لما يوجد بينهم من تفاوت في القيام بأعباء العبودية . إذ بعضهم يقوم بالحد الأدنى ، والآخرون بالحد الأقصى ، وهم الأنبياء ، وآخرون بالوسط . ولما يعتري غيرهم من التقصير في جنب الله تعالى ، ووقوعهم من آن لآخر في المعاصي والآثام ، وهذا لا يخرجهم عن كونهم عباد

الله الخواص ، ولكن ينقصون بقدر ما يذنبون ، ثم يتوب الله تعالى على مَنْ تاب منهم ، فيرتفع بتوبته إلى درجات العبودية . فحصول العبودية ، وحصول أعلى درجاتها يكون بما يقوم به العبد تجاه ربه سبحانه من الطاعات وامتثاله للأوامر والنواهي . وممَّا يعين العبد على حصوله لمقام العبودية ، ويجعله يرتقي فيها لأعلى درجاتها ، ما أطلق عليها شيخ الإسلام ابن تيمية « محركات القلوب » .

فقال – رحمه الله تعالى – عنها : « اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة : المحبة ، والخوف ، والرجاء ، وأقواها المحبة . ثم قال : فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه ، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ، فهذا أصل عظيم ، يجب على كل عبد يتنبه له ، فإنه لا تحصل عبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره » [1] أ.هـ .

ومراتب العباد – بين أعلى درجات العبودية وأدناها – كثيرة لا يحصيها إلا رب العباد نذكر هنا بعضا منها . فنقول وبالله التوفيق :

(المرتبة الأولى) :

مرتبة الرسالة والنبوة ، وهي أعلى المراتب ، وأصحابها هم المصطفون من عباد الله كما قال تعالى : ﴿ **الله يصطفِي من الملائكة رسلا ومن الناس** ﴾ [الحج : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفَى** ﴾ [النمل : ٥٩] .

وأهل هذه المرتبة يتفاوتون فيما بينهم بفضل بعضهم على بعض [2] ، ولكنهم اختصوا بوحي الله تعالى إليهم . قال تعالى : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وهؤلاء هم خواص الخواص من البشر . وهم على درجات :

---

(١) الفتاوى / جـ ١ – ص ٩٥ .

(٢) وقد خصصنا مبحثا للكلام على بعض هؤلاء الصفوة ، وهو المبحث الثاني من هذا الفصل .

(١) أُولوا العزم من الرسل .　　(٢) عامة الرسل .
(٣) عامة الأنبياء .

وقد قاموا جميعًا بالعبودية لله تعالى حق قيام ، وكانوا قدوة لأقوامهم في حياتهم وبعد مماتهم .

(المرتبة الثانية) :

هي مرتبة أصحاب الأنبياء والرسل [(١)] . فهم ورثة الرسل وخلفاؤهم ، وهم القائمون بما أمر الله تعالى به على لسان رسله – علما وعملا – وهم الوسائط في التبليغ عن الرسول وأمته من بعده ، وهم الربانيون والحواريون ، الذين كانوا مع الرسل في حياتهم فآمنوا بهم وآزروهم ونصروهم .

وهذه المرتبة هي أفضل مراتب الخلق بعد مرتبة الرسالة والنبوة ، أصحابها فُضِّلوا على بقية الأمة لقيامهم بالعبودية على أكمل وجه ، وكذلك لنصرتهم للرسل في الوقت الذي كان فيه الأغلبية على الكفر بهم والتكذيب برسالتهم . فتحمل أصحاب هذه المرتبة العذاب والنكال من الكافرين بالرسالة حتى أقاموا مع رسلهم دين الله تعالى وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله عز وجل وقاتلوا مع مَنْ قاتَل من رسل الله تعالى . فأثابهم الله تعالى على ما بذلوا خيري الدنيا والآخرة . وأهل هذه المرتبة يتفاوتون في آدائهم العبودية لله عز وجل . فتفاوتوا بذلك في منازلهم في الآخرة فأعلاهم الصدِّيقون ، وهم الذين قرنهم الله تعالى في كتابه الكريم بأنبيائه ، فقال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾ [النساء : ٦٩] . ومثالهم من هذه الأمة المحمدية أبو بكر الصديق – رضي الله تعالى عنه – .

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأُمة » [(٢)] .

---

(١) وقد خصصنا مبحثا للكلام عنهم في المبحث الرابع من هذا الفصل .
(٢) طبقات المكلفين / ص ٨ .

(**المرتبة الثالثة**) :

هي مرتبة المجاهدين في سبيل الله تعالى ، وهم جند الله عز وجل الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه وهم الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله ، ويكفي أنهم قد ربحوا التجارة مع خالقهم بما بذلوا من أموالهم وأنفسهم .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١] .

وأهل هذه المرتبة – وهم المجاهدون – يتفاوتون فيما بينهم بين مائة درجة في الجنة وذلك لحديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض . فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » (١) .

فقد باعوا أنفسهم وأموالهم لله عز وجل فقبِل البيع منهم وأثابهم الجنة . فقال تعالى : ﴿ **إن الله اشترَى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فِي سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا فِي التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفَى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة : ١١١] .

والمجاهدون أعلاهم الشهداء ، وهم كذلك يتفاوتون في منزلة الشهادة ، ولرب مقاتل خير من شهيد إذ قاتل في سبيل الله مع قيامه في حياته بالعبودية

---

(١) بخاري / ك : الجهاد – ب : درجات المجاهدين في سبيل الله .

لله تعالى ولكنه لم يرزق الشهادة رغم حرصه عليها . فهذا خالد بن الوليد [1] - رضي الله تعالى عنه - قاتل وشهد الغزوات مع النبي ﷺ ومن بعده ، ولكنه يموت على الفراش . ويروى أنه لما حضرته الوفاة بكى وقال : « لقيت كذا وكذا زحفًا وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » . والعير : هو الحمار الوحشي [2] .

وقد يرزق الشهادة من هو مقصر في جنب الله تعالى من قبل ، بل ومرتكب للمعاصي والآثام ولكن أخلص نيته للقتال والدفاع عن دين الله عز وجل فقاتل وقتل ورزق الشهادة ، فالله عز وجل عنده القسطاس المستقيم ، ولا يظلم الناس شيئا ، ولا يضيع أجر المحسنين ، فلا يستوي المقاتل المجاهد الذي يقوم بالعبودية الحقة ، مع المقاتل الشهيد الذي كان مقصرا في أداء العبودية ، هذا وإن كان وعد الله تعالى بالجنة ثابتًا لهما .

(المرتبة الرابعة) :

هي مرتبة العلماء [3] .. وهم الذين يحملون أمانة العلم ويحفظون دين الله تعالى من الضياع ويبلغونه للناس ويعظونهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ويواجهون بالعلم ولاة الأمر الطغاة ويردونهم عن ظلمهم ، كما يُعلِّمون الجاهل ويرشدون الضال . ويقومون بالذب عن دين الله تعالى بالرد على المبتدعة وأهل الأهواء فهم الوارثون للأنبياء وهم الراسخون في العلم ، أكثر العباد الخواص

---

(١) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي ، سيف من سيوف الله ، شهد مع قريش الحروب ضد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم أسلم في السنة السابعة قبل الفتح ، وشهدها وما بعدها من المشاهد ، ولاه أبو بكر لقتال أهل الردة وحرب فارس والروم وغيرها ، عزله عمر في خلافته ، توفي سنة ٢١ هـ .
(تهذيب التهذيب / جـ ٣ - ص ١٢٤) .

(٢) تهذيب التهذيب / جـ ٣ - ص ١٢٤ .

(٣) وهؤلاء العلماء سوف نتكلم عنهم في آخر الرسالة في مبحث : « أسباب الانحراف » وكذا « طريق النجاة » للمهمة العظمى التي وكلت إليهم ولم يؤد الكثيرون منهم حقها إلا من رحم الله تعالى .

لله تعالى خشية ، قال تعالى : ﴿ **إنما يخشَى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

فضل العالِم العامِل منهم عظيم يستغفر له مَنْ في السموات ومَن في الأرض حتى النملة في جحرها والحيتان في البحر .

فعن أبي الدرداء [(١)] – رضي الله تعالى عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له مَنْ في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء . وإن فضل العالِم على العابِد كفضل القمر على سائر الكواكب . وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » [(٢)] . وقد قرن الله تعالى شهادتهم بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة على ألوهيته وحده عز وجل فقال : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

فهنيئًا لأهل هذه المرتبة لما أعده الله تعالى لهم ، ولاستغفار الكائنات لهم . نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ، وذلك لما تحمَّلوه من أمانة العلم الشرعي ، ونسأله سبحانه أن نكون من العاملين بهذا العلم ، فإن العلم الذي لا يورث العمل به فالجهل أولى به .

(المرتبة الخامسة) :

وهي مرتبة أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس باختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم ، رغبوا فيما عند الله تعالى من الثواب العظيم ، وآمنوا بأن ما ينفقونه من الأموال لا ينقص مما عندهم بل يزداد ،

---

(١) أبو الدرداء هو : عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري ، صحابي جليل ، أول مشاهده أُحد وكان عابدًا ، مات في آخر خلافة عثمان . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٩١) .

(٢) ابن ماجة / ك : مقدمة – ب : فضل العلماء والحث على طلب العلم .
(وصحيحه / ح رقم ١٨٢) .

وأنه ما نقص مال من صدقة . فقال تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦١] . وقال تعالى : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [البقرة : ٢٧٤] . وقال : ﴿ **إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم** ﴾ [الحديد : ١٨] ، وقد قام هؤلاء بما فرض الله تعالى عليهم من أمور الدين خير قيام وانتهوا عما نهى الله تعالى عنه ، فتساووا في هذا المقام مع غيرهم من الصالحين ثم فضلوا على غيرهم بمزية الإنفاق في وجوه الخير .

فهؤلاء الصنف من العباد اعتقدوا اعتقادا جازما بأن ما عندهم ينفد وما عند الله تعالى باق ، وأن ما ينفقونه من هذه الأموال ليست لهم وإنما المالك الحقيقي لها هو الله عز وجل ، وأنه سبحانه قد جعل هذه الأموال في أيديهم فاستخلفهم فيها لينظر سبحانه ماذا يفعلون ، فمن تصرف في مال الله تعالى بما يرضيه وبما أمر فقد أفلح وكان نعم المستخلف . فهؤلاء العباد تساووا مع غيرهم في أداء ما أوجب الله تعالى في أموالهم من حقوق وازدادوا بإنفاقهم في أوجه البر المختلفة ، رغبة فيما عند الله تعالى لا يريدون من أحد جزاء ولا شكورا .

قال تعالى : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** ﴾ [الحديد : ٧] .

(المرتبة السادسة) :

وهي مرتبة الصالحين الذين ازدادوا بعبادتهم ونوافلهم قربًا إلى الله تعالى فقاموا بفرائض الله تعالى وازدادوا عليها بالنوافل وذلك بما فتح الله تعالى عليهم من أبواب الخير كالصلاة وقراءة القرآن والصوم والاعتكاف والذكر ونحوها ، فمنهم الصائمون ومنهم القائمون ومنهم الذاكرون ومنهم الصابرون . فهؤلاء جميعا قد جاهدوا في تكثير حسناتهم ومحو زلاتهم . فهؤلاء أهل الربح والسابقون بالخيرات ، ويتفاوتون فيما بينهم باختلاف قيامهم بالنوافل والطاعات ، وإذا عمل أحدهم خطيئة وتاب منها فإن الله تعالى يتوب عليه . وقد مدحهم الله عز وجل في كتابه

فقال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ الآية [السجدة : ١٦] ، وقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحَب إليّ ممَّا افترضته عليه ، وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأُعطينه ولئن استعاذني لأُعيذنه » (١) .

(المرتبة السابعة) :

وهي مرتبة أهل النجاة ، ممن يؤدي فرائض الله تعالى ويترك محارمه ، مقتصرا على ذلك لا يزيد ولا ينقص عما افترضه الله تعالى عليه ، فهؤلاء من المفلحين لحديث الرجل الذي سأل عن الإسلام ثم قال بعدما علم : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . فقال عليه الصلاة والسلام : « أفلح إن صدق » (٢) ، وفي رواية : « دخل الجنة إن صدق » (٣) .

فالنجاة في أداء فرائض الله تعالى من الصلوات المفروضة ، والزكاة ، والصوم ، وحج البيت لمن استطاع ، واجتناب المحارم ، وعدم الوقوع فيها ، فإن أحد أصاب من الصغائر شيئا كفرت عنه الحسنات التي يقوم بها . كما قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفَي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرَى للذاكرين ﴾ [هود : ١١٤] ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » (٤) .

---

(١) بخاري / ك : الرقاق - ب : التواضع .

(٢) بخاري / ك : الإيمان - ب : الزكاة من الإسلام .

(٣) بخاري / ك : الصوم - ب : وجوب صوم رمضان .

(٤) الترمذي / ك : البر والصلة - ب : ما جاء في معاشرة الناس . (وصحيحه / ح رقم ١٦١٨) .

(**المرتبة الثامنة**) :

وهي مرتبة الذين أسرفوا على أنفسهم وغشوا كبائر ما نهى الله تعالى عنها ، ولكنهم يؤدون ما افترض الله تعالى عليهم . فأدوا جانبا من العبودية وفرطوا في جانب ، فيتوبون من معاصيهم من وقت لآخر ، ولكن غواية الشيطان لهم دائمة ، وقلوبهم إليها مائلة ، فهم ظالمون لأنفسهم فيما يقعون فيه من الذنوب ، ولكنهم يسمعون قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾ [التحريم : ٨] فتميل قلوبهم إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى .

وأهل المراتب الثلاثة الأخيرة ذكرهم الله عز وجل في كتابه بقوله : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ [فاطر : ٣٢] .

ثم دون ذلك مراتب أخرى للعباد لا يعلمها إلا رب العباد في تحقيق العباد لعبوديتهم لله تعالى . حتى نجد منهم من يحقق الجزء القليل من العبودية فيجزيه الله تعالى على ذلك الخير الكثير ، كما جاء في ذلك الرجل الذي لم يعمل خيرا قط ، وقد أمر بنيه أن يحرِّقوه إذا مات ، وذلك جهلا منه بقدرة الله تعالى على جمع أعضائه المتفرقة ففعلوا ، فكان السبب في رغبته هذه هو خشية الله تعالى ، والخوف من عقابه ، فقد أيقن وآمن إيمانا راسخًا بأن الله تعالى إن بعثه ليعذبنه على سيئاته عذابًا شديدًا ، فقَبِل الله تعالى منه هذا القدر من العبودية ، مع أنه لم يفعل خيرًا قط . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال عليه الصلاة والسلام : « قال رجل لم يعمل خيرًا قط إذا مات فحرِّقوه ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالَمين ، فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال : لِمَ فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم ، فغفر له » [1] .

---

(١) بخاري / ك : التوحيد – ب : قوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ .
مسلم / ك : التوبة – ب : في خشية الله عز وجل وشدة الخوف من عقابه .
(ومختصره / ح رقم ١٩٣٤) .

وكذلك في حديث قاتل المائة [1] ، وفيه أنه قد غفر له بتوبته النصوح ورغبته في الله تبارك وتعالى .

والمرأة البغي التي دخلت الجنة بسبب سقياها الكلب [2] .

فكل هذه الأدلة وغيرها تدل على أن القيام بالعبودية والوصول إلى إحدى مراتبها ودرجاتها وإن قلَّت ، فإن الله تعالى يقبله ويباهي به ملائكته الكرام ، حيث أظهر هذا العبد عبوديته لله تعالى ، وأنه لا غنى له إلا به سبحانه . أما عن الأفضلية التي تميز عبدًا عن آخر فهي مرتبطة بما يقوم به العبد تجاه ربه من الطاعات والعبادات ، فقد ورد عن عمران بن حصين [3] – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل عباد الله الحمَّادون » [4] . أي الدائمون على الحمد في السراء والضراء ، وهذا لا يحصر الأفضلية في الحمد فقط ولكن يضاف إليه التسبيح والتكبير والتهليل وغيرها من الطاعات حيث جاء في الحديث : « وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » [5] .

هذه المراتب والدرجات كلها خاصة بالمؤمنين الذين تجمعهم دائرة الإيمان بالله تعالى .

دركات الكافرين :

ثم تأتي بعد ذلك دركات الخارجين عن دائرة الإيمان والجاحدين بالله تعالى والمستكبرين على مقام العبودية . (نجانا الله تعالى منهم ، ونعوذ به من شرورهم) .

---

(١) مسلم / ك : التوبة – ب : قبول توبة ممن قتل مائة نفس . (ومختصره / ح رقم ١٩١٩) .
(٢) بخاري / ك : بدء الخلق – ب : إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه .
(٣) هو : عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي ، أبو نجيد ، أسلم عام خيبر ، وله صحبة ، وكان فاضلا ، وقضى بالكوفة ، مات سنة ٥٢ هـ بالبصرة . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٨٢) .
(٤) صحيح الجامع / ح رقم ١٥٦٧ ، والسلسلة الصحيحة / ح رقم ١٥٨٤ .
(٥) الترمذي / ك : الدعوات – ب : فضل لا حول ولا قوة إلا بالله .
(وصحيحه / ح رقم ٢٨٣٧) .

(**الدركة الأولى**) :

وهي دركة المنافقين ، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر . فهؤلاء أشقى الأشقياء في الدنيا والآخرة . فقد طبع الله تعالى على قلوبهم في الدنيا . ونسوا الله فنسيهم قال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ [المنافقون : ٣] .

وأما في الآخرة فهم في أسفل السافلين في النار . قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ [النساء : ١٤٥] .

(**الدركة الثانية**) :

وهي لرؤساء الكفر وأئمته ودعاته وأولياء الشيطان الذين صدوا عباد الله تعالى عن الإيمان به ، وعن الدخول في دينه .

فهؤلاء في الدنيا هم شرار الخلق ، بل شر الدواب عند الله تعالى ، بل إن الدواب خير منهم ، كما سيأتي بيانه في القسم الثاني من هذا الفصل .

قال تعالى : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون** ﴾ [الأنفال : ٥٥] .

وقال : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وقال : ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وأما في الآخرة فعذابهم مضاعف . قال تعالى : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾ [النحل : ٨٨] .

وفسادهم في كفرهم بالله تعالى ، وإفسادهم في صدهم الناس عن سبيل الله تعالى ، لذا عوقبوا على كفرهم وكفر أتباعهم . فلولاهم لاتبع كثير من الناس الحق . وهم كما كانوا أئمة في الكفر والضلال سيكونون يوم القيامة أئمة لأتباعهم يتقدمونهم للدخول في النار . ولهذا يكون فرعون – لعنه الله تعالى – إمام قومه يوم القيامة في النار . قال تعالى : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار** ﴾ [هود : ٩٨] .

(**الدركة الثالثة**) :

وهي دركة الأتباع لأئمة الكفر والنفاق . وهم المقلدون وجهَّال الكفرة الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أسوة بهم . فهم تبع لساداتهم في البعد عن عبودية الله عز وجل والقيام بها والكفر به سبحانه ، والاستكبار على عبوديتهم وإن كانوا دونهم في الصد عن سبيل الله تعالى .

وخلاصة الأمر أن العباد يتفاوتون في مراتبهم ودرجاتهم في القيام بالعبودية لخالقهم تبارك وتعالى ، كما يتفاوتون في دركات الكفر والتمرد على العبودية . وأن المراتب التي ذكرناها ليست على سبيل الحصر ، فالعلم بعددها لا يعلمه إلا رب العباد سبحانه ، وقد اقتبسنا من كتاب ابن القيم المسمى « طبقات المكلفين ومراتبهم في الدار الآخرة » هذه المراتب المذكورة آنفا مع حذف ما لا يستدعيه بحثنا . حيث إن كتاب ابن القيم يعني بصفة خاصة بطبقات العباد في الآخرة ومنازلهم في الجنة والنار ، ولكنا في بحثنا هذا نعني بمراتب العباد من حيث أداؤهم لعبوديتهم لله تعالى في الدنيا ، حيث دار التكليف والعمل .

صفات عباد الله تعالى الخواص :

لقد امتاز العباد الخواص بصفات حميدة ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم مدحًا لأهلها ومثالا لغيرهم ليقتفوا آثار الأعمال الصالحة التي تجعلهم – بالقيام بها – عباد الله تعالى الخواص . كما أمر الله تعالى عباده بطاعات وعبادات وأخلاقيات . لكي يرتفعوا بعبوديتهم له سبحانه إلى أعلى مراتب العبودية والدرجات السامية فيها ، فكان أهم ما أمرهم به سبحانه هو عبادته وحده ، فقال تعالى : ﴿ **يا عبادِىَ الذين آمنوا إن أرضِي واسعة فإيایَ فاعبدون** ﴾ [العنكبوت : ٥٦] ، ومن جملة ما أمر سبحانه عباده به إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقال تعالى : ﴿ **قل لعبادِىَ الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتِيَ يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ [إبراهيم : ٣١] . كما أمرهم سبحانه بتقوى الله فقال : ﴿ **قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم** ﴾ [الزمر : ١٠] . وأمرهم بالشكر على نعمائه فقال تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادِى الشكور** ﴾ [سبأ : ١٣] .

وأمرهم سبحانه بالقول الحسن فقال تعالى : ﴿ **وقل لعبادِى يقولوا التِى هِىَ أحسن** ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

كما نهاهم عز وجل عن أشياء ، وحذرهم من إتيانها ، منها : الظلم . فعن أبي ذر [١] - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » [٢] . كما نهاهم سبحانه عن القنوط من رحمته . فقال عز من قائل : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وبالجملة فإن عباد الله الخواص يأتون ما فرضه الله تعالى عليهم ويسلمون بالأوامر والنواهي تسليما لا جدال معه ، وفي هذا المعنى يشير الإمام ابن أبي العز الحنفي شارح العقيدة الطحاوية فيقول : « اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله ، على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع ، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أُمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به ، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ، ونهاها عنه ، وبلغها عن ربها . بل انقادت وأسلمت وأذعنت » [٣] ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضَى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

فعباد الله تعالى المؤمنون آمنوا بالله عز وجل ، وقدروه حق قدره فخضعوا له وأذلوا أنفسهم له ، أتوا ما أمرهم الله تعالى به واجتنبوا ما نهاهم الله تعالى عنه ، ففازوا بما أعده الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة ، وهذا ستتكلم عنه بمشيئة الله تعالى بعد قليل عقب بيان صفات عباد الله تعالى المؤمنين .

---

(١) أبو ذر الغفاري الصحابي المشهورِ ، اسمه جندب بن جنادة على الأصح وقيل بريدة ، تقدم إسلامه ، وتأُخرت هجرته فلم يشهد بدرًا . مات سنة ٣٢ هـ (التقريب / مجلد ٢ - ص ٤٢٠) .

(٢) مسلم / ك : الظلم - ب : في تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة .
(ومختصره / ح رقم ١٨٢٨) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية / ص ٢٩٠ .

إن الله تعالى قد ذكر كثيرًا من صفاتهم في سورة الفرقان [1] ، وأضافهم إليه سبحانه إضافة تشريف فقال : ﴿ **وعباد الرحمن** ﴾ ، فكانت صفاتهم كما يأتي :

(١) ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ أي بسكينة ووقار من غير استكبار كقوله تعالى : ﴿ **ولا تمش فِي الأرض مرحا** ﴾ [الإسراء : ٣٧] ، وقوله : ﴿ **واقصد فِي مشيك** ﴾ [لقمان : ١٩] .

(٢) ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ أي إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا .
قال سعيد بن جبير [2] : « ردوا معروفا من القول » [3] .
كما قال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغِي الجاهلين** ﴾ [القصص : ٥٥] .

(٣) ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ فهم مداومون على الصلاة والسجود وقيام الليل والطاعات التي تقربهم إلى ربهم ، فكان نومهم قليلا لما يقومون به من العبادة والخضوع لله تعالى بصلاتهم بالليل كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ [الذاريات : ١٧] .
وقوله تعالى : ﴿ **تتجافَى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ [السجدة : ١٦] .
فعباد الله الصالحون يبيتون لربهم سجدا وقياما يعبدون الله تعالى ويصلون له . يتقربون بذلك إليه سبحانه للوصول إلى أعلى منازل ودرجات العبودية .

(٤) ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ . إن عباد الله الصالحين أشد خوفا ووجلا من النار وعذابها

---

(١) الآيات من ٦٣ - ٧٦ .

(٢) هو : سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي ثقة ، ثبت فقيه ، كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟ يعنيه . حبشي الأصل ولد سنة ٤٥ هـ ، ولاه الحجاج القضاء ثم عزله ، من أجلّ الناس وهو الذي قتله سنة ٩٥ هـ .
(تهذيب التهذيب / مجلد ٤ - ص ١١ ، تذكرة الحفاظ / جـ ١ - ص ٧٦) .

(٣) راجع : تفسير القرآن العظيم / مجلد ٣ - ص ٣٢٤ .

ويشفقون منها ويؤمنون أنها حق وأنها بئس القرار ، فيسألون ربهم أن ينجيهم منها ومن عذابها . ولكن عجبا من هؤلاء الكفار الذين هم لها واردون يستهزءون بها ويسخرون منها فيقول تعالى : ﴿ **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب * يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد** ﴾ [الشورى : ١٧ ، ١٨] .

ويقول : ﴿ **الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون** ﴾ [الأنبياء : ٤٩] .

(٥) ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ .

فعباد الله المؤمنين ليسوا مبذرين ولا بخلاء كما قيل بأنهم غير مسرفين في الذنوب ولا مقترين في الطاعات .

ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى – هذه الأقوال ثم علق فقال : « واعلم أن أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة ، أن الله تعالى مدح عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم ، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق ، ولا يقترون أي لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم . وقال بعض أهل العلم : الإسراف في الآية : الإنفاق في الحرام والباطل ، والإقتار : منع الحق الواجب ، وهذا المعنى وإن كان حقًّا ، فالأظهر في الآية هو القول الأول [١] .

(٦) ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾ .

فعباد الرحمن هم الذين يجتنبون الكبائر كلها وأعظمها الشرك بالله تعالى والجحود به بعد أن أنعم سبحانه عليهم من فضله وكرمه ورعايته .

---

(١) تفسير أضواء البيان / جـ ٦ – ص ٣٥١ .

فعن عبد الله بن مسعود - رضى الله تعالى عنه - قال : قال رجل : يا رسول الله : أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال : « أن تدعو لله ندًّا وهو خلقك » ، قال : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » . قال : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » . فأنزل الله تصديقًا : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون ..** ﴾ الآية [1] .

فأعظم الكبائر على الإطلاق ، الشرك بالله تعالى . فأعظم صفات عباد الرحمن التي يتميزون بها هي عبوديتهم لله تعالى وحده دون الإشراك به . كما أنهم يجتنبون الكبائر الأخرى من القتل والزنا وغيرها . أما من ابتلاه الله عز وجل بالوقوع في أحدها ثم تاب منها فإن الله تعالى يتوب عليه ويبدله خيرا .

(٧) ﴿ **والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ .

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : « وهذه أيضا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل . ثم قال : وشهادة الزور هي الكذب متعمدا على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة [2] - رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثًا . قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين » ، وكان متكئًا فجلس فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » [3] .

ثم قال - رحمه الله تعالى - والأظهر من السياق أن المراد : لا يشهدون

---

(١) بخاري / ك : التفسير - ب : قوله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** ﴾ . ، مسلم / ك : الإيمان - ب : أي الذنب أكبر (ومختصره / ح رقم ٥١) .

(٢) هو : نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو الثقفي ، أبو بكرة ، صحابي مشهور بكنيته أسلم بالطائف ، ثم نزل البصرة ، ومات بها سنة ٥١ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ - ص ٣٠٦) .

(٣) مسلم / ك : الإيمان - ب : أكبر الكبائر الشرك بالله . (ومختصره / ح رقم ٤٦) .

الزور أي لا يحضرونه [1] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإذا مروا باللغو** ﴾ أي لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا و لم يتدنسوا منه بشيء » [2] .

فهم معرضون عن الخوض فيما فيه لغو ، وهو كل كلام لا خير فيه ، مكرمين أنفسهم عما لا فائدة فيه .

(٨) ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صُمًّا وعميانا** ﴾ .

فهم يمعنون النظر في آيات الله تعالى المتلوة ، ويفهمون مقاصدها ومراميها فيؤمنون بها عن علم لا عن جهل وسفه خلافا لأحوال الكفار الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ **صم بكم عمىً فهم لا يعقلون** ﴾ [البقرة : ١٧١] .

وهذه من صفات المؤمنين حيث ذكرها الله تعالى عنهم في موضع آخر فقال : ﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [الأنفال : ٢] ، وقال : ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ [مريم : ٥٨] .

(٩) ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

فهم يسألون الله تعالى الهداية لهم ولأزواجهم وذرياتهم وأن يكونوا هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابا [3] . كما في قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيْء** ﴾ [الطور : ٢١] .

---

(١) تعليق : بل الأظهر من سياق الآية أنهم هم الذين لا يؤدون شهادة الزور بأقوالهم كما في قوله تعالى : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ [الحج : ٣٠] ويشهد له أيضا حديث أبي بكرة – رضي الله تعالى عنه – المذكور حيث أنه ﷺ أخذ يكررها « ألا وشهادة الزور ، ألا وقول الزور » فالراجح من الآية هو الإدلاء بالشهادة الكاذبة وليس حضورها .

(٢) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٣ – ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٣) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٣ – ص ٣٣٠ .

وكما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتَفع به من بعده ، أو ولد صالح يدعو له » [(1)] .

هذه هي جملة صفات عباد الرحمن المذكورة في سورة الفرقان ، كما ذُكِرَت صفات أخرى في بعض سور القرآن ، مثل خشية العلماء – منهم – لله تعالى ، بل هم أكثر عباد الله تعالى له خشية في قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشَى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ **إنه كان فريق من عبادِى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين** ﴾ [المؤمنون : ١٠٩] .

كما أن من صفاتهم أنهم يحبون لقاء الله تعالى ، فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : « قال الله : إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه وإذا كره لقائي كرهت لقاءه » [(2)] .

وعنه أيضا في الصحيحين ما يبين صفات عباد الله تعالى من تسبيحهم وتحميدهم وتهليلهم وسؤالهم الجنة واستعاذتهم من النار فيقول عليه الصلاة والسلام : « إن لله ملائكة سيارة فضلا ، يتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم الله – وهو أعلم – من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : وما يسألوني ؟ قالوا : يسألونك الجنة . قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا : لا ، أي رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟! قالوا : ويستجيرونك . قال : وممَّ يستجيروني ؟ قالوا : من نارك . قال وهل رأوا ناري ؟ قالوا : يارب لا . قال : فكيف لو رأوا ناري ؟!

---

(١) مسلم / ك : الوقف – ب : ما يلحق الإنسان ثوابه بعده . (ومختصره / ح رقم ١٠٠١) .
(٢) بخاري / ك : التوحيد – ب : قوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ .

قالوا : ويستغفرونك . قال : فيقول : قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا » [1] .

كما ذُكِرَت صفاتهم في سور أخرى هي تكرار لما ذكرنا في أغلبها مثل بدايات سورة الأنفال والمؤمنون ، وكما في سورة المعارج ، وغيرها من سور القرآن الكريم .

وإن ما ذكر في سورة الفرقان عن عباد الله تعالى المؤمنين فيه إجمال وتفصيل لصفاتهم البارزة ، التي ترتقي بهم إلى مراتب العبودية الحقة . وتكون نورًا لغيرهم كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ أي قدوة لغيرنا .

ما أعده الله تعالى لعباده في الدنيا والآخرة :

بيَّن الله عز وجل أوامره للعباد وذلك على لسان رسله ، كما بيَّن لهم محارمه التي عليهم أن يجتنبوها وأمرهم بالقيام بالغاية التي من أجلها خلقوا وإليها دعوا وهي عبادته سبحانه دون سواه . فقال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وبيَّن لهم سبحانه أن أعلى المنازل للفوز بالدنيا والآخرة هي عبادته دون سواه ، وأن أعظم الذنوب كلها هو الشرك به سبحانه . فمن عبده حق عبادته كان من المفلحين ، ومن جحد به وكفر بعبوديته كان من الخاسرين . وأنبأهم سبحانه بنبأ عظيم لمحاسبتهم حسب ما يعملون فقال عز من قائل : ﴿ **نبِّىءْ عبادِى أنِّى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابِى هو العذاب الأليم** ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] .

وقال : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ [فصلت : ٤٦] .

لذا أعد الله تعالى لعباده – المؤمنين منهم والكافرين – الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة حسب عبوديتهم له سبحانه .

---

(١) البخاري / ك : الدعوات – ب : فضل ذكر الله عز وجل .
، مسلم / ك : الذكر والدعاء – ب : فضل مجالس الذكر . (ومختصره / ح رقم ١٨٩٠) .

فأما ما أعده سبحانه لعباده المؤمنين فهي :

أولا : في الدنيـا :

(١) استجابة دعائهم :

كما في قوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادِى عنّى فإنِّى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ [البقرة : ١٨٦] . وقوله : ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** ﴾ [غافر : ٦٠] .

ومن عباد الله تعالى من في درجة عالية من مراتب العبودية فيدعو ثقة بالله عز وجل بالإجابة دون شك . فعن أنس [(١)] – رضي الله تعالى عنه – قال : قال عليه الصلاة والسلام : « إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبره » [(٢)] .

(٢) حفظهم من غواية الشيطان :

كما في قوله تعالى : ﴿ **إن عبادِى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ [الحجر : ٤٢] .

وقد كُف الشيطان عن غواية العباد المخلصين وأقسم على غواية العباد إلا المخلصين منهم . فقال تعالى حكاية عن الشيطان : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [ص : ٨٣] .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « وقد بيّن أن عباده المخلصين هم الذين ينجون من السيئات التي زينها الشيطان . قال الشيطان [(٣)] : ﴿ **رب بما أغويتنِى لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [الحجر : ٣٩ ، ٤٠] . وقال : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم**

---

(١) هو : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصاري الخزرجي ، خادم رسول الله ﷺ ، كنيته أبو حمزة ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهو ابن عشر سنين ، شهد بدرًا ولم يكن من المقاتلين ، ولم يذكره أهل السير في البدريين ، توفي بالبصرة سنة ٩٠ أو ٩٣ هـ – على خلاف – وله من العمر مائة سنة أو يزيد . (الإصابة / جـ ١ – ص ٧١ ، ٧٢ ، وتقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٨٤) .

(٢) مسلم / ك : تحريم الدماء وذكر القصاص والدية – ب : القصاص من الجراح إلا أن يرضوا بالدية (ومختصره / ح رقم ١٠٣٠) .

(٣) الأفضل أن نقول : قال تعالى مخبرًا عن الشيطان .

يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ [النحل : ٩٩ ، ١٠٠] »[1] . كما أن من جملة ما يصرفه الله عز وجل عن عباده المؤمنين في الدنيا ، صرفهم عن المعاصي والآثام وإعانتهم على البعد عن الفحشاء . كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام : **﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾** [يوسف : ٢٤] .

(٣) توريثهم الأرض والتمكين منها :

كما في قوله تعالى : **﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادِىَ الصالحون ﴾** [الأنبياء : ١٠٥] .

وقال : **﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فِى الأرض ﴾** الآية [النور : ٥٥] .

(٤) قبول توبة المسيء منهم :

كما في قوله تعالى : **﴿ وهو الذِى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾** [الشورى : ٢٥] ، وقوله : **﴿ قل يا عبادِىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾** [الزمر : ٥٣] .

بل إنه سبحانه يفرح بتوبة عبده فرحًا شديدًا . فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله تعالى عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده »[2] . وزاد في رواية

---

(١) العبودية / ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) بخاري / ك : الدعوات – ب : التوبة .

، مسلم / : التوبة – ب : الحض على التوبة (ومختصره / ح رقم ١٩١٧) .

مسلم عن أنس – رضي الله تعالى عنه – : « ثم قال – من شدة الفرح – : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ! أخطأ من شدة الفرح » .

(٥) المباهاة بهم :

فالله عز وجل يباهي بعباده المؤمنين ملائكته الكرام ، لما يقومون به من العبودية له سبحانه ، فقد استبعدت الملائكة ذلك منهم في بدء خلقهم وقالوا لله تعالى : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فأعلمهم ربهم أنه يعلم ما لا يعلمون عن هذا المخلوق . لذا فإن الله عز وجل أراد أن يظهر لملائكته الكرام عبودية العباد له ، فيباهي بهم . لما يقومون به من الطاعات ، كما في انتظار العباد الصلاة إلى الصلاة ، كما في حديث عبد الله بن عمرو (١) – رضي الله تعالى عنه – قال : صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب ، فرجع من رجع ، وعقب من عقب ، فجاء رسول الله ﷺ مسرعًا ، قد حفزه النفس ، وقد حسر عن ركبتيه ، فقال : « أبشروا هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء ، يباهي بكم الملائكة ، يقول : انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى » (٢) .

كما يباهي عز وجل بهم ملائكته في يوم الجمع بعرفة وكلهم في زي واحد ، وفي موقف واحد وفي يوم واحد وفي وقت واحد ، يلبون الواحد ،

---

(١) هو : عبد الله بن عمرو بن العاص ، العالم الرباني ، أحد العبادلة الفقهاء ، أبو محمد القرشي ، هاجر هو وأبوه قبل الفتح ، وكان ﷺ يفضله على والده ، وكان يكتب عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا ، حضر صفين ولم يسل سيفا ، اعترف له أبو هريرة – رضي الله تعالى عنه – بالإكثار من العلم ، مات في ذي الحجة ليال حرة بالطائف على الراجح .

(تذكرة الحفاظ للذهبي / جـ ١ – ص ٤١ ، تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٤٣٦) .

(٢) ابن ماجه / ك : المساجد – ب : لزوم المساجد وانتظار الصلاة . (وصحيحه ح رقم ٦٥٣) .

فعن عائشة [١] – رضي الله تعالى عنها – أن رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : (ما أراد هؤلاء) » [٢] . – وزاد في رواية جابر [٣] – رضي الله تعالى عنه – : « إذا كان يوم عرفة إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة . فيقول : انظروا إلى عبادي ، أتوني شعثا غبرا ضاحين [٤] من كل فج عميق ، أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقول الملائكة : يا رب : فلان كان يرهق [٥] وفلان وفلانة . قال : فيقول الله عز وجل : قد غفرت لهم » . قال رسول الله ﷺ : « فما من يوم أكثر عتيقا من النار من يوم عرفة » [٦] .

(٦) ابتلاؤهم لمحو ذنوبهم :

فجاء في الحديث القدسي ، أنه عليه الصلاة والسلام قال : قال تعالى : (إذا ابتليت عبدا من عبادي فحمدني وصبر على ما بليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك اليوم كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول الرب عز وجل

---

(١) هي : أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق – رضي الله تعالى عنها – أفقه النساء مطلقا ، كان الصحابة يرجعون إليها ، أفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة .. تُوفيت سنة ٥٧ هـ .
(تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٦٠٦) .

(٢) مسلم / ك : الحج – ب : فضل يوم عرفة (ومختصره / ح رقم ٦٤٣) .
وابن ماجه / ك : المناسك – ب : الدعاء بعرفة (وصحيحه / ح رقم ٢٤٤٠) .

(٣) هو : جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري ، من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ ، ولد قبل الهجرة بستة عشرة سنة ، توفي سنة ٧٨ هـ . مفتي المدينة ، ودعا له النبي ﷺ مرات ، شهد صفين مع علي – رضي الله تعالى عنه – .
(تذكرة الحفاظ / جـ ١ – ص ٤٣ ، تقريب التهذيب / مجلد ١ ص ١٢٢) .

(٤) ضاحين : أي بارزين للشمس غير مستترين منها .

(٥) يرهق : أي يغشي المحارم ، ويرتكب المفاسد .

(٦) البغوي : شرح السنة / ك : المناسك – ب : فضل يوم عرفة .
(مشكاة المصابيح / ح رقم ٢٦٠١) .

للحفظة إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له من قبل ذلك من الأجر وهو صحيح) [1] .

وابتلاء الله تعالى لعباده المؤمنين هو خير لهم ، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمَنْ صبر فله الصبر ومَنْ جزع فله الجزع » [2] .

وذلك لما في الصبر على البلاء من رفع الدرجات ومحو السيئات ، وزيادة الحسنات . لقوله عليه الصلاة والسلام : « عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير وليس لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له » [3] .

(٧) حبه تعالى لعباده المؤمنين :

فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل إذا أحب عبدًا دعا جبريل عليه السلام فقال : إني أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله عز وجل يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض » [4] .

(٨) مضاعفة حسناتهم :

فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله : (إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ٤١٧٦ .
(٢) صحيح الجامع / ح رقم ١٧٠٢ .
(٣) مسلم / ك : الزهد والرقائق – ب : المؤمن أمره خير كله .
(ومختصره / ح رقم ٢٠٩٢) ، (وصحيح الجامع / ح رقم ٣٨٧٥) .
(٤) مسلم / ك : البر والصلة – ب : إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده .
(ومختصره / ح رقم ١٧٧١) .

يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة) » [(١)] .

(٩) لا يرضى الله تعالى لهم الكفر :

كما في قوله تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ [الزمر : ٧] .

(١٠) تقربه سبحانه إليهم :

كما في حديث أنس – رضي الله تعالى عنه – قال : قال ﷺ : « قال الله تعالى : (إذا تقرب إليّ العبد شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإذا تقرب إليّ ذراعًا تقربت منه باعًا ، وإن أتاني مشيا أتيته هرولة) » [(٢)] .

(١١) تبشيرهم بالجنة :

فعن عبادة بن الصامت [(٣)] – رضي الله تعالى عنه – عن النبي ﷺ قال : « ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته فليس أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه » [(٤)] .

(١٢) نصرتهم ونجاتهم :

قال تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فِى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [غافر : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ [الروم : ٤٧] . وقال تعالى : ﴿ **ثم ننجِّى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين** ﴾ [يونس : ١٠٣] .

(١٣) زيادة هدايتهم :

كما في قوله تعالى : ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ [مريم : ٧٦] . وقوله : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم** ﴾ [محمد : ١٧] .

---

(١) بخاري / ك : التوحيد – ب : قول الله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ .

(٢) بخاري / ك : التوحيد – ب : قول الله تعالى : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ .

(٣) هو : عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي ، أبو الوليد المدني ، أحد النقباء ، بدري ، مشهور ، مات بالرملة سنة ٣٤ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٣٩٥) .

(٤) بخاري / ك : الرقاق – ب : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

ثانيـا : في الآخرة

وأما ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة :

- فالجنة : كما في قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن التِي وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾ [مريم : ٦١] . وقوله تعالى : ﴿ **تلك الجنة التِي نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾ [مريم : ٦٣] . وقد ذكر الله تعالى ما أعده لعباده بعد ذكر صفاتهم في سورة الفرقان فقال : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما** ﴾ [الفرقان : ٧٥ ، ٧٦] والغرفة هي الجنة [١] . وفي الجنة نعم كثيرة لا تخطر على بال العباد لكثرتها وتنوعها ، فقد وصفها عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - فقال : قال الله تعالى : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) [٢] .
- وأعظم ما ينعمون به في الآخرة هو رؤيته سبحانه عز وجل . لقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنَى وزيادة** ﴾ [يونس : ٢٦] .

ولقوله عليه الصلاة والسلام في هذه الآية : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : إن لكم عند الله موعدًا ويريد أن ينجزكموه . قالوا : ألم يبيِّض وجوهنا وينجينا من النار ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب . قال : فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه » [٣] .

ففي الجنة : ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** ﴾ [الإنسان : ٦] . ويقول الله تعالى لهم في ذلك اليوم : ﴿ **يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ [الزخرف : ٦٨] .

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره / جـ ٣ - ص ٣٣٠ .

(٢) بخاري / ك : توحيد - ب : قوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ .

(٣) الترمذي / ك : تفسير القرآن - ب : في تفسير سورة يونس (وصحيحه / ح رقم ٢٤٨١) . ، وابن ماجه / مقدمة - ب : فيما أنكرت الجهمية . (وصحيحه / ح رقم ١٥٤) .

- كما يصرف الله عز وجل عن عباده المؤمنين في الآخرة النار وعذابها ، حيث إن من زحزح عنها وأُدخل الجنة فقد فاز . فيقول تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا** ﴾ [الإنسان : ١١] ، وقوله تعالى : ﴿ **فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾ [الطور : ٢٧] . وهم لذلك يحمدون ربهم على النعيم المقيم ونجاتهم من العذاب الأليم . فيقول تعالى عنهم : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذِى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذِى أحلنا دار المقامة من فضلة لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ [فاطر : ٣٤ ، ٣٥] .

إلى غير ذلك مما أعده الله عز وجل لعباده الصالحين في الجنة [١] ، مهما كان أدائهم للعبودية لله تعالى ، فإيمان العبد بخالقه وأنه لا رب سواه وأنه سبحانه هو المعبود بحق المستحق للعبادة دون غيره يدخله الجنة ، كما جاء في الحديث الصحيح : قال رسول ﷺ : « مَنْ مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » [٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - : « اذهب بنعلي هاتين فمَنْ لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أنه لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة » [٣] .

وهذا لا ينفي العمل إذ هو مطلوب وسبب في زيادة العبد من قربه إلى ربه ، فلا يكفي قول كلمة التوحيد فقط ، فكما قيل لوهب بن منبه [٤] : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟! قال : بلى . « ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك » [٥] .

---

(١) وقد جاء بالتفصيل ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين في سور كثيرة من القرآن الكريم ، كما في سورة الطور والواقعة والرحمن والإنسان وغيرها .

(٢) مسلم / ك : الإيمان - ب : من لقي الله تعالى بالإيمان غير شاك فيه دخل الجنة .
(ومختصره / رقم ١٢) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) هو : وهب بن منبه بن كامل اليماني ، أبو عبد الله الأنباوي ، ولد في آخر خلافة عثمان ، ثقة ، مات سنة ١١٤ هـ ، من أحبار علماء التابعين ، كان على قضاء صنعاء .
(تقريب التهذيب مجلد ٢ - ص ٣٣٩ ، ميزان الاعتدال / مجلد ٤ - ص ٣٥٢) .

(٥) بخاري / ك : الجنائز - ب : في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله .

وأما ما أعده الله عز وجل لعباده الكافرين :

أولا : في الدنيا

(١) بغضه سبحانه إياهم :

فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « وإذا أبغض الله عبدًا دعا جبريل عليه السلام ، فيقول : إني أبغض فلانًا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ، فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض » [١] .

(٢) تبشيرهم بالعذاب :

فعن النبي ﷺ قال : « .. وإن الكافر إذا حضر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه » [٢] .

(٣) عدم الهداية وزيادة الإضلال بهمْ :

كما في قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يهدِى من هو كاذب كفار** ﴾ [الزمر : ٣] .

وقوله : ﴿ **إن الله لا يهدِى من هو مسرف كذاب** ﴾ [غافر : ٢٨] .

(٤) استراحة المخلوقات بموتهم :

فعن أبي قتادة [٣] الأنصاري أنه كان يحدِّث أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة فقال : « مستريح ومستراح منه » . قالوا : يا رسول الله ، ما المستريح وما المستراح منه ؟ قال : « العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجل ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب » [٤] .

---

(١) الجزء الثاني من الحديث المتقدم في صحيح مسلم ، والمذكور في ص ١٠٣ .

(٢) تابع لحديث عبادة بن الصامت المذكورَ في ص ١٠٣ .

(٣) هو : الحارث بن ربعي بن بلدمه ، المدني ، شهد أُحدًا وما بعدها ، مات سنة ٥٤ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٤٦٣) .

(٤) بخاري / ك : الرقائق – ب : سكرات الموت .

ثانيا : في الآخرة

وأما ما أعده الله تعالى للكافرين في الآخرة :

- فالنار وبئس القرار خالدين فيها :

قال تعالى : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التِي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ [البقرة : ٢٤] . وقال : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة : ٣٩] لا يخفف عنهم من عذابها ، فيهدأون قليلا ، ولا يموتون فيستريحون من هذا الشقاء الدائم . قال تعالى : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضَىٰ عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ [فاطر : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ **ثم لا يموت فيها ولا يحيَى** ﴾ [الأعلى : ١٣] يستغيثون بمالك – خازن النار – أن يقضي عليهم ربهم فينتهي بهم هذا العذاب . ولكن هيهات .. هيهات ، فهم فيها ماكثون . قال تعالى : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ [الزخرف : ٢٧] .

وذلك جزاء من كفر واستكبر على مقام العبودية واتبع هواه فكان من الغاوين ﴿ **أولئك الذين ليس لهم فِي الآخرة إلا النار** ﴾ [هود : ١٦] .

فقد أوعد الله تعالى عباده الخارجين عن دائرة الإيمان النار وأعدها لهم ، فقال عز وجل : ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم** ﴾ [التوبة : ٦٨] .

والعجب من أمر هؤلاء العباد يوم القيامة وهم في النار يعترفون بوحدانية الله تعالى ، وبأن النار حق وبأن الرسل حق ، كما يلعنون أئمتهم وساداتهم الذين صدوهم عن سبيل الهداية واتبعوهم . فهذه الاعترافات وإن كانت حقًّا في ذاتها إلا أنها ليس لها فائدة ألبتة حينذاك فقد فات الأوان ، ولا ينفع وقتها الندم . فيوم القيامة يوم حساب ولا عمل . يود كل منهم أن لو يرد فيعمل غير الذي عمل فيبدل كفره إيمانًا ومعصيته طاعة ، يتحسر على ما فرط في جنب الله تعالى ، ولكن ما يفيد الندم ولا الحسرة حينئذ . وإليك صورة

هؤلاء العباد كما جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت فِي جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانِي لكنت من المتقين أو تقول حين ترَى العذاب لو أن لِي كرة فأكون من المحسنين بلَى قد جاءتك آياتِي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين** ﴾ [غافر : ٥٥ – ٥٩] .
وقوله تعالى : ﴿ **قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ [المؤمنون : ١٠٧] .

نسأل الله عز وجل النجاة ، وأن يحشرنا سبحانه في زمرة عباده المؤمنين .

ممَّا سبق يتبين لنا ما أعده الله عز وجل لعباده – الطائعين منهم والكافرين – في الدنيا والآخرة . ﴿ **تلك عقبَى الذين اتقوا وعقبَى الكافرين النار** ﴾ [الرعد : ٣٥] .
وسوف يحشرهم إليه سبحانه جميعا . ﴿ **ليجزِي الذين أساءوا بما عملوا ويجزِي الذين أحسنوا بالحسنَى** ﴾ [النجم : ٣١] .

* * *

المبحث الأول

أنواع العبادات

وبيان المنهج الإسلامي في تحقيق العبودية

يحسن لنا أن نتكلم ابتداء عن العبادات وأنواعها ، التي يتقرب بها العباد إلى خالقهم جل وعلا ليحققوا بذلك عبوديتهم له سبحانه ، فنبيِّن بمشيئة الله تعالى كيف أن شريعة الله تعالى السمحة تحقق بتلك العبادات العبودية الحقة دون غيرها من الشرائع المحرفة ، التي سنتكلم عنها في الفصل الرابع حيث تبعد بعباداتها عن عبودية الله تعالى الحقة .

شروط صحة العبادة

تتسم الشريعة الإسلامية بوضوح تام في العلاقة بين العبد وبين ربه سبحانه ، وهذه العلاقة تتمثل في العبادات التي يقوم بها العبد تجاه ربه والتي أمره الله تعالى بها . ويشترط في هذه العبادات الأمور الآتية :

(١) الإيمان الصحيح .

(٢) الإخلاص لله تعالى .

(٣) مشروعيتها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « العبادات مبناها على الشرع والاتباع ، لا على الهوى والابتداع . فإن الإسلام مبني على أصلين :

أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له .

والثاني : أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا نعبده بالأهواء والبدع . قال تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ [الجاثية : ١٨] [1] .

وهذه الشروط تتحدث عنها النصوص الشرعية في مثل قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ [الكهف : ١١٠] . وقوله تعالى : ﴿ **فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص** ﴾ [الزمر : ٢ ، ٣] . وقوله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ [البينة : ٥] .

ميزات العبادات في الإسلام

تتميز العبادات في الإسلام بعناصر ثلاثة [2] ، غالبا ما تجتمع في العبادات الأساسية والشعائر التعبدية ، ولا يمكن أن تتجرد عبادة من العبادات من هذه العناصر جميعا وإلا كانت العبادة عندئذ عادة أو عملا لا شعوريا .

وهذه العناصر هي :

(١) الرقي الروحي :

وهو ما يتعلق بجانب القلب والروح حيث يشعر المرء بصلته بخالقه ويقوى فيه جانب الروح على جانب الجسد ، فتسمو روحه ، وتتغلب على غرائزه وشهواته فيرجح جانب الخير فيه على جانب الشر ، ويتجلى هذا العنصر في وقوف العبد بين يدي الله تعالى في الصلاة آناء الليل وأطراف النهار ، وفي دعاء العبد ومناجاته لربه ، كما يتجلى في الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة في أيام الصيام .

---

(١) الفتاوى – لابن تيمية / جـ ١ – ص ٨٠ .

(٢) راجع : كتاب « العبادة » – دكتور محمد أبو الفتح البيانوني ص ٣٧ – ٤١ .

(٢) التأمل والتفكر :

وهو ما يتعلق بجانب العقل والفكر ، وهو ما يدفع العبد إلى التعرف على خالقه وحقيقة نفسه فيشعر دائما بعبوديته وافتقاره إلى مولاه ، وهو ما يظهر في التفكر في آيات الله تعالى المتلوة في الصلاة وقراءة القرآن ، وفي آيات الله تعالى المشاهدة من السموات والأرض والجبال والرعد والبحار .

(٣) الخضوع الإرادي :

وهو ما يتعلق بالجسد والقلب والعقل والفكر بحيث يُخضِع العبد أركانه كلها في عبادة الله تعالى ، ويمرن نفسه على الطاعة والاتباع ومخالفة نفسه الأمارة بالسوء وذلك بمحض إرادته ، بحيث يخضع لحكم الله تعالى من أمر ونهي سواء فهم العبد علة هذه العبادة وغايتها أو كانت العلة خفية عليه .

كما توجد ميزات أخرى تحدَّث عنها كثير من الكُتَّاب ، أذكر منها ما جاء في كتاب « روح الإسلام » نقلا عن أحد الكُتَّاب الإنجليز ما نصه

« إن من مفاخر الإسلام أن أماكن العبادة فيه لا تخطؤها يد الإنسان وأن شعائره الدينية يمكن إقامتها في أي مكان سواء فوق الغبراء أو تحت السماء ، وكذلك كل مكان يعبد فيه الله بإخلاص فهو مكان طاهر ، وأيَّما مسلم أدركته الصلاة ظاعنا كان أو مقيما فله أن يتوجه إلى ربه بآيات وجيزة صادقة تعبر عما تفيض به نفسه من معاني الشكر دون أن يتطرق إليه الملل بسبب طول الصلاة التي تتضمن الإقرار بالعبودية والثناء على المُنعِم والاستعانة به . ولم يدرك العالم المسيحي ما تنطوي عليه الديانة الإسلامية من روح الإخلاص في العبادة ، وقد سجلت لنا الأحاديث الشريفة وهو الذخر الأمين الذي حفظ لنا أخبار الماضي معززة بشهادة المئات من الرواة – الثقات – أن النبي ﷺ كان يبكي في صلاته لما يجيش في نفسه من المواجيد القويَة ، وأن ابن عمه وصهره الجليل – رضي الله تعالى عنه – كان يستغرق في صلاته حتى يكاد يغيب عن وعيه .

كما لا يعترف الإسلام بوجود طبقة من الكهنة ولا يجيز لأي طائفة حق

احتكار العلوم الدينية ولا يسبغ عليها قداسة خاصة تؤهلها للوساطة بين العبد وربه . وفي وسع أي إنسان أن يصل إلى ربه دون وساطة قسيس أو كاهن ، أو حاجة إلى قرابين أو مراسم يبتدعها أصحاب المصالح المكتسبة لتقريب القلب المحزون من مفرج الكروب . كل إنسان هو كاهن نفسه وليس لإنسان في الإسلام فضل على آخر » [1] أ.هـ .

أقسام العبادات

تنقسم العبادات في الشريعة الإسلامية إلى قسمين :

الأول : عبادات ظاهرة . وتقوم بها الجوارح وتدخل فيها العبادة القولية لقيام اللسان بها ، ومنها السجود والصلاة والحج والسعي إلى المساجد والجهاد والدعاء وغيرها .

الثاني : عبادات باطنة . وهي أعمال القلوب التي ينعقد القلب عليها ، مثل النية والتوكل والخشوع والخضوع والاستعانة والحب والبغض في الله وغيرها .

والقسمان مرتبطان بعضهما بالبعض لا انفصام بينهما فتقوم الصلاة مثلا ، وهي من أعمال الجوارح ، بالنية التي هي من أعمال القلوب . وتقوم الأعمال كلها على خضوع العبد لمولاه واستحضار عظمة الله تعالى وسلطانه . وهو المعنى الذي أشار إليه الأستاذ محمد رشيد رضا – رحمه الله تعالى – فقال : « للعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع ، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة » [2] .

---

(١) روح الإسلام – السيد أمير علي ، ترجمة : أمين الشريف / جـ ٢ – ص ٢٦ (بتصرف يسير) .

(٢) تفسير المنار / جـ ١ – ص ٥٧ .

أولا : العبادات الظاهرة :

(١) السجود :

بدأنا بالكلام عن السجود لعظم شأنه – كما سنرى بعد قليل – ولأن فيه معنى الخضوع والتذلل ، كما ذكر القرطبي – رحمه الله تعالى – فقال : « السجود معناه في كلام العرب : التذلل والخضوع وغايته وضع الوجه بالأرض ، وكل ما سجد فقد ذل » [١] أ.هـ .

فكلما كان العبد خاضعا ذليلا لله عز وجل كلما كان أكثر عبودية له سبحانه فكمال العبودية لله تعالى في كمال الذل والخضوع له . لذا كان أعظم وضع يخضع فيه لله عز وجل ويذل له هو السجود ، ولذا عظَّمه الله سبحانه وتعالى وأثنى على فاعله وطلبه من العباد ، بل ومن أفضل الخلق أجمعين . فقال تعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ [العلق : ١٩] ، وقال : ﴿ **وكن من الساجدين** ﴾ [الحجر : ٩٨] ، وقال : ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ [النجم : ٦٢] . فمن عظم السجود أن كان شأنه في النفوس السوية كبيرا ، وتأباه إن كان لغير الله تعالى .

ومن حكمة الله تعالى أن جعل أقرب ما يكون العبد إليه سبحانه وهو ساجد كما جاء في الحديث عن ابن مسعود – رضي الله تعالى عنه – أن النبي ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » [٢] . ذلك لما في السجود من كمال الذل والخضوع له سبحانه حيث يضع العبد أشرف عضو من أعضائه – وهو الوجه – على التراب . ولمَّا كانت هذه الحالة يحبها الرب سبحانه ويأمر بها أكثر من غيرها لما فيها من الخضوع والذل له كان قرب العبد من ربه فيها أكثر وأجل . وكانت هي الحالة التي أمر الله تعالى بها ملائكته

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١ – ص ٢٩١ .

(٢) مسلم / ك : صلاة – ب : الدعاء في السجود . (ومختصره / ح رقم ٢٩٨) .

أن يذعنوا ويخضعوا له سبحانه عند خلقه آدم [1] . فقال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ [البقرة : ٣٤] . وهو الوضع الذي يغتاظ الشيطان ويبكي عند رؤيته إياه من بني آدم لأنه قد أُمِرَ قبل به مع الملائكة الكرام فأبى واستكبر . فقد جاء في حديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن النبي ﷺ قال : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله !! أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمِرت بالسجود فأبيت فلي النار » [2] . والخضوع عكس الاستكبار . ومظهر الخضوع هو السجود ، قال تعالى : ﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ [فصلت : ٣٧ ، ٣٨] . فالسجود لا ينبغي فعله إلا لله عز وجل ، وقد فعله الذين استنارت قلوبهم وعقولهم ، وأما من فسدت فطرتهم وعميت بصائرهم عن الهدى فإنهم يفعلونه لملوكهم ورؤسائهم إما رهبة منهم ، وإما لتعظيمهم ، وفي كلا الحالين هم مشركون بالله تعالى حيث سجدوا لغيره سبحانه . لما في السجود من عبادة للمسجود لهم .

والسجود لله عز وجل يجمع في قلب العبد المؤمن بين الذل والخضوع ، وبين الحب . أما السجود لغيره سبحانه فلا شيء في قلب فاعله إلا الخوف من بطش المسجود له . فهو يفعله وإن كان يحمل كل بغض لمن يسجد له .

---

(١) يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – عن السجود لآدم : « هذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن الله تعالى بها على ذريته » . (راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ١ – ص ٧٥) . وعن سجود أبوي يوسف وإخوته له .

قال ابن كثير : « كان هذا سائغا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير .. فحرم هذا في هذه الملة » وهي الإسلام . تفسير القرآن العظيم / جـ ٢ – ص ٤٩١ .

فسجود الملائكة لآدم كان لأمر إلهي وهو عبادة لله عز وجل وتشريف لآدم ، لا عبادة له . كذلك سجود أبوي يوسف وإخوته له لم يك عبادة له ، وإنما هو تشريف وتكريم . ولا يقاس على هاتين المسألتين غيرهما فيسجد لغيره تعالى .

(٢) مسلم / ك : الصلاة – ب : من سجد لله فله الحسنى . (ومختصره / ح رقم ٣٦٩) . وابن ماجة / ك : الصلاة – ب : سجود القرآن . (وصحيحه / ح رقم ١٠٥٢) .

ومن حكمته تعالى أن جعل كمال الشكر له سبحانه على نعمائه التي لا تعد ولا تحصى ، أن يسجد له سبحانه سجدة سُميت سجدة شكر . فإذا رزق الإنسان بنعمة من مال أو ولد أو نحوه فإنه يسجد لله تعالى سجدة يعبر فيها عن شكره لنعمة الله تعالى عليه .

وهي تعبر أيضًا عن توبة العبد نحو ربه تعالى . فقد جاء في الحديث عن ابن عباس [(١)] - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال : « السجدة التي في « صٓ » سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكرًا » [(٢)] .

فسواء كانت « السجدة » للشكر أم للتوبة فهي تدل على كمال الذل والخضوع لله تعالى كما تدل على تمام الحب له سبحانه . فالله سبحانه يحب أن يكون العبد على هذه الحالة لما فيها من تحقق صفة الكبرياء له سبحانه وحده ، ولما فيها من تحقق كمال عبودية العبد .

وكذلك في الصلاة التي شرعها الله تعالى للمسلمين ، فقد جعل السجود مرتين والركوع مرة واحدة في كل ركعة ليتم كمال الخضوع له سبحانه بالإكثار من فعل السجود .

قلنا إن هذا الوضع لا ينبغي إلا لله تعالى لأن في السجود من التعظيم ما لا ينبغي إلا لله تعالى . وهو سبحانه المستحق له بحق دون غيره . فمن تجرأ على أمر الناس بالسجود له ، أو رضي بأن يُسجَد له فقد نازع الله تعالى في صفة الكبر . فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : (الكبرياء ردائي والعزة إزاري) » [(٣)] ، فمن تجرأ وخلع لباس العبودية ولبس ثوب الكبر عذبه الله تعالى لتجرئه على مقام الألوهية .

---

(١) هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، سمع كثيرا من الأحاديث ، ودعا له الرسول ﷺ بالفقه في الدين وعلم التأويل ، وكان يلقب بحبر الأمة . (الإصابة / جـ ١ - ص ٣٣٠) ، (تقريب التهذيب / مجلد ١ - ص ٤٢٥) .

(٢) صحيح الجامع / ح رقم ٣٥٧٦ ، مشكاة المصابيح / ح رقم ١٠٣٨ .

(٣) أحمد / ٢ - ٢٤٨ .

لذا تعجب الهدهد الذي كان في زمن سليمان عليه السلام من سجود قوم امرأة سبأ للشمس ، وأنكر هذا الهدهد [1] صنيع هؤلاء القوم إذ كان عالما ومؤمنا وموحدا بالله تعالى أكثر من توحيد كثير من الكائنات البشرية اليوم – وهذا مما يؤسِف – فأخبر بأن هذا السجود لا ينبغي إلا لله تعالى الذي يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض من خبايا . قال تعالى حكاية عن الهدهد : ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألَّا يسجدوا لله الذِى يخرج الخبء فِى السمٰوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ [النمل : ٢٤ – ٢٦] .

لذا جاء نهي الله عز وجل في مواضع كثيرة في القرآن الكريم عن السجود لغيره سبحانه والأمر بالسجود له وحده . مثل قوله تعالى : ﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن** ﴾ [فصلت : ٣٧] . وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم** ﴾ [الحج : ٧٧] .

وقد جاء في الكتاب المقدس من العهد القديم في الوصايا العشر التي ينسبها اليهود لموسى عليه السلام ، وكانت أول وصية ألا يسجدوا لصنم أو وثن .. وهذا نصه : « ما في الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك . إله غيور » [2] .

وقد جاء في الحديث الصحيح في فضائل السجود ، عن ثوبان [3] مولى رسول الله ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال : « عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة

---

(١) سيأتي بمشيئة الله تعالى الكلام عن الهدهد وعبوديته في القسم الثاني من هذا الفصل .

(٢) سفر التثنية / إصحاح (٥) – فقرة (٩) (من الكتاب المقدس) .

Holly Bible / Deuternomy - Abrrev. 5 chr. 9 the Gideons international - 1974 - U.S.A.

(٣) ثوبان : الهاشمي ، مولى رسول الله ﷺ ، صحبه ولازمه ونزل بعده الشام ، ومات بحمص سنة ٥٤ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ١٢٠) .

وحط عنك بها خطيئة » [1] . وعن ربيعة بن كعب الأسلمي [2] قال : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوَضوئه وحاجته فقال لي : « سل » فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة . قال : « أو غير ذلك » قلت : هو ذاك . قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » [3] .

ومن فضائل السجود رفع الدرجات وتكفير الذنوب والخطايا ومرافقة النبي ﷺ في الجنة ، والتحريم على النار يوم القيامة أن تمس أثر السجود لحديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن النبي ﷺ قال : « حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود » [4] ، وقد أسلفنا أن السبب في الحث على كثرة السجود هو قرب العبد من ربه عز وجل في هذا الوضع . وقد ذكر النووي [5] – رحمه الله تعالى – كلاما طيبا عن السجود فقال : « وسبب الحث عليه ما سبق في الحديث الماضي (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) وهو موافق لقوله تعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ ولأن السجود غاية التواضع والعبودية لله تعالى وفيه تمكين أعز أعضاء الإنسان وأعلاها وهو وجهه من التراب الذي يداس ويمتهن والله أعلم » [6] أ.هـ .

وهكذا نرى أن السجود مظهر من مظاهر خضوع العبد لمولاه ، والذي يرضى الله تعالى عنه وأنه منتهى العبادات كلها من خشوع وخضوع ، وأنه ليس

---

(١) مسلم / ك : الصلاة – ب : فضل السجود والحث عليه . (ومختصره / ح رقم ٢٩٧) .

(٢) ربيعة بن كعب الأسلمي : أبو الفراس المدني ، صحابي ، من أهل الصفة ، مات سنة ٧٣ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٢٤٨) .

(٣) مسلم / ك : الصلاة – ب : فضل السجود والحث عليه . (شرح النووي / جـ ٤ – ص ٢٠٦) .

(٤) بخاري / ك : أذان – ب : فضل السجود .

(٥) هو : محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الخزامي الشافعي ، ولد سنة ٦٣١ هـ ، صاحب التصانيف النافعة . توفي سنة ٦٧٦ هـ . (تذكرة الحفاظ – الذهبي / جـ ٤ – ص ١٤٧٠) .

(٦) شرح مسلم / جـ ٤ – ص ٢٠٦ .

من شيء في العبادات كلها ما هو أكبر ولا أبهى ولا أعظم من السجود لإظهار عظمة الله تعالى وكبريائه سبحانه وإظهار عبودية العبد لربه جل وعلا .

(٢) الصلاة :

تعتبر الصلاة أُم العبادات ، فرضها الله تعالى دون واسطة ملك ، مما يبيِّن مكانتها ومنزلتها بين سائر العبادات ، وهي عماد الدين ، والركن الثاني بعد الشهادتين ، خير الأعمال عند الله تعالى ، أمر بها سبحانه أمر إلزام ووجوب ، لا تسقط بحال عن المكلفين – إلا بعذر شرعي – حرص على إقامتها المرسلون ، وأوصوا أبناءهم وأتباعهم بها فعن إبراهيم عليه السلام يقول الله تعالى : ﴿ **ربنا إنِّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذِي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوِى إليهم** ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

ويقول تعالى عنه أيضا : ﴿ **رب اجعلنِي مقيم الصلاة ومن ذريتي** ﴾ [إبراهيم : ٤٠] .

وعن إسماعيل عليه السلام يقول تعالى : ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا** ﴾ [مريم : ٥٥] .

وعن لقمان عليه السلام يعظ ابنه يقول تعالى مخبرا عنه : ﴿ **يا بنَيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر** ﴾ [لقمان : ١٧] .

وعن موسى عليه السلام ، يقول تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة لذكرِي** ﴾ [طه : ١٤] .

وعن عيسى عليه السلام يقول تعالى مخبرا عنه : ﴿ **وأوصانِي بالصلاة والزكاة ما دمت حيا** ﴾ [مريم : ٣١] .

وعن محمد عليه الصلاة والسلام يقول تعالى : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ [طه : ١٣٢] .

وكان عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – يكتب إلى عماله : « إن أهم أموركم عندي الصلاة ، فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه ، ومن ضيَّعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة » [1] .

وأما عن المكلفين بها فقد جاء الأمر الصريح بإقامتها وأدائها في عشرات من النصوص الشرعية ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ [البقرة : ٤٣] . وقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

فالصلاة هي الصلة المتجددة بين العبد وبين ربه عز وجل ، وهي مظهر من مظاهر الذل والخضوع الذي يتدرج فيه العبد من القيام ثم الانحناء بالركوع ثم الخرور للسجود ، والعبد في هذا كله واقف بين يدي مولاه يقرأ آيات الله تعالى ويتدبرها يُعمل فيها جوارحه الخارجية وقلبه في أداء هذه العبادة ويناجي فيها ربه تعالى ويسأله من خيري الدنيا والآخرة ، ويقدم لتلك المسألة كل خضوع وانكسار لخالقه الذي يحب عبادته وصلته حتى يطمئن قلبه وتهدأ جوارحه . والعبد في هذا كله بين تسبيح وتحميد وتكبير وتشهد ودعاء ، يشعر في صلاته بخضوعه لمولاه كما يشعر بالحب والرغبة في هذا الخضوع حيث فيه اللذة والراحة والسعادة ، ويزرع في نفسه الثقة والطمأنينة . لذا يصعب على المرء القيام بجزء من الصلاة لأحد سوى الله تعالى . ويوضح لنا القرآن الكريم تأثير الصلاة في تهذيب النفس وتزكية القلب فيقول تعالى : ﴿ **اتل ما أوحِيَ إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهَى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . فالصلاة هي قرة عيون المؤمنين وملجأ الخائفين ، وهذه المعاني الطيبة قد أخبر عنها المصطفى ﷺ ، فكانت الصلاة قرة عينه كما قال : « وجعل قرة عيني في الصلاة » [2] .

---

(١) السياسة الشرعية – لابن تيمية / ص ٢١ .

(٢) النسائي / ك : عشرة النساء – ب : حب النساء .
، أحمد / ٣ – ١٢٨ .

ونلحظ أن الله تعالى أمر المكلفين بإقامة الصلاة وليس إتيانها فقط ، كما ذم سبحانه من يأتي صورتها فقط دون إقامتها المشتملة على خضوع القلب وخشوع الجوارح وإمعان النظر في الآيات المتلوة والتسبيح وغيره .

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا – رحمه الله تعالى – : « خذ إليك عبادة الصلاة مثلا . كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها ، وإقامة الشيء هو الإتيان به مقوما كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله : ﴿ **إن الصلاة تنهَى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وقوله عز وجل : ﴿ **إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين** ﴾ [المعارج : ٢٠ – ٢٢] . وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها المؤدي إلى غايتها بقوله : ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون** ﴾ [الماعون : ٤ – ٧] ، فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته والمشعر للقلوب بعظم سلطانه ، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون » [1] أ.هـ .

وتنقسم الصلاة على أعضاء العبد كلها فيؤدي كل عضو فيه ما تتم به الصلاة ويخضع لله تعالى ، فتقوم الأعضاء كلها بعبادة الله تعالى في الصلاة .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « إن الله عز وجل شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره ، واستعمالا للقلب والجوارح واللسان في العبودية ، وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التي هي المقصود بخلق العبد ، فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية » [2] .

---

(١) تفسير المنار / جـ ١ – ص ٥٧ .

(٢) الوابل الصيب / ص ٦٣٣ (الرسالة التاسعة من كتاب مجموعة الحديث) .

وكما أن الصلاة تنقسم على جوارح العبد ، فإنها تنقسم أيضا قسمين بين العبد وبين ربه ، للعلاقة القوية والصلة المستمرة التي بين العبد وربه في الصلاة ، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ قال الله تعالى : أثنى عليّ عبدي ، فإذا قال : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ قال الله : مجدني عبدي . (وقال مرة : فوض إليّ عبدي) . وإذا قال : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، وإذا قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » [1] .

إذا تحقق للعبد هذه المعاني في الصلاة من خضوعه لربه وتعظيم سلطانه ، فإنه يقدم على هذه الصلاة بكل حب لأدائها حيث يجد الراحة فيها والطمأنينة . وبقدر ما يشعر العبد في صلاته من الخشوع يؤجر عليه ، فكثير ما يصلي العبد مؤديا حركات الصلاة من القيام والركوع والسجود دون الشعور بالراحة واللذة فيها ودون استحضار عظم المولى سبحانه ، فتكون هذه الصلاة لا خير فيها ولا في صاحبها .

ومن حِكَم الصلاة التي تبيّن عبودية العبد تجاه ربه سبحانه : إيمانه بأن الله عز وجل هو ملجأ ومنجا كل خائف ، فشرعت صلاة الكسوف وصلاة الحاجة وصلاة الاستسقاء للالتجاء إلى الله تعالى بتقديم كل الذل والخضوع والانكسار خوفا من بطشه سبحانه بهم ، ورغبة فيما عند الله تعالى من الخير الوفير والنِعم الجليلة ، فكان ﷺ أكثر الناس وجلا وخوفًا ويبكي في صلاته حتى ينقشع عنهم

---

(١) مسلم / ك : الصلاة – ب : وجوب القراءة بأم القرآن في الصلاة .
(ومختصره / ح رقم ٢٨١) .

ما بهم من كسوف – كما سنرى في عبوديته ﷺ – فيلجأ العباد إلى ربهم لسد حاجاتهم وتفريج كرباتهم إذ لا إله لهم غيره ولا رب لهم سواه .

(٣) الزكـاة :

هي الركن الثالث من أركان الإسلام ، والحق المالي الذي يؤديه العبد ابتغاء مرضاة الله تعالى لما فيها من تطهير النفوس المؤمنة من الشح والبخل . قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ [التوبة : ١٠٣] . يستشعر في أدائها العبد المؤمن بصلته بربه سبحانه حيث امتثل أمره . وهذا وحده يكفي لجعله مؤمنا ، لطاعته بالتسليم المباشر ، ولكن يزيد على هذا القدر في النفوس المؤمنة الشعور بأن المالك الحقيقي لهذه الأموال هو الله عز وجل . حيث يقول : ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السمٰوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ [المنافقون : ٧] ، وقوله : ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ [الحديد : ٧] ، كما يزيد في هذه النفوس المؤمنة الشعور بأن ما عندهم مما آتاهم الله تعالى من الرزق الوفير إنما هم مستخلفون فيه وأنه في الحقيقة ليس لهم . فيتصرفون في هذه الأموال وفقًا لما يأمرهم به المالك الحقيقي له وهو الله تعالى ، فيرضى عنهم إن هم أطاعوه . لذا يسرعون في مرضاته وابتغاء ثوابه . قال تعالى : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** ﴾ [الحديد : ٧] ، وقال : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فِى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦١] كما يكافؤه الله بزيادة رزقه وسعته وأنه مهما أنفق من مال – وإن نقص ذلك في الظاهر – لم ينقص ماله في الحقيقة بل يزداد . فقد أقسم رسول الله ﷺ على أنه لن ينقص مال من صدقة ، فعن أبي كبشة الأنماري [١] – رضي الله تعالى عنه – أنه سمع

---

(١) أبو كبشة الأنماري المذحجي ، هو : سعيد بن عمرو ، صحابي ، نزل الشام ، له حديث عن أبي بكر . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٤٦٥) .

رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه . قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب الفقر » [1] .

فإذا استحضر العبد هذه المعاني كلها في قلبه من سلطان الله تعالى وملكه الواسع وخزائنه التي لا تنفد . وعبوديته تجاه ربه سبحانه من أنه مستخلف في هذه الأموال كما يستشعر الإقبال والرغبة في حصول الأجر والثواب ، فإنه يقدم على أداء الزكاة على أكمل وجه رغبة في الثواب وحسبة لله تعالى وقياما لما استخلف فيه ، هذا بالإضافة إلى مشاركة الفقير ومواساته في أحواله . وقد اقترنت الزكاة بالصلاة في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وذلك لعظمها وأنه لا فرق بينهما ، قال تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [البقرة : ٣] .

هذا بجانب أوجه الإنفاق الأخرى – غير الزكاة – التي حث عليها الشرع الحكيم ، والتي يقدم عليها العبد المؤمن سخية بها يده ، راضية بها نفسه ، ابتغاء مرضاة الله تعالى . قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

(٤) الصوم :

فرض الله تعالى الصوم على عباده المؤمنين لما له من فوائد جمة تقوي عزائمهم على طاعته سبحانه وتزيد من تقواهم وقربهم إليه ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

---

(١) الترمذي / ك : الزهد – ب : ما جاء في مثل الدنيا مثل أربعة نفر .
(وصحيحه / ح رقم ١٨٩٤) .

ففي هذه العبادة يتعود العبد على الصبر بترك الطعام والشراب كما تربي فيه ضبط النفس من الوقوع في الشهوات والمعاصي وكف النفس الأمَّارة بالسوء عن الوقوع في الآثام والبعد عن الشهوات المباحة كمباشرة النساء الحلائل في نهار رمضان ، مما يجعل النفس أكثر ترفعا عن الشهوات حتى المباح منها ، فتتطلع إلى الثواب الجزيل والعطاء الوفير الذي أعده الله تعالى للصائمين . قال ﷺ : « مَنْ صام رمضان إيمانا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه » (١) .

ومن الفوائد الاجتماعية للصوم أنه يعوّد الأُمة على النظام ، وحب العدل ، والمساواة ، ويكوّن في المؤمنين عاطفة الرحمة وخلق الإحسان ، كما يصون المجتمع من الشرور والمفاسد (٢) .

كما يعتبر الصوم تدريبا عمليًّا على البعد عن المحرمات ، فعندما يمتنع عن مباشرة زوجته في نهار رمضان ، فإنه تدريب عملي للعبد في عدم الوقوع في الزنا في غير رمضان .

فللصوم حكم جليلة إذا ما استشعر العبد عظمتها أقبل على الصيام بنفس خاشعة تطمع في مغفرة الله تعالى ورحمته وعتقه للمؤمنين من النار في ذلك الشهر المبارك وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، صفدت الشياطين ومردة الجن ، وغلقت أبواب النيران فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب وينادي مناد يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ، ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة .. » (٣) .

(٥) الحـج :

فرضه الله تعالى على كل مسلم مستطيع ، فقال تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾ [آل عمران : ٩٧] . يكون فيه اجتماع فضل

---

(١) بخاري / ك : الصوم – ب : من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية .

(٢) راجع : منهاج المسلم – أبو بكر الجزائري / ص ٢٦١ .

(٣) ترمذي / ك : الصوم – ب : فضل شهر رمضان (وصحيحه ح رقم / ٥٤٩) .

المكان والزمان والشعيرة . ومن حكمة العزيز الحكيم أن جعله في العمر مرة واحدة لما فيه من المشقة ، والكلفة التي يتحملها المسلم ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وللحج حكم وفوائد كثيرة تعود على الفرد المسلم والجماعة المسلمة ، وتحقق معنى العبودية منها :

- تطهير النفس من الذنوب والآثام . فيرجع المسلم ولا شيء عليه منها ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » [1] .
- وقد أمر الله تعالى النفوس المؤمنة أن تتزود بخير زاد لها يعينها على مشاق هذه الفريضة . ألا وهو تقوى الله تعالى ، فقال عز من قائل : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** ﴾ [البقرة : ١٩٧] .
- كما يشتمل الحج على عبادات أخرى كالتهليل والتحميد والتلبية والدعاء والتسبيح والتكبير . إلى غير ذلك مما يتقرب به العبد إلى ربه في أيام الحج ، فيحرص العبد على اغتنامها والحصول عليها للفوز بالحج المبرور الذي ليس له جزاء إلا الجنة كما ورد ذلك في الحديث الصحيح [2] . فيمكث العبد في تلك الأيام دائم الذكر لربه . يقول تعالى : ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين** ﴾ [البقرة : ١٩٨] . ويقول تعالى : ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا** ﴾ [البقرة : ٢٠٠] .

فالذكر المطلوب من العبد دائما ، وخاصة في أيام الحج هو ذكر كثير دائم ، فيكون أكثر من ذكر الأولاد آبائهم حيث هم دائمون في التلفظ بقولهم :

---

(١) متفق عليه :
بخاري / ك : الحج - ب : فضل الحج المبرور .
، مسلم / ك : الحج - ب : ثواب الحج والعمرة . (ومختصره / ح رقم ٦٤١) .

(٢) مسلم / ك : الحج - ب : ثواب الحج والعمرة (ومختصره / ح رقم ٦٤٠) .

يا أبه يا أمه [1] . بل لا يكادون يحسنون غيرها في الذكر والكلام ، فلا يكون على ألسنتهم سوى تلك الكلمتين . أبه أمه . فكذلك الذكر الذي يأمر الله تعالى به في أيام الحج ، بحيث لا يكون على لسان العبد سوى ذكر الله تعالى .

- تحمل التلبية كل معاني العبودية لله تعالى وعدم الإشراك به وإفراده دون سواه وتمجيده سبحانه بذكر نعمائه فيكثر العبد من قول : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » ، كما يحمل دعاء يوم عرفة أيضا ما تحمله التلبية من معان . فقد أخبر ﷺ عن أفضل دعاء يقال في ذلك اليوم فقال : « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له » [2] .

- وجود العبد في إحرامه أشعث أغبر ، يظهر تجرده من كل مظاهر التنعم والترف . فيظهر فقره وتذلله وخضوعه لخالقه جل وعلا ، فيتساوى الجميع في هذه الهيئة غير عابئين بنظافة في الملبس أو راحة في المسكن . كما لا يحصلون على نومة هادئة أو أكلة هانئة . فبمقارنة ما يجدون في بيوتهم ، ويكونون عليه في دورهم ، فإن الفرق واقع . ما له من دافع .

- كذلك في تقبيل الحجر الأسود . وهو حجر لا يضر ولا ينفع ، غير أن ما أمر الله تعالى به لابد من العبد الامتثال له والإذعان . ولو تقبيلا لحجر . كامتثال عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – في ذلك حين جاء إلى الحجر الأسود فقبّله فقال : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبّلتك » [3] .

---

(١) وهذا ما رجحه ابن جرير الطبري . (راجع : جـ ٤ – ص ٢٠٠) .
(٢) الموطأ / ك : الحج – ب : جامع الحج .
(٣) بخاري / ك : الحج – ب : ما ذكر في الحجر الأسود .

- كما يعتبر الحج تذكير للعبد لأهوال يوم القيامة ، وقيام الساعة ، حيث إن الحج صورة مصغرة لذلك . فخذ إليك مثلا : دخول الحاج مكة المكرمة ، وهي حرم الله الآمن الذي لا يدخله إلا مسلم ، ولا يدخله مشرك بحال ، فيه تذكير بالجنة ، فلا يدخلها إلا مسلم ، ولا يدخلها مشرك بحال ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فِى سم الخياط** ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وجمع الناس بعرفة ، أحمرهم وأسودهم ، كبيرهم وصغيرهم ، أغنيائهم وفقرائهم ، قويهم وضعيفهم فيه تذكير للعبد بيوم الحشر حيث يكون البشر جميعا في صعيد واحد ، ثم يقضى بينهم . فتذوب بين الحجاج الفوارق ، وتنقشع عنهم الفرقة والاختلاف .

- أما الفوائد التي تعود على الجماعة المسلمة في موسم الحج . فهي كثيرة منها : اجتماع المسلمين من كل أنحاء المعمورة لبحث أمور دينهم ودنياهم ، وتبادل المنافع ، والتعارف فيما بينهم في حل مشكلاتهم . وما يعود عليهم من الخير .

فيظهر معنى العبودية في كل منسك من مناسك الحج من إفراد الله تعالى والإخلاص له سبحانه والطاعة لما أمر به سبحانه وأمر به رسوله ﷺ على الوجه المعين والوقت المخصوص والكيفية المشروعة .

(٦) الجهـاد :

أفضل تجارة رابحة مع المولى عز وجل وذروة سنام الإسلام . يقوم بها العبد المؤمن فيبيع نفسه التي هي أغلى ما يملك لله تعالى اعتقادًا منه لما في الجهاد من النجاة من النار ومن غفران الذنب ودخول الجنان . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فِى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرِى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فِى جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾ [الصف : ١٠ - ١٢] . وقال تعالى : ﴿ **إن الله اشترَى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ [التوبة : ١١١] .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « لما رأى التجار عظمة المشترى وقدر الثمن وجلالة قدر مَنْ جرى عقد التبايع على يديه ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لغيرها من السلع ، فرأوا من الخسران البيِّن والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخص دراهم معدودة تذهب شهوتها وتبقى تبعتها وحسرتها فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضا واختيارًا وقالوا : والله لا نقيلك ولا نستقيلك فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم : قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا الآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] [(١)] .

وقد حث الدين الحنيف المؤمنين على الجهاد في مواضع كثيرة وبيَّن منزلة الشهادة وحثهم على نيلها وسؤالها . فقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ سأل الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » [(٢)] . كما حذر عليه الصلاة والسلام من الركون إلى الحياة الدنيا وترك الجهاد ، وبيَّن أن الذي يموت ولم يغز ولم يُحدِّث نفسه بالغزو والجهاد في سبيل الله فقد مات على شعبة من النفاق – والعياذ بالله تعالى – فقال : « مَنْ مات ولم يغز ولم يُحدِّث به نفسه مات على شعبة من النفاق » [(٣)] .

فتتجلى هذه الفريضة علاقة العبد مع ربه سبحانه وتسمو فيها معنى العبودية الكاملة . حيث هي أقرب طريق موصل إلى المنازل العالية والمراتب الرفيعة في الجنة . ولاشك أن العبد الذي يقدم نفسه لله تعالى ، قد خضعت جوارحه كلها لله تعالى ووصل إلى أعلى مراتب العبودية ، وهي مرتبة الشهادة التي دون النبوة والصديقية .

---

(١) زاد المعاد / جـ ٣ – ص ٧٤ .
(٢) مسلم / ك : الجهاد – ب : الترغيب في طلب الشهادة . (ومختصره / ح رقم ١٠٧٨) .
(٣) المصدر السابق / ك : الجهاد – ب : من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه .
(ومختصره / ح رقم ١٠٧٣) .

(٧) الدعـاء [١] :

الدعاء من أعظم العبادات التي تربط العبد بربه سبحانه ، ويحبه الرب تعالى من عبده . فالدعاء هو العبادة ، كما أخبر النبي ﷺ فقال : « الدعاء هو العبادة » [٢] . وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » [٣] . وجعل سبحانه الذين لا يأتونه من المستكبرين عن عبادة ربهم مستحقين لعذابه الأليم فقال تعالى : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ [غافر : ٦٠] . فجعل الله تعالى سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبادة له وطلبه منه ، كما ذم على تركه بأبلغ أنواع الذم والوعيد . قال عليه الصلاة والسلام : « إنه مَنْ لم يسأل الله يغضب عليه » [٤] . ففي الدعاء إظهار فقر العبد وحاجته وتذلله إلى خالقه القادر – وحده دون سواه – على جلب المنافع ودفع المضار . فيتجه العبد إلى خالقه بلسانه وقلبه يتذلل ويتضرع إليه . وقد يبتلي الله تعالى عباده لِيُظهروا ابتهالهم وتضرعهم إليه بالدعاء له بكشف ما حل بهم من كرب ، فيحب الله تعالى من العباد أن يعترفوا بفقرهم وذلهم وحاجتهم واضطرارهم إليه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون** ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

والدعاء مقتض للإجابة [٥] . قال تعالى : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم** ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقال : ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون** ﴾ [النمل : ٦٢] . وقد حث النبي ﷺ

---

(١) راجع في هذا بشيء من التفصيل : الفتاوى / جـ ١ – ص ١٨٠ – ١٩٨ .

(٢) أبو داود / ك : الوتر – ب : الدعاء .

(٣) الترمذي / ك : الدعوات – ب : ما جاء في فضل الدعاء . (وصحيحه / ح رقم ٢٦٨٤) .

(٤) الترمذي / ك : الدعوات – ب : ما جاء في فضل الدعاء . (وصحيحه / ح رقم ٢٦٨٦) .

(٥) تعليق : هذا مع استكمال شروط الدعاء وانتفاء موانعه بحيث لا يُدعى بقطع رحم ، أو يُدعى بغير الله تبارك وتعالى في إجابة الدعاء فينقلب الدعاء من عبادة إلى شرك به سبحانه ، كمن يدعو الأولياء ، كما هو حال كثير من الصوفية .

المؤمنين على أن يسألوا ربهم وهم موقنون بالإجابة ، فيقوم العبد بالدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاؤه فيه ، لقوله ﷺ : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه » [(١)] .

وفي الدعاء يجمع العبد في مسألته ما يدفع ضره ويجلب نفعه متوجها إلى ربه جل وعلا الذي بيده ملكوت كل شيء وهو المقصود من الدعاء ، إذ يحقق العبد بذلك عبوديته وافتقاره لخالقه عز وجل . فإذا سأل العبد فلا يسأل إلا الله تعالى .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨] وقول النبي ﷺ لابن عباس – رضي الله تعالى عنه – : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » [(٢)] .

ومنه قول الخليل – عليه السلام – : ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق** ﴾ [العنكبوت : ١٧] . ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله ، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر كأنه قال : (لا تبتغوا الرزق إلا عند الله) وقد قال تعالى : ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾ [النساء : ٣٢] [(٣)] .

(٨) جملة من أعمال الجوارح :

يقوم اللسان بكثير من العبادات منها ما سبق ذكره ، ومنها الآتي بيانه :

– التسبيح :

ومعناه تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص ، ويطلق ويراد به جميع ألفاظ الذكر [(٤)] . فهو يرادف الذِكر من حيث الإطلاق فيشمل بذلك التكبير

---

(١) ترمذي / ك : الدعوات – ب : جامع الدعوات . (وصحيحه / ح رقم ٢٧٦٦) .

(٢) ترمذي / ك : الدعوات – ب : جامع الدعوات . (وصحيحه / ح رقم ٢٠٤٣) .

(٣) العبودية / ص ٤٢ .

(٤) قاله الحافظ بن حجر – رحمه الله تعالى – في الفتح / جـ ١١ – ص ٢٠٦ .

والتحميد والتهليل والحوقلة وغيره من الذِكر . وللتسبيح فضل عظيم وثواب جزيل لجميع أنواعه وألفاظه فيذكر العبد ربه ويسبح بحمده تعالى ويمجده بما هو أهله ويكبره اعترافًا واعتقادًا بأن الله تعالى مستحق لكل كمال ومنزه عن كل نقص .

- الاستغفار :

هو طلب المغفرة ، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها [1] ، وكثيرًا ما يقرن الاستغفار بذِكر التوبة والإقلاع عن الذنب فيكون الاستغفار عبارة عن طلب المغفرة باللسان ، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح . قال تعالى : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾ [النساء : ١١٠] . وقد أوضح النبي ﷺ سيد الاستغفار فقال : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » [2] . ففي الحديث اعتراف من العبد بألوهية الله عز وجل وأحقيته بالعبودية دون سواه ، وإقرار العبد بذنوبه التي يرجو مغفرتها ، ويتضرع لخالقه لمحوها . إذ هو سبحانه - لا غير - غافر الذنب وقابل التوبة عن عباده .

نقل الحافظ ابن حجر [3] - رحمه الله تعالى - كلامًا عن الحديث السابق فقال : « جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى سيد الاستغفار ، ففيه الإقرار لله وحده بالألوهية والعبودية

---

(١) البحر الرائق - أحمد فريد / ص ٨٩ .

(٢) بخاري / ك : الدعوات - ب : أفضل الاستغفار .

(٣) هو : الإمام العلامة خاتمة الحفاظ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني شهاب الدين بن حجر ، ولد سنة ٧٧٣ هـ بالقاهرة . من أئمة العلم بالتاريخ والحديث ، له مؤلفات كثيرة وعظيمة ومفيدة جدًا . توفي سنة ٨٥٢ هـ . (ذيل تذكرة الحفاظ / ص ٣٢٦) .

والاعتراف بأنه الخالق والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه ، والرجاء بما وعده به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه وإضافة النعماء إلى موجِدها ، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبته في المغفرة ، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو » [1] .

والاستغفار هو دواء المذنبين ، وطريق التائبين ، كما قال قتادة – رحمه الله تعالى – : « إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار » [2] .

كما تشمل هذه العبادات تلاوة القرآن [3] ، والاستغاثة [4] ، والاستعاذة لقوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ [الفلق : ١] ، وقوله : ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ [الناس : ١] . وقوله : ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ [المؤمنون : ٩٧ ، ٩٨] .

وتفويض الأمر لله تعالى : ﴿ **وأفوض أمرِى إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ [غافر : ٤٤] .

والشكوى التي لا تكون إلا إليه كفعل يعقوب عليه السلام فقال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **إنما أشكو بثّى وحزنِى إلى الله** ﴾ [يوسف : ٨٦] .

ثانيا : العبادات الباطنة :

وهي أعمال القلوب ومنها :

(١) الاستعانة :

لقوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ [الفاتحة : ٥] .

---

(١) فتح الباري / جـ ١١ – ص ١٠٠ .

(٢) البحر الرائق – أحمد فريد / ص ٩٣ .

(٣) راجع : المصدر السابق / ص ٨٧ .

(٤) راجع : الفتاوى / جـ ١ – ص ١٠١ ، ص ٣٢٩ .

(٢) التقوى :

لقوله تعالى : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾ [النساء : ١٣١] .

(٣) الصبر :

لقوله تعالى : ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

(٤) الخوف والخشية :

لقوله تعالى : ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقوله : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

وأكثر العباد خضوعا وعبودية له سبحانه ، هم أكثرهم خشية لله تعالى ، فهؤلاء الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وهم أعلى الخلق منزلة . يقول الله تعالى عنهم : ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله** ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

وكذلك مَنْ دون الأنبياء ، وهم العلماء . لقوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [فاطر : ٢٨] .

(٥) التوكل :

وهو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار [(١)] .

قال تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ [الطلاق : ٢] .

وقال : ﴿ **وكفَىٰ بالله وكيلا** ﴾ [الأحزاب : ٣] .

(٦) الرضا :

لقوله عليه الصلاة والسلام : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا » [(٢)] .

---

(١) البحر الرائق – أحمد فريد / ٢٢٢ .

(٢) مسلم / ك : الإيمان – ب : ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا . (ومختصره / ح رقم ٢٥) .

(٧) النيـة :
قال تعالى : ﴿ **فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ [الزمر : ٢] . لقوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » [(١)] وعليها مدار الأعمال كلها . فلابد للمرء أن يعقدها لله عز وجل في جميع أعماله الظاهرة والباطنة ولا يشرك معه فيها أحدا .

أثر العبـادات في علاقـة العبـد بربـه تعالى

وهذه العبادات سواء الظاهرة منها أم الباطنة ، والتي يقوم العبد بها لله عز وجل . لا يصلح شيء منها إلا لله وحده ، ولا يجوز بحال فعلها أو جزءا منها لغيره سبحانه . فيُخلص العبد نيته لله تعالى ، فيصلي لربه ، ويؤدي الزكاة المفروضة والصدقات المرغوبة ابتغاء وجه الله تعالى ويصوم رمضان بنفس متطلعة إلى نفحات الله تعالى في هذا الشهر الكريم ، كما يتوكل على الله تعالى في أموره كلها ، مع أخذ الأسباب المباحة والمأمور بها شرعا ، ويرضى بما قسم الله تعالى له من الرزق ، ويصبر على قضاء الله تعالى ويشكره على نعمائه التي لا تعد ولا تحصى ، وإذا ما اقترف العبد ذنبا استغفر مولاه وأناب إليه وتاب ، وهو في هذا بين الرغبة في جنته تعالى والرهبة من ناره . فالعبادات كلها مجتمعة ومنفردة توطد العلاقة بين العبد وبين ربه تعالى لا واسطة بينهم . اللهم إلا واسطة التبليغ التي يقوم بها الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بما أمر الله تعالى به . حتى يعبد العبد ربه بما شرع ربه ، ولكن تبقى علاقة العبد بربه في العبادات بنوعيها دون وساطة كقوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادِى عنّى فإنّى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، بخلاف المسائل التي يريد العبد معرفتها فيسأل عنها فتكون إجابتها من قِبَل الله تعالى عن طريق الرسول المبلغ ، كقوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هِىَ مواقيت للناس والحج** ﴾ [البقرة : ١٨٩] . وقوله :

---

(١) بخاري / ك : بدء الوحي – ب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .
، مسلم / ك : الجهاد – ب : النية في الأعمال . (ومختصره / ح رقم ١٠٨٠) .

﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس** ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

أما ما سوى ذلك من أمور العبادات التى بيَّن الشرع الحكيم كيفيتها فيؤديها العبد ويصل بها ربه سبحانه دون واسطة أحد ، لذا كانت الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – يأمرون أممهم بطاعتهم فيما يبلغون به ، ويأمرونهم بتقوى الله عز وجل وخشيته والالتجاء إليه دون سواه كقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ [الشعراء : ١٠٨] ، وقوله : ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ [نوح : ٣] ، وقوله : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾ [النور : ٥٢] .

فالعبادة والتقوى والخشية تكون لله عز وجل ، أما الطاعة فتكون لله عز وجل وللرسول . وطاعة الرسول هي أيضا من طاعة الله تعالى حيث أمر بها سبحانه عباده أمر إلزام . فقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾ [النساء : ٦٤] ، وقال : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ [النساء : ٨٠] .

بهذا تبقى علاقة العبد بربه ثابتة ومتصلة دائما من خلال العبادات التي يقوم بها العبد تجاه ربه .

ما آل إليه مفهوم العبادات

مما يؤسف أنه ضاع المعنى الحقيقي للعبودية بين كثير من المسلمين كما خرجت العبادات كلها عن معناها الحقيقي فانقلبت إلى عادات وحركات تُؤدى . كما تغيَّرت من نطاق السنة إلى هوة البدعة . وهذا مع جميع العبادات والأحكام الشرعية المبينة بصورتها النقية في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

فأما عن انقلاب العبادات إلى عادات :

فخذ إليك بعضا من العبادات وما آلت إليه :

فالشهادتان مثلا أصبحتا كلماتَ تردد – إن رددت – على الشفاه لا يُفهم معناها ألبتة ، ولا يعرف ما يحق لله تعالى منها من أسماء حسنى وصفات عليا وأفعال مثلى ، كما لا يعرف كذلك ما لا يجوز في حقه سبحانه من نفي الشريك

والمثل والشبيه والند ، كما لا يعرف الخضوع والرهبة والخشية والطاعة الكاملة التي لا تنبغي إلا لله تعالى . حتى انحصر مفهوم الشهادة فيمن يعبد تمثالا أو صنمًا ويتوسل به ويصلي إليه . وجعلوا مَنْ يفعل ذلك كافرًا ، أما مَنْ لا يعبد تمثالا ويشهد بقوله لا إله إلا الله ، وهو مع ذلك واقع في أمور شركية [1] قد تصل به إلى الشرك الاعتقادي ، كما أنه غير ممتثل لأوامر الله تعالى ، وغير منته عن نواهيه ، بل غارق في الكبائر وتضييع الفرائض ، فهو مسلم موحد بالله !! وهذا من أشد الغلط والخلط في دين الله .

أما عن شهادة أن محمدا رسول الله فتجد الكثيرين لا يعرفون من هذا سوى اسم نبيهم ﷺ . أما عن سيرته وطاعته ، والإمتثال لأوامره ، واتباع سنته العملية والقولية والتقريرية ، والرضا بحكمه وتصديقه فيما أخبر . إلى غير ذلك فهم بعيدون كل البعد عن ذلك .

أما عن **الصلاة** فأصبحت حركات تُؤدَّى على سبيل الاعتياد ، لا خشوع فيها ، يُتمنى أداؤها في أسرع وقت والخلاص منها وكأنها جبل فوق كل أحد لا يجدون الراحة بها ، ولكن يريدون الراحة منها ، بحيث تؤدى بأي حال وبأي شكل كان .

وقل ما شئت في بقية العبادات كلها . ولعلي أقدم نص الدكتور أبي الفتح البيانوني في هذه السطور التالية حيث يرسم الصورة الحقيقية لواقع المسلمين تجاه العبادات فيقول : « إن واقع المسلمين اليوم حوّل عبادات المسلم إلى عادات ، وفرق كبير بين أن يعتاد المرء العبادة فتصبح جزءا من حياته وسلوكه ، وبين أن تغلب عليها العادة فتفقدها صفة العبادة ، وتحولها عن وظيفتها وتعرضها بعد ذلك للتغيير والزوال . فلم يقتصر أثرها على بعض النوافل والمندوبات ولا على بعض المظاهر والشعائر ، بل تعداها إلى كثير من الواجبات الإسلامية والأركان الأساسية .

---

(١) كالطواف بالأضرحة ، والاستغاثة بالأولياء من دون الله تعالى ، والذبح والنذر لغير الله تعالى إلى غير ذلك مما يفعله كثير من عوام المسلمين بتحريض من دعاة التصوف والصوفية ، والذي ينافي عقيدة التوحيد .

فبعد أن كان المرء يحسب للفظ الشهادتين كل حساب ويشعر وهو يتلفظ بها بالخشوع والخضوع . أصبح يكررها مئات المرات ، دون أن تترك في نفسه أثرًا ولا في سلوكه مظهرا .

وكم من مستغفر لله عز وجل وهو متلبس بمعصيته ، مصر على مخالفته لا يجاوز الاستغفار لسانه !!

وكم من تال للقرآن والقرآن يلعنه !!

والصلاة التي كانت قرة عيون المؤمنين ومعراج المتقين أصبحت عند كثير من المصلين عبارة عن حركات منتظمة ، تفقد الخشوع والطمأنينة .

والزكاة التي شُرِعَت طهرة للقلوب من حب المال وتزكية للنفوس من طغيانه أصبحت عند كثير من المسلمين المؤدين لها ضريبة من الضرائب ، يُحتال عليها ويتثاقل في دفعها .

وشهر رمضان الذي كان مدرسة للتقوى والصبر ، ومعراجا للروح والفكر أصبح شهر طعام وشراب وتلذذ وسمر .

ومناسك الحج الجامعة أصبحت عند معظم الحجاج أعمالا لا شعورية تفقد وظيفتها في النفوس وتتجرد عن معانيها ، فترى الحاج متقيدا بمحظورات الإحرام وهو متلبس بمحظورات الإسلام .

والحجاب الذي كان مظهر العفة والحياء ورمز الصيانة والنقاء أصبح عند كثير من المسلمات عبئا ثقيلا يتفنن في إزاحته وتشويه حقيقته !!

وقل مثل هذا في كل شعيرة من الشعائر التعبدية ، وفي كل عمل دعا إليه الإسلام » [1] أ.هـ .

هذا عن انقلاب العبادات إلى عادات .. وأما عن :

---

(١) العبادة – د. أبو الفتح البيانوني / ص ٩٠ – ٩١ (باختصار) .

تحول العبادات وتغيرها من نطاق السنة إلى هوة البدعة :

فهذا أمر يطول شرحه حيث ترتبط البدعة ارتباطًا وثيقًا بالانحراف في الدين ولها تأثير سيء كبير في تشويه وطمس كثير من معالم الهداية والنور في الدين . ولكي يتضح لنا ما للبدعة من خطورة في الإفساد من عقيدة المسلمين وعباداتهم يلزمنا أن نستعرض موقف النبي ﷺ وصحابته الكرام من البدعة والابتداع في الدين .

فقد حرص عليه الصلاة والسلام كل الحرص على حماية الدين من شرور الابتداع ، كما حض الأمة على التمسك بكتاب رب العالمين وبسنته عليه السلام فقال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنة رسوله » [(١)] وقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » [(٢)] . وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » [(٣)] . وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم والبدع » [(٤)] إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في ذم البدعة والابتداع في الدين .

وحرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على تبليغ الأمة سنة النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وبالغوا في التحذير عما يخالفها من قول أو فعل مهما كان ذلك وعلى أي وجه يكون ، ولم يفرقوا في الإنكار بين ما ظاهره الحسن وبين ما ظاهره السوء ، بل اعتبروا البدعة أمرا منكرا وزورًا من القول والعمل ، ويجب الحذر منها والبعد عنها ، ولو قال بها مَنْ قال وعمل بها مَنْ عمل وجعلوا اتباع سنة النبي ﷺ نصب أعينهم وأمروا الناس بعدم الحيدة عنها ، حتى اشتهر عن بعضهم وهو : عبد الله بن عمر بن الخطاب [(٥)] بأنه المتتبع أثر النبي ﷺ

---

(١) الموطأ / ك : القدر – ب : النهي عن القول بالقدر .
(٢) ترمذي / ك : العلم – ب : الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (وصحيحه ح رقم / ٢١٥٧) .
(٣) مسلم / ك : الإمارة – ب : رد المحدثات من الأمور (وصحيحه ح رقم / ١٢٣٧) .
(٤) السنة – لابن أبي عاصم / جـ ١ – ص ٢٠ (ح رقم ٣٤) .
(٥) سبقت ترجمته / ص ٣٧ .

لما كان عليه - رضي الله تعالى عنه - من حرصه على اقتفاء فعل النبي ﷺ وقوله حتى في الأمور الجبلية . وهو ما كان عليه الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - من الحرص على لزوم الكتاب والسنة والبعد عن البدع والتحذير منها والإنكار على مقترفيها . فهذا عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه - ينكر على أناس يجتمعون في ناحية من مسجد الكوفة يسبحون تسبيحًا معلومًا ويهللون ويكبرون . فيقول لهم : (لقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علما أو لقد جئتم ببدعة ظلما فقال أحدهم : والله ما فضلنا أصحاب محمد علما ولا جئنا ببدعة ظلمًا ولكنا قوم نذكر ربنا .

قال ابن مسعود : بلى - والذي نفس ابن مسعود بيده - لقد فضلتم أصحاب محمد علمًا أو جئتم ببدعة ظلمًا . والذي نفس ابن مسعود بيده - لئن أخذتم آثار القوم ليسبقنكم سبقًا بعيدًا ولئن حُرْتم يمينا وشمالا لتضلن ضلالا بعيدا) [(١)] .

وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - قال : عليكم بالاستقامة والأثر وإياكم والتبدع [(٢)] .

وعن حذيفة بن اليمان - رضي الله تعالى عنه - قال : « اتبعوا سبلنا ولئن اتبعتمونا لقد سبقتم سبقًا بعيدا ولئن خالفتمونا لقد ضللتم ضلالا بعيدا » [(٣)] .

فكيف لو اطلع اليوم ابن مسعود أو حذيفة بن اليمان - رضي الله تعالى عنهما - أو أحد من الصحابة على الأذكار التي يفعلها أصحاب الطرق الصوفية الضالة فيما يرددونه بقولهم : (هو هو هو) أو (حي حي) وغير ذلك من ألوان الهذيان الذي يترنمون به ويزعمون أنه ذكر لله .. فضلا عما يصحب ذلك أحيانا من آلات الطرب والمعازف والرقص وشرب الخمر واختلاط الرجال

---

(١) البدع والنهي عنها - القرطبي / ص ١٦ ، ١٧ .
(٢) المصدر السابق / ص ٣٢ .
(٣) المصدر السابق / ص ١٨ .

بالنساء ، وغير ذلك من المفاسد التي يمليها عليهم الشيطان ؟! . لاشك أن هذا هو الضلال المبين وإن استحسنه الناس . يقول عبد الله بن عمر – رضي الله تعالى عنهما – : « كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة » [1] .

ويتضح لنا من تعريف البدعة خطورتها ، حيث هي ما أحدث في الدين مما ليس له أصل فيه . أو كما قيل أنها – أي البدعة – طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية [2] . وقال الحافظ في الفتح : « المحدثات جمع محدثة والمراد بها ما أحدث وليس له أصل في الشرع ويسمى في عرف الشرع بدعة . فالبدعة في عرف الشرع مذمومة » [3] .

فيعلم من هذا أن البدعة ما ذكرت إلا على سبيل الذم والتحذير منها والأمر بالبعد عنها وأنها الضلال المبين . وذلك لما فيها من خطورة على تشويه وطمس معالم العقيدة وسلوك العبادة الصحيحة . لذا كان حكم البدعة أنها محرمة وضلالة ومردودة على أصحابها وهذا يشمل كل بدعة في الدين فتشمل البدع العبادات والاعتقادات . فقوله ﷺ : « وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » [4] يشمل كل بدعة .

يقول الحافظ بن رجب – رحمه الله تعالى – : « فقوله ﷺ : (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء . وهو أصل عظيم من أصول الدين .. فكل من أحدث شيئا ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة والدين بريء منه سواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأقوال أو الأعمال الظاهرة والباطنة » [5] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « المدخل إلى السنن » (١٩١) .

(٢) الاعتصام – الشاطبي / جـ ١ – ص ٣٧ .

(٣) فتح الباري / جـ ٢٥٣ – ص ١٣ .

(٤) سبق تخريجه ص ١٣٨ .

(٥) جامع العلوم والحكم / ص ٢٥٢ .

ويقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - : « وقوله ﷺ : « وكل بدعة ضلالة » قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها . أما منطوقها فكأن يقال : حكم كذا بدعة وكل بدعة ضلالة فلا تكون من الشرع لأن الشرع كله هدى ، فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة صحت المقدمتان وأنتجتا المطلوب » (1) .

ولعل من الأسباب الرئيسية التي دفعت أهل البدع ينحرفون عن طريق الاتباع هو إعراضهم عن الكتاب والسنة اللذيْن بدونهما يكون الضلال ، وكذا اتباعهم الهوى في استحسانهم أمورًا ليست من الدين فيجعلونها من الدين وهي مردودة عليهم . قال تعالى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذي ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثارهم شيئا » (2) . يقول الإمام مالك - رحمه الله تعالى - : « مَنْ ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة ، لأن الله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم » فما لم يكن يومئذ دينا . فلا يكون اليوم دينا » (3) .

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - تعليقا على الحديث السابق الذكر : « ووجه التحذير أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده ولو لم يكن هو عمل بها بل لكونه كان الأصل في إحداثها » (4) .

---

(1) فتح الباري / جـ ٣ - ص ٢٥٤ .
(2) مسلم / ك : العلم - ب : من دعا إلى هدى أو ضلالة (وصحيحه ح رقم / ١٨٦٠) .
(3) الاعتصام - الشاطبي / جـ ١ - ص ٤٩ .
(4) فتح الباري / جـ ١٣ - ص ٣٠٢ .

وتظهر خطورة البدعة في **عقيدة** المسلمين **وعباداتهم** .

فأما عقيدتهم ففي مقالات أهل الأهواء والبدع . كمقالات الجهمية والمعتزلة والرافضة وسائر الفرق الضالة ، وكالطواف بالقبور تقربا إلى أصحابها وتقديم الذبائح والنذور لها والتوسل بأصحابها والاستغاثة بهم . وقد كانت بدعة القدر وبدعة الإرجاء وبدعة التشيع والخوارج أول البدع ظهورا وكانت بين بقايا الصحابة [١] فتصدوا لها وأنكروا على أهلها ، ثم ظهرت بدعة الاعتزال وحدثت الفتن بين المسلمين وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء وظهرت بدعة التصوف وبدعة البناء على القبور . وهكذا كلما تأخر الوقت زادت البدع وتنوعت فغيرت وبدلت أساس الدين وهو التوحيد الذي بعث الله تعالى به الرسل وأنزل به الكتب .

وأما في عباداتهم فهي أشد وأنكى ومعظمها حدث على يد المبتدعة من الصوفية الذين أغروا العامة من المسلمين - بل والخاصة - بأن ما يفعلونه من عبادات ابتدعوها تقرب إلى الله تعالى ، وهي ما لم ينزل الله تعالى بها من سلطان والدين بريء منها ومن أصحابها . كبدعة التبتل والصيام قائما في الشمس والخصاء بقصد قطع الشهوة [٢] وكذا بدعة الوسوسة في المبالغة في الاستنقاء والتطهر ، وكذا بدعة التلفظ بالنية وهذا لم يشرع إلا في الإحرام خاصة لوروده عن النبي عليه الصلاة والسلام . أما في غيره من سائر العبادات فلا يجوز . إذ النية محلها القلب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : « والنية محلها القلب باتفاق العلماء فإن نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه أجزأته النية . ثم نقل عن أصحاب مالك وأحمد حكم التلفظ بالنية قولهم : لا يستحب ذلك . بل التلفظ بها بدعة .

---

(١) راجع : الفتاوى - لابن تيمية / جـ ١٠ - ص ٣٥٧ .

(٢) راجع : الاعتصام - الشاطبي / جـ ٢ - ص ٣٧ .

فإن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لم ينقل عن واحد منهم أن تكلم بلفظ النية لا في صلاة ولا طهارة ولا صيام » [1] . ومن البدع الصلاة على النبي ﷺ جهرا بعد الآذان [2] ، حتى صارت العامة والجهال ترى أن ذلك من جملة الآذان الذي لا يحل تركه [3] . ومن أمثلة البدع الشائعة بين كثير من المسلمين : طلب قراءة الفاتحة في المناسبات وبعد الدعاء وللأموات . ومنها التزام الكيفيات والهيئات المعينة في الذكر على هيئة الاجتماع على صوت واحد ، ومنها التزام عبادات معينة في أوقات معينة لا يوجد لها أصل في الشرع كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته . والاحتفال بيوم الإسراء والمعراج ومناسبة الهجرة النبوية . والاحتفال بيوم مولد النبي ﷺ في شهر ربيع الأول وهو من شر البدع المحدثة لما فيه من مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام ، ولما فيه من إطراء النبي ﷺ في قصائد هؤلاء المبتدعة كالتوسل به والاستغاثة به رغم تحذيره عليه الصلاة والسلام ونهيه حيث قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » [4] .

ولو كان في اتخاذ مولده ﷺ خير محض أو راجح لكان السلف - رضي الله تعالى عنه - أحق به منا . فقد كانوا أشد محبة للنبي ﷺ وتعظيما له منا [5] .

ومن بدع العبادات أيضا ما يقوم به كثير من المبتدعة بالتبرك بالأماكن والآثار كموضع مولده عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة والتمسح به وصعود جبل حراء الذي كان عليه النبي ﷺ ونزل عليه القرآن بقوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ [العلق : ١] . وصعود جبل الثور الذي اختبأ فيه النبي ﷺ وأبو بكر - رضي الله تعالى عنه - حين الهجرة إلى المدينة وما إلى ذلك

---

(١) راجع : الفتاوى - لابن تيمية / جـ ١٨ - ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
(٢) راجع : فتح الباري / جـ ٢ - ص ٩٢ .
(٣) الابداع في مضار الابتداع - علي محفوظ / ص ١٧٢ .
(٤) البخاري / ك : الأنبياء - ب : قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم** ﴾ .
(٥) راجع : كلام الشيخ ابن تيمية في الرد على هذه البدعة في اقتضاء الصراط المستقيم / جـ ٢ - ص ٦١٥ - تحقيق د. ناصر العقل .

من الأماكن التي يقدسها كثير من المبتدعة ، والعامة من ورائهم ويقصدونها للصلاة فيها والتبرك بها .. إلى غير ذلك من البدع التي ملأت عقول وأفئدة العديد من المسلمين وأصبحوا لا يعرفون دينهم إلا من خلال تلك البدع والخرافات ، وحرصهم على تلك البدع أشد من متابعة سنة من السنن الثابتة .

أما يخشى هؤلاء المبتدعة أن يحال بينهم وبين الشرب من حوض النبي ﷺ يوم القيامة ؟! فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض وليختلجن رجال دوني فأقول يا رب أصحابي . فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم غيروا وبدلوا فيقول النبي ﷺ سحقا سحقا لمن غير وبدل » (١) .

مما سبق يتضح بيانه فإنه يجب على المسلمين مفارقة أهل البدع وهجرهم وهو ما عليه أئمة السلف نحوهم .

قال الشاطبي - رحمه الله تعالى - : « فإن فرقة النجاة - وهم أهل السنة - مأمورون بعداوة أهل البدع والتشريد بهم والتنكيل بمن انحاش إلى جهتهم بالقتل فما دونه » (٢) .

فالخير كل الخير في اتباع الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح ، والشر والضلال في الابتداع في الدين ما ليس منه بالتقول على الله تعالى ورسوله عليه السلام . وكما قيل :

وكل خير في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف (٣)

* * *

(١) بخاري / ك : الرقاق - ب : في الحوض .
مسلم / ك : الفضائل - ب : قول النبي ﷺ أنا آخذ بحجزكم عن النار .
(٢) الاعتصام - الشاطبي / جـ ١ - ص ١٢٠ .
(٣) جوهرة التوحيد - الشيخ إبراهيم الباجوري / بيت رقم ١٣٧ ، الشرح / ص ٤٨٤ .

المبحث الثاني

عبودية الأنبياء

عليهم السلام

الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – هم صفوة البشر وأفضلهم ، فهم موصوفون بتلك الصفة الرفيعة ، وهي صفة العبودية ، حيث إنهم وصلوا إلى أعلى مراتبها وأسمى منازلها فكانوا أحق بهذا الوصف وأهلها دون غيرهم من البشر . ولو كان ثَم وصف آخر أعلى وأفضل من صفة العبودية لوصفهم الله تعالى به . فعلم أن هذه الصفة أسمى الصفات وأجلها ، قد أطلقها الله عز وجل على مَنْ اصطفاهم واجتباهم على العالمين . فهم صلوات الله وسلامه عليهم القدوة الطيبة لأممهم في تحقيق العبودية لله تعالى لأنها مأمورة أن تقتفي آثارهم وتقتدي بهديهم لقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فِي إبراهيمِ والذين معه** ﴾ [الممتحنة : ٥] .

لذا نجد أن من بين أتباع الرسل عليهم السلام أناسا وصلوا إلى مرتبة العبودية الحقة ، وهم : الصديقون [1] والشهداء والصالحون ، ولكنهم في مرتبة أقل من مرتبة الأنبياء ، وهم فيما بينهم يتفاوتون في المراتب ، فكل حسب أعماله .

---

(١) الصديق : المبالغ في الصدق (كما تفيده الصيغة) . وقيل : هم فضلاء أتباع الأنبياء ، وقيل : هو الذي ثبت عنده وجود الحق جل وعلا ضرورة دون تردد أو شك .

(راجع : فتح القدير / جـ ١ – ص ٤٨٥ ، روح المعاني / مجلد ١ / جـ ٥ – ص ٧٦) .

وصفهم – عليهم السلام – بالعبودية :

هؤلاء الصفوة من البشر ، وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز بالعبودية فقال سبحانه : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ [النمل : ٥٩] . فعباده الذين اصطفاهم هم الأنبياء عليهم السلام في قول [١] وزاد الشوكاني [٢] : أن عباده الذين اصطفاهم هم الأنبياء فأتباعهم [٣] . وجاء في تفسير أبي السعود : أن هذه الآية جاءت إثر ما قص الله تعالى على نبيه عليه السلام من قصص الأنبياء المذكورين آنفا وأخبارهم ودعوتهم لقومهم ، وأن من اقتدى بهم اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى في الهاوية [٤] ، فالمعنيّون بعباده الذين اصطفاهم الله عز وجل في الآية هم الأنبياء . وذكر القرطبي – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **عباده الذين اصطفى** ﴾ أي اختارهم لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام [٥] .

فعباده الذين اصطفاهم واختارهم على العالمين هم الأنبياء والمرسلون [٦] .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ : « هؤلاء هم أعلى الطبقات وأكرمها على الإطلاق وهم المرسلون ، فأكرم الخلق على الله تعالى وأخصهم بالإلف لديه هم رسله ،

---

(١) وقد ذكر ابن كثير وغيره قولا آخر في قوله تعالى : ﴿ **عباده الذين اصطفى** ﴾ وأسنده لابن عباس – رضي الله تعالى عنه – فقال : هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله تعالى لنبيه عليه السلام . ولكنهم رجحوا المعنى الأول ، وهم الأنبياء ، فمثله قوله تعالى : ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ .

راجع : (تفسير ابن كثير / جـ ٣ – ص ٣٦٩) .

، (تفسير روح المعاني للألوسي / مجلد ٧ – جـ ٢٠ – ص ٢) .

(٢) هو : محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني الخولاني ثم الصنعاني ، كان مفسرا محدثا فقيها أصوليا ، نشأ بصنعاء وولي القضاء فيها ، وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ . (معجم المؤلفين / جـ ١١ – ص ٥٣) .

(٣) فتح القدير / جـ ٤ – ص ١٤٦) .

(٤) تفسير أبي السعود / مجلد ٤ – ص ٢٠٧ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن / مجلد ١٣ – ص ٢٢٠ .

(٦) راجع : تفسير الكريم الرحمن / جـ ٥ – ص ٥٨٩ .

وهم المصطفون من عباده الذين سلَّم عليهم في العالمين ، كما قال : ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ . فإن أعظم ما جاءوا به : التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم [١] .

وقد وعد الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام بالنصر والتأييد ، لأنهم قاموا بالعبودية الحقة ، وقد كانوا أحق بها وأهلها ، لذا أعطوا النصر والتأييد على عدوهم قال تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] . وهذا التأييد للرسل وأتباعهم . فهم منصورون دائما على أعدائهم بالحجة والبرهان والبيان ، كما أنهم منصورون أيضا عليهم بالسيف ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلِى** ﴾ [المجادلة : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فِي الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [غافر : ٥١] ، وقوله تعالى : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ [الروم : ٤٧] .

وقد جاء هذا الوصف لهم أيضا في أشرف المواطن وهو مقام الوحي بإرسال الملائكة إليهم وإبلاغهم الرسالة . قال الله تعالى : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ [النحل : ٢] والمقصود بهم الأنبياء ، وهو قول إجماع المفسرين [٢] ، لأن ذكر « الروح » وهو الوحي خاص بالأنبياء دون غيرهم .

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : « والعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه في قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولِى الأيدِى والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾ [ص : ٤٥ - ٤٧] .

---

(١) التفسير القيم / ص ٣٩٧ - ٣٩٩ .

(٢) راجع : تفسير ابن كثير / جـ ٢ - ص ٥٦١ ، فتح القدير / جـ ٣ - ص ١٤٧ . روح المعاني / مجلد ٥ - جـ ١٤ - ص ٩٣ .

وقوله تعالى عن داود : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب** ﴾ [ص : ١٧] . وقال عن سليمان : ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٣٠] ، وعن أيوب : ﴿ **نعم العبد** ﴾ [ص : ٤٤] ، وقال عنه أيضا : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه** ﴾ [ص : ٤١] . وقال عن نوح عليه السلام : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا** ﴾ [الإسراء : ٣] ، وقال عن خاتم رسله : ﴿ **فأوحَى إلى عبده ما أوحَى** ﴾ [النجم : ١٠] [(١)] .

وقال ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه » [(٢)] . ثم ذكر منهم الملائكة والرسل والمتقين .

تحققهم – عليهم السلام – للعبودية :

فقد قاموا عليهم السلام بعبودية الله عز وجل ، وأخلصوا له في القصد والعمل ، وجعلهم الله عز وجل أئمة يهتدي الناس بهم . فكانوا عليهم السلام مقيمين للصلاة ، وهي أفضل عبادة تصلهم بالله تعالى ، كما كانوا مؤدين لفرائض الله عز وجل ، وقد مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾ [الأنبياء : ٧٣] .

وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من الأعمال الظاهرة التي أمرهم الله تعالى بها . ومن الأعمال الباطنة التي قاموا – عليهم السلام – بها سؤالهم الله عز وجل كشف ما بهم من ضر وقد أثنى الله تعالى عليهم لذلك واستجاب لهم دعاءهم . فذكر ابن القيم أمثلة على ذلك فيقول : « فهذا يونس عليه السلام يخبر الله تعالى عنه : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنِّى كنت من الظالمين فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجِى المؤمنين** ﴾ ،

---

(١) العبودية / ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) مدارج السالكين / جـ ١ – ص ١٠٢ .

وكذلك أثنى سبحانه على أيوب بقوله : ﴿ **مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ، وعلى يعقوب بقوله : ﴿ **إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله** ﴾ ، وعلى موسى بقوله : ﴿ **رب إنّي لما أنزلت إلَيّ من خير فقير** ﴾ ، وشكى إليه خاتم الأنبياء بقوله : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي .. » الحديث . فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر ، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه سبحانه وحده هو الصبر ، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه »[1] .

ومن الأعمال الباطنة التي مدحهم الله تعالى بها لقيامهم بها الدعاء والخشية والرغبة في الجنة ورضاه سبحانه ، والرهبة من النار وعقابه . قال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . وقال تعالى : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا** ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

دعوتهم – عليهم السلام – إلى العبودية :

كما نرى أن الأنبياء مع كونهم محققين لعبودية الله تعالى حق عبادته لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك فهم مأمورون بأن يدعوا أقوامهم إلى العبودية لله وحده لا شريك له ويحذرهم عبادة غيره سبحانه . فالله عز وجل بيَّن أنه اختار من الناس رسلا تحققت فيهم العبودية الحقة حتى يقوموا بدعوة الناس إليها . فقال تعالى : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾ [النحل : ٢] . فزبدة دعوة الرسل ومدارها على قوله تعالى : ﴿ **أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا** ﴾ .

فعليهم – الأنبياء – أن ينذروا الناس أنه لا شريك له سبحانه في الألوهية ، والإنذار في الآية للتحذير والتخويف لهم من الشرك بالله تعالى . وكذلك

---

(١) التفسير القيم / ص ٥٠٠ .

في قوله تعالى : ﴿ **فاتقون** ﴾ أي اتقوا عقوبتي لِمَنْ خالف أمري وعبد غيري .

فكانت غاية الرسل جميعا هي عبادة الله عز وجل وحده وترك عبادة غيره سبحانه ، وهي إثبات الألوهية لله تعالى ونفي ألوهية ما سواه .

فكل نبي دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وقد جمع الله تعالى الغاية من دعوة الرسل جميعا في قوله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [النحل : ٣٦] .

ممَّا سبق يتضح لنا غاية دعوة الرسل – عليهم السلام – وغاية إرسالهم للناس ، كما سبقه بيان لتحقق هؤلاء الصفوة من البشر لعبودية الله عز وجل الحقة . ولبيان عظم هذه الغاية من خلق الإنس والجن وخطر ما ينافيها من الإشراك بالله تعالى . بيَّن الله تعالى في كتابه العزيز أنه لو وقع الشرك به سبحانه من أحد هؤلاء الصفوة من البشر – على امتناع وقوعه منهم ، لوضع العصمة ، وعظم ما اختارهم الله تعالى من أجله على علم منه سبحانه بأهليتهم وكمال عبوديتهم – لكان ذلك سببا في أن تحبط أعمالهم . فقال تعالى مخاطبا نبيه محمدا ﷺ ومبينا أن هذا حكم الله تعالى الذي لا يتغير ولا يتبدل على كل من وقع منهم الشرك كائنا مَنْ كان : ﴿ **ولقد أوحِيَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ [الزمر : ٦٥] .

ولسائل أن يقول : إذا كان الشرك بالله تعالى يمتنع وقوعه من الأنبياء – عليهم السلام – فلِمَ ذكر ، ولماذا وجه إليهم هذا الخطاب التحذيري ؟! .

فيجاب عليه بأن الله تعالى أراد تحذير أتباعهم على خطورة الشرك به سبحانه وعظم معصية من تلبس به كائنا مَنْ كان . كما ذكر الشوكاني – رحمه الله تعالى – بأن إيراد هذا الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والأنبياء عليهم السلام من قبله من باب التعريض لغير الرسل ، ووجه إيراده هو التحذير والإنذار للعباد من الشرك

لأنه إذا كان موجبا لإحباط عمل الأنبياء - على الفرض والتقدير - فهو محبط لعمل غيرهم من البشر بطريق الأولى [1] .

وذكر الألوسي [2] - رحمه الله تعالى - أنه كلام على سبيل الغرض لتهييج المخاطب وبيان شناعة الإشراك وقبحه ، والغرض هو تحذير الأمة من الوقوع فيه وتصوير فظاعة الكفر [3] ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ [الأنعام : ٨٨] . فهذه الآية جاءت بعد ذكر الأنبياء من بداية قوله تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** ﴾ الآية . إلى قوله تعالى : ﴿ **واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم** ﴾ [الأنعام : ٧٣ - ٨٧] .

فهؤلاء الأنبياء المذكورون في هذه السورة المباركة - الأنعام - لو أشركوا بالله تعالى ، لحبطت أعمالهم ، وقد أوحى الله تعالى إليهم بذلك [4] . وكما أنه استحال إشراك الأنبياء - صلوات الله تعالى عليهم - بالله عز وجل فإنه يستحيل أيضا ويمتنع أن يدَّعوا لأنفسهم الألوهية ، ويدعوا الناس إلى عبادتهم دون الله تعالى ، كما يمتنع أيضا أن يدَّعوا الألوهية لغيرهم ، كالملائكة وكغيرهم ، ويدعوا الناس إلى عبادتهم . فقد نفى الله تعالى وقوع ذلك ألبتة ، فقال سبحانه : ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ [آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

---

(١) راجع : تفسير فتح القدير / جـ ٤ - ص ٤٧٤ .

(٢) هو : عبد الله بهاء الدين بن محمود ، فقيه بغدادي من قضاة الشافعية ، ولد سنة ١٢٤٨ هـ ، وتعلم على يد أبيه وترفع عن مناصب الدولة في بداية حياته ، ثم اضطر لها فولي القضاء ، وله عدة مؤلفات ، توفي سنة ١٢٩١ هـ . (الأعلام - الزركلي / جـ ١ - ص ٢٥) .

(٣) راجع : تفسير روح المعاني / مجلد ٨ - جـ ٢٤ - ص ٢٤ .

(٤) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٤ - ص ٦١ .

، تفسير أضواء البيان للشنقيطي / جـ ٢ - ص ١٨١ .

فيه بيان عن نفي دعوى أي رسول بافترائه على الله تعالى أن يدعو الناس إلى عبادته هو أو إلى عبادة غيره دون عبادة الله عز وجل . وكان هذا ردًّا على دعوى نصارى نجران بأن عيسى – عليه السلام – أخبرهم بأنه إله [(١)] فكان الجواب فيه عموم نفي هذا الإدعاء أن يكون من عيسى – عليه السلام – أو من غيره من الرسل .

فعبادة الله تعالى وحده أعظم القربات إليه سبحانه وموجبة لرضا الله تعالى على عبده . وأما الإشراك به سبحانه فهو أعظم الكبائر وموجب لإحباط العمل مهما كان آتيه من المخلوقات ولو كان نبيا مرسلا أو ملكًا مقربا – مع امتناع وقوعه منهما – بل توعَّد الله تعالى من يأتي منهم بمعصية أقل من الإشراك به سبحانه بأن يفتري على الله تعالى الكذب فيما يوحى إليه فيقول شيئًا من عنده ثم ينسبه إلى الله تعالى . فقال عز وجل : ﴿ **ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾ [الحاقة : ٤٤ – ٤٦] . أي لو تقوَّل ذلك الرسول ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام أو جبريل عليه السلام [(٢)] .

وبذلك نكون قد بينا تحقق العبودية في الأنبياء عليهم السلام ودعوتهم إليها ونفي الإشراك عنهم ، واستحالة دعوتهم إلى الشرك المنافي لما أمروا بتبليغه ، واتضح بذلك أن خواص الخلق هم عباد الله تعالى . ذكر ابن تيمية – رحمه الله تعالى – عن مضمون سورة مريم فقال : « مضمونها تحقيق عبادة الله وحده ، وإن خواص الخلق هم عباده ، فكل كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة . فافتتحها بقوله تعالى : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا** ﴾ وندائه ربه نداء خفيا وموهبته له يحيى ، ثم قصة مريم وابنها وقوله : ﴿ **إنِّي عبد الله** ﴾ . إلخ بيَّن فيها الرد على الغلاة

---

(١) وقيل : إنها نزلت في قوم من اليهود والنصارى قالوا لرسول الله عليه الصلاة والسلام : أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « معاذ الله أن نعبد غير الله تعالى ونأمر بعبادة غيره تعالى . فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرت » . فنزلت الآية .

راجع : تفسير أبي السعود / مجلد ١ – ص ٣٧٩ ، فتح القدير / جـ ١ – ص ٣٥٥ .

(٢) ذكره الشوكاني في فتح القدير / جـ ٥ – ص ٢٨٦ .

في المسيح ، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه . ثم أمر نبيه بذكر إبراهيم وما دعا إليه من عبادة الله وحده ونهيه إياه عن عبادة الشيطان » [1] أ.هـ .

كان ذلك التحقق للعبودية إجمالا للأنبياء عليهم السلام . والآن نضرب على ذلك أمثلة لبعضهم زيادة في بيان الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى العباد وأرسل إليهم الرسل .

ونحن هنا في استعراضنا لتحقق الأنبياء لعبودية الله تعالى نعني ببيان مظاهر عبوديتهم لله عز وجل حتى نقتدي بهم في تحقيق عبودية الله عز وجل . فقد اصطفاهم الله عز وجل وفضلهم على العالمين ، فنحن لا نفترض وجود معترض يقول : إن هؤلاء الرسل عليهم السلام لم يحققوا عبوديتهم لله عز وجل ، فنثبت له تحقيقهم لها ، ولكن غرضنا هنا بيان مظاهر عبوديتهم حتى يتعلم الجاهل وينتبه الغافل من الأمم جميعا [2] .

---

(١) الفتاوى / جـ ١٥ - ص ٢٣٠ .

(٢) راجع كلام الشوكاني والألوسي السابق الذكر / ص ١٥١ .

عبودية أولي العزم [1] من الرسل
(عليهم السلام)

(١) عبودية نوح عليه السلام

الجانب الأول : وصفه بالعبودية .

قال الله تعالى : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا** ﴾ [الإسراء : ٣] .
فوصفه الله تعالى بأنه كان عبدا شكورا ، وذكر صفة الشكر بعد صفة العبودية من باب ذكر الخاص بعد العام [2] . فالشكر من العبادة . وقد اختص نوح عليه السلام بصفة الشكر ، فكان كثير الشكر في مجامع حالاته كلها وجعله الله تعالى علة لما قبله من حمله في السفينة ونجاته ومَنْ معه . فالشكر أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات وحثا لذريته على شكر الله تعالى ، فكان نجاة نوح عليه السلام ومَنْ معه ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفر [3] .

وجاءت هذه الصفة – العبودية – لنوح عليه السلام في معرض الإشفاق عليه لعناد قومه ورفضهم دعوته . فقال تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر** ﴾ [القمر : ٩] .

---

(١) أولي العزم من الرسل هم أرباب الثبات والحزم والصبر وهم خمسة – على الرأي الراجح – : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد – عليهم السلام ، وقيل : هم الذين أُمِروا بالقتال ، وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر ، وقيل : إنهم ستة وهم : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وعيسى ، ومحمد – عليهم السلام ، وقيل : إن الرسل كلهم أُولوا عزم.
(راجع : فتح القدير / جـ ٥ – ص ٢٧) .

(٢) مثل قوله تعالى : ﴿ **من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ فإن جبريل وميكال من الملائكة . وهذا كثير في القرآن الكريم .

(٣) راجع :تفسير القرآن العظيم / جـ ٣ – ص ٢٤ ، تفسير فتح القدير / جـ ٣ – ص ٢٠٨ ، تفسير أبي السعود / مجلد ٣ – ص ٣١٠ ، تفسير روح المعاني / مجلد ٥ – جـ ١٥ – ص ١٦ .

فإضافته لرب العزة في قوله : ﴿ **عبدنا** ﴾ تشريف لمنزلة نوح عليه السلام فجمع بذلك بين تكريمين :

الأول : ذكره عليه السلام بعنوان « العبودية » .

والثاني : إضافته إلى نون العظمة . وهذا تعظيم له عليه السلام ورفع لمحله وقدره .

وجاءت هذه الصفة والإضافة لنوح عليه السلام على سبيل العموم لا الخوص كما في الآية السابقة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نجزِى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ [الصافات : ٨١] . فوصفه عليه السلام بصفة الإحسان ، وهي أعلى مراتب العبودية ، ومعناها أن يعبد المرء ربه سبحانه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، كما بيَّن ذلك المعنى المصطفى عليه الصلاة والسلام [1] . فنوح عليه السلام من المحسنين بخلوص عبوديته وكما إيمانه وهو من المصدقين الموحدين .

وقد وُصِف نوح عليه السلام بالعبودية مقرونًا مع لوط عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما** ﴾ [التحريم : ٩] . فمع وصف الله تعالى لنوح عليه السلام بصفة العبودية التي استحقها وصفه سبحانه بالصلاح أيضا .

وقد شهدت السنة المطهرة بصفة العبودية لنوح عليه السلام . ففي حديث الشفاعة أن الناس يذهبون إلى نوح عليه السلام فيقولون : يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدًا شكورًا فاشفع لنا إلى ربك » الحديث [2] .

---

(١) متفق عليه .
بخاري / ك : الإيمان – ب : سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان .
، مسلم / ك : الإيمان – ب : أول الإيمان قول لا إله إلا الله .
(٢) البخاري / ك : تفسير القرآن – ب : تفسير سورة الإسراء .

الجانب الثاني : قيامه عليه السلام بالعبودية .

قام عليه السلام بعبودية الله تعالى حق قيام ، وأخلص له سبحانه في أعماله كلها . فلم يصرف شيئا من العبادة لغير الله عز وجل بل وجهها لخالقه سبحانه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

(١) فالأقوال :

* فكان عليه السلام كثير الشكر في جميع أحواله كلها حتى اختص بهذه الصفة ﴿ **إنه كان عبدا شكورا** ﴾ [الإسراء : ٣] .

* وكان عليه السلام لا يدعو إلا الله عز وجل ولا يسأل سواه سبحانه . والآيات في هذا المعنى كثيرة . منها قوله عز وجل : ﴿ **فدعا ربه أنّي مظلوم فانتصر** ﴾ [القمر : ٩] . وقوله تعالى : ﴿ **قال رب انصرني بما كذبون** ﴾ [المؤمنون : ٢٦] . وقوله تعالى : ﴿ **قال رب إن قومِي كذبون * فافتح بينِي وبينهم فتحا ونجِّنِي ومن معِيَ من المؤمنين** ﴾ [الشعراء : ١١٧ ، ١١٨] .

فكلها آيات شاهدة على أن نوحا عليه السلام كان يدعو الله عز وجل ولا يسأل سواه سبحانه [١] .

* وكان عليه السلام يستعيذ بالله تعالى ويحرص على طلب المغفرة والرحمة منه سبحانه .

فقال تعالى مخبرا عنه عليه السلام : ﴿ **قال رب إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لِي به علم وإلا تغفر لِي وترحمنِي أكن من الخاسرين** ﴾ [هود : ٤٧] .

فهذا اعتراف من عبد ذل وخضع لله تعالى يطلب مغفرة الله تعالى ورحمته به مع علو منزلته من درجة النبوة . فكلما ازداد العبد خضوعًا لله تعالى ارتفعت

---

(١) فهل لنا أن نقتفي أثر نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء وأثر نبينا محمد عليه السلام ولا ندعو مع الله تعالى أحدا بدلا من أن يذهب بعض الجهال بدعاء الأموات والأولياء وطلب الغوث والمساعدة وفك الكربات منهم . فأي الفريقين أحق أن يُتّبع ؟!!

منزلته ودرجته .

وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام – رحمه الله – بقوله : « إنه كلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية . وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية مما سواه » (1) أ.هـ .

* وسمَّ الله تعالى واستفتح به عند ركوبه عليه السلام ومَنْ معه السفينة . فقال تعالى عنه : ﴿ **وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربِّى لغفور رحيم** ﴾ [هود : ٤١] .

(٢) الأعمال الباطنة :

* كان نوح عليه السلام متوكلا على الله تعالى حق توكله . فيقول الله تعالى عنه : ﴿ **فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون** ﴾ [يونس : ٧١] .

* ويقول الله تعالى مخبرا عن إيمان نوح عليه السلام بقضاء الله تعالى وقدره : ﴿ **ولا ينفعكم نصحِى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ [هود : ٣٤] .

والإيمان بالقدر من أعظم أركان الإيمان بالله تعالى .

* وكان عليه السلام مؤمنًا بوعد الله تعالى فيقول فيقول الله تعالى عنه : ﴿ **وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ [هود : ٤٥] .

* ومؤمنا عليه السلام برزق الله تعالى له . فيقول الله تعالى عنه : ﴿ **وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِى إلا على رب العالمين** ﴾ [الشعراء : ١٠٩] .

* ومؤمنا بالبعث والحساب ، قال تعالى عنه عليه السلام : ﴿ **وما أنا بطارد المؤمنين إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ [هود : ٢٩] .

---

(١) العبودية / ص ٥٣ .

وقوله : ﴿ **هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ [هود : ٣٤] . وقوله : ﴿ **إن حسابهم إلا على ربِّى لو تشعرون** ﴾ [الشعراء : ١١٣] .

* ومؤمنا بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله :

فأسماء الله تعالى قد آمن بها نوح عليه السلام منها : الغفور ، الرحيم .

فقال تعالى عنه : ﴿ **إنه كان غفارا** ﴾ [نوح : ١٠] . وقوله : ﴿ **إنَّ ربِّى لغفور رحيم** ﴾ [هود : ٤١] .

وصفات الله تعالى آمن بها نوح عليه السلام منها : صفة الإرادة [١] . لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ **ولا ينفعكم نصحِي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾ [هود : ٣٤] . وصفة العلم . لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ **الله أعلم بما فِي أنفسهم إنِّى إذا لمن الظالمين** ﴾ [هود : ٣١] . وصفة الخلق . لقوله تعالى عنه : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾ [نوح : ١٣ - ١٦] .

* ومن الأعمال الباطنة الخاصة بعمل القلب ، وهي أوثق عرى الإيمان . هي الحب في الله والبغض في الله . فهذا نوح عليه السلام يتبرأ من أقرب الناس إليه وهما زوجته وابنه ، فإنه لمَّا علم أنهما كانا من الظالمين ، كما أخبره الله تعالى بذلك تبرأ منهما . فكانت زوجته تفشي سره لقومه ، فاستحقت العذاب معهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾ [التحريم : ١٠] .

والآخر ، وهو ابنه لم يسمع كلام أبيه بأن لا يكون مع الكافرين . قال تعالى عنه : ﴿ **يا بنىَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين** ﴾ [هود : ٤٢] .

---

(١) تقدم الكلام عن قسمي الإرادة - الكونية والشرعية - ص ٣٧ .

ورغم تحذير أبيه له بالطوفان والغرق ولكنه قال : ﴿ **قال سآوِى إلى جبل يعصمنِى من الماء** ﴾ [هود : ٤٣] .

(٣) الأعمال الظاهرة :

إن من أوضح الأعمال الظاهرة التي قام بها نوح عليه السلام امتثالا لأمر ربه هي بناء السفينة ، والتي أوحى الله تعالى إليه ببنائها . قال تعالى : ﴿ **وأوحِىَ إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنِى فِى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ [هود : ٣٦ ، ٣٧] . فقام عليه السلام ببناء السفينة ومن معه ممَّن آمن به . وكان قومه يسخَرون منهم ويستهزئون . قال تعالى : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ [هود : ٣٨ ، ٣٩] .

الجانب الثالث : قيام نوح عليه السلام بدعوة قومه إلى عبودية الله تعالى :

إن المتأمل لقصة نوح عليه السلام ودعوته لقومه يرى عظم هذا النبي في قيامه لأداء مهمة التبليغ لقومه ودعوته إليهم لعبادة الله تعالى وحده حيث مكث عليه السلام فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم ليلا ونهارًا ، سرًّا وعلانية ولكنهم – لعنهم الله تعالى – لم يؤمنوا به مع طول تلك المدة إلا قليل منهم نجاهم الله تعالى ونوحًا عليه السلام من عذاب الطوفان فلم يذر سبحانه للكافرين ديارا كما كانت دعوة نوح عليه السلام التي دعا بها على قومه .

فكانت دعوة نوح عليه السلام التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص وتحقيق عبودية الله تعالى وترك الشرك الذي هم فيه من عبادة تلك الأصنام . قال الله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [هود : ٢٥] . وقال تعالى : ﴿ **قال يا قوم إنّى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ [نوح : ٢ ، ٣] .

فالآيات الكريمة السابقة تبيِّن دعوة نوح عليه السلام إلى قومه ، وهي أن لا يعبدوا إلا الله تعالى وأن يجتنبوا عبادة غيره من الأصنام . ثم طلب عليه السلام من قومه أن يتوبوا إلى الله تعالى ويستغفروه عما اجترحوه من عبادة الأوثان .

قال الله تعالى عنه : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾ [نوح : ١٠ - ١٢] . كما حثهم عليه السلام على التفكر في آلاء الله تعالى ومخلوقاته التي تدل على خالقها وباريها فيتعرفون بذلك على الخالق المعبود بحق ، والذي يستحق العبادة دون غيره ، فيقول لهم : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا * والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا * والله جعل لكم الأرض بساطا * لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾ [نوح : ١٥ - ٢٠] .

ولكن هيهات هيهات لقوم قد صمت آذانهم ورانت قلوبهم وعميت أبصارهم عن الحق المبين . فاستحقوا عذاب ربهم بدعوة نبيهم عليهم فكانوا عبرة لمن جاء بعدهم .

(٢) عبودية إبراهيم عليه السلام

هذا النبي العظيم له أكبر الأثر والشأن في حياة الأمم كلها من بعده ، حيث كان للبشرية أعظم مثل يُحتذى به في تحقيق العبودية لله تعالى ، وكان أسوة حسنة لمَنْ جاء بعده . قال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه** ﴾ [الممتحنة : ٤] . بل أوحى الله تعالى إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام باتباع ملة إبراهيم عليه السلام . قال تعالى : ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين** ﴾ [النحل : ١٢٣] .

لذا لقب عليه السلام بأبي الأنبياء . وأوحى الله تعالى إليه بجعله إمامًا للناس . فقال تعالى : ﴿ **قال إنّى جاعلك للناس إماما** ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

ولمكانته العظيمة التي اكتسبها من تحققه لعبودية الله تعالى ، أُعطي أكبر شرف وأعلى منزلة ، فكان خليلا للرحمن سبحانه وتعالى . فقال تعالى : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾ [النساء : ١٢٤] . والخلة : هي كمال المحبة (١) .

ولتحققه لعبودية الله تعالى كان أُمة بذلك منفردًا بها وحده . قال تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين** ﴾ [النحل : ١٢٠] .

الجانب الأول : وصفة بالعبودية :

قال الله تعالى عنه عليه السلام : ﴿ **كذلك نجزِى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ [الصافات : ١١١] . أي أنه من الذين أعطوا العبودية حقها ورسخوا في إيمانهم وتوحيدهم لله تعالى (٢) .

وذكره الله تعالى مع أبنائه الأنبياء ونعتهم جميعا بالعبودية . فقال تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ [ص : ٤٥] .

فخصهم سبحانه بعنوان العبودية لمزيد شرفهم وإضافتهم لنون العظمة لعلو شأنهم ومكانتهم (٣) .

وفي الحديث : قال ﷺ : « اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك دعاك لأهل مكة بالبركة » الحديث (٤) .

الجانب الثاني : قيامه عليه السلام بعبودية الله تعالى :

لقد ضرب إبراهيم عليه السلام أروع الأمثلة في تحقيق العبودية الحقة لله عز وجل ، وكان إماما لها والقدوة لمن جاء بعده . فأتى عليه السلام بالعبادة على أكمل

---

(١) وقد أنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين فأنكروا بذلك أن يكون إبراهيم خليلا .
(راجع : شرح العقيدة الطحاوية / ص ٣٢٨) .

(٢) راجع : فتح القدير / جـ ٤ - ص ٤٠٥ .

(٣) وقُرأ : ﴿ **واذكر عبدنا إبراهيم** ﴾ بالإفراد . فإبراهيم وحده خص عليه السلام بعنوان العبودية وعطف عليه إسحاق ويعقوب . (راجع : روح المعاني / مجلد ٨ - جـ ٢٣ - ص ٢١٠) .

(٤) صحيح الجامع / ح رقم ١٢٨٣ .

وجه وأخلص نية ، فلم يشرك بالله تعالى طرفة عين ، بل كان قلبه خالصا سليما من الشرك ، كما عبَّر عنه رب العزة إذ يقول : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ [الصافات : ٨٤] .

قيامه بالعبودية القولية :

أ - دعاؤه عليه السلام :

فكان عليه السلام كغيره من الأنبياء يدعو الله تعالى وحده ، ويلجأ إليه سبحانه في دعائه ، فلم تكن هناك وساطة بينهم وبين الله تعالى . فكما بينا آنفا في المبحث السابق أن العبادة بأنواعها لا يجوز صرف شيء منها لغير الله تعالى ، فالدعاء من العبادة [1] ، وهذا أبو الأنبياء يدعو الله عز وجل فيقول : ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم** ﴾ [البقرة : ١٢٨] . أي مخلصين مستسلمين ، وهذا طلب للزيادة والثبات على ما كان عليه من الإخلاص والإذعان .

ويقول تعالى عنه : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم** ﴾ [البقرة : ١٢٩] [2] .

وكان يدعو عليه السلام ربه بالتوحيد الخالص واجتناب الشرك له ولذريته . قال تعالى عنه : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنّي أن نعبد الأصنام** ﴾ [إبراهيم : ٣٦] .

ومن دعائه عليه السلام طلب المغفرة . فقال تعالى عنه : ﴿ **والذِى أطمع أن يغفر لِى خطيئتِى يوم الدين** ﴾ [الشعراء : ٨٢] ، وقال تعالى عنه : ﴿ **ربنا اغفر لِى ولوالدِىَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ [إبراهيم : ٤١] .

---

(١) بل الدعاء هو العبادة كما جاءت الأحاديث بذلك منها حديث البراء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « الدعاء هو العبادة » (رواه أحمد / ٤ - ٢٧١) .

(٢) وفي الآية بشارة ببعثة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذي كان يقول : « أنا دعوة إبراهيم » . انظر : صحيح الجامع / ح ١٤٧٦ ، والسلسلة الصحيحة ح ١٥٤٦ .

ومن دعائه عليه السلام سؤال الله عز وجل أن يستر عليه ولا يفضحه يوم القيامة فيقول : ﴿ **ولا تخزنى يوم يبعثون** ﴾ [الشعراء : ٨٧] .

فأي عبودية أعظم من هذا ؟! لخضوع إبراهيم عليه السلام وتذلله لله عز وجل ولقوته التي لا تُقهَر فيتوسل إلى ربه جل وعلا في ذل وانكسار بأن لا يفضحه على رؤوس الأشهاد بمعاتبته في هذا اليوم العسير . فإيمانه عليه السلام بأنه سبحانه يؤاخذ ويعاقب المسيء والمذنب جعله يخر ويخضع ويذل نفسه ويقر بتقصيره تجاه ربه سبحانه ويسأله أن لا يخزيه ولا يفضحه يوم الحساب ، وأن يستر عليه وعلى ذنوبه فلا يؤاخذه بها [1] .

ومن دعائه عليه السلام : سؤاله رزق الله عز وجل لأهله وذريته من بعده في أرض قفراء ليس فيها زرع ولا ماء . فيقول الله تعالى مخبرًا عنه : ﴿ **وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ [إبراهيم : ٣٨] . وقد تحققت دعوة نبينا إبراهيم عليه السلام والحمد لله ، فإنا نجد في هذه البقعة المباركة من الصحراء – في مكة المكرمة – الثمرات الكثيرة التي تُجبَى إليها من كل مكان ، ما يجعل المسلم يندهش من اختلاف أنواعها وأشكالها ومذاقها ، إلا أنه لم يتحقق رجاء إبراهيم عليه السلام بشكر العباد على هذه النعم للمُنعِم سبحانه إلا القليل منهم ، وهذه سنة الله تعالى في خلقه حيث أخبر وهو أحكم الحاكمين : ﴿ **وقليل من عبادِىَ الشكور** ﴾ [سبأ : ١٣] .

وكان إبراهيم عليه السلام يحمد ربه تعالى ويشكره على نعمه التي أسداها عليه والتي منها نعمة الذرية الصالحة . قال تعالى عنه : ﴿ **الحمد لله الذِى وهب لِى علَى الكبر إسماعيل وإسحاق** ﴾ [إبراهيم : ٣٩] . وكان من شكره الدائم لنعم

---

(١) أين نحن معشر المسلمين من هذا المعنى العظيم وهذه الدرجة العالية من العبودية الحقة ؟ والتي تحققت في هذا النبي صلوات الله وسلامه عليه وهو نبي !! فما بالنا نحن المسلمين الأتباع الذين ضاعت بيننا العبودية الحقة وصرنا إلى ما صرنا إليه اليوم من الضعف والذل والهوان ؟! فهل آن لنا أن نقف وقفة ، بل وقفات لنعتبر من قصص هؤلاء الصفوة من البشر ونتأسى بسيرتهم العظيمة ونحن مأمورون بذلك ؟! فالمسلم الغيور الرائي لأحوال المسلمين اليوم وبالمقارنة بما يجب عليه أن يكونوا ، يجد اختلافا شاسعًا وبونًا كبيرًا . فاللهم نسأل أن يمكّن دينه وينصر عباده المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها .

الله تعالى عليه أن وصفه الله تعالى بأنه شاكرًا . فقال تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم** ﴾ [النحل : ١٢٠] .

٢ - الأعمال الباطنة :

ونبدأ الحديث عنها بقوله تعالى مخبرا عنه : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ وبقوله تعالى عنه : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ .

هذا ما يفصح به القرآن الكريم عن اعتقاد إبراهيم عليه السلام وبما في قلبه .

والقلب السليم : هو الخالي من الشرك .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن القلب السليم : « إنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية سواه وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده ، فالقلب السليم : هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيها شركة بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى » (١) أ.هـ .

* فكان صلوات الله وسلامه عليه يؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بمحاسبة الله تعالى لعباده المحسن منهم والمسيء ، والجنة والنار ، وكل ذلك من أمور المعاد ، والآيات التالية تخبر عمَّا كان يؤمن به عليه السلام :

كما في قوله تعالى مخبرا عنه : ﴿ **ولا تخزني يوم يبعثون** ﴾ [الشعراء : ٨٧] .

وقوله : ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ [الشعراء : ٨٢] .

وقوله : ﴿ **واجعلنى من ورثة جنة النعيم** ﴾ [الشعراء : ٧٥] .

وقوله : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ [إبراهيم : ٤١] .

---

(١) إغاثة اللهفان - ابن القيم / جـ ١ - ص ٧ .

فهذه وغيرها آيات تدل على عبودية عبد خضعت جوارحه كلها لبارئه وذلت أركانه لخالقه وهو نبي مرسل . فأين الأتباع من أقواله وأفعاله ؟ !!

* وكان عليه السلام يؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته :

منها : السميع ، والبصير ، والعزيز ، والحكيم . وذلك في قوله تعالى عنه : ﴿ **إنك أنت السميع العليم** ﴾ [البقرة : ١٢٧] . وقوله : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ [البقرة : ١٢٩] . وقوله : ﴿ **إنك أنت التواب الرحيم** ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

ومن الصفات التي أقر بها مع إيمانه بصفات الله تعالى كلها . هي :

صفة الخلق : فقال تعالى عنه : ﴿ **الذِى خلقنِى فهو يهدين** ﴾ [الشعراء : ٨٧] . وقوله سبحانه عنه : ﴿ **والله خلقكم وما تعلمون** ﴾ [الصافات : ٩٦] .

وصفة السمع : لقوله تعالى : ﴿ **إن ربِّى لسميع الدعاء** ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

وصفة العلم وإحاطة الله تعالى بعلمه : لقوله تعالى عنه : ﴿ **وسع رَبِّى كل شَىْءٍ علما أفلا تتذكَّرون** ﴾ [الأنعام : ٨٠] . وقوله تعالى عنه : ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفِى وما نعلن وما يخفَىٰ على الله من شَىْءٍ فِى الأرض ولا فِى السماء** ﴾ [إبراهيم : ٣٨] .

وآمن عليه السلام **بأفعال الله تعالى** من الإحياء والإماتة : فقال تعالى عنه وردا على نمرود اللعين : ﴿ **قال إبراهيم رَبِّىَ الذِى يُحْيِي ويميت** ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

* وكان من مظاهر الولاء والبراء في دعوته عليه السلام :

وهي أوثق عرى الإيمان أن أعلن صراحة وفي غاية القوة البراءة من قومه ومن أقرب الناس إليه وهو أبوه ، فقال عز وجل : ﴿ **إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننِى براء مما تعبدون إلا الذِى فطرنِى فإنه سيهدين** ﴾ [الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] .

ثم يوجه أنظارهم إلى أن يتفكروا ويبصروا ما هم عابدون من الأصنام التي لا تسمع ولا تضر ولا تنفع وأعلمهم بأنهم على ضلالة وجهالة من أمرهم ،

ثم أخبرهم ببراءته منهم ومن الأصنام التي يعبدونها . فقال : ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين** ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٧٧] .

فالأصنام وقومه وأباء قومه أعداء له من دون الله تعالى . بل إن أباه عدو له أيضا ، وقد تبرأ منه بعد ما تبين له ذلك . فقال تعالى : ﴿ **فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ [التوبة : ١١٤] .

ولذلك جعل عليه السلام هذه الخصلة الحميدة التي هي أم الخصال وأساسها ، وهي إخلاص العبادة لله تعالى وحده ، والتبري من عبادة ما سواه كلمة باقية في ذريته من بعده يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض ، قال الله تعالى : ﴿ **وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ [الزخرف : ٢٨] .

فلابد وأن تُعلَن ، ولابد وأن يتحقق شطري عرى الإيمان ، وهي موالاة الله تعالى ، ومعاداة غيره بالبراءة منه ، فكما يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : « لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة ، فلم تصح لخليل الله تعالى هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه » [1] أ.هـ .

وقد كانت من نتيجة هذه البراءة القوية أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم عليه السلام ، كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله تعالى لا لشيء إلا لأنهم يدعون إلى عبادة الله تعالى وحده [2] . ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ [البروج : ٨] .

وقد أُمرنا معاشر المسلمين أن نتبع ملة إبراهيم حنيفًا فنأخذه قدوة لنا في البراءة من كل معبود غيره سبحانه . قال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتَّى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ [الممتحنة : ٤] .

---

(١) الجواب الكافي / ص ٢٥٧ .

(٢) راجع : محمد سعيد القحطاني - الولاء والبراء في الإسلام / ص ١٤٩ .

فقد صرَّح إبراهيم عليه السلام ومَنْ معه بعداوتهم لقومهم في غاية القوة والجرأة بالبغض بالقلوب وزوال مودتها والعداوة بالأبدان ، وهذه العداوة محدودة وموقوتة بإيمانهم بالله تعالى وإلا فهي مستمرة إلى الأبد .

٣ - الأعمال الظاهرة :

أ - تحطيم الأصنام :

فقام عليه الصلاة والسلام بالتوحيد العملي ، بعد أن دعا ربه سبحانه بأن ينجيه وذريته من عبادة الأصنام . فقال تعالى عنه : ﴿ **واجنبنِى وبنَّى أن نعبد الأصنام** ﴾ [إبراهيم : ٣٥] ، فقام بتحطيم الأصنام وتكسيرها ليبيِّن لقومه إن كانت الأصنام التي يدعونها تضر وتنفع ، فها هي لم تمنع الضر عن نفسها بتحطيم إبراهيم عليه السلام لها ، ولم تدافع عن نفسها ، فكيف تمنع الضر عن غيرها ؟!

قال تعالى عنه : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ [الأنبياء : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾ [الصافات : ٩٣] .

فإبراهيم عليه السلام قد أخلص قلبه ووجهه لله تعالى ، قال سبحانه وتعالى عنه : ﴿ **إنِّى وجهت وجهِىَ للذِى فطر السمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

فإبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرَك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه سبحانه . فكان قدوة للبشرية لما وقع فيه من الأمورة الداعية إلى التوحيد الوازعة عن الشرك . فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل ، فدعواه عليه السلام ناطقة بحقيقة التوحيد وبطلان الشرك (١) .

---

(١) راجع : تفسير ابن كثير / مجلد ١ - ص ١٨٥ .
تفسير أبي السعود / مجلد ١ - ص ١٨٣ .

ب - الصلاة :

فكان عليه السلام يسأل ربه تعالى أن يثبّته وذريته على إقامة الصلاة . فقال تعالى عنه : ﴿ **ربِّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء** ﴾ [إبراهيم : ٤٠] .

جـ - ذبح ابنه :

امتثل عليه السلام لأمر الله تعالى له بأشد أنواع الابتلاء وهو ذبح ابنه إسماعيل [١] عليه السلام . فكان نِعم العبد حيث نَحَّى عواطف الأبوة جانبًا ووضع طاعة أمر الله تعالى نصب عينيه . فقال لابنه : ﴿ **يا بُنَيَّ إنّي أرَىٰ فِي المنام أنّي أذبحك** ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : تعليقًا على ما جرى للخليل عليه السلام في قصد الذبح : « لم يكن في الذبح مصلحة ولا كان هو مطلوب الرب سبحانه في نفس الأمر ، بل كان مراد الرب سبحانه ابتلاء إبراهيم عليه السلام ليقدم طاعة ربه ومحبته على محبة الولد ولا يُبقِي في قلبه التفات إلى غير الله تعالى ، فإنه كان يحب الولد محبة شديدة ، وكان قد سأل الله عز وجل أن يهبه إياه - وهو خليل الله تعالى - فأراد تعالى تكميل خلته لله بأن لا يُبقِي في قلبه ما يزاحم به محبة ربه » [٢] أ.هـ .

وكان إسماعيل عليه السلام نِعْم العبد أيضًا حيث أعان والده على طاعة أمر الله تعالى . فقال : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنِي إن شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢] . فأقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ابنه امتثالا لأمر الله ، فكان مثالا للعبودية والطاعة والإذعان لأوامر الله تعالى : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم** ﴾ [الصافات : ١٠٣ - ١٠٧] .

---

(١) وهذا على القول الراجح بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، وقيل : إنه إسحاق عليه السلام ، ولكن الرأي الأول هو ما عليه كثير من أهل العلم من المفسرين وأهل الحديث وغيرهم .
(راجع هذه المسألة في تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ - ص ١٧) .

(٢) الفتاوى / جـ ١٧ - ص ٢٠٣ .

الجانب الثالث : قيامه عليه السلام بدعوة قومه وأبيه وبنيه إلى العبودية :

قام عليه الصلاة والسلام بدعوة أبيه وقومه إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك موبخا لهم على عبادة الأصنام ، ونادى بفساد طريقتهم وأعلن لهم أنهم في ضلال كبير عن الحق لما يعبدون من الأصنام ، وذلك في أسلوب رائع بين اللين والقوة . فبيَّن لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تسمع دعاءهم ، فهي إن كانت كذلك فلا وجه لعبادتها إذًا . ولكنهم كغيرهم من الكفرة المعاندين عندما لم يجدوا جوابًا فإنهم يرجعون إلى الاعتذار وتبرير موقفهم الضال بالتقليد الأعمى في أنهم قد وجدوا أباءهم كذلك يفعلون من عبادة تلك الأصنام مع كونها بتلك الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضر عنها . فكانت دعوته عليه السلام لهم هي إخلاص العبودية لله عز وجل والخلوص من الشرك الذي هم فيه من عبادة الأوثان ، فيعرض عقيدة التوحيد على أبيه ويلين له الجانب في بداية دعوته فيقول الله تعالى : ﴿ **واذكر ف الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنِي عنك شيئا * يا أبت إنّى قد جاءنِى من العلم ما لم يأتك فاتبعنِى أهدك صراطا سويا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إنّى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** ﴾ [مريم : ٤١ – ٤٥] .

ولكن أباه رفض دعوته إليه وهجره ، فخرج إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى . قال تعالى :

﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون** ﴾ [العنكبوت : ١٦ ، ١٧] .

وكما دعاهم عليه السلام إلى عبادة الله وحده فقد دعاهم إلى أن يلجأوا إلى الله تعالى بطلب أرزاقهم منه حيث أن الرزق بيده عز وجل . كما أنه ذكرهم بشكر الله تعالى على نعمائه وذكرهم بيوم الميعاد الذي إليه يرجعون .

وقد دارت بينه وبينهم محاورات كثيرة ، وكذلك بينه وبين أبيه كقوله تعالى : ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أإفكا آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين** ﴾ [الصافات : ٨٥ - ٨٧] .

ولكنه عليه السلام لما رآهم عاكفين على عبادة أصنامهم وعدم تركها تبرأ منهم وأغلظ لهم ولأبيه القول . فقال تعالى عنه : ﴿ **إنّى أراك وقومك فى ضلال مبين** ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

وقال تعالى عنه : ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لّى إلا رب العالمين** ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٧٧] .

غاية في الصراحة وجرأة في الرد عليهم وقوة على الباطل لإظهار الحق الذي ينطق به قلبه لا لسانه فقط ، فعندما يصل المرء إلى هذه الدرجة العليا من عبودية الله تعالى والحرية من كل قيد لمعبود سواه لا يعبأ حينئذ على أي جنب يكون مصرعه ونهايته فالإيمان قد ملأ القلب ، ولم يكن فيه ثَم فراغ يشغله وينازع حب الله تعالى .

فهذا هو الخليل عليه السلام صرح وحده إلى قومه وأعلن تبرئه منهم ومن أصنامهم التي يعبدونها بل وتبرئه من أبيه ، فحطمت تلك الصواعق القوية قلوبهم وهزت مشاعرهم ، حتى رجعوا إلى أنفسهم فوجدوا أنها في ضلال مبين ، ولكنهم انقلبوا خاسئين واستكبروا عن قبول الحق ، بل واغتاظوا من إبراهيم عليه السلام فأرادوا به كيدًا فأجمعوا على إحراقهِ في النار ، فنجاه الله تعالى منها وجعلها بردًا وسلامًا عليه .

وصية إبراهيم عليه السلام لبنيه من بعده :

هذه الدعوة الخالصة والنداء الرباني العظيم ، وهو عبادة الله تعالى وحده ، ونبذ عبادة ما سواه هي خير وصية يتركها المرء لمن يعول من بعده ، ولمن هو مسئول عنهم أمام الله تعالى يوم القيامة ، ليبريء نفسه . فهذا إبراهيم عليه السلام

أراد أن يطمئن على أبنائه من قبل أن يدركه الموت . فوصاهم أن يلتزموا بالشريعة السمحاء والملة الحنيفية فقال تعالى : ﴿ **ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ [البقرة : ١٣٢] [1] فالدين الذي هو صفوة الأديان ولا دين غيره عند الله تعالى هو الإسلام ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [آل عمران : ١٩] .

والمقصود من الوصية هو الثبات على الإسلام حتى الموت ، فيثبتوا عليه ولا يفارقوه أبدًا فموتهم على غير الإسلام موت لا خير فيه » [2] .

(٣) عبودية موسى عليه السلام

كان موسى عليه السلام خير مثل لقومه يحتذون به ويهتدون بهديه حيث حقق عليه السلام العبودية لله تعالى وقام بها خير قيام متحديا بذلك أكبر طاغية في زمنه ، وهو فرعون الذي علا فى الأرض وزعم أن الأنهار تجري من تحته ، وتجرأ على الله تعالى وزعم أنه الإله ، فتردى بذلك في الهاوية وأغرقه الله تعالى وجعله سبحانه آية لِمَنْ بعده حتى يعتبروا . كما أنه عليه السلام في مواجهته لذلك الطاغية قد واجه قومًا هم أشد الناس عنادًا واستكبارًا في الأرض ، وهم بنو إسرائيل ، فكم من مرة آمنوا به ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا حتى طبع الله تعالى على قلوبهم فلم يؤمنوا إلا قليلا و لم يحققوا العبودية لله تعالى على مر العصور إلا فئة قليلة جدًّا . وذلك لِما عُرف من طباعهم العنيدة ، رغم الآيات البينات الكثيرة الواضحة على صدق موسى عليه السلام وصدق دعواه ، وهم شاهدون عليها . وممَّا يثير العجب أن يضلوا على علم بعدما تبين لهم الهدى واتضحت

---

(١) وقُرأ « يعقوبَ » بالنصب ، فيكون معطوفا على بنيه .
(روح المعاني – للألوسي / مجلد ١ – جـ ١ – ص ٣٨٩) .
(٢) راجع : تفسير أبي السعود / مجلد ١ – ص ١٩٥ .

معالم السبل وشهدوا على ذلك كما قال تعالى : ﴿ **كيف يهدِى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ [آل عمران : ٨٦ ، ٨٧] .

وتتجلى عبوديته في الجوانب الآتية :

الجانب الأول : وصفه بالعبودية :

فقد جاء عليه السلام مقرونا بأخيه هارون عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نجزِى المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين** ﴾ [الصافات : ١٢٢] . أي الموحدين المخلصين . وعن أنس – رضي الله تعالى عنه – في حديث الشفاعة يوم القيامة وفيه أن إبراهيم عليه السلام يقول : « ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا » [(١)] .

وعن أبي هريرة – رض االله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له : أجب ربك ، قال : فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها ، قال : فرجع الملك إلى الله تعالى فقال : إنك أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت ، وقد فقأ عيني ، قال : فرد الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدي » الحديث [(٢)] .

ووصفه الله تعالى بالإخلاص في قوله تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا** ﴾ [مريم : ٥١] .

ومخلِصا : بكسر اللام (في قراءة) [(٣)] أي موحدًا أخلص عبادته

---

(١) بخاري / ك : التوحيد – ب : قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ .
(٢) مسلم / ك : ذكر الأنبياء وفضلهم – ب : في وفاة موسى عليه السلام .
(ومختصره / ح رقم ١٦١٣) .
(٣) والقراءة بفتح اللام : أي اختاره الله تعالى واصطفاه .
راجع : تفسير فتح القدير / جـ ٣ – ص ٣٣٨ .
تفسير روح المعاني / مجلد ٦ – جزء ١٦ – ص ١٠٣ .

من الشرك والرياء وأسلم وجهه لله تعالى وأخلصه عن سواه .

الجانب الثاني : قيامه عليه السلام بالعبودية :

كان أول ما أوحى الله تعالى به إلى موسى عليه السلام ، أمره بعبادة الله وحده لا شريك له . فقال تعالى : ﴿ **إننِى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنِى** ﴾ [طه : ١٤] أي فلا معبود بحق إلا أنا فاخضع لي وانقد لأمري ، فالله عز وجل مختص بالألوهية . لذا تختص العبادة له سبحانه دون غيره . فاستجاب موسى عليه السلام لأمر الله تعالى وخضع له ، فقام بالعبادات كلها وأخلصها لله عز وجل دون سواه ، كما سنرى في قيامه بالأعمال الظاهرة والباطنة وكذلك الأقوال .

قيامه بالعبودية القولية :

* كان عليه السلام دائم الذكر والتسبيح .

قال تعالى عنه : ﴿ **كَىْ نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا** ﴾ [طه : ٣٣ ، ٣٤] .

* وكان عليه السلام يدعو الله عز وجل ويظهر عجزه وعبوديته لله تعالى .

قال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **قال رب اشرح لِى صدرِى ويسر لِى أمرِى واحلل عقدة من لسانِى يفقهوا قولِى** ﴾ [طه : ٢٥ - ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ [يونس : ٨٨] . ويقول عز وجل عنه : ﴿ **قال رب إن شئت أهلكتهم من قبل وإِيَّاىَ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هىَ إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدِى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فِى هذه الدنيا حسنة وفِى الآخرة** ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

* وكان عليه السلام يستعيذ بالله تعالى .

فيقول تعالى : ﴿ **وقال موسى إنِّى عذت بربِّى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [غافر : ٢٧] .

* ويستغيث بالله تعالى وقت الشدة والخوف :

فلما خرج عليه السلام من مصر استغاث بالله تعالى . قال تعالى : ﴿ **فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٢١] .

* ويستغفر الله تعالى مما ظلم به نفسه :

فيقول تعالى : ﴿ **قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له** ﴾ [القصص : ١٦] . ولقوله تعالى : ﴿ **قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين** ﴾ [الأعراف : ١٥١] .

قيامه عليه السلام بالعبودية في الأعمال الظاهرة :

وأهمها الصلاة . فقد أمره الله تعالى بإقامتها بعد الأمر بإخلاص العبادة لله عزوجل وهي أجلُّ العبادات وأسماها في الذكر وأعظم الطاعات وأفضلها . قال الله تعالى : ﴿ **إننى أنا الله لا إله أنا فأعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ [طه : ١٥] .

وقد قيل إن في قوله تعالى : ﴿ **كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا** ﴾ [طه : ٣٣ ، ٣٤] . المراد به : الصلاة حيث فيها ذكر لله وتسبيحه (١) .

وجاءت الآثار الصحيحة تبين أنه عليه السلام يصلي في قبره ، فعن أنس ابن مالك – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت على موسى ليلة أُسري به عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره » (٢) .

قيامه عليه السلام بالعبودية في الأعمال الباطنة :

من الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته والبعث والحساب ، إلى غير ذلك

---

(١) ذكره الشوكاني في : فتح القدير / جـ ٣ – ص ٣٦٣ .
الألوسي في روح المعاني / مجلد ٦ – جـ ١٦ – ص ١٨٦ .

(٢) مسلم / ك : ذكر الأنبياء وفضلهم – ب : قول النبي ﷺ : « مررت على موسى عليه السلام يصلي في قبره » . (ومختصره / ح رقم ١٦١٤) .

من أركان الإيمان .

* فكان عليه السلام يؤمن بأسماء الله تعالى وصفاته ، فهو عليه السلام يثني على الله عز وجل بأسمائه الحسنى . فيقول تعالى : ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فِي الأرض جميعا فإن الله لغنِّي حميد** ﴾ [إبراهيم : ٨] . ويقول الله تعالى مخبرا عنه : ﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ [الأعراف : ١٥٥] . ويقول تعالى مخبرا عنه : ﴿ **لا يضل ربِّى ولا ينسَىٰ** ﴾ [طه : ٥٢] . ويقول تعالى : ﴿ **قال ربنا الذِى أعطَىٰ كل شَيْءٍ خلقه ثم هدَىٰ** ﴾ [طه : ٥٠] .

وأما عن إيمانه بعلم الله تعالى وأنه سبحانه البصير به والعليم بكل أحواله . قال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **إنك كنت بصيرا** ﴾ [طه : ٣٥] .

وكذا إيمانه عليه السلام بعلم الله للأمور الغيبية ، وكان ذلك ردًّا على فرعون حين سأله عن أنباء القرون السابقة . فقال تعالى : ﴿ **قال علمها عند ربِّى فِي كتاب** ﴾ [طه : ٥٢] وهو موقن عليه السلام بأن الله تعالى خالق السموات والأرض ومدبرها . قال تعالى : ﴿ **قال رب السمٰوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ [الشعراء : ٢٤] .

* وكان يؤمن بنصر الله وتأييده له ، فلما أدرك فرعون وجنوده موسى ومَنْ معه ظن أصحاب موسى أنهم مدركون فقال الله تعالى : ﴿ **فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معِىَ ربِّى سيهدين** ﴾ [الشعراء : ٦١ ، ٦٢] . فثبت موسى عليه السلام ولم يتزعزع .

* وكان يؤمن بيوم الحساب ، لقوله تعالى مخبرا عنه : ﴿ **وإنِّى عذت بربِّى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [غافر : ٢٧] .

وقوله : ﴿ **واكتب لنا فِي هذه الدنيا حسنة وفِي الآخرة** ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

الجانب الثالث : دعوة موسى عليه السلام إلى العبودية :

بيَّنا آنفا كيف كان موسى عليه السلام محققًّا لعبوديته لله عز وجل خالصًا من الشرك . فهذه دعوته أيضا لقومه تدل وتؤكد غاية إرساله إليهم وهي عبادة

الله تعالى وحده لا شريك له .

دعوته عليه السلام لفرعون :

دعا موسى عليه السلام فرعون وبيَّن له أنه رسول رب العالمين . فقال تعالى : ﴿ **وقال موسى يا فرعون إنِّي رسول رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق** ﴾ [الأعراف : ١٠٤ ، ١٠٥] .

ولما سأل فرعون : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ [الشعراء : ٢٠٣] ، قال موسى عليه السلام : ﴿ **رب السمٰوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ [الشعراء : ٢٠٤] . فأجابه موسى عليه السلام بما يدل على عظيم القدرة الإلهية التي تتضح لكل سامع أنه الرب سبحانه ولا رب سواه ، ولكن فرعون استكبر وطغى رغم إيمانه بصدق موسى في قرارة نفسه . ﴿ **قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السمٰوات والأرض بصائر** ﴾ [الإسراء : ١٠٢] . وكذلك فعل قوم فرعون اقتداء به في الكفر والتكذيب والإنكار مع ظهور الآيات . قال الله تعالى عنهم : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾ [النمل : ١٤] .

دعوته عليه السلام لأتباعه من بني إسرائيل إلى عبودية الله تعالى وحده :

ذكرتُ فيما سبق أن قوم موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل يتصفون بالعناد الشديد ، وإن المستقريء لتاريخ بني إسرائيل وما ورد بشأنهم في القرآن الكريم ، وما ورد في أسفارهم ، يتضح له أن فهمهم للذات العلية ، لم يكن مطابقا لما دلت عليه النصوص ، وإن فكرة الألوهية ظلت مضطربة في عقولهم منذ بعثة موسى عليه السلام إليهم رغم ظهور الآيات الواضحة والمعجزات الداحضة أمام أعينهم . فلم تطمئن نفوسهم إلى عبادة إله لا يستطيعون رؤيته ، ولذلك طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها فرد عليهم موسى عليه السلام ردًّا شديدًا . قال الله تعالى حكاية عنه : ﴿ **قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين** ﴾ [الأعراف : ١٣٨ - ١٤٠] .

واتخذوا العجل من بعد أن نجَّاهم الله تعالى من فرعون الطاغية وجنوده . فهم قد ارتدوا عن عبادة الله تعالى أكثر من مرة [1] . فهذا موسى عليه السلام وموقفه الثابت الذي كان عليه كغيره من الرسل قبله من عبادة الله وحده لا شريك له يوبخهم بأنهم قد اتخذوا العجل إلها لهم وعبدوه من دون الله تعالى ثم يدعوهم للتوبة إلى الله تعالى والإنابة إليه . قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم** ﴾ [البقرة : ٥٤] .

وكان عليه السلام يدعو قومه إلى الاستعانة به سبحانه والتوكل عليه وشكره على نعمائه والصبر على بلائه .

فيقول الله تعالى : ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

ويقول تعالى : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ [يونس : ٨٤] .

ثم يبيِّن لهم أن في شكرهم الله تعالى فضلا عظيما في حفظ تلك النعم وجلب زيادتها ، وأن جحود نعم الله تعالى سبب في زوالها ومحوها . قال تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابِي لشديد** ﴾ [إبراهيم : ٧] .

فموسى عليه السلام تحققت فيه العبودية الحقة لله تعالى ، ودعا قومه إليها ولكن ما آمنوا إلا قليلا مع جلاء الأدلة والآيات الساطعة أمامهم . فعجبا من أمرهم ومن قسوة قلوبهم حيث آيات الله تعالى تتلى والمعجزات تتابع ، فكانت صعوبة هدايتهم . قال تعالى : ﴿ **كيف يهدِى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدِى القوم الظالمين** ﴾ [آل عمران : ٨٦] .

---

(١) راجع : الأسفار المقدسة – علي عبد الواحد / ص ٢٣ . وسوف نتكلم بمشيئة الله تعالى عن عبادات اليهود وبُعدها عن تحقيق العبودية في المبحث الأول من الفصل الرابع .

(٤) عبودية عيسى عليه السلام

حقق عيسى عليه السلام عبوديته لله تعالى ودعا قومه إليها بل ونطق بها وهو في المهد . فقال تعالى : ﴿ **قال إني عبد الله آتانِيَ الكتاب وجعلنِي نبيا** ﴾ [مريم : ٣٠] . ولكنَّ قومه افتروا عليه وقالوا إدًّا عظيما فزعموا أنه ابن الله ، كما أخبر الله تعالى : ﴿ **وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾ [التوبة : ٣٠] – تعالى الله عمَّا يقولون علوا كبيرا – فعبدوه من دون الله تعالى . فضلوا وأضلوا كثيرا . وانقسموا إلى ثلاث طوائف :

(١) طائفة حطت من منزلته ومنزلة أمه إذ قالوا عليه وعلى أمه قولا عظيمًا . كما قال تعالى : ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾ [النساء : ١٥٦ ، ١٥٧] .

(٢) وطائفة غالت فيه وتجاوزت الحد في تعظيمه حتى ألَّهته واعتبرته ابنًا لله .

(٣) وطائفة هداها الله تعالى للحق فآمنت به وأدركت أنه في مكانة عالية من مقام العبودية ، وهم الذين آمنوا به وصدقوا برسالته ، وقال الله تعالى فيهم وفي الطائفتين اللتين قبلهم : ﴿ **فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ [الصف : ١٤] .

ولنستعرض عبودية عيسى عليه السلام من تحققه بها ودعوته إليها لنرى براءته ممَّا ألصقه قومه به وممَّا نسبوه إليه . في الجوانب الآتية :

الجانب الأول : وصفه بالعبودية :

جاء هذا الوصف من الله تعالى لبيان مكانته الحقيقية ومنزلته التي استحقها . فقال تعالى : ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل** ﴾ [الزخرف : ٥٩] . فما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل أنعم الله تعالى عليه بالنبوة والرسالة وجعله حجة وبرهانا على قدرة الله تعالى . فهو القادر سبحانه على خلقه بدون أب ، كما خلق أباه آدم من قبل من غير أم ولا أب فالله عز وجل يبين أن

عيسى عليه السلام ليس برب وإنما عبد [1] .

وقد نفى الله عز وجل عن المسيح عليه السلام رضاه بغير تلك الصفة وترفعه عنها . فقال تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله** ﴾ [النساء : ١٧٢] فهو لن يأنف عن العبودية ولن يتنزه عنها ولن يعيب العبودية ولن ينقطع عنها . فهو عليه السلام لن يترفع أن يكون عبدا لله تعالى مستمرا على عبادته وطاعته ملتزما بمقتضى وظيفة العبودية ، كيف وإن ذلك أقصى مراتب الشرف [2] .

الجانب الثاني : قيامه عليه السلام بالعبودية :

قام عيسى عليه السلام بالعبودية على أكمل وجه و لم يدَّع قط لنفسه الألوهية أو لغيره من الأنبياء والملائكة ، فأقواله وأفعاله التي قام بها لعبادة الله تعالى لا ترفعه فوق مرتبة العبودية ، فهو كغيره من الأنبياء الذين أخلصوا أقوالهم وأعمالهم لله عز وجل و لم يشركوا به سبحانه طرفة عين .

(١) عبوديته عليه السلام القولية :

* فكان أول ما تكلم به عليه السلام أن أثبت لنفسه العبودية لربه سبحانه الذي نزهه وبرأه عن الولادة . فقال تعالى : ﴿ **قال إنِّي عبد الله آتانِيَ الكتاب وجعلنِي نبيا** ﴾ [مريم : ٣٠] .

* وكان يدعو الله عز وجل في قضاء حوائجه - فيقول الله تعالى : ﴿ **قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين** ﴾ [المائدة : ١١٤] .

---

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٤ - ص ١٣٢ .
تفسير أبي السعود / مجلد ٥ - ص ٥٤٨ .
فتح القدير / جـ ٤ - ص ٥٦١ .

(٢) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ١ - ص ٥٩١ .
تفسير أبي السعود / جـ ١ - ص ٦١٣ .
تفسير فتح القدير / جـ ١ - ص ٥٤٢ .

(٢) عبوديته في الأعمال الباطنة :

* فكان يؤمن عليه السلام بعلم الله تعالى وبأن لله تعالى نفسًا تليق به سبحانه . فيقول : ﴿ **تعلم ما فى نفسِى ولا أعلم ما نفسك إنك أنت علام الغيوب** ﴾ [المائدة : ١١٦] .وكان يؤمن برقابة الله تعالى الشاملة وخلقه لكل شيء . كما قال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **فلما توفيتنِى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىْءٍ شهيد** ﴾ [المائدة : ١١٧] . وقوله تعالى مخبرا عنه : ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىْءٍ فاعبدوه** ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

وكان يؤمن بأسماء الله تعالى ، منها قوله : ﴿ **وأنت خير الرازقين** ﴾ [المائدة : ١١٤] ، وقوله : ﴿ **إنك أنت علام الغيوب** ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وقوله : ﴿ **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ [المائدة : ١١٨] .

فكلها آيات بينات تدل على إيمان عيسى عليه السلام بإله عظيم له أسماء حسنى وصفات عليا ، تنزه عن كل نقص وتفرد بالألوهية دون سواه .

(٣) عبوديته عليه السلام في الأعمال الظاهرة :

ومنها الصلاة ، والزكاة ، والبر بوالدته ، ولين الجانب . فكان عليه الصلاة والسلام مقيما للصلاة ومؤدياي للزكاة كما أمره ربه تعالى بذلك . فقال تعالى مخبرها عنه : ﴿ **وأوصانِى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتِى ولم يجعلنِى جبارا شقيا** ﴾ [مريم : ٣١ ، ٣٢] .

الجانب الثالث : دعوته عليه السلام قومه إلى القيام بالعبودية :

لقد قام عليه السلام بدعوة قومه إلى القيام بحقيقة العبودية والتي لا تنبغي إلا لله عز وجل دون غيره ، ودعاهم بكل وسائل التعبير والإيضاح لبيان هذه الحقيقة ويبيِّن لهم مرارًا وتكرارًا أنه ما هو إلا رسول من عند الله تعالى ، وأنه عبد لله عز وجل وأن ربهم الله الذي لا إله إلا هو فعليهم أن يخضعوا له ويذعنوا لأوامره فيعبدوه ولا يصرفوا لغيره العبادة ، وأنه ليس إلها أو ابنا لله تعالى بل هو

كلمته التي ألقاها إلى أُمِّه مريم . فيحدثنا القرآن الكريم عن بعض مقالاته لهم التي توضح فحوى دعواه لهم في قوله تعالى : ﴿ **وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربِّى وربكم** ﴾ [المائدة : ٧٢] . وقوله تعالى مخبرا عنه : ﴿ **إن الله ربِّى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ [آل عمران : ٥١] . وقوله تعالى : ﴿ **قال إنِّى عبد الله آتانِيَ الكتاب وجعلنِى نبيا** ﴾ [مريم : ٣٠] . وقوله تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنِى إسرائيل إنِّى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدىَّ من التوراة ومبشرا برسول يأتِى من بعدِى اسمه أحمد** ﴾ [الصف : ٦] .

فالآيات تدل على أنه عليه السلام عبد مربوب مثلهم ، فعليهم أن يعبدوا ربه وخالقه وخالقهم . يقول الشوكاني – رحمه الله تعالى – تفسيرًا لما حكاه الله تعالى عنهم من قولهم إن الله هو المسيح بن مريم : « والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة فكيف يدعون الإلهية لمن ينعت نفسه بأنه عبد مثلهم ؟!! » (1) .

فالله سبحانه المستحق للعبادة لا شريك له قد أجرى على يد نبيه عيسى عليه السلام بعض المعجزات التي هي من خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها . فكان من حرص عيسى عليه السلام على أن لا يقع الشرك في قومه فيعبدوه ، أن نسب كل معجزة على حدة لله عز وجل وأن الله تعالى قد أمده بالقدرة على ذلك فيقول لهم : ﴿ **ورسولا إلى بنِى إسرائيل أنِّى قد جئتكم بآية من ربكم أن أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيْرا بإذن الله وأُبرِىءُ الأكمه والأبرص وأُحيِ الموتَى بإذن الله** ﴾ [آل عمران ٤٩] . كما يُذَكِّر الله سبحانه نبيه عيسى عليه السلام بنعمه عليه وآياته التي أيده سبحانه بها . فيقول الله تعالى : ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنِى فتنفخ فيها فيكون طيرا بإذنِى وتبرِىء الأكمه والأبرص بإذنِى وإذ تخرج الموتَى بإذنِى** ﴾ [المائدة : ١١٠] .

ورغم هذه الآيات الواضحة على صدق دعوة عيسى عليه السلام إلى عبودية الله تعالى وحده دون غيره ، ورغم بيانه لقومه لتلك الحقيقة ، وهي ألوهية

---

(١) فتح القدير / جـ ٢ – ص ٦٣ .

الله تعالى وحده وعدم ألوهيته هو عليه السلام ، وقع ما كان يحذر منه ، إذ عبدوه من دون الله تعالى ، فقال بعضهم : إنه هو الله . كما قال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ [المائدة : ١٧] ، ومنهم من قال إنه ابن الله ، وهو ما عليه الكثير من النصارى حتى يومنا هذا . ﴿ **وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾ [التوبة : ٣٠] .

فقالوا بالثالوث والأقانيم الثلاثة ، وهي الآب والابن والروح القدس ، كما قال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ [المائدة : ٧٣] .

ومنهم مَنْ ادعى الألوهية في عيسى عليه السلام وأمه مريم ، وهذا ما يظهر من القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمّى إلهين من دون الله** ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فتخبطوا تخبطًا كبيرًا وبعدوا عن العبودية الحقة وضلوا ضلالا بعيدا . فكفروا بذلك واستحقوا النار والحرمان من الجنة ، كما أخبرهم نبيهم عيسى عليه السلام بقوله : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ [المائدة : ٧٢] . وقوله تعالى : ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ [المائدة : ٧٣] .

وقد أحس عيسى عليه السلام قبل رفعه أنهم بدأوا يسقطون في أكبر الكبائر وهو الشرك بالله تعالى فأراد أن يقيم عليهم الحجة قبل تركه لهم . فقال تعالى : ﴿ **فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارِى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

فارتاحت نفسه بإقامة الحجة عليهم . لذا يظهر الله تعالى براءته يوم القيامة عندما يسأله الله تعالى عما افتراه عليه قومه . قال تعالى : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمّى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لِى أن أقول ما ليس لِى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فِى نفسِى وما أعلم ما فِى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنِى به أن اعبدوا الله ربِّى وربكم** ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

ونهي الكلام عن عبودية هذا النبي العظيم بهذه الآيات الكريمة التى تبيِّن حقيقته عليه السلام وحقيقة أُمّه ، وتفصح عن ضلال بنى إسرائيل . قال الله تعالى : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ [المائدة : ٧٤ - ٧٧] .

(٥) عبودية محمد عليه الصلاة والسلام

وهو عليه الصلاة والسلام خامس الرسل من أُولي العزم وأفضل الرسل جميعًا وسوف نرجيء الكلام عنه في المبحث القادم حيث خصصنا مبحثًا لعبوديته عليه الصلاة والسلام .

عبودية الرسل عليهم السلام
غير أُولي العزم

هؤلاء الرسل عليهم السلام قاموا كغيرهم من الأنبياء بعبوديتهم لله تعالى وحده ، ونحن نستعرض هنا عبوديتهم لله تعالى سواء وصف الله تعالى لهم بها أو قيامهم هم بها ، أو قيامهم بدعوة قومهم إليها ، بشيء من الإيجاز ، حيث إن الغرض الأساسي من الرسالة هو إظهار عبودية الله تعالى بتحقيق الكائنات لها والأنبياء هم من مخلوقات الله تعالى من الإنس ، بل هم على رأس الإنس ، وفُضلوا على كثير من مخلوقاته سبحانه فنذكرهم هنا لنستدل على كمال العبودية الحقة بإتيانهم عليه السلام لها وليس الغرض هنا سرد قصصهم وأنسابهم وقومهم إلى غير ذلك مما هو ليس مقصودنا هنا . وحيث إنني قد التزمت – قدر الإمكان – بالاستدلالات القطعية من القرآن الكريم والصحيحة من السنة ، متجنبا في ذلك ما يروى من الإسرائيليات والأخبار غير المعتمدة وهي كثيرة عن هؤلاء الأنبياء خاصة في التوراة والإنجيل (المحرفين) فإني سأسرد – إن شاء الله تعالى – هنا ، وكما سبق غيره ما في القرآن والسنة الصحيحة .

(١) عبودية هود عليه السلام

بيَّن القرآن الكريم دعوته إلى قومه ، وهي دعوة التوحيد الخالص حيث دعاهم إلى عبودية الله تعالى وحده لا شريك له ، وكانوا قوما أشداء عمالقة مترفين في الحياة فاغتروا بقوتهم واستكبروا في الأرض وعتوا عن أمر الله تعالى ، وأمر رسله ، قال تعالى : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فِى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد قوة أو لم يروا أن الله الذِى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ [فصلت : ١٥] .

قال تعالى في بيان دعوة هود عليه السلام : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ [الأعراف : ٦٥] . وقال تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

وكان يذكرهم عليه السلام بآلاء الله تعالى التي منَّ بها الله عز وجل عليهم قال تعالى مخبرا عن قول هود لقومه : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فِي الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ [الأعراف : ٦٩] .

ثم يدعوهم عليه السلام إلى التوبة من عبادة الأصنام وأن يستغفروا الله عز وجل ، على ذلك فلا عصيان أعظم من الكفر به سبحانه والتوبة منه واجبة على الفور . قال تعالى مخبرًا عنه : ﴿ **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** ﴾ [هود : ٥٢] .

ولكنهم لم يؤمنوا به ولم يمتثلوا لأمره – إلا القليل منهم – فعتوا عن أمر ربهم . ولما وجد هود عليه السلام منهم هذا العنت والمحاداة لله تعالى تبرأ منهم وأعلن لهم عداوته . قال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **قال إنِّي أشهد الله واشهدوا أنِّي برِيء مما تشركون من دونه فكيدونِي جميعا ثم لا تنظرون** ﴾ [هود : ٥٥] .

وقد بيَّن القرآن الكريم مظاهر عبودية هود عليه السلام ، منها توكله على الله عز وجل وإيمانه بأسماء الله تعالى وصفاته ، والتي تظهر في الآيات التالية من إخبار الله عز وجل عنه بقوله تعالى : ﴿ **إنِّي توكلت على الله ربِّي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربِّي على صراط مستقيم** ﴾ [هود : ٥٦] . ﴿ **إن ربِّي على كل شيْءٍ حفيظ** ﴾ [هود : ٥٧] .

وقد أهلك الله تعالى قومه وجعلهم عبرة لمن بعدهم . قال تعالى : ﴿ **وفِي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيْءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الذاريات : ٤١ ، ٤٢] .

(٢) عبودية صالح عليه السلام

دعا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله تعالى وحده كما فعل أخوه هود والأنبياء من قبله . قال تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

كما ذكَّرهم عليه السلام بنعم الله تعالى عليهم ، حتى يرجعوا إلى المُنعِم بها عليهم فيعبدوه وحده ويخلصوا له العبادة دون غيره ، فإن سبحانه المُنعِم عليهم بتلك النعم ويجب عليهم الإذعان له والخضوع لأمره سبحانه فإنه المستحق للعبادة دون سواه .

قال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

ثم يحثهم على التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى عما هم فيه من عبادة الأوثان ، فقال تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربِّى قريب مجيب** ﴾ [هود : ٦١] . وقال تعالى عنه : ﴿ **قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون** ﴾ [النمل : ٤٦] .

ولكنَّ قومه كغيرهم من المعاندين لم يسمعوا له و لم يؤمنوا به وفضلوا الكفر على الإيمان ، والعمى على الهدى كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمَىٰ على الهدَىٰ** ﴾ [فصلت : ١٧] .

فجاءهم العذاب من الله تعالى عقابًا لهم بعد أن بيَّن لهم رسولهم صالح عليه السلام دعوته وبلغها لهم ثم اعتزلهم وتركهم ينتظرون عذاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **فتولَّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ [الأعراف : ٧٩] .

(٣) عبودية إسماعيل عليه السلام

وصفه الله تعالى في كتابه العزيز بقوله : ﴿ **واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا** ﴾ [مريم : ٥٤] . وتتمثل عبودية إسماعيل عليه السلام في مواقف كثيرة جاء ذكرها في القرآن الكريم ، كان أبرزها هو موقفه تجاه أبيه في الابتلاء بذبحه فخضع لأمر الله عز وجل وأعان أباه إبراهيم عليه السلام على طاعة ربه عز وجل حتى لا يثنيه عن ذلك فتأخذه شفقة الأب على ابنه . فقال تعالى مخبرا عن رد إسماعيل عليه السلام لأبيه : ﴿ **يا أبت افعل ما تأمر ستجدنِى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وأعان عليه السلام أباه إبراهيم عليه السلام على بناء الكعبة وشاركه فيها . قال تعالى : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

وكان عليه السلام يذكر أهله بالصلاة ، ويحضهم على الإنفاق فاستحق بذلك رضا الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا** ﴾ [مريم : ٥٥] .

(٤) عبودية يعقوب عليه السلام

جاء وصفه بالعبودية مقرونًا بأبيه إبراهيم فقال تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ [ص : ٤٥] ، فهو أحد أبناء الذرية الصالحة التي أخلصت عبوديتها لله تعالى ولم تشرك به وكانوا هداة مهتدين ، فعمل يعقوب عليه السلام بوصية أبيه إبراهيم عليه السلام له وهي الثبات على الاستسلام لله تعالى والانقياد له والوفاة على ذلك ، كما أخبر الله تعالى فقال : ﴿ **ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنِيَّ إن الله اصطفَىٰ لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ [البقرة : ١٣٢] . ووصَّى يعقوب عليه السلام بدوره أبنائه بهذه الوصية والقيام بها ، وأقررهم على الإشهاد بها قبل موته حتى يطمئن على ذريته من بعده . فقال تعالى : ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدِى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

وقد عرفوا الإله بالإضافة إلى آبائهم لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين وحده ودعوا الأُمم إلى ذلك في وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرة من الكواكب والأصنام وغيرها ولذلك قال سحرة موسى عليه السلام عندما آمنوا : ﴿ **آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون** ﴾ [الشعراء : ٤٧ ، ٤٨] .

فكان رد أبناء يعقوب عليهم السلام جميعًا بأنهم يعبدون الإله الواحد الأحد الذي يختص بالعبادة دون غيره ، فهم منقادون مذعنون مستسلمون له وحده دون غيره ، وخلاصة هذه الوصية عقيدة الوحدانية في العبادة وإسلام القلب لله تعالى والإخلاص له [(١)] ، وبهذا كان يوصي أولئك النبيون أبناءهم وأممهم فتبيَّن أن دين الله تعالى واحد في كل أُمة ، وهو الإسلام ومعناه . الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والإنقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك .

وقد ابتُلِي يعقوبُ عليه السلام بفقد ابنه يوسف عليه السلام وذلك على يد إخوته بعد أن نزغ الشيطان بينه وبينهم وسوَّل لهم فأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب والقصة مذكورة كاملة في القرآن الكريم في سورة يوسف ، وهي تعطي أمثلة وعبر رائعة ليس المقام هنا لذكرها ولكنا نأخذ منها ما كان خاصا بموقف يعقوب عليه السلام والتي تبيِّن جلاء عبوديته لله تعالى وحده . من توكله عليه سبحانه ، وصبره على ابتلاء الله تعالى له ، وثقته بوعد الله عز وجل ، وشكواه لله تعالى دون غيره ، ورضاه بحكم الله تعالى وقضائه ، والآيات الكريمة التالية تبيِّن هذه المعاني أفضل بيان ، فقال تعالى مخبرًا عما قاله يعقوب عليه السلام بعدما سمع من أبنائه افتراءهم بمقتل يوسف من الذئب : ﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾ [يوسف : ١٨] .

وقال تعالى مخبرًا عنه : ﴿ **فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين** ﴾ [يوسف : ٦٤] .

وقوله : ﴿ **قال الله على ما نقول وكيل** ﴾ [يوسف : ٦٦] .

وقوله : ﴿ **إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ [يوسف : ٦٧] .

---

(١) راجع : تفسير المنار – محمد رشيد رضا / جـ ١ – ص ٤٧٧ .

وقوله : ﴿ **عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم** ﴾ [يوسف : ٨٣] .
وقوله : ﴿ **إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ [يوسف : ٨٦] .
وقوله : ﴿ **قال سوف أستغفر لكم ربِّى إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [يوسف : ٩٨] .

(٥) عبودية يوسف عليه السلام

كان يوسف عليه السلام أفضل أبناء يعقوب عليه السلام وأحبهم إليه [١] ، وذلك لما منَّ الله تعالى عليه بالاصطفاء له . فقال تعالى : ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم** ﴾ [يوسف : ٦] .

فقد وصفه الله تعالى في جملة عباده المخلصين الموحدين الذين أعطوا العبودية حقها ولزموا الطاعة والاستقامة لله عز وجل ولم يشركوا به سبحانه فعصمهم الله تعالى من الوقوع في الكبائر والتي أعظمها الشرك بالله تعالى . قال تعالى : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وقد ابتلي يوسف عليه السلام مع ابتلائه ببعده عن أبيه ، بامرأة العزيز التي دعته إلى فعل الفاحشة . كما قال تعالى مخبرًا عن تلك الحادثة : ﴿ **وراودته التى هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربِّى أحسن مثواىَ إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ [يوسف : ٢٣] .

فلما أَبى عليه السلام أُدخل السجن على إثرها ، فقام عليه السلام بدعوة صاحبيه اللذين كانا معه في السجن حيث كانا كبقية قومهم على دين الوثنية وعبادة الأصنام ، . فيقول رب العزة مخبرًا عنه : ﴿ **يا صاحبَيِ السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ [يوسف : ٣٩] . وقوله : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [يوسف : ٤٠] .

---

(١) وهو السبب الذي حمل إخوة يوسف على الإضرار به والنيل منه : ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا** ﴾ [يوسف : ٨] .

هذا . وقد قدم دعوته إليهم بتبرئته من الكفر وأهله كما أعلن موالاته للإيمان وأهله فيقول الله تعالى مخبرًا عما قاله : ﴿ **إنّي تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائِي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيْء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ [يوسف : ٣٧ ، ٣٨] . ثم تخبرنا الآيات عن إيمان يوسف عليه السلام بأسماء الله تعالى وصفاته وذلك في قوله تعالى : ﴿ **والله أعلم بما تصفون** ﴾ [يوسف : ٧٧] .

وقوله تعالى : ﴿ **قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ [يوسف : ٩٢] . وقوله تعالى : ﴿ **إن ربِّى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم** ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

وها هو إذ يثني على الله عز وجل بما هو أهل له سبحانه ويسأله أن يتوفاه على الإسلام ويجعله من الصالحين . فيقول الله تعالى مخبرًا عنه : ﴿ **رب قد آتيتنِى من الملك وعلمتنِى من تأويل الأحاديث فاطر السمٰوات والأرض أنت ولِيِّ فى الدنيا والآخرة توفنِى مسلما وألحقنِى بالصالحين** ﴾ [يوسف : ١٠١] .

فهو مع رغد العيش الذي كان فيه وسعة الملك الذي أوتيه اشتاقت نفسه إلى ما عند الله تعالى في الآخرة حيث النعيم المقيم فدعا ربه سبحانه أن يتوفاه على الإسلام وعدم الإشراك به وأن يلحقه بالصالحين من آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من أهل الجنة [١] .

يقول ابن قيم الجوزية – رحمه الله تعالى – : « جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد ، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد ، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء » [٢] أ.هـ .

---

(١) راجع : فتح القدير – الشوكاني / جـ ٣ – ص ٥٧ .

(٢ التفسير القيم / ص ٣١٨ .

وجاء في صحيح البخاري عن ابن عمر – رضي الله تعالى عنهما – عن النبي ﷺ قال : « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم . يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » (١) .

وعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : « سئل رسول الله ﷺ عن أكرم الناس قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » (٢) .

(٦) عبودية شعيب عليه السلام

إنه عبد من عباد الله الصالحين الذين أخلصوا لله تعالى دينهم و لم يشركوا به ، أراد الإصلاح في قومه وجاهد فيهم ما استطاع من قوة ، وصبر عليهم وعلى أذاهم سائلا المولى عز وجل التوفيق في أمره . فيقول تعالى مخبرًا عنه : ﴿ **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقِي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] .

فدعاهم إلى التوحيد الخالص وترك الشرك المنافي لعبودية الله تعالى . فقال تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [الأعراف : ٨٥] ويذكرهم بعبادة الله تعالى وحده والعمل ليوم الحساب الذي ينبغي أن يعملوا له فيقول تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ [العنكبوت : ٣٦] .

ثم يسألهم أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه عما اجترحوا من فعل أكبر الكبائر وهو الشرك به سبحانه ، فقال تعالى مخبرًا عن قول شعيب عليه السلام لهم : ﴿ **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربِّى رحيم ودود** ﴾ [هود : ٩٠] .

---

(١) بخاري / ك : الأنبياء – ب : ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت** ﴾ .
(٢) المصدر السابق / ب : ﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته آية للسائلين** ﴾ .

وكان إيمانه عليه السلام بحكم الله تعالى وعلمه ما جعله يصبر على دعوتهم . فقال تعالى مخبرًا عنه : ﴿ **وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ [الأعراف : ٨٩] . وقوله سبحانه : ﴿ **فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾ [الأعراف : ٨٧] . وقوله سبحانه : ﴿ **إن ربِّى بما تعملون محيط** ﴾ [هود : ٩٢] .

فلما كذبوا به أرسل الله تعالى عليهم عذابه . قال تعالى : ﴿ **وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ [هود : ٩٤ ، ٩٥] .

(٧) عبودية أيوب عليه السلام

تتمثل عبودية أيوب عليه السلام في عبادات كثيرة أجلها صبره على بلاء الله تعالى له ورضاه به ، فكان نعم العبد لشكر نعم الله تعالى في حال الرخاء حيث كان له من البساتين والأراضي الواسعة وأمده الله تعالى بوفرة في الرزق وقوة في البدن . ثم لما ابتلاه ربه تعالى بالمرض كان نعم العبد لصبره عليه ، فكان مثالا للعبودية الحقة في حالتي الرخاء والشدة فاستحق شرف العبودية والقرب من الله تعالى . قال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب** ﴾ [ص : ٤١] . وقال تعالى : ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٤٢] .

فقد استمر معه المرض سنوات وكان مثالا لعباد الله تعالى الصابرين ، يدعو الله عز وجل ويستجير به لإيمانه عليه السلام بأن الله سبحانه هو الشافي وحده . فيقول تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادَى ربه أنِّى مسنِىَ الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

يقول ابن قيم الجوزية – رحمه الله تعالى – : « جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في التملق له ، والإقرار بصفة الرحمة وأنه تعالى أرحم الراحمين . والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة

حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه » [1] أ.هـ .

فشفاه الله عز وجل وأذهب ما به من المرض لما وجد سبحانه منه من كمال العبودية له ، وجمع له شمله وأصلح له زوجه كما قال تعالى : ﴿ **فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾ [الأنبياء : ٨٤] .

(٨) عبودية داود عليه السلام

آتاه الله عز وجل المُلك والحكمة وعلمه سبحانه مما يشاء ، فكانت مملكته مملكة عظيمة من تسخير الجبال والطير له وتعليمه منطق الطير وغيرها من الأمور التي أيده الله تعالى وأمده بها لتوطيد ملكه ، كما أخبر سبحانه حيث يقول : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد** ﴾ [سبأ : ١٠] .

وكان عليه السلام مع هذه العظمة والملك والجاه كثير العبادة لله تعالى . فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، فكان عليه السلام قويا في العبادة والطاعة وعمل الصالحات فاستحق بذلك شرف العبودية والإضافة إلى رب العزة جل وعلا . فقال سبحانه : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب** ﴾ [ص : ١٧] .

قال مجاهد [2] – رضي الله تعالى عنه – : « الأيد القوة في الطاعة » .

وقال قتادة : « أعطي داود عليه السلام قوة في العبادة » [3] .

وفي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا » [4] .

---

(١) التفسير القيم / ص ٣٦٤ .

(٢) هو : أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي ، ثقة ، إمام في التفسير وفي العلم ، من أئمة التابعين ، مات وهو ساجد ، ولد سنة ٢١ هـ ، وتوفي سنة ١٠٣ هـ .
(تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٢٩) .

(٣) راجع : تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ – ص ٢٩ .

(٤) بخاري / ك : الأنبياء – ب : أحب الصلاة إلى الله صلاة داود .

ومن الأعمال الظاهرة في عبوديته عليه السلام سجوده لله تعالى والإنابة إليه .

قال تعالى : ﴿ **وظن داود أنما فتناه فاستغر ربه وخر راكعا وأناب** ﴾ [ص : ٢٤] .

(٩) عبودية سليمان عليه السلام

ورث سليمان أباه داود عليه السلام في مُلكه ورزقَه الله تعالى النبوة والمُلك العظيم الذي لم يُعطه أحد من بعده ، وكان نِعم العبد كما قال الله تعالى : ﴿ **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٣٠] . فنعته الله تعالى بالعبودية لقيامه بها عليه السلام حق القيام .

وقد حشر لسليمان عليه السلام جنود من الإنس والجن والطير لخدمته والقيام بأمره ، وهو مع ذلك كان دائم الشكر لنعم الله تعالى لم تفتنه الدنيا ومظاهرها مع سعة ملكه وعظمته . فقال الله عز وجل : ﴿ **وقال رب أوزعنِى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علَّى وعلَى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ [النمل : ١٩] .

كما أنه يشكر الله تعالى بعدما رأى عرش بلقيس ملكة سبأ وقد استقر عنده فقال تعالى مخبرًا عنه : ﴿ **قال هذا من فضل ربِّى ليبلونِى ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربِّى غنِىٌّ كريم** ﴾ [النمل : ٤٠] .

وكانت رسالته التي أرسلها إلى ملكة سبأ فيها دعوة التوحيد لله تعالى ونبذ عبادة الشمس التي كانوا يسجدون لها من دون الله تعالى ، فقال : ﴿ **قالت يا أيها الملأ إنى ألقِىَ إلَّى كتاب كريم * إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علَّى وأتونِى مسلمين** ﴾ [النمل : ٢٩ - ٣١] .

(١٠) عبودية يونس عليه السلام

تتجلى عبودية يونس عليه السلام في دعوته لقومه إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ عبادة الأصنام . كما تظهر عبوديته فيما ابتلاه به ربه سبحانه – حين ترك قومه غضبا عليهم وخرج من بلده دون إذن من الله عز وجل له بذلك – بمكثه في بطن الحوت ليال ، ولكن لإيمانه بأن لا ملجأ ولا منجا من الله تعالى إلا إليه تضرع إلى ربه تعالى بأن يتوب عليه . فقال تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنّى كنت من الظالمين** ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . فنجاه الله تعالى من كربه الذي كان به .

وهكذا نكون قد انتهينا من هذا المبحث في إبراز عبودية الأنبياء عليهم السلام لله عز وجل ، وضربنا أمثلة لبعضهم لتكون عبرة لنا جميعا في تحقيق هذه الغاية التي خلقنا من أجلها . فنقتدي بهم ، ونهتدي بهداهم . فهم خير من حققها وقام بها ودعا إليها .

قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدَى الله فبهداهم اقتده** ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

* * *

المبحث الثالث
تحقق العبودية التامة
في شخصية الرسول ﷺ

كان ﷺ خير قدوة لأمته إلى قيام الساعة ، في تحقيقه للعبودية والقيام بها على أكمل وجه . ذلك لأنه سيد ولد آدم ، وأنه لا نبي بعده ، وأن دعوته للعالمين جميعًا . قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ومع ما وصل إليه ﷺ من منزلة عالية بين الأنبياء والمرسلين إلا أن وصف الله تعالى له لم يزد عن كونه عبدًا . فكانت صفة « العبودية » منتهى صفات المدح والثناء التي لم يكن هناك أفضل منها . أو ما يقارنها . وكانت أحب الصفات إليه ﷺ ويحب أن يُنادى بها .

وسيتناول الحديث عن عبودية النبي محمد ﷺ ثلاث نقاط رئيسية هي :

أولا : وصفه بالعبودية .

ثانيا : قيامة بالعبودية (القولية والفعلية) .

ثالثا : قيامه بدعوة قومه إليها .

أولا : وصفه بالعبودية

وصف الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ في مواطن كثيرة من القرآن الكريم تدل في جملتها على عظم مقام العبودية الذي وصل إليه ﷺ وهو ما يظهر فيما يلي :

(١) وصفه عليه الصلاة والسلام بالعبودية في مقام الوحي في أكثر من آية :

مثل قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فِي ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : ٢٣] . وقوله : ﴿ الحمد لله الذِى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾ [الكهف : ١] . وقوله : ﴿ تبارك الذِى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ [الفرقان : ١] . وقوله : ﴿ فأوحَى إلى عبده ما أوحَى ﴾ [النجم : ١٠] . وقوله : ﴿ هو الذِى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ [الحديد : ٩] .

(٢) كما وصف بالعبودية في مقام العبادة :

كما في قوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ [الجن : ١٩] .

(٣) وفي مقام الإسراء :

في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذِى أسرَى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصَى الذِي باركنا حوله لنريه من آياتنا ﴾ [الإسراء : ١] .

(٤) وقد جمعت آية الأنفال بين مقام الوحي ومقام الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام :

في قوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقَى الجمعان ﴾ [الأنفال : ٤١] .

(٥) وفي مقام النصرة والتأييد :

في قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ [الزمر : ٣٦] . وقوله تعالى : ﴿ أرأيت الذِى ينهَى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدَى * أو أمر بالتقوَى * أرأيت إن كذب وتولَّى * ألم يعلم بأن الله يرَى ﴾ [العلق : ٩ - ١٤] .

هذه الآيات نزلت في أبي جهل – لعنه الله تعالى – حين توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت . فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولا . ثم توعده الله تعالى بالعذاب الأليم يوم القيامة [١] .

وأما ما جاء في الأحاديث الشريفة من وصف النبي ﷺ بالعبودية ، فهي كثيرة ، وتدل في جملتها على علو منزلة العبودية التي وصل إليها ﷺ منها :

(١) ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله تعالى عنهما – قال : قال ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه مَنْ صلَّى عليّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلو الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمَنْ سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » [٢] .

(٢) وعن ابن عباس أنه سمع عمر – رضي الله تعالى عنهم – يقول على المنبر : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا تطروني [٣] ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم [٤] ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » [٥] .

وهذا خير دليل على مكانته ﷺ ، وفيه تحذير لأمته من بعده أن يغلوا في شخصه ﷺ فيرفعوه فوق منزلته التي وصفه الله تعالى بها أو وصف نفسه بها فيقعوا فيما وقع فيه النصارى في نبيهم عيسى عليه السلام فجعلوه ابنًا لله ، ومن ثَمَّ إلها من دون الله تعالى . فكفروا بذلك . قال عز وجل : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ [المائدة : ١٧] .

---

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٤ – ص ٥٢٨ .

(٢) مسلم / ك : الصلاة – ب : القول مثل ما يقول المؤذن (ومختصره / ح رقم ١٩٨) .

(٣) الإطراء : المدح بالباطل ، تقول : أطريت فلانا ، مدحته فأفرطت في مدحه .

(٤) أي في دعواهم في الألوهية (فتح الباري / جـ ٦ – ص ٤٩٠) .

(٥) البخاري / ك : الأنبياء : ب : قوله تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها** ﴾ .

نقل الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – في الفتح : « لا يلزم من النهي عن الشيء وقوعه لأنا لا نعلم أحدًا ادعى في نبينا ما ادعته النصارى في عيسى ، وإنما سبب النهي فيما يظهر ما وقع في حديث معاذ بن جبل لما استأذن في السجود له فامتنع ونهاه فكأنه خشي أن يبالغ غيره بما هو فوق ذلك فبادر إلى النهي تأكيدًا للأمر » [١] أ.هـ .

وجاء في مختصر الشمائل المحمدية في التعليق على هذا الحديث ما نصه : « فنهيه ﷺ أمته عن مدحه بما هو جائز أصلا خشية وقوع المادح فيما لا يجوز » [٢] .

فكان ﷺ خير مثال لأمته ولمن بعده في تحقق العبودية . فأعلى درجات العباد هي العبودية وإن زيد على ذلك فهي الألوهية ولا نصيب للعبد فيها .

وكثيرًا ما كان يدندن حولها ، وأنه ليس إلا عبدًا بشرًا ، ولكن يميزه عن البشر جميعًا أنه يوحي إليه باصطفاء الله تعالى له بالرسالة . قال تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلَيّ أنما إلٰهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ [الكهف : ١١٣] .

كما أنه ﷺ حذر أمته من الوقوع في الغلو فيه بإنزاله مقام الألوهية التي لا حق له فيها . وفي هذا يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « وكان رسول الله ﷺ يحقق عبوديته لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح من دعوى الألوهية ، حتى قال له رجل : ما شاء الله وشئت . قال : (أجعلتني لله نِدًّا ؟! بل ما شاء الله وحده) [٣] ، وقال أيضا لأصحابه : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد بل قولوا ما شاء الله

---

(١) فتح الباري / جـ ١٢ – ص ١٤٩ .
(٢) مختصر الشمائل المحمدية / ص ١٧٥ .
(٣) أحمد / ١ – ٢١٤ .

ثم شاء محمد) [1] وقال : (لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا عليّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني) [2] وقال : (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [3] وقال : (إن مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) [4] » [5] أ.هـ .

(٣) وقال رسول الله ﷺ : « اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك دعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك ورسولك ، أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثليّ ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين » [6] .

ومما نلحظه من الأدلة السابقة هو تقدم العبودية على الرسالة كما في الحديث السابق : « وأنا محمد عبد ورسولك » ، وهو ما يحب ﷺ أن ينعت به وينادي فيقول : « إنما أنا عبد الله ورسوله » .

(٤) وكان كثيرًا ما ينعت نفسه بالعبودية ، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله تعالى عنه – قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله ، فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه ، فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر . وكان أبو بكر أعلمنا » [7] .

---

(١) بخاري / ك : إيمان – ب : لا يقول ما شاء الله وشئت .
، ابن ماجه / ك : كفارات – ب : النهي أن يقال ما شاء الله وشئت . (وصحيحه / ك رقم ١٧٢٠) .
(٢) أحمد / ٢ – ٣٦٧ ، أبو داود / ك : مناسك – ب : زيارة القبور .
(٣) الموطأ / ك : قصر الصلاة – ب : جامع الصلاة .
(٤) بخاري / ك : صلاة – ب : هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد .
(٥) الفتاوى / جـ ١ – ص ٦٦ .
(٦) أحمد / ٥ – ٣٠٩ ، صحيح الجامع / ح رقم ١٢٨٣ .
(٧) بخاري / ك : فضائل أصحاب النبي – ب : قوله ﷺ : « سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر » .
، مسلم / ك : فضائل أصحاب النبي – ب : قوله ﷺ : « إن أمنّ علي في صحبته وماله أبو بكر » .
(ومختصره / ح رقم ١٦٢٢) .

(٥) وكذلك في حديث الشفاعة الطويل عن أنس – رضي الله تعالى عنه – وفيه : أن الناس يذهبون إلى بعض الرسل تلو الآخر لطلب الشفاعة عند ربهم ليريحهم مما هم فيه يوم القيامة حتى يأتوا عيسى عليه السلام فيقول : « ولكن ائتوا محمدًا ﷺ عبدًا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. » الحديث [١] .

والمتتبع لأدعية الرسول ﷺ يجده يظهر عبوديته لله تعالى وتذلله إليه وافتقاره له سبحانه ، وكان يشتد ويلح في الدعاء حتى أشفق عليه أبو بكر – رضي الله تعالى عنه – ذات يوم – وهو يوم بدر – وقال : « يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك » [٢] .

فيضرب بذلك ﷺ أروع الأمثلة في الخضوع والتذلل والعبودية لله تعالى ، وهو أفضل الخلق أجمعين .

(٦) وعن كعب الأحبار [٣] – رضي الله تعالى عنه – يحكي عن التوراة قال : نجد مكتوبًا محمد رسول الله ، عبدي المختار ، لا فظ ولا غليظ ولا سخّاب بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة ... » الحديث [٤] .

وفي رواية عطاء بن يسار [٥] فيها : « حرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي » [٦] .

---

(١) بخاري / ك : التوحيد – ب : قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ .

(٢) سيأتي بتمامه بعد قليل .

(٣) هو : كعب بن ماتع الحميري ، أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار ، ثقة ، مخضرم كان من أهل اليمن فسكن الشام ، مات في خلافة عثمان . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ١٣٥) .

(٤) سنن الدارمي / مقدمة – ب : صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه .
، (مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٧٧١) .

(٥) هو : عطاء بن يسار ، أبو محمد ، مولى ميمونة ، ثقة فاضل ، صاحب مواعظ وعبادة ، مات سنة ٩٤ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٢) .

(٦) المصدر السابق برقم (٤) ، (والمشكاة / برقم ٥٧٥٢) .

(٧) ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام وتحققه لمقام العبودية ، أنه قد خُيِّر بين النبوة مع العبودية ، وبين النبوة مع الملك . بأن يكون نبيا عبدًا أو نبيا ملكا . وكلاهما يكون مجزيا بالجنة . فاختار النبوة مع العبودية .

وأنه لو أراد الجبال أن تسير معه لكانت كذلك ، بل هذه الجبال ليست كالجبال التي كانت تسبح مع نبي الله داود عليه السلام ، بل هي جبال الذهب . ومع ذلك اختار ﷺ أن يكون نبيًّا عبدًا . فعن عائشة – رضي الله تعالى عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة لو شِئتُ لسارت معي جبال الذهب ، جاءني ملك وإن حجزته [1] لتساوي الكعبة ، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول : إن شئت نبيا عبدا ، وإن شئت نبيا ملكا ، فنظرت إلى جبريل عليه السلام ، فأشار إليّ أن ضع نفسك » . وفي رواية ابن عباس – رضي الله تعالى عنه – : « فالتفت إلى رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له ، فأشار جبريل عليه السلام بيده أن تواضع » . فقلت : « نبيا عبدًا » [2] .

ثانياً : قيامه ﷺ بالعبودية

كان رسول الله ﷺ مع ما أكرمه الله تعالى به من النبوة والاصطفاء والأفضلية على الخلق أجمعين وغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر . أعظم الناس اجتهادًا في العبادة ، وحرصا عليها ، فكان خير قدوة لأمته من بعده إلى قيام الساعة . فيدلهم على الخير وهو أولهم في إتيانه ، وعلى أكمل صوره ، وكان يحرص ﷺ على الطاعات المندوبة والمستحبة كحرصه على الواجبات ، مع أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ليكون بذلك محققا عبوديته لله عز وجل ومعلما أتباعه من بعده ، فينغرس في نفوسهم وقلوبهم وجوارحهم ما يستحقه الله تعالى

---

(١) بضم الحاء ، وسكون الجيم ، معقد الإزار ، ومن السراويل موضع التكة .

(٢) مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٨٣٥ ، ٥٨٣٦ .

، شرح السنة / ك : الفضائل – ب : تواضعه ﷺ / جـ ١٣ – ص ٢٤٨ .

من عباده وأنهم مهما عملوا ، ما اسطاعوا أن يؤدوا حق الله تعالى عليهم . فالعبد الحقيقي الذي يستحق النسبة التشريفية إليه سبحانه بأن يكون « عبدًا لله تعالى » هو الذي يؤمن بعجزه عن أداء شكر المُنعِم . والله عز وجل يقبل عبده هذا ويقربه إليه ، كما يرضى عن شكره ، إذ العجز عن أداء شكر المُنعِم هو الشكر ذاته ، فقد آمن هذا العبد بعبوديته لله ، كما آمن بألوهية الله عز وجل . ومن خلال سيرة النبي ﷺ العطرة نجد هذا جليا ، ونحن هنا سوف نتناول بمشيئة الله تعالى ما يظهر ذلك في أقواله وأفعاله وسرد الأدلة على ذلك مع الاكتفاء بذكر القليل منها ويؤدي الغرض ، ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة كتب السيرة النبوية ، وكتب الصحاح والسنن فيما ذكر عن فضائله ومناقبه ﷺ .

أ - قيامه ﷺ بالعبودية القولية :

(١) الدعـــاء :

كان ﷺ يناجي ربه سبحانه ويدعوه ويلجأ إليه في أموره كلها ، وكانت تشتد مناشدته لله عز وجل في وقت المحن والشدائد ، حتى يشفق عليه مَنْ يراه في حالة دعائه . فعن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنهما - أنه لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر ، فاستقبل القبلة ، فركع ركعتين ، ثم مد يده رافعها إلى السماء فلم يزل يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، يقول : « اللهم لا تودع مني ، اللهم لا تخذلني ، اللهم أنشدك ما وعدتني ، اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض » فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه فقال : يا نبي الله حسبك ، قد ألححت على ربك ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم** ﴾ فأمده الله تعالى

بالملائكة » [1] .

ويعتبر هذا الموقف من أعظم المواقف في حياته عليه الصلاة والسلام في الالتجاء إلى الله عز وجل بإلحاح الدعاء إليه سبحانه ، وكما قال ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - : « ما سمعنا مناشدًا ينشد ضالة أشد مناشدة من محمد لربه يوم بدر : اللهم إني أنشدك ما وعدتني » [2] .

وكانت شدة مناجاته لربه هذه ليست لمصلحة دنيوية ، كحفظ ملك له أو خوفًا من ضياع عرش الرئاسة ، إنما كانت خوفا على أن لا يعبد الله تعالى في الأرض بهلاك أهل الإسلام ، فقال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض » .

يقول ابن حجر - رحمه الله تعالى : « وإنما قال ذلك لأنه علم أنه خاتم النبيين ، فلو هلك هو ومَنْ معه حينئذ لم يبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان ، ولاستمر المشركون يعبدون غير الله » [3] .

وكانت هذه المناشدة تربية لأصحابه ولمَنْ بعده وعونًا لمَنْ كان معه في هذا الموقف فتطمئن قلوبهم ولا يجزعوا . كما قال النووي - رحمه الله تعالى - : قال العلماء هذه المناشدة إنما فعلها ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه مع أن الدعاء عبادة » [4] .

---

(١) هذا محصل الأحاديث التي رويت في هذه الحادثة بألفاظها المختلفة من :
البخاري / ك : المغازي - ب : قول الله تعالى : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم** ﴾.
مسلم : ك / الهجرة والمغازي - ب : في الإمدادات بالملائكة وفداء الأسارى وتحليل الغنيمة .
(ومختصره / ح رقم ١١٥٨) .
ترمذي / ك : تفسير القرآن - ب : سورة الأنفال . (وصحيحه / ح رقم ٢٤٦١) .
، أحمد / ١ - ٣٠ ، ٣٢ .

(٢) نقله الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الفتح / جـ ٧ - ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) شرح صحيح مسلم - للنووي / جـ ١٢ - ص ٨٥ .

الاستغفـار :

كان ﷺ كثير الاستغفار ، يرى في نفسه التقصير في جنب الله تعالى فيسأله أن يعفو عنه في ذلك وفي غيره . وهو قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكنه مع ذلك يقول : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (١) . فإذا كانت حاله ﷺ من الاستغفار كل يوم كذلك ! فماذا يجب علينا تجاه ربنا عز وجل من تقصيرنا وتفريطنا وكثرة ذنوبنا ومعاصينا ؟! وإن مما يستدعي التنبيه عليه أنه ﷺ كان يفعل ذلك ليس من وقوع المعاصي ، فهو وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين معصومون من الكبائر والصغائر (٢) ، ولكن الأمر هو شعورهم الدائم بالتقصير في جنب الله تعالى في أداء ما يستحق من العبادة والثناء والشكر . وهو يدل في الوقت نفسه على عظم علمهم بالله تعالى لأن الترقي في العلم بالله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله يستلزم المعرفة التامة بما يستحق من العبادة ، كما يستلزم إدراك أن العبد عاجز عن القيام بعبادته حق القيام .

نقل الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – كلامًا طيبا في هذا ما نصه : « الأنبياء أشد الناس اجتهادًا في العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة ، فهم دائبون في شكره معترفون له بالتقصير وأن الاستغفار من التقصير في أداء الحق الذي يجب لله تعالى » (٣) .

أي أن استغفار الأنبياء – عليه السلام – واقع من العجز في أداء حق الله تعالى كما ينبغي لعظمته ، وأما الاستغفار الواقع من عامة العباد ، فهو استغفار من الذنوب والمعاصي معًا .

---

(١) بخاري / ك : الدعوات – ب : استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة . عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – .

(٢) وقيل : إنهم غير معصومين من الصغائر .

راجع هذه المسألة في مجموع الفتاوى لابن تيمية : جـ ٤ – ص ٣١٩ ، جـ ١٠ – ص ٢٨٩ ، جـ ١٥ – ص ١٤٨ .

(٣) فتح الباري / جـ ١١ – ص ١٠١ ، ١٠٢ – بتصرف – .

ب - العبودية الفعلية :

وهي تشمل ما قام به عليه الصلاة والسلام من الأعمال الظاهرة والباطنة لإظهار عبوديته تجاه ربه سبحانه .

القسم الأول : الأعمال الظاهرة :

ويقصد بها أعمال الجوارح . ومنها :

(١) الصلاة :

كانت الصلاة هي أعظم مذكر بالله تعالى وأحبه إلى النبي ﷺ .

أما عظمها فلقوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] . ولقوله عليه الصلاة والسلام : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح له سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله » [١] .

ولأنها فرضت على الأمة من غير واسطة ملك ، ولأنه لا يعذر عن القيام بها لمرض أو قتال .

وأما حبه عليه الصلاة والسلام لها . فلفزعه إليها في جميع أحواله ، وكان يحنّ إلى الصلاة ويتحينها فلا يهدأ له بال ، ولا يقر له قرار حتى يُقبل عليها ، فيقول لمؤذنه : « أرحنا بها يا بلال » [٢] . ويقول : « وجعل قرة عيني في الصلاة » [٣] وكأنه فيها - أي الصلاة - الراحة من كل هّم ، والمخرج من كل غم .

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ٢٥٧١ ، السلسلة الصحيحة / ح رقم ١٣٥٨ .
(٢) أبو داود / ك : الأدب - ب : في صلاة العتمة .
(٣) النسائي / ك : عشرة النساء - ب : حب النساء ، أحمد / ٣ - ١٢٨ .

وكان في صلاته عليه الصلاة والسلام أشد الناس انكسارًا لله تعالى وافتقاراً إليه ، يقف بين يدي ربه جل وعلا وكأن ذنوب البشر كلها فوقه ، يتضرع إليه سبحانه ، يتفكر في آيات الله تعالى المتلوة فما يمر بآية فيها ذكر للجنة إلا ويسأل الله تعالى فيها أن يعطيه إياها ، وما من آية فيها ذكر للنار إلا ويسأل النجاة منها ومن عذابها ، وهو بين هذا وذاك في بكاء شديد ، يسمعه مَنْ وراءه فيصفه أحدهم وهو عبد الله بن الشخير [١] - رضي الله تعالى عنه - فيقول : « أتيت رسول الله ﷺ ، وهو يصلي ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل [٢] من البكاء » [٣] .

كما يطيل ﷺ القيام والركوع والسجود . يريد بذلك كله أن يكون عبدًا شكورًا لله عز وجل على ما أنعم به عليه ، فعن المغيرة بن شعبة [٤] ، وعائشة - رضي الله تعالى عنهما - أنه ﷺ صلَّى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » [٥] . فعباد الله المصطفون هم الذين يأخذون على أنفسهم الاجتهاد في العبادة ولو كلفهم ذلك ضرر أبدانهم وانقطاع ملذاتهم .

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - تعليقًا على الحديث : « وفيه ما كان النبي ﷺ عليه من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه ، قال العلماء : إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم ، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها ، فبذلوا مجهودهم في عبادته حتى يؤدوا بعض شكره ،

---

(١) هو : عبد الله بن الشخير بن عوف العامري ، صحابي ، من مسلمة الفتح .
(تقريب التهذيب / مجلد ١ ص ٤٢٢) .
(٢) أي غليان كغليان القدر ، وهذا دليلٍ على كمال خوفه ﷺ ربه تعالى .
(٣) أبو داود / ك : الصلاة - ب : البكاء في الصلاة .
(٤) هو : المغيرة بن شعبة بن مسعود بن معتب الثقفي ، صحابي مشهور ، أسلم قبل الحديبية وولي إمرة البصرة ثم الكوفة ، مات سنة ٥٠ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ - ص ٢٦٩) .
(٥) بخاري / ك : التهجد - ب : قيام النبي ﷺ الليل .

مع أن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد » [١] أ.هـ .

وهو بذلك يكون ﷺ لأمته القدوة الحسنة والمثال الأعلى والأكمل لشكر الله تعالى على عظم نعمته ، فهو ﷺ إذا كان يفعل هذا مع علمه بمغفرة الله تعالى له فما بالنا نحن ؟! وفي هذا المعنى ينقل ابن حجر - رحمه الله تعالى - كلامًا عن فعل النبي ﷺ ما نصه : « في هذا الحديث أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة وإن أضر ذلك ببدنه لأنه ﷺ إذا فعل ذلك مع علمه بما سبق له ، فكيف بمن لم يعلم بذلك فضلا عمن لم يأمن أنه استحق النار » [٢] أ.هـ .

وأما عن بكائه ﷺ في الصلاة ، فقد قدمت مختصرًا في هذا حديث عبد الله ابن الشخير - رضي الله تعالى عنه - سابقًا ، وها أنا أقدم حديث عبد الله بن عمرو [٣] - رضي الله تعالى عنه - حيث يقول : انكسفت الشمس يومًا على عهد رسول الله ﷺ فقام رسول الله ﷺ يصلي فلم يكد أن يسجد ، ثم سجد ، فلم يكد أن يرفع رأسه فجعل ينفخ ويبكي ويقول : « ربَ ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم ؟ رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ، ونحن نستغفرك » فلما صلَّى ركعتين انجلت الشمس ، فقام فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا انكسفا فافزعوا إلى ذكر الله » [٤] .

(٢) الصـــوم :

وأما عن صومه عليه الصلاة والسلام فكان يكثر منه ، غير الشهر المفروض . فكان في رمضان يحيي لياليه ويكثر من أعمال الخير فيه . وأما في غير رمضان

---

(١) فتح الباري / جـ ٣ - ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سبقت ترجمته ص ١٠٠ .

(٤) أبو داود / ك : الاستسقاء - ب : من قال يركع ركعتين .

فكان حاله كما وصفها ابن عباس – رضي الله تعالى عنه – : « كان النبي ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر منه ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم منه ، وما صام شهرًا كاملا منذ قدم المدينة إلا رمضان » [(١)] .

وكان ﷺ يحرص على صيام الاثنين والخميس حيث تُعَرض الأعمال فيهما ، فكان يحب أن تُعَرض أعماله عليه السلام وهو صائم . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن النبي ﷺ قال : « تُعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم » [(٢)] .

(٣) الحـــج :

وعن حجه عليه الصلاة والسلام ، فكان يسأل ربه سبحانه أن يجعل حجه خالصًا لوجهه الكريم ، لا إشراك فيه ولا رياء ، ويقول في التلبية التي مضمونها التوحيد الخالص : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك » [(٣)] .

وكان يتحرى الدعاء في الأماكن المقدسة من الحج ويلح في الدعاء فيها . كعرفة والمشعر الحرام وغيرها [(٤)] . فيمكث في عرفة من الزوال حتى غروب الشمس ، رافعًا يديه إلى السماء ، حتى يظهر بياض إبطيه . ويكثر من قول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » ، حيث يظهر عليه الصلاة والسلام براءته من الشرك ، وإيمانه بالله تعالى وألوهيته على العالمين ، كما يظهر عبوديته لخالقه بافتقاره إليه سبحانه .

---

(١) بخاري / ك : الصوم – ب : ما يذكر من صوم النبي ﷺ وإفطاره .
(٢) ترمذي / ك : الصوم – ب : صوم يوم الإثنين والخميس . (وصحيحه / ح رقم ٥٩٦) .
(٣) مسلم / ك : الحج – ب : التلبية . (ومختصره / ح رقم ٦٦١) .
(٤) أي وغيرها من الأماكن المشروعة .

(٤) تحطيم الأصنام :

فكما أن إبراهيم عليه السلام حطم الأصنام ، كما أخبر الله تعالى عنه بذلك فقال : ﴿ **فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾ [الصافات : ٩١ - ٩٣] .

فكذلك رسول الله ﷺ في فتح مكة جاء إلى البيت الحرام ، وطاف به وكان حوله ثلاثمائة وستين صنما ، فجعل يطعنها بقوس في يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا ، وما يبديء الباطل وما يعيد » [١] والأصنام تتساقط على وجوهها ، وأمر بالصور والتماثيل التي كانت في الكعبة فكسرت .

ومما هو جدير بالذكر في فتح مكة ويدل على خضوعه عليه السلام وعدم استعلائه أنه ﷺ دخل مكة وهو يومئذ منتصر فاتح . خاشعًا متواضعًا ، لا دخول الفاتح المتعال ، فدخل مكة وهو واضع رأسه تواضعًا لله عز وجل حين رأى ما منَّ الله تعالى به عليه من الفتح العظيم ، حتى إن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل وهو يردد سورة الفتح [٢] .

(٥) جهاده :

فقد غزا ﷺ تسع عشرة غزوة [٣] ، وكان يقاتل ويتقدم الصفوف ويجاهد لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله ، وإذا اشتدت المعركة تقدم أصحابه واحتموا به ، وشارك في القتال . يقاتل بسيفه وقلبه متعلق بربه سبحانه بالدعاء والتوجه إليه ، بالصبر والثبات والنصر القريب له ولأصحابه ، كما في غزوة أُحد ، وكذلك يوم حنين حيث تقدم ﷺ فطفق يركز بغلته قِبَل

---

(١) بخاري / ك : المغازي - ب : أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق - باب حجة الوداع .

الكفار وهو يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » ثم نزل ﷺ فاستنصر ربه قائلا : « الله أنزل نصرك » فما هي إلا ساعات قلائل حتى انهزم العدو [1] . فكان عليه الصلاة والسلام مثالا للشجاعة والإقدام والتضحية .

القسم الثاني : الأعمال الباطنة

ويقصد بها أعمال القلوب ، من الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر والقضاء والقدر والموت والبعث والجزاء والجنة والنار ، والإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله . كما تشمل التوكل على الله تعالى والاعتصام به والإنابة إليه والاستغاثة به ، والصبر على بلائه .. إلى غير ذلك من الأعمال التي ينعقد القلب بها ، وهي في جملتها كان ﷺ محققا لها ، قائما بها على أتم وأكمل وجه كما يظهر من سيرته عليه الصلاة والسلام من أفعاله وأقواله ، والتي أصبحت فيما بعد نبراسًا لأمته من بعده إلى يوم القيامة ، كما استفاد من بعضها علماء أهل السنة والجماعة في إثبات ما يستحق لله تعالى من أسماء وصفات وأفعال ، ونفي ما لا يجوز في حقه سبحانه في الرد على أهل البدع والأهواء الذين حرفوا النصوص الشرعية وأولوها وأثبتوا لله تعالى ما لا يجوز ، كما نفوا عنه سبحانه ما يستحق ، فضلوا وأضلوا ، وخرجوا بذلك عن الجادة – تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا – .

ثالثا : قيامه ﷺ بدعوة قومه

لما علم ﷺ بنبوته واصطفائه وإرساله إلى الثقلين ، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين . قام يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده ، وترك عبادة الأوثان ، وبدأ

(١) وانظر التفصيل لهذه الغزوة : (سيرة ابن هشام / جـ ٢ – من ص ٣٨٩) ، (زاد المعاد / جـ ٢ – من ص ١٦٠) ، (فتح الباري / جـ ٧ ، جـ ٨) ، (الرحيق المختوم / ص ٤١٥) .

بذلك سرا ، فآمن به قليلون ، فمضى على ذلك ثلاث سنوات ، ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه فقال تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ [الحجر : ٩٤] . وقال : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

فخرج عليه الصلاة والسلام على جبل « الصفا » ونادى أهل مكة مبتدئًا بعشيرته ، وأعلن لهم جهارا بنبوته ، بأنه نذير ورسول من رب العالمين ، كما أعلمهم بدعوته . فعاداه قومه وآذوه وأصحابه ، واشتد غضبهم على مَنْ أسلم فأخذوا يعذبون المسلمين بالضرب والتجويع .

فكان ينزل الوحي بتثبيت النبي ﷺ وأصحابه ويحثهم على الصبر ، كما يبشرهم بوعد الله تعالى بالتمكين لهم في الأرض وإظهار دينه ولو كره الكافرون ، فتمت كلمة ربك صدقًا وعدلا ، ولا مبدل لحكمه سبحانه ، فأظهر دينه ونصر عبده ومكَّن عباده المؤمنين لخلافة الأرض ، وقدَّم الرسول ﷺ وأصحابه أرواحهم وأموالهم في سبيل الله تعالى وجاهدوا لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فقام بدعوة القبائل ، واستقبل الوفود وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، كما دعا الملوك والرؤساء مستعينًا بالله تعالى في ذلك ، باللسان وبالكتابة إليهم ، وبالسيف ، واستطاع بفضل الله تعالى أن يزيل الشرك من جزيرة العرب ويجلي المشركين عنها .

وكانت بعثته كلها رحمة للعالمين جميعًا ، كما شهد الله عز وجل له بذلك ، فقال : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

فكان من رحمته أنه ﷺ في فتح مكة عفا وصفح عن المجرمين والطغاة ، وهو في موقف المنتصر المتمكن من أن يفعل بهم ما يشاء ، وكانوا يستحقون كل تقتيل وتشريد وتعذيب حيث آذوه في دعوته بأيديهم وألسنتهم في أشعارهم ، وفعلوا به الأفاعيل ، فكانوا واثقين من تنكيل النبي ﷺ بهم في هذا الموقف ، ولكنه أعلنها صراحة وبكل قوة ورحمة بأنهم طلقاء أحرار . فما أن سمع المشركون

ورؤساؤهم هذا ، حتى أسلم الكثيرون منهم لما وجدوا من هذه الرحمة المهداة التي لا تعرف للحقد سبيلا ولا للانتقام طريقًا .

المبحث الرابع
عبودية أتباع الرسل

قدمنا في المبحثين السابقين القمة في تحقيق العبودية لله تعالى من صفوة البشر الذين اصطفاهم الله عز وجل بالرسالة والنبوة . فقاموا بعبوديتهم تجاه ربهم ، وأدوا ما يستحق خالقهم من عبادة . وهذا ليس بمستغرب فيمن عصمهم الله تعالى . ولكن الذي يدعونا إلى العجب هو أن يأتي أقوام من بين يدي الرسل ومن بعدهم ، يقومون بعبوديتهم لله عز وجل على درجة عالية تدنو مرتبة الأنبياء ، كعمر بن الخطاب أحد أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . فعن عقبة بن عامر [1] – رضي الله تعالى عنه – قال : قال النبي ﷺ : « لو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخطاب » [2] . فأيّد الله تعالى بهؤلاء الأتباع رسله وأعز بهم دينه ، فكانوا قدوة لغيرهم ممن جاء بعدهم ، فقد اقتفوا آثار رسلهم ، واتبعوا النور الذي جاءت به رسلهم من عند الله تعالى ، فلم يغيروا ولم يبدلوا ، فكانوا متبعين نهج رسلهم دون بخس ولا شطط .

فحري بنا أن ندرس شيئا عن بعض أتباع الرسل بما يظهر عبوديتهم لله تعالى ، ونستعرض بمشيئة الله تعالى نماذج من هؤلاء الأتباع حسب التسلسل الزمني بشيء من الإيجاز .

---

(١) هو : عقبة بن عامر الجهني ، صحابي مشهور ، أبو حماد ، ولي إمرة مصر لمعاوية ، وكان فقيها فاضلا ، مات قرب الستين . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٧) .

(٢) ترمذي / مناقب – مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – . (وصحيحه / ح رقم ٢٩٠٩) .

مؤمن آل فرعون

كان هذا الرجل من حاشية فرعون المقربين إليه ، آمن بما جاء به نبي الله موسى عليه السلام لما رأى البينات على صدق دعواه ، فكتم إيمانه بالله عز وجل وحده خوفًا من بطش فرعون . فتحرك إيمانه حين سمع من فرعون عزمه على قتل موسى عليه السلام ، فقال تعالى مخبرًا عن قول فرعون : ﴿ **ذرونى أقتل موسى وليدع ربه** ﴾ [غافر : ٣٥] ، فخاف هذا الرجل على موسى عليه السلام أن يُقتَل فخاطب فرعون وحاشيته بمنطق العقل : ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربّى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذِى يعدكم** ﴾ [غافر : ٢٨] . ثم أخبر هذا الرجل الصالح قوم فرعون وحذرهم بأس الله تعالى أن يقع بهم بتكذيبهم موسى عليه السلام ، وما يحل عليهم من سخطه سبحانه من عذاب في الدنيا والآخرة . ولكنهم استكبروا عن قول الحق ، فأفصح لهم بخطاب مبين يدل على إيمانه بالله تعالى وباليوم الآخر وبرسل الله تعالى وذكرهم بأيام الله تعالى في الأمم السابقة من قوم نوح وهود وصالح عليهم السلام . فقال تعالى : ﴿ **وقالِ الذِى آمن يا قوم إنّى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد * ويا قوم إنّى أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾

[غافر : ٣٠ - ٣٤] .

ولكن فرعون وقومه ما زادهم ذلك إلا استكبارًا واستهزاء ، فآمن هذا الرجل الصالح بالله تعالى ووقر الإيمان في قلبه فأخضع نفسه لله عز وجل ، فتحرر من عبودية من سواه مهما كان بطشه وجبروته .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - : « وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة

بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد ، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية وحذرهم عذاب الآخرة ، وبيَّن لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان : ﴿ **وقال الذِى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هِىَ دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزَى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * ويا قوم ما لِى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننِى إلى النار * تدعوننِى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لِى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أنما تدعوننِى إليه ليس له دعوة فِى الدنيا ولا فِى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرِى إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ [غافر : ٣٨ - ٤٤] [(١)] .

حقائق التوحيد كلها يسردها الرجل المؤمن ويجهر بها مواجهًا بذلك فرعون الطاغية وحاشيته معلنًا كلمة الحق التي انفجرت بعد كتمان طال وقته ، وظلم استمر ليله . فيتبرأ من الكفر وأهله ويعاديهم كما يوجه أنظارهم إلى أن الدعوة إلى الإشراك بالله تعالى هي الدعوة إلى النار وأن إفراد الله تعالى بالعبادة دون غيره هي النجاة الحقيقية . فكانت كلماته مدوية لها تأثيرها في القلوب المؤمنة لا القلوب المتكبرة عن قبول الحق وأعمتها المناصب والشهوات . ولكن الحقيقة التي سوف يعلمها الجميع هي أنهم سيقفون بين يدي العلي الجبار في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتَى الله بقلب سليم وهم يتذكرون قول هذا الرجل الصالح ويذكرهم بها فمَنْ آمن به أفلح ، ومَنْ أعرض فقد خسر الدارين . فيقول لهم ختامًا لكلماته : ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرِى إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾ [غافر : ٤٤] .

---

(١) في ظلال القرآن / جـ ٥ - ص ٣٠٨٢ .

امرأة فرعون

وهي آسية بنت مزاحم . إحدى النساء اللاتي كملن ، كما جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري [1] - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران » [2] . آمنت بما جاء به موسى عليه السلام ورأت الآيات على صدقه وصدق دعوته وعرفته عن كثب ، حيث تربَّى في كنفها ، ولم تجرب عليه كذبًا ، فصدها فرعون عن عبادة إله موسى عليه السلام وغضب غضبًا شديدًا أن اتخذت إلها غيره ، وعذبها على إيمانها برب العالمين . فهددها وخيَّرها بين الموت وبين الكفر برب موسى عليه السلام ، ولكنها أصرت على الإيمان بالله وحده ، فتحررت من عبودية فرعون . فألقى الله تعالى في قلبها الثبات والصبر على صنيع فرعون وجنوده فقال تعالى مخبرًا عنها : ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لِي عندك بيتا فِي الجنة ونجنِي من فرعون وعمله ونجنِي من القوم الظالمين** ﴾ [التحريم : ١١] . فأجاب الله تعالى دعاءها وأخذ روحها إلى الرفيق الأعلى ، فاختارت الجار قبل الدار - كما يقول العلماء - [3] .

ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - بعض فضائل آسية بنت مزاحم فقال : « ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه . وكانت فراستها في موسى عليه السلام صادقة حين قالت : ﴿ **قرة عين لِي** ﴾ [4] أ.هـ .

---

(١) هو : عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار ، صحابي مشهور ، أحد الحكمين بصفين ، مات سنة ٥٠ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ - ص ٤٤١) .

(٢) بخاري / ك : الأنبياء - ب : قول الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون** ﴾ .
، مسلم / ك : فضائل الصحابة - ب : فضل عائشة زوج النبي - رضي الله تعالى عنها - .
(ومختصره / ح رقم ١٦٦٧) .

(٣) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٤ - ص ٣٩٤ .

(٤) فتح الباري / جـ ٦ - ص ٤٤٨ .

فكانت امرأة مؤمنة حقًّا . قد وقر الإيمان في قلبها و لم يمنعها أنها تحت وطأة زوج – وأي زوج – أن تسارع إلى الإيمان بالله تعالى وحده . إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (١) .

سحـرة فرعـون

استعان فرعون بهؤلاء السحرة لدحض موسى عليه السلام والآيات المعجزات التي جاء بها حيث فشا في أرجاء المدينة بأن موسى وأخاه هارون عليهما السلام ساحران يريدان إفساد المدينة وأهلها ، واستقرت هذه المفهومات لدى الناس جميعا ، ونجح فرعون وملؤه في ذلك بما قاموا به من حملة إعلامية واسعة النطاق (٢) .

ولكننا نقف برهة في هذا المقام ، فنقول إن العجب كل العجب أن يدعي فرعون الألوهية ثم يستعين بغيره في دحض موسى عليه السلام . إذ المعروف بداهة عند كل ذي لب ، أن الإله – إن كان حقًّا – صمد ، أي تصمد إليه الأفئدة وتفتقر إليه وهو يكون مستغنيا . فكان من المفروض أن يقوم فرعون بنفسه ليقابل التحدي من موسى عليه السلام ، ولكنه استعان بزمرة – ليس بواحد فقط – من السحرة ، بل ومن أعلم السحرة وأمهرهم . فكان هذا الافتقار إلى الغير كافيا لأن يدركه قوم فرعون منذ البداية وقبل لقاء التحدي ، فيؤمنوا بأن فرعون ليس بإله ، إذ هو فقير إلى غيره . وهذه من صفات العبودية . ولكن نظرًا لتسلط فرعون عليهم ، وكذلك سفاهتهم وخفة عقولهم (٣) لم يدركوا هذه الحقيقة .

---

(١) حديث صحيح – انظر صحيح الجامع / ح رقم ٧٣٩٦ .

(٢) هذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان في التشهير بأهل الحق والتقول عليهم كذبا وزورًا بما يملكون من وسائل الإعلام .

(٣) كما أخبر الله تعالى عنهم :

﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ [الزخرف : ٥٤] .

كانت خطة فرعون هي إلصاق تهمة السحر بموسى وهارون عليهما السلام ، فإن تحقق له ذلك فلا خوف على مُلكه وعرشه ، إذ الأمر سوف يكون بالنسبة للناس ما هو إلا سحر ، سواء غلب السحرة موسى عليه السلام فسحرهم أقوى من سحره ، أم غلب موسى عليه السلام فيكون سحره أقوى من سحرهم ، ولكن في الأولى له مكسب مضاعف وهو انتصاره على نبي الله موسى عليه السلام . فحرص فرعون كل الحرص على إبراز هذه التهمة للناس الذين يؤمنون بألوهيته ، حتى لا يتطرق إلى أذهانهم ما فوق السحر وهو الإعجاز الإلهي ، فيضيع مُلكه وتذهب هيبته وألوهيته الكاذبة فيتحرر الناس من عبوديته وأسره إلى عبودية الله تعالى وحده .

وهذا المعنى أكده الأستاذ سيد قطب – رحمه الله تعالى – بقوله : « وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر وأرادوا أن يغرقوا الجماهير بها ، بأن يعقدوا حلقة للسحر يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر في ظاهرها ، ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى عليه السلام ليس إلا ساحرًا ماهرًا ، وبذلك ينتهي الخطر الذي يخشونه على معتقداتهم الموروثة وعلى سلطانهم في الأرض ، وهو الأساس » [1] أ.هـ .

وقد غفل هو الآخر عن الحقيقة التي أسلفنا ذكرها من كونه استعان بغيره وهو دليل يكفي ابتداء على نفي ألوهيته ، ولكننا نستمر في أحداث القصة سريعًا لنرى ماذا حدث لهؤلاء السحرة ؟! .

اجتمع القوم جميعًا وعلى رأسهم إلههم المزعوم ، وجاءت السحرة ، وجاء موسى وأخوه هارون عليهما السلام ، والكل متحفز ومترقب لما سيحدث . ويكاد يكون فرعون وملؤه وأغلبية الناس على يقين من فوز السحرة ، وذلك لأمور منها :

---

(١) في ظلال القرآن / جـ ٣ – ص ١٨١٤ .

١ - كونهم كثرة أمام قلة .

٢ - كونهم من أمهر السحرة ، وعلى دراية بالسحر وعلومه ، وهذا يظهر من ألفاظ الكتاب الكريم عنهم : ﴿ **يأتوك بكل سحَّار عليم** ﴾ [الشعراء : ٣٧] .

« فسحَّار » صيغة مبالغة ، فكل واحد من السحرة ليس ساحرًا عالمًا فحسب بل هو سحَّار عليم ، وهذا يفيد بدلالة واضحة لا غبار عليها من أنهم كانوا من أمهر السحرة الموجودين في مدائن مصر .

فألقوا ما معهم من الحبال والعصي وأدوا جميع ما عندهم من أفاعيل السحر . وكان سحرهم عظيمًا أوقع في نفوس الجماهير المشاهدة أثرًا رهيبًا ، وهذا يظهر من قوله تعالى : ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ [الأعراف : ١١٦] . فوصفه الله تعالى بأنه سحر عظيم . حتى أخاف هذا السحر نبي الله موسى عليه السلام بعض الشيء ، ولكن سرعان ما ثبته الله تعالى فثبت لأنه على الحق المبين ، وأنه لا يفلح الساحر حيث أتى وأن الله سيبطل عملهم . قال تعالى : ﴿ **فأوجس فِي نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلَى** ﴾ [طه : ٦٧ ، ٦٨] .

ثم جاء دور موسى عليه السلام فألقى عصاه فإذا هي تبتلع جميع ما أحضرته السحرة من عصي وحبال و لم تبق منها شيئًا . فما أن رأى السحرة ذلك حتى أسلموا للإله الحق وردت عبوديتها إليه تعالى ، فهو الذين يستحق العبادة دون سواه ، إذ رأوا أن ما أتى به موسى عليه السلام ليس سحرًا ، لأنهم أعلم بفنون السحر وخفاياه من غيرهم وأنها معجزة إلهية جاءت لتأييد نبوة موسى وهارون عليهما السلام ، فآمنوا بأنه لا إله إلا الله وأن موسى وهارون رسولا رب العالمين . جاء هذا الإيمان دفعة واحدة وفي لحظة أو أقل لم يعد اللسان قادرًا على التعبير أو الإفصاح عنه وقتها ، فأفصح عنه فعلهم أن سجدوا لله تعالى رب العالمين . ثم انفك لسانهم وأعلن على الملأ للإله الباطل الطاغية أنهم آمنوا برب موسى وهارون . خضعت قلوبهم لله تعالى فتحررت من عبودية مَنْ سواه واستعلت على الباطل . قال تعالى : ﴿ **فألقِيَ السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون** ﴾ [الشعراء : ٤٦ - ٤٨] . فجنَّ فرعون . إذ وقع ما كان يحذر . وفلت الزمام من يديه ، فلم يضع في الحسبان مطلقًا

أن يؤمن السحرة بموسى عليه السلام . والأمر قد جرى أمام حشد من الناس . وقد كان في نفسه الخبيثة إلصاق تهمة السحر بموسى أمام الناس ، وفضحه أمامهم ، ولكن كما يقولون : « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها » !! .

فالأمر ليس مقصورًا على إيمان السحرة ، بل المشكلة هي الشعب كله يشاهد هذه الحقيقة التي حاول سترها وإخفاءها ألا وهي تحطيم الأسطورة التي يقوم عليها عرشه وهي ألوهيته . فحاول إدراك الموقف مع الشعب عامة ، ومع السحرة خاصة . فأما مع الشعب فقد حاول إقناعهم - أو خداعهم - بأن ما حدث هو محض اتفاقية بين موسى عليه السلام والسحرة في التآمر عليه وعلى الشعب ليخرجوهم من أرضهم . ولكن هيهات هيهات أن يدخل ذلك عقولهم بعدما رأوا الآيات أمام أعينهم . فليس المخبر كالمعاين [1] .

وأما مع السحرة فقد لجأ إلى التهديد بالتنكيل والتعذيب بهم ظانا منه أن ذلك قد يصرفهم عن إيمانهم بالله تعالى . قال تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فِي جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقَى** ﴾ [طه : ٧١] .

فيرد السحرة على هذه التهديدات بكل ثقة بالله تعالى ، وقد باعوا أنفسهم لله عز وجل ، فلا يعبئون بما يحدث لهم من التقتيل والتنكيل والتعذيب .

يقول الله تعالى عنهم : ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ [الشعراء : ٥٠] . ويقول : ﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذِى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضِى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقَى** ﴾ [طه : ٧٢ ، ٧٣] .

ثم يفصحون بكلمات تدل على إيمانهم الفوري بالله تعالى وبالجزاء والحساب واليوم الآخر والجنة والنار ، ويدل على إيمانهم بالله تعالى . فقال تعالى مخبراً

(١) حديث : انظر صحيح الجامع / برقم ٥٢٤٩ ، ومشكاة المصابيح / برقم ٥٧٣٨ .

عن قولهم : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيَى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلَى * جنات عدن تجرِى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكَّى** ﴾ [طه : ٧٤ - ٧٦] .

فهنيئًا لهؤلاء السحرة لما أعده الله تعالى لهم من رفع الدرجات ، بسبب إيمانهم بالله تعالى وتحررهم من عبودية مَنْ سواه . فقد آمنوا بالله رب العالمين وأسلموا له وحده وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة إلى الدخول في عبودية الله تعالى مخلصين له .

أصحـاب الكهـف

وهم الفتية الذين جاء ذكرهم في سورة الكهف . ونحن هنا لا شأن لنا بأسمائهم أو بعددهم ، أو تحديد القرية التي كانوا فيها ، أو اسم كلبهم ، أو اسم الكهف الذي كانوا فيه أو مدة مكثهم . إلى غير ذلك مما لا طائل تحته ولا فائدة ترجى منه ، والتي خاض فيها المفسرون والمؤرخون دون سند قطعي فيما ذهبوا إليه [1] .

ولكن ما يهمنا في بحثنا هو أنهم فتية آمنوا بربهم جل وعلا ، ورسخ الإيمان في قلوبهم . فزادهم الله تعالى إيمانا به وهدى ، وثبتهم على ما هم فيه من الحق المبين . قال تعالى : ﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدًى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السمٰوات والأرض لن ندعوَ من دونه إلٰها لقد قلنا إذا شططا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ [الكهف : ١٣ - ١٥] .

وكان قومهم يعبدون مع الله آلهة أخرى من الأصنام . فلم ترض قلوب الفتية الإشراك بالله عز وجل وأن ينازع الله أحد في ألوهيته كائنا من كان . فجمع

---

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٣ - ص ٧٥ .

الله تعالى هؤلاء الفتية على التوحيد الخالص والعبودية الحقة له ، إذ الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف [(١)] ، فاجتمعوا على إنكار الشرك الواقع فيه قومهم ، والإيمان بعبادة الله تعالى وحده .

قال تعالى : ﴿ **وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السمٰوات والأرض لن ندعوَ من دونه إلٰها لقد قلنا شططا** ﴾ [الكهف : ١٤] .

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « ولن لنفي التأبيد أي لا يقع منا هذا أبدا لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا ، ولهذا قال عنهم : ﴿ **لقد قلنا إذا شططا** ﴾ . أي باطلا وكذبا وبهتانًا » [(٢)] أ.هـ .

ثم قاموا بالعبودية الفعلية باعتزال [(٣)] قومهم والهروب والفرار بدينهم من الفتنة ، وهو المفروض شرعا عند وقوع الفتن فيفر العبد بدينه خوفًا عليه [(٤)] . قال تعالى : ﴿ **ففروا إلى الله إنّي لكم منه نذير مبين** ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

قال عز وجل مخبرًا عن أصحاب الكف : ﴿ **وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيّئ لكم من أمركم مرفقا** ﴾ [الكهف : ١٦] .

فهذه سنة الله تعالى في عباده الذين يلوذون به ويلتجئون إليه ، ولا مناص لهم إلا إليه فيسلمون أمرهم إليه سبحانه ، فيظهرون بذلك عبوديتهم التامة عز وجل فيشملهم الله تعالى برعايته ويكنفهم برحمته ، ويمكّن لهم دينه ويستخلفهم في الأرض . يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله تعالى – : « قصة أصحاب الكهف ، تعرض نموذجًا للإيمان في النفوس المؤمنة ، كيف تطمئن به ، وتؤثره

---

(١) حديث البخاري / ك : الأنبياء – ب : الأرواح جنود مجندة .
(عن عائشة – رضي الله تعالى عنها –) .
(٢) تفسير القرآن العظيم / جـ ٣ – ص ٧٤ .
(٣) هذه العزلة والخلوة مشروعة بالاتفاق بخلاف ما يفعله بعض المبتدعة من الصوفية بالاعتزال إلى الأماكن المهجورة كالكهوف والمقابر ولهذا يحصل لهم أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية .
(راجع : الفتاوى لابن تيمية / جـ ١٠ – ص ٤٠٤ – ص ٤٠٦) .
(٤) راجع : تفسير القرآن العظيم / جـ ٣ – ص ٧٤ .

على زينة الأرض ومتاعها ؛ وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس ، وكيف يرعى الله تعالى هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ، ويشملها بالرحمة » [1] أ.هـ .

الغلام وأصحاب الأخدود

في هذه القصة ، قدَّم أصحابها أروع الأمثلة في التضحية والفداء ، والاستعلاء على الباطل ، والخضوع التام لله عز وجل وعدم الخوف إلا منه سبحانه ، والقصة قد ذكرها مسلم في صحيحه وغيره [2] ، والذي يهمنا منها . هو مواقف الأفراد الذين ذكروا فيها وهم :

١ - الغلام :

فقد أرسله أهله لتعلم السحر والكهانة على يد كاهن الملك بأمر من الملك ، ولكن منَّ الله تعالى على الغلام بالهداية على يد الراهب ، وأيقن أن ما يقوله الراهب أفضل بكثير من تعلم السحر والكهانة التي يتعلمها من الكاهن . واستقر ذلك في نفسه أكثر حين قتل الدابة العظيمة التي اعترضت طريق الناس بحجرة ألقاها إليها . فقال : « اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس » فرماها فقتلها .

ثم أخذ الغلام في الدعوة إلى عبادة الله وحده . فآمن به جليس الملك ، وكان أعمى ، ورد الله تعالى عليه بصره بدعوة الغلام إياها ، فكان ذلك سببا في إعلام الملك بأمر الراهب والغلام .

فلما علم الملك بإيمان الغلام بإله غيره أراد قتله وصرفه عن الإيمان . ولكن

---

(١) في ظلال القرآن / جـ ٤ - ص ٢٢٦٠ ، ٢٢٦١ .

(٢) مسلم / ك : زهد - ب : في الصبر على الدين عند الابتلاء وقصة أصحاب الأخدود . (ومختصره / ح رقم ٢٠٩٣) .
ترمذي : ك : تفسير القرآن - ب : سورة البروج . (وصحيحه / ح رقم ٢٦٦١) .

الغلام ثبت على الحق وباءت محاولات قتل الملك للغلام بالفشل ، وهي تدل على عجزه ونفي ألوهيته ، حيث أمر بإغراق الغلام في البحر فدعا الغلام الله تعالى فنجاه ، ثم عاد إلى الملك ، ثم أمر بأن يُلقى من جبل شاهق ، فدعا الله تعالى فنجاه . فلما عجز الملك عن قتله ، وقد أيقن الغلام أن الملك حريص على قتله ، فكر الغلام في أمر عظيم تتم به مصالح عدة أهمها إيمان الناس بالله تعالى وحده وترك عبادة الملك الطاغية . فقال للملك : « إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . فقال الملك : وما هو ؟ » . وعجب بأن يزعم الملك بأنه إله يُعبَد . ثم يسمع كلام الغلام ويفعل ما يأمره به . فلا يدري مَنْ الآمر ومَنْ المأمور . ولكن ما يشغل بال الملك هو قتل الغلام لا غير . فقال الغلام للملك : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمني فإنك إن فعلت ذلك قتلتني .

فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهمًا من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال الملك : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فمات . ففعل الملك كل ما أشار عليه الغلام بفعله وقوله . ولم يع ما قال ألبتة حيث أهمه ما فعل ، وهو قتله . فرجع إلى وزرائه فقال لهم : لقد تم ما كنت أريد !

فقالوا له : لقد وقع ما كنت تحذر !! فقد آمن الناس جميعا وقالوا : آمنا برب الغلام . آمنا برب الغلام . آمنا برب الغلام .

وهكذا . قدَّم الغلام نفسه فداء لله عز وجل ليؤمن الناس برب العالمين .

٢ - النـاس :

إن قتل الغلام في المرة الأخيرة مع العجز الحاصل في المرات السابقة ، وحصول قتله بقول الملك : بسم الله رب الغلام ، هو الذي كان آية للناس وسببا في إيمانهم بالله رب الغلام ، وإلا فقتل إنسان بسهم أمر معتاد ، فكان موقف

الناس واضحا حيث رأوا الآيات أمام أعينهم فآمنوا برب الغلام . وهو الله تعالى ، باعتراف مدعي الربوبية – وهو الملك – فوقر الإيمان في قلوبهم جميعا ، فأوقد الملك لهم النيران وشق أخدودًا كبيرًا في الأرض وأخذ يقذف فيه كل مَنْ يصر على الإيمان برب الغلام . وكان من بين الناس امرأة ومعها صبي لها . فتقاعست أن تقع في النار خوفًا على ابنها فقال لها الصبي : يا أمه اصبري فإنك على الحق . قال تعالى : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ [البروج : ٤ – ٨] .

٣ – الراهب وجليس الملك :

لما علم الملك بإيمان جليسه أخذ يعذبه حتى دلهم على الراهب فأتي بهما على مرأى ومسمع من الناس وأُمرا أن يرجعا عن دينهما فأبيا ، فوضع المئشار – المنشار – في مفرق رأس كل منهما فشق حتى وقع على شقاه فلم يصرفهما هذا العذاب والتهديد عن الرجوع عن دينهما وعن الإيمان بالله تعالى وحده . وهذه هي ثمرة الإيمان بالله تعالى وحده والعبودية له دون سواه فيمتلىء القلب خضوعا لله تعالى فيملأه الله تعالى عزا به على جميع الخلق ، ويكون صاحب هذا القلب قويا عزيزا لا يهاب أحدا . حتى وإن كان هزيلا ضعيفا في بدنه ، فقيرا لا يملك إلا قوت يومه أو أقل . ولكنه مع هذا قوي عزيز بالله تعالى غني به سبحانه . ينظر إلى الملوك والرؤساء نظرته إلى عامة الناس لا خوف منهم في قلبه ، إذ يؤمن بأنه لا عبودية إلا لله تعالى وحده ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فِى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [غافر : ٥١] ، وقال : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوىٌّ عزيز** ﴾ [الحج : ٤٠] .

رجل مؤمن من أصحاب القريـة [1]

قص الله تعالى علينا قصة أصحاب القرية الذين جاءتهم الرسل فكذبوهم بما جاءوا به من عبادة الله تعالى وحده وترك الإشراك به سبحانه . وكانت حجة تكذيبهم الرسل كما هي عادة الأمم السابقة عنهم والتالية لهم . هي أن الرسل بشر مثلهم ، ولو كانوا حقًّا رسل الله لكانوا ملائكة أو كانوا من صنف مغاير للبشر ، ثم يعتذرون بأنهم متبعون نهج آبائهم الأولين - وإن كان خطئا - ولا يريدون الحيدة عنه ، ثم يبدأون بعد ذلك بالسخرية من رسل الله تعالى والاستهزاء بهم ، وقذفهم بالكذب والسحر والجنون ، ثم تأتي مرحلة أخيرة وهي التهديد بالقتل أو المؤامرة على قتل رسل الله . وكأن هذه الخطوات مجمع عليها من قبل الكفرة والمشركين من بدء ظهور الشرك في قوم نوح عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكأنها وصية يتوارثها جيل بعد جيل ، يوصي بها الآباء أبناءهم . قال تعالى : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون** ﴾ [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣] . قال تعالى مخبرا عن هؤلاء القوم : ﴿ **واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيْءٍ إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ [يس : ١٣ - ١٩] .

ثم يأتي بعد ذلك دور رجل مؤمن ، هو موضوع حديثنا ، حيث آمن بما جاءت به رسل الله تعالى ووقر الإيمان في قلبه بعبوديته لله عز وجل وحده والتبرأ من الشرك به سبحانه ، فواجه قومه بقوة أمده الله تعالى بها ، كما أمده سبحانه

---

(١) ليس الغرض من البحث إثبات اسم القرية أهي أنطاكية أو غيرها ، أو إثبات من هم الرسل . أهم رسل الله تعالى أم هم رسل المسيح عليه السلام ، كما لا عبرة لنا بذكر أسمائهم أو اسم الرجل المؤمن ، وإنما العبرة في هذا الموقف الإيماني هو إظهار عبودية هذا الرجل المؤمن لله عز وجل .

بنصره المؤزر الذي وعد به عباده المؤمنين . إن هم نصروا دينه وأعلوا كلمته وأخلصوا عبوديته . فدعا هذا الرجل المؤمن قومه إلى الاستجابة لرسل الله تعالى ، وقبول ما يدعون إليه من التوحيد الخالص ، ونبذ الشرك مخاطبا إياهم بمنطق العقل والحكمة والترغيب في عبادة الله تعالى وحده والترهيب من الإشراك به سبحانه ، مبتدئا كلامه إليهم بالتعجب من صنيعهم بتكذيبهم الرسل . إذ ليس للرسل مصلحة سوى هداهم . فهم لم يدعوا إلى الفواحش والمنكرات ، كما أنهم لم يطلبوا أجرًا على دعوتهم إليهم ، وهذا هو محض العجب . فلما رأى منهم الإعراض والاستكبار ، أعلن عبوديته لله تعالى وحده والإيمان به سبحانه غير عابيء بما سيحدث له منهم . قال تعالى مخبرا عن هذا المشهد الإيماني : ﴿ **وجاء من أقصَى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * وما لِّيَ لا أعبد الذِى فطرنِى وإليه ترجعون * ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنِّى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * إنِّى آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومِى يعلمون * بما غفر لِى ربِّى وجعلنِى من المكرمين** ﴾ [يس : ٢٠ - ٢٧] .

فعجبا . لهذه القلوب التي ران عليها الكبر والتكذيب بالله تعالى ورسله ، استحقت عذاب ربها في الدنيا والآخرة . أما عن الدنيا فقد دمرهم الله تعالى بالصيحة فكان مصرعهم كما وصفه الله تعالى في قوله : ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾ [يس : ٢٨ ، ٢٩] . وأما في الآخرة فجزاؤهم النار كغيرهم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها وأعرض عن ذكره .

وهنيئًا لتلك القلوب المؤمنة التي فازت بالنعيم الأبدي في جنة عالية قد بشروا بها قبل بلوغها فزادت اطمئنانًا وثباتًا على ما هم عليه من الحق .

اللهم نسألك رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار .

أمثلة من الأمة المحمدية :

جدير بنا أن نذكر بعض أتباع النبي محمد ﷺ لبيان عبوديتهم لله تعالى ،

وكيف وصلوا إلى أعلى مراتب العبودية حيث – هم دون غيرهم من الأتباع – كانوا خير أمة أُخرجت للناس ، وسوف أقتصر على ذكر القليل منهم مع التنويه على بعض مواقفهم التي تظهر عبوديتهم لله تعالى .

أبو بكر الصديـق – رضي الله تعالى عنه –

هو أول مَنْ آمن من الرجال ، ورافق النبي ﷺ في الهجرة فكان ثاني اثنين إذ هما في الغار ، خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ ، وشهد المشاهد كلها واحتمل في سبيل الله تعالى الشدائد . فكان من مواقفه التي تظهر عبوديته لله تعالى :

(١) موقفه من الصدقة التي ندب إليها رسول الله ﷺ : حيث تصدق – رضي الله تعالى عنه – بكل ما عنده من متاع ومال ، وعنده من الزوجات والأولاد ما يجعل المرء يحرص عليهم دون غيرهم ، ولكن كانت نفس أبي بكر المؤمنة برزق الله تعالى لها أكثر إيمانًا ، فعن عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – قال : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، فوافق ذلك عندي مالا ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا ، قال : فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شيء أبدا » (١) .

فكان لهذا المال الذي تصدق به أبو بكر – رضي الله تعالى عنه – أكبر الأثر في انتفاع النبي ﷺ به ، ليس من كثرته ، ولكن للبركة التي أودعها الله تعالى فيه . وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ فقال : « ما نفعني مال قط ما نفعني مالِ أبي بكر » (٢) .

---

(١) ترمذي / ك : مناقب – ب : مناقب أبي بكر الصديق . (وصحيحه / ح رقم ٢٩٠٢) .
(٢) أحمد / ٢ – ٢٥٣ .

(٢) موقفه يوم وفاة النبي ﷺ حين شك بعض المسلمين في وفاة رسولهم وكان من بينهم عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهم - فقام أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - فخطب الناس فقال : « أما بعد .. فمَنْ كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] [1] .

فاستطاع أن يقطع حيرة الشاكين في موت رسول الله ﷺ بإعلانه - رضي الله تعالى عنه - أن العبودية لله تعالى وحده دون سواه وأن الرسول ما هو إلا مبلغ عن ربه عز وجل هذا الدين ، وقد أدى مهمة التبليغ على أكمل وجه وكمل الدين ، فصفة البقاء خاصة بالإله سبحانه ، فلا غرو أن يموت الرسول . إذ لم يكتب له - ولا لغيره - الخلود في الأرض . قال تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون** ﴾ [الأنبياء : ٣٤] .

عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

ثاني الخلفاء الراشدين ، جعل الله تعالى الحق على لسانه وقلبه [2] ، وأظهر به دينه . أيس الشيطان من النيل منه . كانت عبودية عمر من المكانة والمنزلة والدرجة العالية التي وصل إليها أن جعل الشيطان يفزع من عمر ويخاف ، ويهرب منه محاولا إيجاد فج آخر غير الذي يسلكه عمر . قال ﷺ : « إن الشيطان ليخاف منك يا عمر » [3] .

---

(١) بخاري / ك : جنائز - ب : الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه .

(٢) هذا نص حديث عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - .

رواه الترمذي / ك : مناقب - ب : مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب .

(وصحيحه / ح رقم ٢٩٠٨) .

(٣) المصدر نفسه : (وصحيحه / ح رقم ٢٩١٣) .

وعن عائشة – رضي الله تعالى عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرت من عمر » [١] . وقال ﷺ : « إيه يا ابن الخطاب ، فوالذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك » [٢] .

قال تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم** ﴾ [يس : ٦٠ ، ٦١] ..

فعمر – رضي الله تعالى عنه – اتبع الصراط المستقيم في عبادة الله تعالى وحده ، واتخذ الشيطان عدوا له ، حتى تمكن منه وانتصر عليه نصرًا مؤزرا لم يعد الشيطان بعد قادرًا على عمر ، بل أخذ يهرب منه ولا يقربه .

عباد بن بشر [٣] – رضي الله تعالى عنه –

هذا المجاهد العظيم كان حارسًا لمعسكر المسلمين مع رجل آخر ، فقام عباد ليصلي ، فأخذ يناجي ربه عز وجل ، حتى جاءته أسهم العدو واحد تلو الآخر ، وهو قائم يصلي وينزع السهم تلو السهم من صدره والدم ينزف ، وكأن لم يصبه شيء لأنه غارق في عبادة ربه تعالى ولم تشغله السهام الموجهة إلى صدره عن الخشوع لله تعالى حتى انتهى من صلاته . والحديث رواه البخاري [٤]

---

(١) الترمذي / ك : مناقب – ب : مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب .
(وصحيحه / ح رقم ٢٩١٤) .

(٢) بخاري / ك : مناقب – ب : مناقب عمر بن الخطاب .

(٣) هو : عباد بن بشر بن وقش ، الأنصاري ، من قدماء الصحابة ، أسلم قبل الهجرة ، وشهد بدرا ، وأبلى يوم اليمامة فاستشهد بها . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٣٩١) .

(٤) هو محمد بن اسماعيل بن المغيرة البخاري أبو عبد الله ، الحافظ لحديث رسول الله ﷺ ، صاحب الجامع الصحيح ، ولد في بخارى سنة ١٩٤ هـ ، توفي سنة ٢٥٦ هـ .
(الأعلام – الزركلي / جـ ٦ – ص ٣٤) .

مختصرا [١] وأبو داود [٢] كاملا [٣] عن جابر – رضي الله تعالى عنه – قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ ، يعني في غزوة ذات الرقاع [٤] ، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين ، فحلف أن لا أنتهي حتى أهريق دما في أصحاب محمد ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلا فقال : رجل يكلؤنا ، فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فقال : كونا بفم الشعب . قال : فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري فقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه حتى رماه بثلاثة أسهم ثم ركع وسجد ثم أنبه صاحبه فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب ، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم قال : سبحان الله ألا أنبهتني أول ما رمى قال : كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها » [٥] .

والشاهد من الحديث : هو خشوع الأنصاري الجليل في صلاته رغم السهام المتتالية في صدره ، ورغم الدم السائل منه ، وهذا يظهر مدى عبوديته لله عز وجل وصلته به سبحانه .

---

(١) بخاري / ك : الوضوء – ب : من لم ير الوضوء إلا من المخرجين .

(٢) هو : سليمان بن الأشعث بن شداد ، أبو داود السجستاني ، ولد سنة ٢٠٢ هـ ، صاحب كتاب السنن ، أثنى عليه العلماء ووصفوه بالضبط التام ، توفي سنة ٢٧٥ هـ .

(شذرات الذهب – لابن العماد / جـ ٢ – ص ١٦٧) .

(٣) أبو داود / ك : الطهارة – ب : الوضوء من الدم .

(٤) غزوة ذات الرقاع : ذكر أهل المغازي أنها كانت في السنة الرابعة من الهجرة ، غزا رسول الله ﷺ بعض قبائل نجد حين سمع باجتماعهم عليه ، فلقي جمعا من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال ، ورجح الشيخ صفي الرحمن المباركفوري أن هذه الغزوة كانت سنة ٧ هـ (الرحيق المختوم ص ٤٢٦) وقد كان من بين الصحابة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ستة على رأسهم أبو موسى الأشعري وبينهم بعير يتعاقبونه حتى نقبت أقدامهم وسقطت أظفارهم فكانوا يلفون حول أقدامهم الخرق فسميت ذات الرقاع لما كانوا يعصبون الخرق على أرجلهم . (بخاري – ك : مغازي – ب : غزوة ذات الرقاع) .

(٥) ذكر الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – بأن المهاجري هو عمار بن ياسر ، والأنصاري هو عباد بن بشر ، والسورة التي كان يقرأها هي سورة الكهف . (راجع : فتح الباري / جـ ١ – ص ٢٨١) .

البراء بن مالك - رضي الله تعالى عنه -

ومن أتباع محمد ﷺ من وصل إلى درجة عالية من العبودية لله تعالى والثقة به ، بحيث إن دعا أُجيب له ، فعن أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال : « كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك » [(١)] .

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة حيث إن غرضنا هو إظهار عبودية بعض أتباع الرسل ولم نقصد الحصر في ذلك .

* * *

(١) ترمذي / ك : مناقب - ب : البراء بن مالك . (وصحيحه / ح رقم ٣٠٢٨) .

القسم الثاني
عبودية الحيوان والنبات والجماد

تمهيد

إثبات الإدراك والعقل والتمييز والعبودية لهذه الكائنات :

إن ما ذكرناه في القسم الأول عن عبودية الإنس ، وعبودية أعلاهم من الأنبياء ، مما يظهر عبوديتهم لله عز وجل وخضوعهم له سبحانه ، وكذا ما سوف نذكره بمشيئة الله تعالى عن عبودية الملائكة والجن ، لا يجد القاريء ثَم استغرابا في إثبات ذلك لهؤلاء الخلق من الكائنات العاقلة .

ولكن الذي يثير الدهشة في بحثنا هذا أن نجد كائنات أخرى – اصطلح الناس على أنها غير عاقلة – تقوم بعبادة الله تعالى حق قيام بما أودعه الله تعالى فيها من الإدراك والتمييز . وسبب الدهشة أنه شاع بين الكثيرين أن هذه الكائنات من الجمادات والحيوانات والنباتات وبعض الكائنات الغيبية – سواء ما كان منها في عالم الغيب أو عالم الشهادة – لا تعقل ولا تدرك وليس لها أي عبودية لله عز وجل . فاغتر هؤلاء البشر بأنفسهم ، وعظم عليهم أن يشاركهم في العقل والإدراك أحد من الكائنات الأخرى . هذا مع قلة أدائهم للعبودية الحقة ، إذ هم أولى من غيرهم بأدائها لله عز وجل لتحمل الإنسان أمانة الله تعالى التي أشفقت بعض الكائنات الأخرى من السموات والأرض والجبال من حملها . ولكن مما يؤسف أن الكثير منهم قد أعرضوا عن العبودية – إلا مَنْ رحم الله تعالى – . فهم مع تفريطهم في القيام بالعبودية ، يرون أنه لا يشاركهم فيها كائنات أخرى كالحيوانات والجمادات وغيرها ، وهذا من غرور الإنسان وتعاليه على غيره من الخلق بحجة أنها لا تعقل . فلما وجد هذا الإنسان المغرور النصوص الشرعية تثبت

خلاف ما شاع في ذهنه ، اضطر إلى القول بالتأويل والمجاز ، وبدأ يقيس النصوص الشرعية بعقله فما وافقه قبله وإلا أوَّل . فمثلا : عقله لا يقبل قول النار في قوله تعالى : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ [ق : ٣٠] . ولا يقبل تغيظها عند رؤية الكافرين في قوله تعالى : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ [الفرقان : ١٢] . فيقول : لا .. الله ما قال للنار شيئا ، وهي لم تقل شيئا ، ولم تغتظ من رؤية الكافرين . بل القائل والمغتاظ هم خزنة جهنم [١] !! .

وعن سجود الشمس في قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِي السمٰوات ومن فِي الأرض والشمس والقمر** ﴾ .. الآية [الحج : ١٨] فيقول : لا .. الشمس لا تسجد وإنما الذي يسجد هو الملك الموكل بها [٢] !! .

وعن تسبيح الجبال في قوله تعالى : ﴿ **يا جبال أوبِي معه والطير** ﴾ [سبأ : ١٠] فيقول : لا .. الجبال لم تسبِّح ولم تردد التسبيح مع داود عليه السلام .. إنما الأمر هو : أن الجبال كانت تمشي !! مع داود عليه السلام فكان كل مَنْ رآها كذلك سبح [٣] !! .

فعجبا من هؤلاء الذين نسبوا إلى الجبال المشي وأقفلوا عقولهم عن قبول تسبيحها ! .

وعن شهادة الجلود وأعضاء الإنسان عليه يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ **ولا يكتمون الله حديثا** ﴾ [النساء : ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [يس : ٦٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** ﴾ [فصلت : ٢٠] .

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره / جـ ١٣ – ص ٧ .
(٢) نقله الحافظ ابن حجر في الفتح / جـ ١٣ – ص ٢٩٩ .
(٣) ذكره الشوكاني في فتح القدير / جـ ٣ – ص ٤١٩ .

فيقول : لا .. لا .. ليس هناك جلود تتكلم ولا أرجل تشهد ، إنما الأمر مجازي ومعناه : ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به في الدنيا [(١)] .

وعن كلام الشجرة (أو الحجر) بما ستخبر به المسلم بأن يهوديا مختبيء وراءها ، وهو من علامات الساعة [(٢)] . يقول : لا .. لا .. أمعقول أن الشجرة تتكلم ؟!! أو الحجر الجامد يتكلم ؟!! إنما الأمر مجازي وهو : أن اليهود سوف لا ينفعهم الاختباء في الحرب مع المسلمين آخر الزمان [(٣)] .

وهلم جرا مع كل النصوص الشرعية سواء كانت في القرآن أم في السنة الصحيحة وكأن القرآن نزل بألفاظ غير مفهومة المعنى ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خاطب الناس بألفاظ غير واضحة المعنى أيضا وهو ما لا يقول به مسلم .

أثر القول بالمجاز في تحريف معاني النصوص الشرعية :

لقد أدى القول بالمجاز إلى نفي كثير من النصوص الشرعية ، وصرف المعنى الحقيقي لظواهرها إلى معان مغايرة دون وجود قرائن توجب القول بتلك المعاني . لذا أجمع أهل السنة على بطلان القول بالمجاز وإنكار وجوده في الشرع أصلا .

عرف المجاز بأنه :

اللفظ الذي استعمل في غير ما وضع له . لا يدل على معناه إلا بقرينة [(٤)] . فهذه القرينة لابد أن تكون موافقة للنص وغير مخالفة له أو لغيره من النصوص الأخرى . وإلا حمل على الأصل في الألفاظ وهو الحقيقة . فالحقيقة ما يفيد المعنى

(١) ذكره الألوسي في روح المعاني / مجلد ٨ - جـ ٢٤ - ص ١١٦ .
(٢) ستأتي الأمثلة بالتفصيل والكلام على عبودية كل كائن بمشيئة الله تعالى وعونه .
(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح / جـ ٦ - ص ٦١٠ .
(٤) الإيمان - لابن تيمية / ص ٨٥ .

مجردا عن القرائن ، بخلاف المجاز حيث لا يفيد ذلك المعنى إلا مع قرينة (١) . كما قيل : بأن الحقيقة ما يفيد اللفظ المطلق ، والمجاز ما لا يفيد إلا مع التقييد (١) . وقيل : بأن الحقيقة هي المعنى الذي يسبق إلى الذهن عند الاطلاق ، والمجاز ما لا يسبق إلى الذهن (١) .

وتقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز حادث ولم يقل به أحد من السلف الصالح ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم ولا تكلم به أحد من أئمة اللغة والنحو الأوائل . بل ظهر القول بالمجاز في المائة الثالثة وانتشر في المائة الرابعة . وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – (٢) وكان ظهوره من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين .

وتقسيم الألفاظ إلى الحقيقة والمجاز لا يدل على وجود المجاز أصلا بل وعلى إمكانه ، فإن التقسيم يتضمن حصر المقسوم في تلك الأقسام ولا يدل على ثبوت كل واحد من الأقسام في الخارج . فثبوت تلك الأقسام أو بعضها في الخارج يحتاج بالضرورة إلى دليل منفصل يدل عليه . وكثير من أهل النظر يغلط في هذا الموضوع ، ويستدل بصحة التقسيم على الوجود الخارجي وإمكانه وهذا غلط محض . فالذين قسموا الكلام إلى حقيقة ومجاز إن أرادوا بذلك التقسيم الذهني لم يفدهم ذلك شيئا ، وإن أرادوا التقسيم الخارجي لم يكن معهم دليل يدل على وجود الجميع في الخارج سوى مجرد التقسيم . وهو لا يفيد الثبوت الخارجي (٣) .

وقد فرقوا بين المجاز في اللغة وبين المجاز في القرآن .

والذي يدين الله به كل منصف محقق أنه لا يجوز إطلاق المجاز في

---

(١) الإيمان – لابن تيمية / ص ٩٥ ، ٩٦ . وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – على تلك التعريفات . فليراجع من شاء من ص ٩٥ – ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق / ص ٨٤ ، مختصر الصواعق المرسلة – لابن القيم / ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣) راجع : مختصر الصواعق المرسلة – لابن القيم / ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ – بتصرف .

القرآن [1] . أما في اللغة فقد اختلفوا في جواز وقوعه بين من يجيز المجاز في اللغة وبين من يمنعه في اللغة العربية أصلا إلا أن من يجيز المجاز في اللغة يمنع القول به في القرآن [2] . والقول بالمجاز في القرآن يفضي إلى أن في القرآن ما يجوز نفيه حيث إن القائلين بالمجاز يجيزون نفي كل مجاز . وهو ما دعا بالفعل أهل الأهواء القائلين بالمجاز إلى نفي بعض القرآن ، فكان ذريعة إلى نفي كثير من صفات الكمال الثابتة لله في القرآن العظيم ، فتوصل المعطلون إلى نفي ذلك فقالوا : لا يد ولا استواء ولا نزول ونحو ذلك في كثير من آيات الصفات ، لأن هذه الصفات لم ترد حقائقها ، بل هي عندهم مجازات فاليد مستعملة عندهم في النعمة أو القدرة والاستواء في الاستيلاء والنزول نزول أمره ونحو ذلك ، فنفوا هذه الصفات الثابتة بالوحي عن طريق القول بالمجاز [3] .

ومن جملة ما ادعاه أهل الأهواء أنه مجاز في القرآن لفظ الكيد والمكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله تعالى ، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله عن طريق المجاز . وقد رد عليهم في هذا شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – بقوله : « وليس كذلك ، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلمًا له . وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلا . كما قال تعالى : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ [يوسف : ٧٦] فكاد له كما كاذت إخوته لما قال له أبوه : ﴿ **لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا** ﴾ [يوسف : ٥] . وقال تعالى : ﴿ **إنهم يكيدون كيدا * وأكيد كيدا** ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] وقال تعالى : ﴿ **ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون** ﴾ [النمل : ٥٠] وقال : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾ [التوبة : ٨٠] .

---

(١) منع جواز المجاز – محمد الأمين الشنقيطي / ص ٧ .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة – لابن القيم / ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

، منع جواز المجاز – الشنقيطي / ص ٨ .

(٣) منع جواز المجاز – الشنقيطي / ص ٨ – ٩ .

ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلا يستحق هذا الاسم » [(١)] أ.هـ .

ومن الأمثلة المشهورة لدى مَنْ يزعم المجاز في القرآن قوله تعالى : ﴿ **واسأل القرية** ﴾ [يوسف : ٨٢] فقالوا : إن المراد به أهلها ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في الرد عليهم في هذا المثال : « لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الأمور التي فيها الحالُّ والمحل ، كلاهما داخل في الاسم ، ثم قد يعود على الحال وهو السكان ، وتارة على المحل وهو المكان ففي قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله قرية كانت آمنة مطمئنة** ﴾ [النحل : ١١٢] وفي قوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية هِيَ أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ [محمد : ١٣] أراد الحالَّ وهم السكان . وفي قوله تعالى : ﴿ **أو كالذِى مر على قرية وهىَ خاوية على عروشها** ﴾ [البقرة : ٢٦٩] أراد المحل وهو المكان لا السكان . فقوله تعالى : ﴿ **واسأل القرية** ﴾ فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار ولا حذف فهذا بتقدير أن يكون في اللغة مجاز ، فلا مجاز في القرآن . بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف » [(٢)] أ.هـ .

كما ذكر القائلون بالمجاز في القرآن مما يشهد لهم أن قوله تعالى : ﴿ **جدارا يريد أن ينقض** ﴾ [الكهف : ٧٨] على المجاز ، فالإرادة إنما تكون للحيوان والجدار ليس بحيوان ، فاستعمالها في ميل الجدار مجاز . وهذا مردود عليهم أيضا إذ إنه مشهور في اللغة نسب الإرادة إلى الحيوان وغيره .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « إن لفظ الإرادة قد استعمل في الميل الذي يكون معه شعور وهو ميل الحي ، وفي الميل الذي لا شعور فيه وهو

---

(١) الإيمان – لابن تيمية / ص ١٠٦ – ١٠٧ .
(٢) المصدر السابق / ص ١٠٧ – ١٠٩ – باختصار .
وراجع : منع جواز الجواز – الشنقيطي / ص ٣٥ .

ميل الجماد وهو من مشهور اللغة يقال : هذا السقف يريد أن يقع وهذه الأرض تريد أن تُحرث . ولكن لفظ الإرادة لا يأتي إلا مقيدا بالمريد مثل لفظ العلم لا يأتي إلا مقيدا بالعالم ولا لفظ القدرة إلا مقيدا بالقادر ، بل وهكذا سائر الأعراض . بخلاف لفظ الإنسان ولفظ الفرس فلأنه يوجد في الخارج غير مضاف ، تعودت الأذهان تصور مسمى الإنسان ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الإرادة ومسمى العلم ، ومسمى القدرة ، ومسمى الوجود المطلق العام فلا يوجد إلا مقيدا » (١) أ.هـ .

ونحن هنا في بحثنا جمعنا من النصوص الشرعية ما يثبت الشعور والإدراك بل والعبودية للكائنات الجمادية فقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - السابق بأن لفظ الإرادة قد استعمل في ميل من لا شعور له وهو الجماد . قد أراد به جواز نسبة الإرادة إلى الإنسان وإلى الجماد ولا تجوّز في ذلك . ولم يرد من ذلك نفي الشعور عن الجماد إذ أثبته - رحمه الله تعالى - في مواضع عديدة (٢) .

وإليك كلام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في الرد على مَنْ قال بالمجاز في قوله تعالى : ﴿ **جدارا يريد أن ينقض** ﴾ : « لا مانع من حمله على حقيقة الإرادة المعروفة في اللغة لأن الله يعلم للجمادات ما لا نعلمه لها كما قال تعالى : ﴿ **وإن من شيْء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقد ثبت في صحيح البخاري حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ (٣) . وثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ قال : « إني لأعرف حجرًا كان يسلم عليّ في مكة » (٤) وأمثال هذا كثيرة جدًّا . فلا مانع من أن يعلم الله من ذلك الجدار إرادة الانقضاض . ويجاب على هذه الآية بأنه لا مانع من كون

---

(١) الإيمان - لابن تيمية / ص ١٠٣ ، ١٠٤ - بتصرف - .

(٢) ستأتي أقواله بعد قليل في ص ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٣) بخاري / ك : مناقب - ب : علامات النبوة في الإسلام .

(٤) مسلم / ك : فضائل - ب : فضائل النبي ﷺ . (ومختصره ح رقم ١٥٢٨) .

العرب تستعمل الإرادة عند الإطلاق في معناها المشهور ، وتستعملها في الميل عند دلالة القرينة على ذلك . وكلا الاستعمالين حقيقة في محله » [1] أ.هـ .

ونظرًا لأن اتباع هؤلاء المبتدعة أهواءهم بالقول بنفي صفات الباري سبحانه جعلهم يحدثون القول بالمجاز وأجازوا وقوعه في القرآن . فلم يتوقف الأمر على ما سبق من أدلتهم بل تعدت أدلتهم إلى القول على الله تعالى بما لا يجوز ونفي ما يجوز في حقه سبحانه من الأسماء والصفات والأفعال [2] ، بحجة أنه مجاز . وهو في الحقيقة التحريف والإلحاد في آيات الله تعالى المنزلة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : « ومن رزقه الله معرفة ما جاءت به الرسل وبصرا نافذا وعرف حقيقة مأخذ هؤلاء ، علم قطعا أنهم يلحدون في أسمائه وآياته ، وأنهم كذبوا بالرسل وبالكتاب وبما أرسل به رسله ، ولهذا كانوا يقولون : إن البدع مشتقة من الكفر وآيلة إليه » [3] أ.هـ .

ومما ينبغي أن يعلم أن وجود بعض الشواهد التي قد تدل على وقوع المجاز في اللغة عند القائلين به ، لا يسوغ لنا أن نجيزه في القرآن . فإن قيل [4] : كل ما جاز في اللغة جاز في القرآن لأنه بلسان عربي مبين .

فالجواب : إن هذه كلية لا تصدق إلا جزئية ، فالقائل بالمجاز يقول : المجاز جائز في اللغة وكل ما جاز في اللغة فهو جائز في القرآن ينتج من الشكل الأول

---

(١) منع جواز المجاز – الشنقيطي / ص ٣٣ – ٣٤ .

(٢) راجع : إيراد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – الأدلة النقلية والعقلية في الرد على مدَّعي نفي صفات الله تعالى وأفعاله كل صفة على حدة في مجموع الفتاوى / جـ ٦ – ص ٣٦٢ – ٤٨٤ وكذا رد ابن القيم – رحمه الله تعالى – على ما ادعوا فيه المجاز في القرآن من الأمثلة في كتابه مختصر الصواعق المرسلة / ص ٢٩٤ – ٤١٥ .

(٣) مجموع الفتاوى – لابن تيمية / جـ ٦ – ص ٣٥٩ .

(٤) الرد على هذه القضية من خلال كلام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه / منع جواز المجاز – ص ١٠ .

جائز في القرآن . نقول سلمنا جدلا صدق المقدمة الصغرى وهي قولنا : المجاز جائز في اللغة العربية ولكن لا نسلم الكبرى وهي : كل جائز في اللغة جائز في القرآن بل نقول بصدق نقيضها وهي قولنا : بعض ما يجوز في اللغة ليس بجائز في القرآن وهذه جزئية سالبة . إذا تحققت تحقق نفي الكلية الموجبة وهي كل جائز في اللغة جائز في القرآن . ثم أورد - رحمه الله تعالى - الأمثلة الكثيرة [1] في نفي الكلية الموجبة وتحقق الجزئية السالبة ، رغم احتياج تحقق صدقها بمثال واحد .

منهـا :

لم تحك نائلك السحاب وإنما .. حمت به فصبيبها الرحضاء .

فهذا بديع معنوي عند أهل البلاغة ، ولا يخفى أن القرآن لا يجوز أن يقع فيه مثل هذا الكذب الذي يدعي صاحبه أن السحاب أصابته الحمى من الغيرة من كرم الممدوح ، فانصب منه العرق لشدة الغيرة وأن ماءه هو ذلك العرق الكائن من شدة الغيرة » [2] .

فإذا ثبت معارضة الصغرى وهي المجاز جائز في اللغة ، وكذا ثبت فساد الكبرى وهي كل ما جاز في اللغة فهو جائز في القرآن . إذا تبطل النتيجة وهي المجاز جائز في القرآن .

ولقد وضع شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - أربعة قيود لإمكان وقوع المجاز ، مؤداها في نهاية المطاف إلى أن لا مجاز . فقال : « إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسوله ، أو وصفه بها المؤمنون - الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم - فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلال الله سبحانه ، وحقيقتها منها إلى باطن يخالف الظاهر ومجاز ينافي الحقيقة ، لابد فيه من أربعة أشياء :

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي لأن الكتاب والسنة وكلام

---

(١) راجع : الأمثلة في كتابه - منع جواز الجواز / ص ١١ - ٣٢ .

(٢) المصدر السابق / ص ١٣ .

السلف جاء باللسان العربي ، ولا يجوز أن يراد بشيء منه خلاف لسان العرب . فلابد أن يكون المعنى المجازي ما يراد به اللفظ .

الثاني : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه ، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة ، وفي معنى بطريق المجاز ، لم يجز حمله على المجازي بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء .

الثالث : أنه لابد من أن يَسْلم ذلك الدليل – الصارف – عن معارض وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة امتنع تركها .

الرابع : أن الرسول ﷺ إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره وضد حقيقته فلابد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وأنه أراد مجازه . ثم هذا الرسول الأمي العربي قد بعث بأفصح اللغات وأبين الألسنة والعبادات ، فلا يجوز أن يحيل الأمة على دليل خفي لا يستنبطه إلا أفراد الناس » [1] أ.هـ .

مما سبق يتبين لنا بطلان القول بالمجاز وإنه خلاف هدى السلف الصالح . بل فيه محاداة لله تعالى ورسوله في نفي آيات الله تعالى المنزلة وتعطيل معناها . والقول بالمجاز وتأويل النصوص الشرعية على غير مرادها هو ما أوقع كثيرا من المبتدعة في نفي صفات الباري سبحانه وأفعاله [2] ، وهو مخالف لما يجب أن يكون عليه المؤمنون تجاه النصوص الشرعية ، حيث إنهم مأمورون بالتسليم لها والإيمان بها وعدم الخوض في الكيفية ما دام قد ثبت صحة النص ، فقال تعالى :

---

(١) الفتاوى – لابن تيمية / جـ ٦ – ص ٣٦٠ ، ٣٦١ – باختصار – .

(٢) تعليق : كتأويل المعتزلة ومن حذا حذوهم من المبتدعة ، استواء الله تعالى على العرش بالاستيلاء ، ويده تعالى بالنعمة أو القدرة ، ورحمته بإرادة الثواب ، وغضبه بإرادة العقاب ، والعين بالرعاية ، وهكذا في سائر صفاته تعالى .

راجع : (مقالات الإسلاميين للأشعري / ص ١٧١ – ٢١٧) .

(نقض تأسيس الجهمية – لابن تيمية) .

(شرح العقيدة الطحاوية / ص ١٣٢) .

﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ [النور : ٥١] . وقال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضَى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فِي أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] . والآيات في هذا المعنى كثيرة في القرآن الكريم .

ففي هذا الفصل يجد القارىء من الأدلة والبراهين ما يثلج صدره ويريح قلبه ويهدىء نفسه ، من الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف الصالح ومَنْ تبعهم ، بما يجعله يمشي على الجادة ويتبع سبيل المؤمنين حتى لا يضل . قال تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدَىٰ ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولَّى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾ [النساء : ١١٥] وسوف أبين بمشيئة الله تعالى عبودية الكائنات التي ورد ذكرها في النصوص الشرعية من الحيوانات والنباتات والجمادات وبعض الكائنات الغيبية ، ولكني أقدم أولا أدلة تثبت عبودية عموم هذه الكائنات لربها حتى يكون الكلام فيه تفصيل بعد إجمال فأقول وبالله التوفيق :

إن هذا الكون الواسع بما فيه من الكائنات كلها يخضع لخالقه وباريه ويؤدي عبوديته له سبحانه . فقد ثبت لهذه الكائنات – في الكتاب والسنة – طاعات كثيرة كالسجود والتسبيح والاستغفار والإسلام والإشفاق وغيرها .

– فعن سجود هذه الكائنات يقول الله عز وجل : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِي السمٰوات ومن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ [الحج : ١٨] ، ويقول تعالى : ﴿ **أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيْءٍ يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون * ولله يسجد ما فِي السمٰوات وما فِي الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [النحل : ٤٨ – ٥٠] .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « يخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيوانها ومكلفوها من الإنس والملائكة فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال أي بكرة وعشيا فإنه ساجد لله تعالى . قال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل » (١) أ.هـ .

فأثبت الله تعالى السجود لكل الكائنات ، وبين كيفية سجود بعضها وهو بفيء ظلالها عن اليمين والشمال ، ولا يلزم أن يكون سجودها على سبعة أعضاء ، إذ هذا خاص بالمسلمين أما سجود بقية الكائنات هو في كل بحسبه ، وهذا ما ذكره ابن تيمية – رحمه الله تعالى – فقال : « ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ، ووضع الجبهة في رأس مدور على الأرض ، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ، ومن الأمم من يركع ولا يسجد وذلك سجودها كما قال تعالى : ﴿ **ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة** ﴾ [البقرة : ٥٨] وإنما قيل : ادخلوه ركعا . ومنهم مَنْ يسجد على جنب كاليهود ، فالسجود اسم جنس ، ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد » (٢) أ.هـ .

– وأما عن تسبيح الكائنات فذلك في قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمد ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ [الإسراء : ٤٤] . فالكائنات كلها تسبح خالقها سبحانه تسبيحا لا نفقهه نحن البشر ، وعدم معرفتنا به ليس دليلا على نفيه ، فقد خص الله تعالى بعض خلقه من البشر بالاطلاع على تسبيح بعض تلك الكائنات وأفهمه تسبيحها ، كداود عليه السلام . وقد أمر الله تعالى الجبال والطير بالتسبيح معه . وقد أفهم الله تعالى تلك الكائنات كيفية التسبيح الخاصة لكل منها ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم / جـ ٢ – ص ٥٧١ .

(٢) جامع الرسائل / ص ٢٧ – ٢٨ (رسالة قنوت الأشياء كلها لرب العالمين) .

فعلمت وأدركت . فيقول الله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من فِي السمٰوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ [النور : ٤١] . فالكل يسبح الله تعالى ويصلي له صلاة ليس بالضرورة أن يكون فيها ركوع وسجود وتكبيرة إحرام وتشهد وتسليمتان وما إلى ذلك من صفة صلاة البشر المسلمين . يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « يخبر تعالى أنه يسبح له مَنْ في السموات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى :﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾ [الإسراء : ٤٤] وقوله : ﴿ **والطير صافات** ﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه » [١] أ.هـ .

ونقل القرطبي – رحمه الله تعالى – : « أن للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود » [٢] .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى – : « والظاهر أن الطير تسبح وتصلي صلاة وتسبيحا يعلمها الله ونحن لا نعلمها كما قال تعالى : ﴿ **وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] [٣] .

وتسبيح ما في السموات وما في الأرض يشمل الإنس والجن والملائكة ، ويشمل أيضا ما عليهما من جماد وحيوان ونبات وكذلك سجود من فيهما . ويتضح ذلك من الآيات حيث يتبعها تفصيل وبيان لبعض تلك الكائنات ، وكذلك كلام أهل العلم كابن كثير وغيره ، وكذلك حديث عمرو بن عبسة [٤] – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله إلا سبح الله بحمده إلا ما كان من الشياطين وأغبياء

---

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٣ – ص ٢٩٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٢ – ص ٢٨٦ .

(٣) أضواء البيان / جـ ٦ – ص ٢٤٥ .

(٤) عمور بن عبسة بن عامر بن خالد السلمي ، أبو نجيح ، صحابي مشهور ، أسلم قديما وهاجر بعد أُحد ، ثم نزل الشام .. (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٧٤) .

بني آدم » [1] ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [الزمر : ٧٥] ، يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد . قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد في قوله : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ » [2] أ.هـ .

– وأما عن استغفار تلك الكائنات ففي حديث أبي الدرداء [3] – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه ليستغفر للعالم من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر » [4] ، دليل على أن جميع الكائنات علوها وسفلها حتى الحيتان التي من جملة الكائنات تستغفر للعالِم . وقد ورد : « حتى النملة في جحرها لتستغفر هي الأخرى لمعلم الناس الخير » [5] ، وهو يدل على استغفار الكائنات للعالم بأن يغفر الله له على أداء مهمته من تعلم العلم النافع وتعليمه للناس فيما يعود عليهم من خيري الدنيا والآخرة .

– وأما عن إسلام تلك الكائنات لله عز وجل فقال تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فِي السموات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون** ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

– وكذلك إيمانها بنبوة سيدنا محمد ﷺ . وهذا أمر يستدعي الدهشة والعجب إذ إن الكائنات كلها قد آمنت بنبوة محمد ﷺ ، وبقي كثير من الإنس عميت

---

(١) صحيح الجامع / ح ٥٤٧٥ ، السلسلة الصحيحة / ح ٢٢٢٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ ـ ص ٦٩ .

(٣) سبقت ترجمته ص ٨٤ .

(٤) ابن ماجة (مقدمة – ب : ثواب معلم الناس الخير) – (صحيحه ، ح رقم ١٩٥) .

(٥) ترمذي / ك : المعلم – ب : ما جاء في فضل الفقه على العبادة (صحيحه ح رقم ٢١٦١) .

بصائرهم عن الحق فكذبوا برسالته ، وهذا ما نجده جليا واضحا في حديث جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنه - قال : قال عليه الصلاة والسلام : « إنه ليس من شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس » [١] ، وقد قال ﷺ ذلك في جمَل دعاه إليه فأتى الجمل بين يدي رسول الله ﷺ . فقال عليه الصلاة والسلام ذلك ليبين أن هذا الجمل وغيره من الكائنات العلوية التي في السماء والسفلية التي في الأرض تعلم أنه رسول الله تعالى ، واستثنى من هؤلاء العصاة من الجن والإنس .

- وأما عن إشفاق الكائنات من يوم الجمعة ، حيث تقوم الساعة فيه فكما في حديث أبي لبابة بن عبد المنذر [٢] قال : قال عليه الصلاة والسلام : « وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهي تشفق من يوم الجمعة » [٣] .

- وأما عن سماعها الأذان وشهادتها للمؤذن يوم القيامة فعن أبي سعيد الخدري [٤] - رضي الله تعالى عنه - قال : « إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » . قال أبو سعيد : « سمعته من رسول الله ﷺ » [٥] . فكما رأينا أن الكائنات كلها قد أسلمت لله عز وجل وآمنت برسوله عليه الصلاة والسلام ، وهي

---

(١) أحمد / ٣ - ٣١٠ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح رقم ١٧١٨) ، وصحيح الجامع (ح رقم ٢٤٠٥) . وسيأتي ذكره كاملا عند الحديث عن عبودية الجمل .

(٢) أبو لبابة بن عبد المنذر : هو بشير بن عبد المنذر ، وقيل : اسمه « رفاعة » ، صحابي مشهور ، وكان أحد النقباء ، وعاش إلى خلافة علي - رضي الله تعالى عنهما - .
(تقريب التهذيب / مجلد ٢ - ص ٤٦٧) .

(٣) ابن ماجه / ك : إقامة - ب : في فضل يوم الجمعة (صحيحه ح رقم ٨٨٨) .

(٤) هو : سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري ، شهد ما بعد أحد ، وروى الكثير ، مات سنة ٧٤ هـ (تقريب التهذيب / مجلد ١ - ص ٢٨٩) .

(٥) بخاري / ك : الأذان - ب : رفع الصوت بالنداء .

تسبح لله وتسجد ، ولها صلاة واستغفار مثلها في ذلك مثل الكائنات من الإنس والجن والملائكة ، ولكن كل هذه الطاعات التي تقوم بها تجاه ربها لتظهر عبوديتها له سبحانه هي بحسبها ولا نشك في حقيقة ما أخبر به الله عز وجل ورسوله ولا نؤوِّل ما نسبه سبحانه إليها من فعل التسبيح والسجود وغيره ، ولكننا ندع علم الكيفية لهذا السجود وهذا التسبيح وتلك الصلاة لله عز وجل . حيث قال : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] . فعجبا لهذا الإنسان الذي شغل فريق منه نفسه بمعرفة كيفية صلاة وتسبيح وسجود الكائنات الأخرى و لم يقبل عقله نسبة ذلك إليها فرفضها أو أوّلها ، وغفل فريق عن صلاته وتسبيحه وسجوده ، حيث لا يؤديها كما أوجبها الله تعالى عليه - نسأل الله العافية والسلامة - فحال المسلمين اليوم تضييع للصلاة التي هي عماد الدين ، فضلا عن غيرها من الطاعات - إلا من رحم الله تعالى منهم - وهو ما أخبر به المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حيث قال : « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها ، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » [1] . والآن سأورد كلام أهل العلم على ما سبق وتعليقاتهم على تسبيح وسجود وإسلام تلك الكائنات كلها ، فإن في كلامهم الحل لكل مشكل والإيضاح لكل مبهم .

(١) قال القرطبي - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ [الإسراء : ٤٤] : « أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها من فعل العاقل وهو التسبيح ، وقوله : ﴿ **ومن فيهن** ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن . ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله : ﴿ **وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده** ﴾ ، واختلف في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ؟

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ٤٩٥١ .

- فقالت فرقة : ليس مخصوصًا والمراد به تسبيح الدلالة وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر .

- وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه .

- وذكرت طائفة أن العموم ﴿ **من شَيْءٍ** ﴾ معناه الخصوص في كل حي ونام ، وليس الجمادات ، ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – أن النبي عليه الصلاة والسلام مر على قبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما : فكان يمشي بين الناس بالنميمة ، وأما الآخر : فكان لا يستبريء من البول . فقال : فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » فقوله عليه الصلاة والسلام : « ما لم ييبسا » إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان ، فإذا يبسا صارا جمادًا .

وعلى التأويل الثاني فيكون كل شيء من الجماد وغيره يسبح ، ويستدل لهذا القول من الكتاب قوله تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشّى والإشراق** ﴾ وقوله : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ وقوله : ﴿ **وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ . ثم ذكر بعد ذلك أدلة من السنة فقال : وقال رسول الله ﷺ : « لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » ، وحديث عبد الله ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : « لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » ، وحديث النبي عليه الصلاة والسلام قال : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » .

وخبر الجذع . وإذا ثبت هذا في جماد واحد جاز في جميع الجمادات وهو عام فيما فيه روح ، وفيما لا روح فيه ، ولكن القول بأنه تسبيح دلالة بحيث يقول من رآها : سبحان خالقها – ليس بالقوي – والصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ونصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن

من تسبيح كل شيء ، فالقول به أولى »[1] أ.هـ .

(٢) وقال ابن تيمية – رحمه الله تعالى – نقلا عن البغوي[2] في قوله تعالى : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ [البقرة : ٧٤] فإن قيل : الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى ؟! ، قيل : الله يفهمه ويلهمه فيخشى بإلهامه . قال : ومذهب أهل السنة أن لله علما في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره ، ولها صلاة وتسبيح كما قال عز وجل : ﴿ **وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده** ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقال تعالى : ﴿ **والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ [النور : ٤١] . وقال : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِي السمٰوات ومن فِي الأرض والشمس والقمر** ﴾ الآية [الحج : ١٨] ، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى ، وذكر الحديث الصحيح عن جابر بن سمرة[3] عن النبي ﷺ قال : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعث وإني لأعرفه الآن » ، وذكر حديث حنين الجذع ، وطرقه صحاح مشهورة ، وروى عن علي بن أبي طالب – رضي الله تعالى عنه – قال : كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال : السلام عليك يا رسول الله » .

ثم قال ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيهما ودلالتهما على الصانع فقط ، فالاقتصار على هذا باطل ، فإن هذا وصف لازم دائم لها لا يكون في وقت دون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٠ – ص ٢٦٦ – ٢٦٨ – باختصار – .

(٢) البغوي : هو أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الإمام المفسر الفقيه محيي السنة ، ولد سنة ٤٣٦ هـ ، أشهر كتبه شرح السنة ، توفي سنة ٥١٦ هـ .

(انظر : تذكرة الحفاظ / جـ ٤ – ص ١٢٥٧) .

(٣) هو : جابر بن سمرة بن جنادة السوائي ، صحابي ابن صحابي ، نزل الكوفة ، ومات بها بعد سنة ٧٠ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ١٢٢) .

وقت ، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى ، وعلى هذا فالمخلوقات كلها لا تزال ساجدة مسبحة ، وليس المراد هذا فإنه قال تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال يسبحن معه بالعشيِّ والإشراق** ﴾ [ص : ١٨] وقال : ﴿ **والطير محشورة كل له أواب** ﴾ [ص : ١٩] ، وقال : ﴿ **كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ [النور : ٤١] فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنه يعلم ذلك ، ودلالتها على الرب يعلمه عموم الناس .

وأيضا فقد أخبر الله تعالى في القرآن من كلام الهدهد والنمل وأن سليمان عُلِّم منطق الطير مما يدل على الاختصاص ، وهذا في الحيوان .

ثم قال – رحمه الله تعالى – : والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات » [1] أ.هـ .

وذكر – رحمه الله – آراء المخالفين في حقيقة التسبيح والسجود لهذه الكائنات والرد عليها فقال : « ولكن طائفة تدعي أن افتقارها وخضوعها ، وخلقها وجريان المشيئة عليها ، هو تسبيحها وقنوتها وإن كان ذلك بلسان الحال ، ولكنها شاهدة للخالق جل جلاله . وقل للأرض من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها وأخرج نباتها وثمارها ، فإن لم تجبك حوارا وإلا أجابتك اعتبارا ، وهذا يقوله الغزالي [2] وغيره وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري [3] في قوله تعالى : ﴿ **كل له قانتون** ﴾ . قال : كل مخلوق قانت له باشر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه ، فذلك دليل على ذله

---

(١) جامع الرسائل / ص ٤٢ – ٤٤ . (رسالة قنوت الأشياء كلها لرب العالمين) – باختصار – .

(٢) هو : زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي ، صاحب التصانيف ، برع في الفقه ، ومهر في علم الكلام والجدل . توفي سنة ٥٠٥ هـ .
(سير أعلام النبلاء – الذهبي / جـ ١٩ – ص ٣٢٢ – ٣٤٦) .

(٣) هو : محمد بن القاسم بن بشار أبو بكر المقريء النحوي الإمام الحافظ ، ولد سنة ٢٧٢ هـ ، وتوفي سنة ٣٢٨ هـ (سير أعلام النبلاء – الذهبي / جـ ١٥ – ص ٢٧٤ – ٢٧٩) .

لربه ، وهو الذي ذكره الزجَّاج [(١)] في قوله تعالى : ﴿ **وله أسلم من فِي السمٰوات والأرض** ﴾ قال : إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جبلهم ، لا يقدر أحد أن يمتنع من جبلة جبله الله عليها ، وهذا المعنى صحيح ، لكن الصواب الذي عليه جمهور علماء السلف والخلف : أن القنوت والاستسلام والتسبيح أمر زائد على ذلك ، وكما قال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده** ﴾ قال : تسبيحه دلالته على صانعه فتوجب بذلك تسبيحًا من غيره ، والصواب أن لها تسبيحًا وسجودًا بحسبها » [(٢)] أ.هـ .

(٣) ويقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] : « يقول تعالى تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية . – ثم قال : – وقوله : ﴿ **وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده** ﴾ أي : ما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ أي : لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ، وهذا أشهر القولين » . ثم ذكر – رحمه الله تعالى – الأحاديث التي تقر هذا المعنى مثل : حنين الجذع وتسبيح الطعام والحصى وغيره » [(٣)] أ.هـ .

وقال – رحمه الله تعالى – عن خشية الحجارة في قوله تعالى : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ [البقرة : ٧٤] ، بعد أن رد قول من قال بأن هذا من باب المجاز ، فقال – نقلا عن الرازي والقرطبي وغيرهم – :

---

(١) هو : إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل بن الزجاج ، النحوي ولد سنة ٢٤١ هـ ، إمام مجمع على إمامته بالأدب والدين ، توفي سنة ٣١٠ هـ .
(شذرات الذهب – لابن العماد / جـ ٢ – ص ٢٥٩ – ٢٦٠) .

(٢) الفتاوى / جـ ١ – ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٣ – ص ٤١ – ٤٢ .

« ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] [1] . ثم ذكر – رحمه الله تعالى – الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تثبت ما ذهب إليه [2] .

(٤) ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – ، وهو يتكلم عن ورق الشجر : « فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه ولا تسقط إلا بعلمه ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت ، وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى : ﴿ **والنجم والشجر يسجدان** ﴾ [الرحمن : ٦] فالنجم ما ليس له ساق من النبات ، والشجر ما له ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿ **وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ [الإسراء : ٤٤] . ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط . فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر [3] . وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحا وسجودا وصلاة وتأويبا وهبوطا من خشيته كما ذكر تعالى ذلك في كتابه ، فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى : ﴿ **والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ [النور : ٤١] ، أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية : قد علم الله دلالته عليه وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحا ، وفرق بينهما وعطف أحدهما على الآخر وتارة يخبر عنها

---

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ١ – ص ١١٣ .

(٢) سيأتي ذكر هذه الأدلة بالتفصيل عند الكلام على عبودية كل كائن على حدة وإثبات تخريجها في مكانها ما يغني عن ذكرها هنا .

(٣) لم أجدها في مظان كتب ابن القيم – الباحث – .

بالتأويب كقوله : ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ [سبأ : ١٠] . وتارة يخبر عنه بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشي والإشراق . أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين ؟! ، وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه والحمد لله » [١] أ.هـ .

(٥) ويقول الدكتور كمال أبو النجا – رحمه الله تعالى – في سرد الأدلة على أن معرفة الله تعالى فطرية : « إن الجماد فطر على معرفته بالله تعالى معرفة تليق به ، يدل لذلك :

- تسبيحه الله تعالى وتحميده ، تسبيحا وتحميدا حقيقيين . قال تعالى : ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ فالمخلوقات متحركها وساكنها ناطقها وصامتها ، تنزه الله تعالى وتبجله وتكبره عما يقول المشركون ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، لأنه بلغة غير لغتكم . وقال تعالى : ﴿ **يسبح له ما في السمٰوات والأرض** ﴾ ، والآيات في هذه كثيرة ، وثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي حديث أبي ذر : « أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كطنين النحل ، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان – رضي الله تعالى عنهم – ، ونهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ الناس دوابهم كراسي لأحاديثهم في الطرق والأسواق ، وقال : « فرب مركوب خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله منه » [٢] . ومن المعلوم أن المفطور على تسبيح الله تعالى وحمده مفطور على معرفته به سبحانه إذ كان تسبيحا وحمدا

---

(١) مفتاح دار السعادة / جـ ١ – ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد (٣/٤٤٠) ، (٤/٢٣٤) .

والحديث من أوله : « اركبوا هذه الدواب سالمة وايتدعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي » وأما الزيادة : « فرب مركوب خير من راكبها » ، فهي ضعيفة ..

(انظر : تخريج الحديث في السلسلة الصحيحة / المجلد الأول / ح رقم ٢١) .

حقيقيين وليس مجرد دلالتها على أنه سبحانه المنزه عن النقائض المحمود المستحق للحمد ، كما قيل ، وإلا لو كان المراد ذلك لكان تسبيحا معلوما لنا وقد قال تعالى : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ أي لا تفهمونه ، بل الذي يعلم تسبيحهم ونطقهم هو الله عز وجل .

- ثم ذكر – رحمه الله تعالى – الأدلة على خطاب الجماد وخوفه وخشيته وإخباره وعن سجوده ، وعلق على سجود الجماد فقال : « إنه سجود حقيقي وليس مجرد دلالتها على أن الله عز وجل هو الذي يُسجد له ، وأنه لا ينبغي السجود إلا له ، إذ لو كان المراد ذلك لكان الناس جميعا ساجدين بهذا المعنى ، فلا يكون لتخصيص السجود بكثير من الناس معنى » [1] أ.هـ .

مما سبق من كلام العلماء يتبين أن لتلك الكائنات الحيوانية والجمادية والنباتية وغيرها عبودية لله عز وجل ولها طاعات وأفعال تقوم بها من التسبيح بحمده سبحانه والسجود له ، والخشية منه ، والإشفاق ، والاستغفار ، والصلاة ، والذكر وغيرها . ولكي تقوم هذه الكائنات بتلك الأفعال من الطاعات خلق الله تعالى لها تمييزا إدراكا تدرك به هذه الطاعات وتعقل الاختلاف بينها ، فتميز بذلك التسبيح عن السجود وتميز به التسبيح لله عز وجل عن الاستغفار للعالم . كما لها نطق خاص بها لا نفهمه نحن البشر . فيقوم بعضها بالاستجابة لخالقها كما في مخاطبة الله عز وجل السموات والأرض في قوله تعالى : ﴿ **ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾ [فصلت : ١١] ، وكمخاطبته سبحانه النار : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ [ق : ٣٠] أو مخاطبة بعضها البعض ، كمخاطبة أعضاء الإنسان للسان حيث تقول له : « اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإنْ اعوججت اعوججنا » [2] . أو كالمخاطبة الصادرة منها

---

(١) من مذكرة العقيدة التي تدرس على طلبة السنة المنهجية بقسم العقيدة بجامعة أم القرى عام ١٤٠٥ هـ / ص ٢٩ – ٣٠ .

(٢) ترمذي / ك : الزهد – ب : حفظ اللسان . (صحيحه ح رقم ١٩٦٢) .

للإنسان كالهدهد والنملة والشجر والحجر والنار ، وغيرها والكلام الصادر عن تلك الكائنات هو بلسان المقال ، وذلك بإنطاق الله تعالى لها ، كما أن لها من الإدراك والتمييز ما يجعلها تدرك القول والفعل [1] . والنصوص الشرعية قد أثبتت هذا كشكوى النار إلى ربها ، وشكوى الجمل إلى رسول الله ﷺ وبكاء السموات والأرض ، وحنين الجذع لفراق النبي ﷺ عنه ، وسلام الحجر والشجر على رسول الله ﷺ ، وغضب وتغيظ النار عند رؤية الكافرين ، واشتياق الجنة لرؤية بعض الصحابة ، ورؤية الديكة للملك ، ورؤية الحمار للشيطان ، وكلام أعضاء الإنسان كاليد والفخذ واللحم والعظم ، وكلام الهدهد الذي حمل في فحواه دعوة التوحيد الخالصة وإنكار الشرك بالله تعالى ، واستئذان الشمس الله عز وجل بالسجود له والطلوع من مشرقها ، واحتجاج الجنة والنار لربهما ، وانقياد الشجرة لرسول الله ﷺ . إلى غير ذلك من الأمور التي سيأتي بيانها بالتفصيل . والتي تدل في جملتها على عبودية هذه الكائنات لله عز وجل ، وعلى الإدراكات التي أودعها الله عز وجل فيها والتي تقلع جذور ما شاع في ذهن الكثيرين أن هذه الكائنات لا تعقل ولا تدرك ، وأن كل ما أسند إليها من تسبيح وسجود هو بلسان الحال لا بلسان المقال ، وفاتهم أن الله عز وجل قال : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، أي لا تعلمون عبادتهم لله تعالى من التسبيح والتحميد والاستغفار وغيره ، إذ لو فقهتم لغتهم لعرفتم تسبيحهم ، ولكنكم لا تعلمون ولا تفهمون لغاتهم ، فليس معنى هذا أنهم لا يسبحون ، فالخالق القادر العليم الحكيم أخبرنا بأنهم يسبحون وهذا يكفي .

ولكني أوضح في هذا المقام أن فعل الطاعات وكذلك الإدراكات والتمييز المنسوب لتلك الكائنات خاص بها وإدراك كل منها بحسبه ، ولا يعلم كيفيته إلا مالك هذا الكون ، وخالق تلك الكائنات كلها وأقول : « هو بحسبه » وهي عبارة استخدمها كثير من أهل العلم (كما سنرى بعد قليل من كلامهم) –

---

(١) سوف يتضح ذلك أكثر بعد قليل بمشيئة الله تعالى عند الكلام بالتفصيل عن عبودية كل كائن ليؤكد هذه الحقيقة .

تفيد بأنه لا يلزم من هذا الكلام أن هذا الإدراك والتمييز كإدراك وتمييز البشر . ولكن مما لاشك فيه أن الله تعالى قد خلق البشر في أحسن صورة وأكمل تقويم ، قال تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فِي أحسن تقويم** ﴾ [التين : ٤] . وقد كرم الله تعالى بني آدم وفضلهم على كثير من الكائنات الأخرى . قال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بنِي آدم وحملناهم فِي البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [الإسراء : ٧٠] . والتفضيل هنا لما أسجد الله تعالى ملائكته له ، وكذلك لجعله خليفة الله تعالى في الأرض ولحسن الصورة التى أنشأه الله تعالى عليها ، ومنحه الإدراك والعقل التام ، وأما الإدراك والتمييز الذي خلقه الله عز وجل في الجمادات والحيوانات والنباتات فهو بحسبه لتقوم به في أداء مهمتها من فعل الطاعات كما تقوم به من أداء مهمتها المسخرة من أجله كتسخير بعض الحيوانات للإنسان بحيث إن دعاها الإنسان إليه أدركت واستجابت .

وكان من المفروض من هذا الإنسان – الذي كرمه الله تعالى على كثير من المخلوقات الأخرى – أن يكون أكثر عبودية لخالقه ومكرمه من تلك الكائنات . ولكن كثيرا منهم اتخذ مع الله آلهة أخرى فخرجوا عن عبوديتهم الحقة لله جل وعلا ، فلم يقابلوا هذا التكريم بالشكر والثناء على المُنعم ، بل قابلوه بالكفر والطغيان فكانت تلك الكائنات الأخرى والتي منحها الله عز وجل قدرًا من الإدراك والتمييز أكثر عبودية له سبحانه ، فكان التوبيخ لهؤلاء الصنف من البشر أن كانوا أضل من الكائنات الحيوانية فقال تعالى : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

ويجدر بنا أن نسرد كلام أهل العلم في إثبات تلك الإدراكات والتمييز الخاص بتلك الكائنات . فنقول وبالله التوفيق :

(١) يقول القرطبي – رحمه الله – في قوله تعالى : ﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها** ﴾ [النمل : ١٨] : « لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول ، وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير . قال ابن عطية : والنمل حيوان فطن – ثم قال – قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا

وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها ، قال الأستاذ أبو المظفر شاهفور الإسفرائيني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ووحدانية الإله ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا » [1] أ.هـ .

(٢) ويقول النووي – رحمه الله تعالى – في قوله عليه الصلاة والسلام : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث » : « فيه معجزة للنبي عليه الصلاة والسلام وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات [2] ، وهو موافق لقوله تعالى في الحجارة : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ وقوله : ﴿ **وإن من شيْءٍ إلا يسبح بحمده** ﴾ وفي هذه الآية خلاف مشهور والصحيح أنه يسبح حقيقة ويجعل الله تعالى فيه تمييزًا بحسبه » [3] أ.هـ .

(٣) ويقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – تعليقًا على إخباره عليه الصلاة والسلام بأن جبل أُحد يحب النبي ﷺ والصحابة : « هو على الحقيقة ولا مانع من وقوع ذلك بأن يخلق الله تعالى المحبة في بعض الجمادات » [4] أ.هـ .

(٤) ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال** ﴾ الآية [الأحزاب : ٧٢] : « وقد خلق الله للسموات والأرض والجبال إدراكًا يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه ، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها وأبت وأشفقت ، أي خافت على حملها ، ومثل هذا الإدراك تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة ، فمن الآيات الدالة على إدراك الجمادات المذكورة في قوله تعالى في سورة البقرة في الحجارة : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ وهذه الخشية التي نسبها الله تعالى لبعض الحجارة بإدراك يعلمه هو تعالى ومن الآيات الدالة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٣ – ص ١٧٦ .

(٢) تعليق : لا يقصد النووي – رحمه الله تعالى – أن بعضها يميّز وبعضها لا يميز ، ولكنه يقصد أن ما جاء في الحديث بعض من تلك الجمادات .

(٣) صحيح مسلم شرح النووي / جـ ١٥ – ص ٢٦ .

(٤) فتح الباري / مجلد ٦ – ص ٨٧ .

على ذلك قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السموٰات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيْء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ . ومنها قوله تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي عليه الصلاة والسلام لما انتقل بالخطبة إلى المنبر – وهو في صحيح البخاري – وأمثال ذلك كثيرة . فكل ذلك المذكور في الكتاب والسنة وإنما يكون بإدراك يعلمه الله تعالى ونحن لا نعلمه كما قال تعالى : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ ولو كان المراد بتسبيح الجمادات دلالتها على خالقها لكنا نفقهه كما هو معلوم ، وقد دلت عليه آيات كثيرة ﴾ » [(١)] أ.هـ .

وقال رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيْء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون** ﴾ [النحل : ٤٨] : « هذا الخلاف المذكور جاء أيضا في سجود الظلال ، فقيل : سجودها حقيقي والله تعالى قادر على أن يخلق لها إدراكا تدرك به وتسجد لله سجودًا حقيقيًّا ، وقيل : سجودها ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب ، وآخره إلى جهة المشرق ، وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له لأنه خيال فلا يمكن منه الإدراك . ونحن نقول : إن الله جل وعلا قادر على كل شيء فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكًا يسجد به لله تعالى سجودًا حقيقيا ، والقاعدة المقررة عند علماء الأصول هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها إلا بدليل من كتاب أو سنة » [(٢)] أ.هـ .

فالطريق الأسلم في هذا وغيره أن نوكِّل الكيفية لخالق تلك الكائنات كلها ، ولا نقيس بعقولنا إثبات أو نفي النصوص الشرعية وإلا أدى ذلك لنفي كثير منها

---

(١) أضواء البيان / جـ ٦ – ص ٦٠٥ .

(٢) المصدر السابق / جـ ٣ – ص ٨٧ .

رغم أنها صحيحة وصريحة ، فقد جاء بعضها وفيها تجسيم لبعض الأعراض ، وهذا يستبعده العقل لولا وروده في النص . فالنصوص قد أثبتت ذلك فيجب الإيمان به . وأذكر منها ما يلي :

(١) الصوم والقرآن لقوله ﷺ : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي ربي منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعني فيه ، قال : فيشفعان » (١) .

فلا يستبعد تجسيد ثوابهما ، ويخلق الله تعالى فيهما النطق ، وما ذلك على الله بعزيز ، فقد نقل الشيخ ناصر الدين الألباني الأقوال في هذا الحديث ورجح التجسيد ونفي التأويل وحذر منه بما نصه : « وهذا القول يحتمل أنه حقيقة بأن يجسد الله ثوابهما ويخلق الله فيه النطق ﴿ **والله على كل شيْء قدير** ﴾ ويحتمل بأنه على ضرب من المجاز والتمثيل . والأول هو الصواب الذي ينبغي الجزم به هنا وفي أمثاله من الأحاديث التي فيها تجسيد الأعمال ونحوها كتجسيد الكنز شجاعًا أقرع ، ونحوه كثير . وتأويل مثل هذه النصوص ليس من طريقة السلف – رضي الله تعالى عنهم – ، بل هي طريقة المعتزلة ومَنْ سلك سبيلهم من الخلف ، وذلك مما ينافي أول شرط في الإيمان ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ فحذار أن تحذو حذوهم فتضل وتشقى والعياذ بالله تعالى » (٢) أ.هـ .

(٢) الصلاة . فإنها تقول للمحافظ عليها : « حفظك الله كما حفظتني » ، وتقول للمضيع : « ضيعك الله كما ضيعتني » (٣) .

(٣) العمل الصالح والعمل السوء . « فالرجل الصالح يأتيه ، وفي رواية يمثل له ، رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول له : من أنت ؟

---

(١) أحمد / ٢ - ١٧٤ .

(٢) صحيح الترغيب والترهيب / ص ٤١١ .

(٣) راجع : جامع العلوم والحكم – ص ٢٠٦ .

فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح . وأما العبد الفاجر فيمثل له رجل قبيح الوجه قبيح الثياب نتن الريح ، فيقول : مَنْ أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث » [1] .

(٤) الموت . فإنه يُؤتى يوم القيامة وينحر بين الجنة والنار ثم ينادي مناد : « يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت » [2] .

(٥) الرحم . فمن حديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فقال : مه . قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب . قال : فذلك لك » [3] .

فنسبة القيام والتعلق والأقوال للرحم يدل على أنها هي التي تتكلم لا غيرها . قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « قوله : (قامت الرحم) يحتمل أن يكون على الحقيقة والأعراض يجوز أن تتجسد وتتكلم بإذن الله ويجوز أن يكون على حذف أي قام ملك فتكلم على لسانها . ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة ، والمراد تعظيم شأنها وفضل واصلها وإثم قاطعها » [4] .

كما نقل – رحمه الله تعالى – في موضع آخر بأنه : « يحتمل أن يكون بلسان الحال ويحتمل أن يكون بلسان المقال . قولان مشهوران والثاني أرجح ، وعلى الثاني فهل تتكلم كما هي أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلا

---

(١) أحمد (١/٢٩٣) ، مختصر أحكام الجنائز / ص ١٠٦ .

(٢) بخاري / ك : الرقاق – ب : صفة الجنة والنار .
، مسلم / ك : صفة الجنة – ب : خلود أهل الجنة أهل النار فيما هم فيه . (مختصره / ح رقم ١٩٧٤) .

(٣) بخاري / ك : أدب – ب : من وصل وصله الله .

(٤) فتح الباري / جـ ٨ – ص ٥٨٠ .

قولان أيضا مشهوران والأول أرجح لصلاحية القدرة العامة لذلك » [1] .

(٦) الأيام . خاصة يوم الجمعة : فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « تُحشر الأيام على هيئتها ، ويُحشر يوم الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفون بها كالعروس تهدى إلى خدرها ، تضيء لهم ، يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضًا ، وريحهم كالمسك يخوضون في جبال الكافور ينظر إليهم الثقلان لا يُطرِقون تعجبا حتى يدخلوا الجنة لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون » [2] .

كما يدل على تجسيد هذا اليوم حديث أكثر بيانا من سابقه . وهو حديث عن أنس بن مالك – رضي الله تعالى عنه – قال : « عُرضت الجمعة على رسول الله ﷺ ، جاءه بها جبريل عليه السلام في كفه كالمرآة البيضاء في وسطها كالنكتة السوداء ، فقال : ما هذه يا جبرائيل قال : هذه الجمعة ، يعرضها عليك ربك ، لتكون لك عيدا ، ولقومك من بعدك ، ولكم فيها خير ، تكون أنت الأول ، وتكون اليهود والنصارى من بعدك ، وفيها ساعة لا يدعو أحد ربه فيها بخير هو له قسم ، إلا أعطاه ، أو يتعوذ من شر إلا دفع عنه ما هو أعظم منه ، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد » .. الحديث [3] .

وهذا لا يستسيغه العقل البشري المادي ، ولكن يقبله القلب المؤمن والعقل النير ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ [ق : ٣٧] . فكيف نخوض في أشياء غيبية لا نعلم عنها إلا ما علم بالنص الصحيح ، فنحن لم نشهد خلقها . فعجبا لذلك !!. فقد قال تعالى :

---

(١) فتح الباري / جـ ١٠ – ص ٤١٧ .
(٢) صحيح الترغيب والترهيب / ح رقم ٧٠٠ .
(٣) صحيح الترغيب والترهيب / ح رقم ٦٩٤ .

﴿ **ما أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ [الكهف : ٥١] ، كما غضب الله تعالى على قوم قالوا في ملائكته قولا مفترى هم في غيبة عن حقيقته . فقالوا إن الملائكة هم بنات الله . فرد الله تعالى عليهم فريتهم فقال عز من قائل في محكم كتابه : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ [الزخرف : ١٩] .

مما تقدم ذكره يتبين لنا حكمة الشرع من النهي عن قتل بعض الحيوانات وذلك لما لها من عبودية لخالقها عز وجل . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصرد [(١)] ، والضفدع ، والنملة ، والهدهد » [(٢)] . وزاد في رواية ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – « والنحل » [(٣)] .

وأما عن لعن الحيوانات والنهي فيه ، فقد جاء عن عمران بن حصين – رضي الله تعالى عنه – قال : بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت ، فلعنتها ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة » [(٤)] .

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر بالرفق بالحيوان ويقول : « اتقوا الله في هذه البهائم » [(٥)] . كما نهى رسول الله ﷺ عن لعن بعض الكائنات الأخرى كالريح . فعن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – : أن رجلا لعن الريح عند

---

(١) الصرد : طائر ضخم الرأس ، أبيض اللون ، يصطاد صغار الطير .
(صحيح ابن ماجة / جـ ٢ – ص ٢١٧) .
(٢)،(٣)ابن ماجة / ك : الصيد – ب : ما ينهى عن قتله . (وصحيحه ح رقم ٢٦٠٨ ، ٢٦٠٩) .
(٤) مسلم / ك : البر والصلة – ب : في لعن البهائم والتغليظ فيه (مختصره ح رقم ١٨٢٠) .
(٥) أبو داود / ك : الجهاد – ب : ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم .

رسول الله ﷺ فقال : « لا تلعن الريح فإنها مأمورة ، وأنه مَنْ لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه » [١] .

ومع إثبات طاعات لتلك الكائنات ، وإثبات إدراكها وتمييزها فإنا نجد في المقابل أن هناك بعضًا من هذه الكائنات قد عصت ربها و لم تقم بطاعات له سبحانه وأطلق على بعضها ﷺ أنها فاسقة ، وأمر بقتلها . فعن عائشة – رضي الله تعالى عنها – أن رسول الله ﷺ قال : « الحية فاسقة والعقرب فاسقة والفأرة فاسقة والغراب فاسق » [٢] وأمر بقتلهم جميعًا .

وفي رواية عنها أيضا زادت فيها : « والكلب العقور » [٣] يقتل أيضا .

وبين عليه الصلاة والسلام سبب قتل الكلب الأسود بأنه شيطان حيث تكون الشياطين في بعض الحيوانات . فقال عليه الصلاة والسلام : « الكلب الأسود شيطان » [٤] .

فالكلب الأسود من جملة الشياطين التي لا تسبّح بحمد ربها كما جاء في حديث عمرو بن عبسة [٥] – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله إلا سبّح الله بحمده إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم » [٦] .

ومن جملة الكائنات الحيوانية الفاسقة : الوزغ ، حيث سماه عليه الصلاة والسلام فويسقا [٧] وبيّن عليه الصلاة والسلام سبب فسقه وسبب الأمر بقتله

---

(١) ترمذي / ك : البر والصلة – ب : ما جاء في اللعنة (وصحيحه رقم ١٦١١) .
(٢) ابن ماجة / ك : الصيد – ب : الغراب (صحيحه ح رقم ٢٦٢٩) .
(٣) بخاري / ك : الصيد – ب : إذا أكل الكلب .
(٤) ابن ماجة / ك : إقامة – ب : ما يقطع الصلاة . (صحيحه ح رقم ٧٧٧) .
(٥) سبقت ترجمته ص ٢٤٦ .
(٦) صحيح الجامع الصغير / ح رقم ٥٤٧٥ .
(٧) وذلك لحديث عائشة – رضي الله تعالى عنها – : أن رسول الله ﷺ قال للوزغ : « الفويسقة » . (ابن ماجة / ك : الصيد – ب : قتل الوزغ) ، (صحيحه ح رقم ٢٦١٥) .

وذلك لحديث سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة أنها دخلت على عائشة – رضي الله تعالى عنها – فرأت في بيتها رمحًا موضوعًا فقالت : « يا أم المؤمنين ! ماذا تصنعين بهذا ؟ قالت : نقتل به هذه الأوزاغ ، فإن نبي الله ﷺ أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة أطفأت النار غير الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ، فأمر رسول الله ﷺ بقتله » [١] .

ولا عبرة لحجم الحيوان في وسمه بالفسق ، فالأسد مثلا على كبر حجمه وشراسة طبعه لم يسم فاسقا ، بل قد ورد عنه أنه ساعد أحد الصحابة للوصول إلى معسكر المسلمين بعد أن ضاع منه ، وكان ذلك من الكرامات التي يؤيد الله بها بعض عباده الصالحين . فعن سفينة [٢] مولى رسول الله ﷺ أنه أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر فانطلق هاربا يلتمس الجيش ، فإذا هو بأسد . فقال : يا أبا الحارث [٣] . أنا مولى رسول الله ﷺ ، كان من أمري كيت وكيت ، فأقبل الأسد له بصبصة [٤] حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتا أهوى إليه ، ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد » [٥] .

وهو يدل في الوقت نفسه على الإدراك والتمييز الذي كان في ذلك الحيوان وأدرك كلام سفينة ولم يؤذه بل أعانه على الرجوع إلى جيش المسلمين .

ومن الكائنات النباتية التي لم تبد طاعة لربها عز وجل – شجر الغرقد – وهو نوع من شجر الشوك يتخذه اليهود لهم ، وبيّن عليه الصلاة والسلام أنه من شجرهم . وأخبر عليه الصلاة والسلام بالحرب التي ستكون بين المسلمين

---

(١) ابن ماجة / ك : الصيد – ب : قتل الوزغ . (صحيحه ح رقم ٢٦١٦) .

(٢) سفينة : يكنى أبا عبد الرحمن ، يقال كان اسمه مهران ، ولقب سفينة لكونه حمل شيئا كبيرا في السفر ، مشهور ، له أحاديث (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٣١٢) .

(٣) كنية الأسد .

(٤) من تحريك الذنب .

(٥) مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٩٤٩ ، شرح السنة / ح رقم ٣٧٣٢ .

واليهود آخر الزمان فيختبيء اليهود وراء الشجر أو - الحجر - فتخبر الشجرة - أو الحجرة - المسلم بأن يهوديا وراءها ليأتي ليقتله ، فترشد الشجرة المسلم إلى اليهود الذين يختبئون إلا شجر الغرقد فإنه من شجر اليهود .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » [١] .

ما سبق بيانه إجمالا (وسيأتي تفصيلا بعد قليل بمشيئة الله تعالى) يدل في جملته على عبودية الكائنات كلها لرب العالمين ، وأن لهذه الكائنات (الحيوانية والجمادية والنباتية) إدراكًا وتمييزًا ، كما أنها ليست مجبورة بالكلية فلها من الاختيار ما يجعل بعضها يرجح أمرا على أمر ، كترجيح السموات والأرض الإتيان الطوعي على الإتيان الجبري ، كما في قوله تعالى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾ [فصلت : ١١] .

وكالشمس حيث تستأذن ربها كل يوم بالسجود له وبالطلوع من مطلعها ، وكالشجرة التي استأذنت للسلام على النبي ﷺ ، وغيرها كثير .

ولو كانت هذه الكائنات مجبورة في عبوديتها ومسخرة بالكلية لما كانت كذلك . ولاشك أن الله عز وجل قد سخرها ، وسخر كثيرا منها لبني آدم ، ولكنه سبحانه منحها شيئا من الاختيار . فتقوم بعبوديتها تجاه خالقها وفاطرها . فعرض الأمانة مثلا على السموات والأرض والجبال كان عرض تخيير في قبولها أولا ، وكان عرض الله تعالى الأمانة عليها حقيقة . فلم تقبلها ، ليس عصيانا منها ، ولكن إشفاقا من حملها ، وخوفا من عدم القيام بحقها [٢] . فهذه

---

(١) مسلم / ك : الفتن - ب : في قتال المسلمين اليهود . (مختصره / ح رقم ٢٠٢٥) .

(٢) سيأتي إن شاء الله تعالى مزيد من الكلام عن عبودية (الشمس والشجر والسموات والأرض والجبال) .

الكائنات من السموات والأرض والجبال وغيرها من الكائنات غير البشرية قد خضعت لخالقها جل وعلا ولم تشذ في عبوديتها لربها بل كانت في غاية الخضوع والاستسلام باختيارها . بينما نجد الإنسان قد شذ ولم يؤد الكثير منه عبوديته لخالقه .. ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ [الحج : ١٨] والسبب في ذلك أنه استخدم عقله استخداما خاطئا فأفسد عقيدته وعلاقته بخالقه جل وعلا ودخله الكبر والغرور فأفسد نفسه وسار وراء شهواته فغير فطرته وابتعد عن ربه .

إن الاختيار لدى تلك الكائنات وكذلك إدراكها وطاعتها وعصيان بعضها ، يظهر الحكمة في محاسبة الله تعالى يوم القيامة لبعض تلك الكائنات لإظهار عدل الله تعالى وأنه سبحانه لا يظلم أحدا من خلقه ، وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال عليه الصلاة والسلام : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء [1] من الشاة القرناء » [2] .

وعنه ﷺ قال : « يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء وحتى الذرة من الذرة » [3] .

وعن أبي ذر - رضي الله تعالى عنه - أنه قال : رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان ، فقال : يا أبا ذر أتدري فيما تنتطحان ؟ قلت : لا . قال : ولكن ربك يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة » [4] .

* * *

---

(١) التي ليس لها قرون .
(٢) مسلم / ك : الظلم - ب : القصاص وأداء الحقوق يوم القيامة . (مختصره / ح رقم ١٨٣٧) .
(٣) أحمد / ٢ - ٣٦٣ .
(٤) راجع السلسلة الصحيحة / ح رقم ١٥٨٨ .

المبحث الأول
عبودية الحيوانات

الدواب عموما

إن الكلام عن الحيوانات يشمل كل ما يدب على الأرض ، لذا يطلق عليها الدواب . والدواب لها فصائل وأنواع مختلفة كل منها على حدة يمثل أمة من الأمم لها نظامها الخاص بها ، كما لها تسبيحها الذي أعلمه الله عز وجل لها ، فقد أخبر الله تعالى بذلك بقوله : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾ [الأنعام : ٣٨] . فالآية تبين أن الكائنات العلوية والسفلية ما هي إلا أمم كأمم البشر ونسبة التسبيح لها على الحقيقة . فقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – : « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله » [١] .

فجميع الكائنات ما هي إلا أمم متنوعة . وقد نقل ابن كثير عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه قال : « أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها » وقال قتادة : الطير أمة والإنس أمة والجن أمة » [٢] .

وأما قوله تعالى : ﴿ **إلا أمم أمثالكم** ﴾ فهي أمثال أمة البشر في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص . ففي قوله تعالى : ﴿ **ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ يعني

---

(١) بخاري / ك : الجهاد – ب : ١٥٣ .
ابن ماجة / ك : الصيد – ب : ما ينهى عن قتله . (صحيحه رقم ٢٦١٠) .
(٢) تفسير القرآن العظيم / جـ ٢ – ص ١١٤ .

الأمم المذكورة وفيه دلالة على أنها تُحشر كما يحشر بنو آدم [1] .

ولا يمنع أن تشبهها أيضا في عبادة الله عز وجل من التسبيح له سبحانه ، كما دلت عليه النصوص الكثيرة منها حديث البخاري السابق . والسجود والإشفاق من قيام الساعة والكلام وغيره مما سيأتي بمشيئة الله تعالى بعد قليل .

(١) سجود الدواب :

فأما سجود الدواب كلها فقد دلت النصوص القرآنية عليه منها :

قوله تعالى : ﴿ **ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾ [النحل : ٤٩] . فالله عز وجل يخبر عن سجود الدواب التي في الأرض وهي من جملة الكائنات المخلوقة التي تعترف بعظم خالقها وقدرة صانعها فتخضع وتذل لجلاله .

وقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس** ﴾ [الحج : ١٨] . فعطف الدواب وكذلك الجمادات على الأمم الأخرى كأمة الملائكة وأمة الجن وأمة الإنس ، يدل على خضوع تلك الكائنات كلها لعظيم سلطان الله عز وجل خضوع اختيار ، وأنها لا تخرج عن نطاق عبوديتها لله عز وجل .

(٢) إشفاقها من يوم الجمعة :

فالدواب تشفق وتخاف ، ويشتد خوفها يوم الجمعة لقيام الساعة فيه ، فهي وكأنها تترقب وقوعه . حتى تستعد له ، ولكن عجبا لبعض الإنسان الذي يؤمن بالساعة ولكنه لا يستعد لها إلا مَنْ رحم الله تعالى .

---

(١) راجع : فتح القدير / جـ ٢ – ص ١١٤ .

تعليق : راجع : في هذه المسألة : حشر البهائم وجريان القصاص بينها . كتاب « حياة الحيوان الكبرى » – الدميرى / جـ ١ – ص ٢٦٣ – ٢٦٥ .. فهو مهم للغاية . وكلام ابن تيمية فيها في الفتاوى / مجلد ٤ – ص ٢٤٨ .

فعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال : « ما من دابة إلا وهي مصيخة [1] يوم الجمعة خشية أن تقوم الساعة » [2] ، وجاء في رواية أخرى : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهي تفزع ليوم الجمعة ، إلا هذين الثقلين : الجن والإنس » [3] .

(٣) راحتها من موت الفاجر :

فالدواب تستريح من موت الفاجر ، وكذلك الشجر ، وذلك لمبارزته لله عز وجل بانتهاك حرماته ، ففي الحديث : « أنه ﷺ مر عليه بجنازة فقال : مستريح ومستراح منه . فقالوا : يا رسول الله ما المستريح وما المستراح منه ؟ قال : إن العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب » [4] .

(٤) كلام الدواب :

وهي من علامات الساعة الكبرى ، أن الدابة التي يخرجها الله عز وجل للناس وتُكَلِمهم وتتحدث إليهم حيث قال تعالى : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ [النمل : ٨٢] .

و« تُكَلِمهم » من التكليم ، ويدل عليه قراءة أُبيّ « تنبئهم » ، وقيل : « تَكْلمهم » من الكلم وهو الجرح ، فقال عكرمة [5] : أي تسمهم . وقيل : تجرحهم [6] .

---

(١) مصيخة : منصتة ومستمعة ومصغية ، تتوقع قيام الساعة .
(صحيح الترغيب والترهيب / ص ٢٩٤) .

(٢)،(٣) مسند أحمد / ٢ - ٢٧٢ ، ٤٥٧ ، ٤٨٦ .
(صحيح الترغيب والترهيب / ح رقم ٦٩٩) .

(٤) بخاري / ك : رقاق - ب : سَكرات الموت .

(٥) هو : عكرمة بن عبد الله ، مولى ابن عباس ، أصله بربري ، ثقة ثبت ، عالم بالتفسير ، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ، ولا يثبت عنه بدعة ، مات سنة ١٠٧ هـ . (تقريب التهذيب / جـ ٢ - ص ٣٠) .

(٦) راجع : فتح القدير / جـ ٤ - ص ١٥٢ .

وعلى أي حال فهي آية من آيات الله عز وجل لتخويف عباده حتى يرجعوا إلى عبوديتهم لله تعالى ، كما سبقت الآيات الأولى في بيان سجود وتسبيح الدواب لحث البشر على أحقيتهم بذلك حيث إنهم مفضلون على كثير من المخلوقات ، فهم أحق بالعبادة لله تعالى : قال تعالى : **﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا ﴾** [الإسراء : ٧٠] .

البقـرة

هذا الكائن المخلوق اعترف بأنه مربوب مخلوق ، وأن خالقه سبحانه عز وجل قد سخره لخدمة بني آدم . وهذا الاعتراف قد سمعه الناس زمن رسول الله عليه السلام . ففي صحيح البخاري أنه ذكر : « بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها ، فقالت : إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث » .

فقال الناس : سبحان الله بقرة تتكلم !!

فقال عليه الصلاة والسلام : « فإن أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر » [(١)] .

فالبقرة تكلمت إلى هذا الرجل بما تفهمه سوء استخدامه لها حيث أراد ركوبها فضربها فأخبرته بأن خالقها قد سخرها للحرث ولأشياء أخرى لخدمته ، وليس لركوبها أو لضربها و لم تقصد حصر تسخيرها في الحرث فقط ، فلها منافع أخرى ، فيقول ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « قولها « إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث » إشارة إلى معظم ما خلقت له لأن من أجل ما خلقت له أنها تذبح وتؤكل بالاتفاق » [(٢)] .

---

(١) بخاري / ك : الأنبياء – ب : ٥٤ .

(٢) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٥١٨ .

الجمــل

والجمل من الدواب التي شملتهم آية سورة النحل في قوله تعالى : ﴿ **ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾ [النحل : ٤٩] . وهي مسخرة لبني آدم يستخدمها في ترحاله وكذلك بأكل لحومها . إلى غير ذلك مما سخرها الله عز وجل من أجل بني آدم .

وقد حدث زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن جملا قد اشتكى إليه النصب الذي كان يلاقيه من صاحبه ، وقد سمع رسول الله ﷺ شكواه ، وتأثر لذلك . فقد روى ذلك أبو داود في سننه أنه : « دخل عليه الصلاة والسلام حائطا لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام حنَّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي عليه السلام فمسح سراته إلى سِنامه وذفراه فسكن ، فقال : من رب هذا الجمل ؟! فجاء فتى من الأنصار فقال : لي يا رسول الله . فقال : ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه (١) » (٢) .

وقوله : « فلما رأى النبي عليه السلام » دليل على الإدراك الذي عند الجمل بمعرفته رسول الله عليه السلام وكأنه وجد أخيرا مَنْ ينقذه من العذاب الذي هو فيه من صاحبه لذا حنَّ وبكى ودمعت عيناه ، ولكن ما إن وضع عليه الصلاة والسلام يده عليه حتى سكن وهدأ ثم شكا ما به إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام .

فكيف نحمل هذا الشعور والإدراك وهذه الشكوى على المجاز ونستبعد أن يكون ذلك حقيقة ؟!

---

(١) تدئبه : تتعبه .

(٢) أبو داود / ك : جهاد – ب : ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم .

إن هذا الدليل وغيره من الأدلة يؤكد أن الله عز وجل أودع في تلك الحيوانات وغيرها من الجمادات إدراكات تميز بها وكل بحسبه ، وهو القادر سبحانه على ذلك . بل مما يؤكد هذه الحقيقة أن الكائنات كلها بما فيهم الدواب تعلم بنبوة سيدنا محمد ﷺ إلا عصاة بني البشر وعصاة الجن . فالحديث الآتي يدل دلالة واضحة على معرفة الجمل برسول الله ﷺ ، وهو ما أكده رسول الله ﷺ . فعن جابر – رضي الله تعالى عنه – قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى دفعنا إلى حائط في بني النجار ، فإذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه فذكروا للنبي عليه الصلاة والسلام فأتاه فدعاه ، فجاء واضعا مشفره على الأرض حتى برك بين يديه ، فقال : « هاتوا خطاما » فخطمه ، ودفعه إلى صاحبه ثم التفت فقال : « إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس » [1] . أي إن ذلك الجمل وغيره من الكائنات الأخرى التي بين السماء والأرض لتعلم رسول الله ﷺ وتؤمن برسالته ونبوته إلا العصاة من الجن والإنس . كما دل الحديث على إدراك الجمل وطاعته لأمر رسول الله ﷺ لما دعاه إليه .

كما كانت الناقة التي كان عليها رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة مأمورة من خالقها عز وجل بالاستقرار والبروك في الموضع الذي حدده الله تعالى لها . فقد كان الصحابة يمسكون بزمامها ويطلبون منه عليه الصلاة والسلام النزول عندهم فيقول عليه الصلاة والسلام : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » [2] ، حتى بركت على مكان فيه باب المسجد النبوي اليوم .

فسبحان الذي خلق فسوى ، وأهدى الكائنات كلها للإيمان به والقيام بعبوديتها له .

---

(١) أحمد / ٣ – ٣١٠ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة / رقم ١٧١٨ .
وصحيح الجامع برقم / ٢٤٠٥ .

(٢) ذكره أبو الحسن الندوي في كتابه : « السيرة النبوية » / ص ٢٢١ .
وابن حجر في فتح الباري / جـ ٧ – ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

الحيتان

خلق الله تعالى السمٰوات والأرض وجعل لكل منهما أهلا ، فأسكن ملائكته السموات ، وأسكن الإنسان والجن والحيوانات الأرض ، ومن جملة الأرض البحار والأنهار وهي من جنس واحد لوجود ما بها من ماء ، ولكن هذا ملح أجاج وهذا عذب فرات . وخلق أيضا في أعماق هذه المياه مخلوقات يصعب حصرها من الحيتان المختلفة في أنواعها وأشكالها وألوانها وفصائلها . وكل المخلوقات التي في السموات أو في الأرض أو في البحار عابدة له سبحانه وتعالى مسبحة بحمده كما يظهر ذلك مما يأتي في الحيتان .

– استغفار الحيتان للعالِم ومُعلم الناس الخير :

لقوله عليه الصلاة والسلام : « إنه ليستغفر للعالِم من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر » (١) .

فقوله عليه الصلاة والسلام : « حتى الحيتان » إشعار بأن كل الكائنات علوها وسفلها حيوانها ونباتها وجمادها تقدر منزلة العالِم لذا فهي تستغفر له ، فالكل يستغفر حتى من لا يخطر ببالك بأن يستغفر . فالحيتان في البحر تستغفر والنملة في جحرها تستغفر وتدعو لمُعلم الناس الخير كما أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر بقوله : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على مُعلم الناس الخير » (٢) .

فالحيتان في البحر والنملة في جحرها يقدرون فضل العالِم ومنزلته في تعليم الخير (٣) .

---

(١) ابن ماجة / مقدمة – ب : ثواب معلم الناس الخير (صحيحه / ح رقم ١٩٥) .

(٢) ترمذي / ك : العلم – ب : في فضل الفقه على العبادة . (وصحيحه ح رقم ٢١٦١) .

(٣) تعليق : ولكن مما يؤسف أننا لا نجد هذا التقدير من كثير من البشر تجاه العالِم أو معلم الناس الخير ، وياليت لهذا الحد فحسب بل تجاوز إلى السخرية والتهكم والتشريد والتعذيب إلى غير ذلك ، وهذا أمر طبعي يقابله العلماء والدعاة إلى الله تعالى ولكن يكفي أن نؤمن بأن الحيتان والنمل أكثر تقديرا للعالم من كثير من البشر .

الديــك

أخبر عليه الصلاة والسلام أن الديك يؤذن للصلاة ، ولهذا نهى عليه الصلاة والسلام عن سب الديك ، فعن زيد بن خالد [1] – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : « لا تسبوا الديك فإنه يدعو إلى الصلاة » . وفي رواية أبي داود : « فإنه يوقظ للصلاة » [2] .

وقد يكون هذا مستغربا من أول وهلة ، ولكنا ندرك ذلك حقيقة في حياتنا اليومية ، فكثيرا ما نسمع صوت الديك مع الأذان الأول للفجر أو قبله بقليل . وقد جُرب هذا كثيرا ، فثبت للناس أنها تصيح في أوقات محددة لا تخطئها كالأذان الأول لصلاة الفجر ، وغير ذلك مما جعل بعضهم يقتني الديك ليستيقظ على صياحه لصلاة الفجر .

وهذا هو السبب في أنه عليه الصلاة والسلام أمرنا بأن نسأل الله من فضله إذا سمعنا صوت الديك . فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا سمعتم الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكا ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم فإنها رأت شيطانا » [3] . وفي الحديث دلالة على إدراك الديك لرؤيته الملك ، وكذلك إدراك الحمار لرؤيته الشيطان مما يؤكد على الإدراكات التي أودعها الله عز وجل في تلك الحيوانات وغيرها وإنها تعقل وتدرك بعقل وإدراك خاص بها ، وإن لم يكن كعقل وإدراك البشر فهم فيهم أكمل وأحسن وذلك لفضل الله لهم على كثير من المخلوقات ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فِى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

---

(١) هو : زيد بن خالد الجهني المدني ، صحابي مشهور ، مات بالكوفة سنة ٦٨ هـ .
(تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٢٧٤) .

(٢) أحمد / ٥ – ١٩٣ ، أبو داود / ك : الأدب – ب : ما جاء في الديك والبهائم .
، (صحيح الجامع / ح رقم ٧١٩١) .

(٣) مسلم / ك : الدعاء – ب : الدعاء عند صياح الديكة . (ومختصره / ح رقم ١٨٨١) .

الذئـــب

تكلم الذئب كلاما زمن رسول الله ﷺ يفيد اعتقاده بأن الرزق بيد الله سبحانه ، بل وأمر راعي الغنم بتقوى الله تعالى ، كما يفيد بأن الذئب عالم بنبوة سيدنا محمد ﷺ ، وأخبر الراعي بمكانه بالمدينة ، فكانت إحدى معجزاته ﷺ ، ذكرها الإمام الهيثمي [1] - رحمه الله تعالى - من علامات النبوة [2] ، والقصة ذكرها البخاري في صحيحه : بينما رجل في غنمه إذ عدا ذئب فذهب منها بشاة فطلب حتى كأنه استنقذها فقال له الذئب : هذا استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري . فقال الناس : سبحان الله !! ذئب يتكلم . فقال عليه الصلاة والسلام : « فإني أومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر » [3] .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : عدا الذئب على شاة فأخذها فطلب الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه ، قال : ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إليّ . فقال : يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق . قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ فنودي الصلاة جامعة . ثم خرج فقال للراعي : أخبرهم . فأخبرهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « صدق والذي نفسي بيده » [4] .

فالحديث يدل دلالة واضحة على كلام الذئب ويسد باب مَنْ يقول بالمجاز سدا . فلقد دهش الراعي وكذلك الناس ، فقال الراعي : « يا عجبي ذئب مقع

---

(١) هو : الحافظ نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان بن عمر ، رفيق الحافظ أبي الفضل العراقي . ولد سنة ٧٣٥ هـ ، وكان يحفظ كثيرا من متون الأحاديث ، مات سنة ٧٠٧ هـ .
(ذيل تذكرة الحفاظ / ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٢) مجمع الزوائد / ك : علامات النبوة - ب : شهادة الذئب بنبوته ﷺ .

(٣) بخاري / ك : أنبياء - ب : ٥٤ .

(٤) أحمد / ٣ - ٨٣ ، ٨٤ ، السلسلة الصحيحة / ح رقم : ١٢٢ .

على ذنبه يكلمني كلام الإنس ، وقال الناس : « سبحان الله – ذئب يتكلم » .
هذا ويبين الحديث عبودية الذئب لله تعالى ، فهو يؤمن بأن الله تعالى الخالق الرزاق ويخاطب الراعي بأن يتقي الله عز وجل كما يفيد الراعي بأن رسول الله ﷺ بالمدينة ويحدث الناس بأخبار الأمم السابقة . فيُعلم بذلك أن هذا الذئب كان بالمدينة وعلم بما يقوله عليه الصلاة والسلام وأدرك ما يقوله عليه الصلاة والسلام ، وحدده بأنه كلام عن الأمم السابقة . فيا عجبا من هذه الإدراكات التي خلقها الخالق الحكيم في مثل هذا الحيوان وغيره ، وتدل على عظمة الله تعالى وبديع صنعه .

الفـــرس

من العجب أن نجد الفرس يدعو بدعاء يتجه به إلى مَنْ يستحق الدعاء وهو الله عز وجل . ولكنا ما دمنا قد آمنا بعبودية وخضوع الكائنات كلها لله عز وجل بما يستحقه سبحانه فإن هذا العجب يزول ، ويزداد إيمان الذين آمنوا فوق إيمانهم ﴿ **ويزداد الذين آمنوا إيمانا** ﴾ [المدثر : ٣١] .

فعن أبي ذر الغفاري – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوة يقول : اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم ، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه » (١) . فإن الفرس يعترف بأنه مقهور ومسخر من قِبل الله تعالى لبني آدم ولكنه في الوقت نفسه يعبد الله تعالى باختيار منه فيدعوه سبحانه بأن يجعله مذللا ومحببا إلى مَنْ قدَّر الله تعالى له بامتلاك هذا الفرس حتى يحافظ عليه ويتقي الله تعالى فيه ، وذلك لأمر النبي عليه الصلاة والسلام بتقوى الله تعالى في هذه البهائم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة

---

(١) أحمد / ٥ – ١٧٠ ، صحيح الجامع / ح رقم : ٢٤١٠ .

وكلوها صالحة »[1] . كما يخبر عليه الصلاة والسلام بأن دعوة الفرس التي دعا بها ربه جل وعلا وأظهر بها عبوديته له ، قد استجاب الله تعالى لها . فقال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا الفرس قد استجيب له دعوته »[2] .

النمـــل

هذا الكائن من الحيوانات اجتماعي ويعيش حياة جماعية يطول شرحها في هذا المقام الذي لا يعنيه سوى إثبات عبودية هذا الكائن .

لنقرأ النصوص الشرعية التي توضح لنا بعضا من عبودية النمل لله تعالى . فعن تسبيح النمل يروي لنا البخاري – رحمه الله تعالى – حديثا فيها : « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله »[3] .

فهذا إخبار من الله عز وجل على لسان نبيه عليه السلام بأن النمل أمة تسبح الله عز وجل ، وهذا التسبيح حقيقي ، وأما الكيفية فالله تعالى أعلم بها .

يقول الحافظ بن حجر – رحمه الله تعالى – : « قوله عليه السلام : « أمة من الأمم تسبح الله » استُدل به على أن الحيوان يسبح الله تعالى حقيقة ويتأيد به قول من حمل قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيْء إلا يسبح بحمده** ﴾ على الحقيقة »[4] .

وقد منَّ الله تعالى على سليمان عليه السلام بأن علمه منطق الطير وكذلك الحيوانات وأخبرنا سبحانه وتعالى بأن سليمان عليه السلام قد تبسم من قول

---

(١) أبو داود / ك : الجهاد – ب : ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم .
وسلسلة الأحاديث الصحيحة ح رقم ٢٣ .

(٢) أحمد / ٥ – ١٦٢ .

(٣) بخاري / ك : جهاد – ب : ١٥٣ .

(٤) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٣٥٩ .

النملة ، بمعنى أنه عليه السلام قد فهم كلام النملة فتبسم ، قال تعالى : ﴿ **قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ [النمل : ١٨] . وفي قولها : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ يدل على أدبها الرفيع حيث نزهت نبي الله سليمان عليه السلام والمؤمنين معه أن يفعلوا ذلك تعمدا ، فهذا الكلام والتسبيح والأدب هو على ا لحقيقة حيث دلت عليه النصوص .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « فتكلمت النملة بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة : النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعتذار ، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة » [١] أ.هـ .

وأما عن دعاء النملة للعالِم الذي يعلِّم الناس الخير ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون [٢] على مُعلِّم الناس الخير » [٣] .

فالنملة تعلم منزلة مُعلم الناس الخير وتدعو له ، وإلحاقها وعطفها على دعاء الله عز وجل والملائكة وأهل السموات والأرض له يدل على أن الدعاء لها حقيقي وليس مجازيا فإن قيل بالقول الثاني الذي ذكره ابن حجر في أنه لا يمنع حمل التسبيح على المجاز بأن يكون سببا للتسبيح قلنا : فماذا نقول هنا في دعاء النملة لمُعلم الخير وعطفه على دعاء ما سبقها ؟! فإنا هنا نمنع حمله على المجاز وبالتالي نمنع حمل التسبيح على المجاز أيضا . ولمزيد من الإيضاح والتأكيد على ما نقول إليك ما أورده ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسيره ، حيث ذكر رواية أذكرها بالتفصيل فقال : « قال ابن أبي حاتم [٤] (وذكر السند) : خرج

---

(١) مفتاح دار السعادة / جـ ١ – ص ٢٤٣ .

(٢) الصلاة لغة : الدعاء .

(٣) ترمذي / ك : العلم – ب : في فضل الفقه على العبادة . (وصحيحه ح رقم ٢١٥٩) .

(٤) هو : الإمام الحافظ الناقد أبو محمد عبد الرحمن ابن الحافظ الكبير أبي حاتم محمد بن إدريس التيمي الرازي . ولد سنة ٢٤٠ هـ ، صاحب كتاب « الجرح والتعديل » ، توفي سنة ٣٢٧ هـ . (تذكرة الحفاظ – الذهبي / جـ ٣ – ص ٣٥٩) .

سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي فإذا بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك وإلا تسقنا تهلكنا . فقال سليمان : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم » [1] .

فكيف نحمل دعاء النملة وطلبها للسقيا على المجاز وسماع سليمان لها بما أوتي من علم ؟! حقًّا إنه تكلف بحمل النصوص الشرعية أشياء لا تقبلها ولا تتحملها .

الهـــدهـــد

لقد سخر الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام كثيرا من الكائنات كان من جملتها الطيور بأنواعها ، وقد أُوتي من المعجزات ما جعله يدرك منطق الطير ويفهم كلامها ويخاطبها ، وهذا يجعلنا نؤمن بإدراك تلك الكائنات وأن لها تسبيحا بحسبه . إن خطاب سليمان عليه السلام وتوعده الهدهد ليدل على تمييزه وإدراكه وذلك فيما أخبر به القرآن الكريم . فقد كان الهدهد من جملة تلك الطيور المسخرة لسليمان عليه السلام ولقب بملك الطيور لما أتاه الله تعالى من الحكمة والجمال . وكان لهذا الهدهد موقف عجيب مع نبي الله سليمان عليه السلام أظهر فيه عبوديته لله تعالى ، فقد جاء إلى سليمان عليه السلام بخبر مملكة سبأ وبما جرى فيها من عبادة هؤلاء القوم للشمس ، وقد أنكر بشدة عبادتهم لغير الله تعالى مع استحقاقه سبحانه للعبادة دون سواه . وبيَّن الهدهد ذلك بكلام يدل على توحيده لله تعالى وعبوديته له فقال تعالى : ﴿ **وتفقد الطير فقال ما لِي لا أرَى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيِنِّي بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين * إنِّي وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيْء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذِى يخرج**

---

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٣ – ص ٣٥٩ .

ذكر الشوكاني – رحمه الله تعالى – الرواية في فتح القدير / جـ ٤ – ص ١٣٤ .

الخبء فِي السمٰوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إلٰه إلا هو رب العرش العظيم ﴾ [النمل : ٢٠ - ٢٦] . فانظر إلى التوحيد الخالص الذي تكلم به الهدهد ويعجز الكثيرون من الناس عن التفوه بمثله أو إدراك فحواه ، وقد بيَّن في كلامه سبب كفرهم وبعدهم عن الهداية وهو غواية الشيطان لهم .

يقول القرطبي - رحمه الله تعالى - : « إن الله تعالى خصه (الهدهد) من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته للشيطان وتزيينه لهم ، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي إليها » [1] أ.هـ .

هذه الكائنات الحيوانية التي ذكرناها آنفا عابدة لله جل وعلا محققة عبوديتها له سبحانه . ولها من الإدراك والتمييز ما تقوم بعبوديتها لله تعالى ، وهو ما يؤكد عموم عبودية الكائنات في مثل قوله تعالى : **﴿ وإن من شْيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾** [الإسراء : ٤٤] .

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٣ - ص ١٨٨ .

المبحث الثاني
عبودية النباتات

الشجر :

هذا الكائن الذي سخره الله عز وجل للبشر للانتفاع به من ثمره وجذوعه وأغصانه ولحائه وعروشه وأوراقه بل ومن ظله ، يخضع لله عز وجل ، وله عبودية خاصة به لا يعلمها إلا هو سبحانه كما قال عن تسبيح الكائنات كلها : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] . والكلام عن الشجر سيتناول ثلاث نقاط :

١ – عبوية الشجر : وفيها (سجود – ودعاء – وتلبية – وموالاة لأهل الطاعة) .

٢ – موقف الشجر مع النبي عليه الصلاة والسلام .

٣ – موقف الشجر مع المسلمين .

(١) عبودية الشجر لله تعالى

ذكر الشجر في الكائنات تفصيلا في عموم عبودية الكائنات لله عز وجل وسجودها له سبحانه في قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِي السمٰوات ومن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ [الحج : ١٨] .

كما دلت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على عبادات أخرى للشجر نوردها فيما يأتي بتوفيق الله تعالى :

(أ) السجود :

قال الله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : ٦] ، والسجود هنا معناه الخضوع والانقياد . قال الشوكاني – رحمه الله – والمراد بسجودهما انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين [1] .

ويقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل » [2] .

وذكر القرطبي – رحمه الله تعالى – أن سجودهما بسجود ظلالهما [3] .

وقد بينت السنة المطهرة هذا السجود القائم بالشجرة . فعن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – قال : كنت عند النبي عليه السلام فأتاه رجل فقال : إني رأيت البارحة فيما يرى النائم كأني أصلي إلى شجرة فقرأت السجدة فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودي ، فسمعتها تقول : اللهم احطط عني بها وزرا واكتب لي بها أجرا واجعلها لي عندك ذخرا .

قال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ قرأ السجدة فسجد فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة » [4] .

فالحديث يدل على عبودية الشجرة لله عز وجل وسجودها ودعائها ، مما يظهر خضوع كائن مخلوق مربوب لخالقه وباريه .

(ب) سماع الشجر لأذان المؤذن وشهادتها على ذلك :

يحثنا الإسلام على ترديد الأذان عند سماع المؤذن [5] للصلاة ، ولكنَّا كثيرا

---

(١) فتح القدير / جـ ٥ – ص ١٣٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم / جـ ٣ – ص ٢١١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٧ – ص ١٥٤ .

(٤) ابن ماجة / ك : إقامة – ب : سجود القرآن . (وصحيحه ح رقم ٨٦٥) .

(٥) لحديث أبي سعيد الخدري – رضي الله تعالى عنه – قال : قال عليه الصلاة والسلام : « إذا =

ما نغفل عن هذا الفضل العظيم وتشغلنا الشواغل ، هذا وإن كان يفعله البعض إلا أن الكثير (إلا من رحم ربك) لم يفكر أو جاء بخاطره أن هناك من الكائنات غير البشرية ، والتي ظاهرها عدم الإدراك ، تسمع الأذان وتشهد !!

فالشجر يسمع الأذان ويشهد للمؤذن .

فعن أبي سعيد الخدري قال : إذا كنت في البوادي فارفع صوتك بالأذان فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا يسمعه جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر إلا شهد له » [1] .

(جـ) تلبية الشجر في الحج أو العمرة :

لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما من ملبٍّ يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا » [2] .

(د) الولاء والبراء للشجر :

ومن العجيب أن نرى هذا الكائن يوالي أهل طاعة الله تعالى ويتبرأ من الكفرة والعصاة ، بل ويستريح من شرهم إذا ماتوا .

فقد جاء في صحيح البخارى : « أنه عليه الصلاة والسلام مر عليه بجنازة فقال : مستريح ومستراح منه . فقالوا : يا رسول الله ما المستريح وما المستراح منه ؟ قال : العبد المؤمن مستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب » [3] .

= سمعتم النداء فقولوا كما يقول المؤذن » .
(ابن ماجة / ك : أذان – ب : ما يقال إذا أذن المؤذن) ، (صحيحه / ح رقم ٥٨٨) .
(١) ابن ماجة / ك : أذان – ب : فضل الأذان وثواب المؤذنين ، (صحيحه ح رقم ٥٩١) .
(٢) ابن ماجة / ك : مناسك – ب : التلبية . (وصحيحه / ح رقم ٢٣٦٣) .
(٣) بخاري / ك : رقاق – ب : سكرات الموت .

(٢) موقف الشجر مع النبي عليه الصلاة والسلام

فقد دلت الأحاديث على إيمان الشجر بالرسول عليه الصلاة والسلام ، والسلام عليه وانقيادها له وطاعة أوامره حتى إن الإمام الدارمي [١] - رحمه الله - صاحب السنن قد أفرد لها بابا في ذلك بقوله : « باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن » [٢] .

(أ) سلام الشجر على النبي عليه الصلاة والسلام :

فبعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يمر بجبل أو شجر إلا سلم عليه . فقد ورد عن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - أنه قال : « فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله » [٣] .

وقد ورد أن شجرة بعينها أرادت السلام على رسول الله ﷺ واستأذنت خالقها في ذلك فأذن لها ، وذلك في حديث يعلى بن مرة الثقفي [٤] وفيه : « ثم سرنا حتى نزلنا منزلا فنام النبي ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ثم رجعت مكانها ، فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرت له ، فقال : هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلم على رسول الله ﷺ فأذن لها » [٥] .

فسبحان الله !! شجرة تعلم أن النائم هو رسول الله عليه الصلاة والسلام وتستأذن ربها في السلام عليه . إن هذا وغيره ليؤكد ما نذهب إليه في بحثنا هذا في عبودية هذه الكائنات وإثبات الاختيار لها ، فهي (أي الشجرة) غير مجبورة

---

(١) هو : الإمام الحافظ شيخ الإسلام بسمرقند ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي ، صاحب السند العالي ، ولد سنة ١٨١ هـ ، الموصوف بالثقة والورع ، توفي سنة ٢٥٥ هـ . (تذكرة الحفاظ / جـ ٢ - ص ٥٣٤ - ٥٣٦) .

(٢) الدارمي - / مقدمة - ب : ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن .

(٣) مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٩١٩ .

(٤) هو : يعلى بن مرة بن وهب بن جابر الثقفي أبو مرازم ، صحابي شهد الحديبية وما بعدها . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ - ص ٣٧٨) .

(٥) مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٩٢٢ .

على السلام على رسول الله ﷺ . بل كانت إرادة السلام منها باختيارها هي . ولو كانت مجبورة لما استدعى الأمر في الاستئذان من ربها سبحانه .

(ب) تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام بمشي الشجرة إليه :

فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : جاء جبريل عليه السلام ذات يوم إلى رسول الله عليه السلام وهو جالس حزين قد خُضب بالدماء قد ضربه أهل مكة فقال : فعل بي هؤلاء وفعلوا . قال : أتحب أن أريك آية ؟ قال : نعم أرني . فنظر إلى شجرة من وراء الوادي قال : ادع تلك الشجرة . فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه . قال : قل لها فلترجع . فقال لها : فرجعت حتى عادت إلى مكانها . فقال رسول الله ﷺ : حسبي » (١) .

فأي دليل أبين من هذا في الاستدلال على الإدراكات التي خلقها الله عز وجل في مثل هذه الكائنات ؟! الأمر الذي يجعلنا نزداد إيمانا بقدرة الباري سبحانه وقيوميته التي تهيمن على الكون كله ، وخضوع الكائنات كلها وعبوديتها له سبحانه . فعجبا من هؤلاء الذين حملوا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تؤيد هذه الإدراكات على المجاز ، فجبريل عليه السلام يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يأمر الشجرة بقوله : « قل لها فلترجع » . « فقال لها » أي قل للشجرة ، فقال للشجرة ، فاستجابت الشجرة لأمر النبي عليه الصلاة والسلام ، فلا مجال للسفسطة أو المزايدة بالقول بالمجاز .

(جـ) انقياد الشجرة لرسول الله ليستتر بها عند قضاء حاجته :

هذا مثال آخر يدل على ما نذهب إليه من القول بالحقيقة لهذه الإدراكات التي خلقها الله عز وجل في الكائنات كلها وهو القادر على ذلك . ففي المثال السابق الذكر قد يظن وجود جبريل عليه السلام واسطة في تحريك الشجرة وأما المثال الآتي فيبيِّن مدى انقياد الشجرة لرسول الله عليه الصلاة والسلام

---

(١) ابن ماجة / ك : فتن – ب : الصبر على البلاء ، (وصحيحه / ح رقم ٣٢٥٤) .

وإطاعة أوامره ، ففي صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام ذهب لقضاء حاجته « فإذا شجرتان بشاطيء الوادي فانطلق صلى الله عليه وآله وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عليّ بإذن الله فانقادت كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عليّ بإذن الله فانقادت معه كذلك . فجمعهما فقال : التئما عليَّ بإذن الله فالتئمتا » [1] .

فانقادت الشجرة الأولى ومشت مع رسول الله ﷺ وهو ممسك بغصنها يجرها للشجرة الثانية كالبعير الذي يقوده صاحبه .

وعن يعلى بن مرة عن أبيه ، قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأراد أن يقضي حاجته ، فقال لي : « ائت تلك الأشاءتين » (قال وكيع [2] : يعني النخل الصغار) « فقل لهما : إن رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا » فاجتمعتا . فاستتر بهما ، فقضى حاجته ، ثم قال لي : « ائتهما فقل لهما : لترجع كل واحدة منكما إلى مكانها » ، فقلت لهما ، فرجعتا » [3] .

وفي هذا الحديث والذي قبله أمور يجب التنبيه عليه وهي :

أولا : إن صيغ القول في الحديثين للشجرة لا لغيرها ، فعلم بذلك فهم وإدراك الشجرة للخطاب . كما إن إتيانها واجتماعها وتسترها على رسول الله ﷺ ورجوعها إلى مكانها يؤكد إدراكها وطاعتها لأمر رسول الله ﷺ .

ثانيا : موقف الصحابي الجليل في الحديث الثاني حيث ذهب – رضي الله تعالى عنه – كما أخبره الرسول ﷺ إلى الشجرتين ليخبرهما بأمر رسول الله ﷺ

---

(١) مسلم / ك : الفضائل .. فضائل النبي ﷺ – ب : انقياد الشجر للنبي ﷺ. (ومختصره ح رقم ١٥٣٧) .

(٢) هو : وكيع بن الجراح بن مليح الإمام الحافظ الثبت أحد الأئمة الأعلام ، ولد سنة ١٢٩ هـ ، وتوفي سنة ١٩٧ هـ (تذكرة الحفاظ – الذهبي / جـ ١ – ص ٣٠٦ – ٣٠٩) .

(٣) ابن ماجة / ك : الطهارة – ب : الارتياد للغائط والبول . (وصحيحه ح رقم ٢٧١) .

أن تجتمعا ، وكذلك حين أمرهما بأن يرجعا . نجد كل التسليم والانقياد لأمر النبي ﷺ دون أن يستبعد ذلك عقله إذ حاشا للرسول ﷺ أن يخاطب من لا يدرك الخطاب ، فكيف يخاطب الشجرة ؟! هذا هو التسليم الذي يجب علينا تجاه هذه النصوص دون الخوض في الكيفية أو استبعاد ذلك ونفيه أو تأويله ، ولا يفهم من هذا أننا نلغي عقولنا . بل نجعلها كالمطية في الوصول إلى فهم النصوص والإيمان بها ، لا أن نجعل العقل حكما على النصوص الشرعية فنثبت ما وافقه وننفي ما يعارضه .

ثالثا : إنها إحدى معجزات النبي ﷺ التي منَّ الله تعالى بها على نبيه .

(د) حنين الشجرة (أو الجذع) لتحول الرسول عليه السلام عنها :

هذا الدليل يزيد تأكيد الحقيقة التي ما زلنا ندندن حولها من عبودية هذه الكائنات كلها لله عز وجل بما أودع الله تعالى فيها من الإدراكات . فالشجرة أو الجذع الذي كان يخطب عليه رسول الله ﷺ قد حنَّ وبكى لتحول النبي ﷺ عنه إلى المنبر الذي صُنع له ، وما هدأ إلا بوضع النبي عليه الصلاة والسلام يده عليه فسكن .

ففي صحيح البخاري أنه : « كان عليه الصلاة والسلام يخطب الجمعة إلى شجرة أو نخلة (أو جذع في رواية ابن عمر) فقالت امرأة من الأنصار : يا رسول الله ألا نجعل لك منبرا ؟ قال : إن شئتم . فجعلوا له منبرا ، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي ، ثم نزل عليه الصلاة والسلام فضمه إليه - فوضع يده عليها فسكنت .

يئن أنين الصبي الذي يسكن قال : كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها [١] . فكما يسمع الشجر الأذان كما بيَّن عليه الصلاة والسلام

---

(١) بخاري / ك : مناقب - ب : علامات النبوة في الإسلام .

فالشجرة التي كان يخطب عليه الصلاة والسلام عندها كانت تسمع هي الأخرى من الذكر الذي كان يتحدث به الرسول عليه السلام وحنت إليه لفراقه إياها .

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – تعليقا على الحديث : « وفي الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكا كالحيوان بل كأشرف الحيوان ، وفيه تأييد لقول من يحمل ﴿ **وإن من شيْء إلا يسبح بحمده** ﴾ على ظاهره » [1] أ.هـ .

(هـ) شهادة الشجر والعِذْق لكلمة التوحيد :

قدمنا في التمهيد لهذا الفصل ما يثبت إسلام الكائنات كلها ، وهنا نجد أن الشجرة يستشهدها رسول الله ﷺ بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فتشهد بذلك . فعن ابن عمر – رضي الله تعالى عنهما – قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا قال له رسول الله ﷺ : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله » ؟

قال : ومَنْ يشهد على ما تقول ؟

قال : هذه السلّمة [2] ، فدعاها رسول الله ﷺ وهو بشاطيء الوادي فأقبلت تخد [3] الأرض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت ثلاثا أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها » [4] .

إن هذا الحديث يقطع حجة مَنْ يقول بالمجاز أو التأويل وينفي عبودية هذه الكائنات لله عز وجل والإدراكات التي في هذه المخلوقات . فقوله : « فأقبلت تخد الأرض » أي تشق الأرض شقا – يدل على مشيها وسيرها هي دون غيرها ،

---

(١) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٦٠٣ .

(٢) السلمة : شجرة من شجر البادية .

(٣) تخد الأرض : أي تشققها أخدودا .

(٤) الدارمي / مقدمة – ب : ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن . (مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٩٢٥) .

كما أن شهادتها على ما استشهدها به رسول الله ﷺ يدل على إسلامها لله عز وجل .

وقد ورد أن عذقا [1] شهد على صدق دعوى رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال : بِمَ أعرف أنك نبي ؟!

قال : « إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة يشهد أني رسول الله » فدعاه رسول الله ﷺ ، فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم قال : « ارجع » ، فعاد . فأسلم الأعرابي [2] .

فلاشك أن هذه الكائنات من النباتات وغيرها قد أسلمت لله عز وجل ، ولها من الإدراكات والتمييز ما تقوم به في أداء مهمتها ، فإن كلام الشجرة هو بلسان المقال ، وهذا هو الراجح من الأدلة الكثيرة في هذا الشأن .

(و) إعلام الشجرة بقدوم وفد الجن إلى النبي ﷺ :

جاء وفد الجن الذين أسلموا إلى النبي ﷺ ليستمعوا القرآن وسألوه الزاد في طعامهم . فأخبرت شجرة رسول الله ﷺ بقدوم وفد الجن . فعن مَعِن [3] ابن عبد الرحمن قال سمعت أبي قال : « سألت مسروقا [4] : من آذن [5] النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك – يعني عبد الله بن مسعود – أنه آذنت بهم شجرة » [6] .

---

(١) العذق : هو الفرع أو الساق من الشجرة .

(٢) ترمذي / ك : مناقب – ب ٩ : ما جاء في آيات نبوة النبي ﷺ وقد خصه الله به . (وصحيحه رقم ٢٨٦٨) .

(٣) هو : معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلي الكوفي ، أبو القاسم القاضي ، ثقة من كبار التاسعة . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٦٧) .

(٤) هو : مسروق بن الأجذع بن مالك الهمداني الوادعي ، أبو عائشة الكوفي ، ثقة فقيه عابد مات سنة ٦٣ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ ص ٢٤٢) .

(٥) أي أعلم .

(٦) بخاري / ك : مناقب الأنصار – ب : ذكر الجن .

(٣) موقف الشجر مع المسلمين

وهذا من علامات الساعة من قتال المسلمين مع اليهود وانتصار المسلمين . فيؤيد الله تعالى المسلمين وينصرهم نصرا مؤزرا حتى إنه سبحانه يُسخر الشجر والحجر للمسلمين فيعلموهم عن اليهود الذين يختبئون وراءهم فيقتلونهم . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم يا عبد الله . هذا يهودي خلفي تعال فاقتله »[١] . وقد قيل : بأن المعنى مجازي ، وهو أنهم – أي اليهود – سوف لا يفيدهم الاختباء[٢] ، ونحن هنا في بحثنا إذ نرد القول بالمجاز ، ونثبت بأن النطق للحجر وللشجر ولغيرهما من الكائنات غير البشرية ، على الحقيقة ، ولا يمتنع ذلك أبدا ، وذلك من وجوه ، فأقول وبالله التوفيق :

الأول : إن الأحاديث الواردة في إثبات ذلك هي في الصحيحين وغيرهما ، وقد ثبت صحة النص فيجب الإيمان به .

الثاني : قوله ﷺ وهو الصادق المصدوق ، والذي أوتي جوامع الكلم « يقول الحجر والشجر » فنسب عليه الصلاة والسلام القول إلى الحجر والشجر لا إلى غيرهما ، كما أن قوله : « يا عبد الله » نداء ، والمنادي الحجر أو الشجر ، والمنادى هو المسلم . فلِم لم يفصح عليه والصلاة والسلام أنه لا يفيد اليهود الاختباء وراء الحجر والشجر مع استطاعته بيان ذلك حيث أُوتي جوامع الكلم ، ويفصل في الحديث كلام الحجر والشجر ؟!!

---

(١) بخاري / ك : جهاد – ب : قتال اليهود .
مسلم / ك : الفتن – ب : في قتال المسلمين اليهود .
(ومختصره / ح رقم ٢٠٢٥) .

(٢) انظر : فتح الباري / جـ ٦ – ص ٦١٠ .

الثالث : لو كان القول بالمجاز بأنه لا يفيدهم الاختباء فلِم استثنى عليه الصلاة والسلام شجر الغرقد [1] الذي هو من شجر اليهود ؟! كما جاء ذلك في رواية مسلم وأحمد وابن ماجة [2] ، وفيهما قوله عليه الصلاة والسلام : « إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » فالاستثناء يفيد بأن شجر الغرقد هو وحده دون غيره من الشجر لا يحدث منه إخبار للمسلم عن اختباء اليهودي وراءه كما يفيد بمفهومه - وبمنطوقه من قبل - بأن جميع الأشجار الباقية ستعلم المسلم باختباء اليهودي وراءها وتكلمه بذلك .

الرابع : ومما يؤكد أن كلام الحجر والشجر للمسلم على الحقيقة ما جاء في رواية ابن ماجة وفيها : « إلا الغرقد فإنها من شجرهم لا تنطق » فقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تنطق » يفيد بمفهومه الذي لا يحتمل التأويل أو المجاز أن بقية الأشجار وكذلك الحجر تنطق حقيقة لا مجازا . والله تعالى أعلم .

* * *

(١) الغرقد : نوع من شجر الشوك معروف ببلاد المقدس .
(شرح مسلم للنووي / جـ ١٨ - ص ٤٥) .
(٢) مسلم / ك : الفتن - باب : في قتال المسلمين اليهود . (ومختصره / ح رقم ٢٠٢٥) .
وأحمد / ٢ - ٤١٧ .
وابن ماجة / ك : الفتن - باب : فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم .

المبحث الثالث
عبودية الجمادات

أعضاء الإنسان

إن الإنسان في الدنيا عندما يقترف الذنب فإنه يعمل جاهدًا على ألا يراه أحد ويحرص على ذلك أشد الحرص مع علمه بأن الله تعالى مطلع عليه في كل لحظة ولكن هذا العلم يغيب عنه آن المعصية لرغبته الملحة في حصول تلك الشهوة المتلبسة بالمعصية ولكن يبقى خائفًا كل الخوف من اطلاع الناس عليها لئلا يفوتوا عليه حصول تلك اللذة ولا يعيبوه على ما اقترف من إثم ، فلذا تكون الجرائم والكبائر التي يرتكبها العصاة غالبا في الليل أو في وقت لا يوجد فيه حركة بشرية ، ويحرص الإنسان العاصي على ذلك خوفًا من أن يراه أحد . فإن رآه أحد دفعه ذلك لقتل ذلك الشاهد أو الإضرار به أو إرشائه فيزيد جرما فوق جريمته ، أو يقوم هذا الشاهد بالشهادة عليه ، فيقام على الجاني الحد أو التعزير . وإن لم يره أحد فيكون قد نجا بجريمته ومن شهادة الناس عليه ولكن إن سلم من القضاء الدنيوي لعدم رؤيته أو عدم ثبوت جريمته شرعا ونجا من العقوبة ، فهناك المحكمة العليا في الآخرة يوم القضاء .. يوم الدين .. يوم الحساب .. فيأتي ذلك الآثم ويرى كتابه قد أحصى عليه معاصيه وجرائمه فينكر وقوعها ويطعن في الكرام الكاتبين الذين قيدوا عليه جميع ما اقترف ، ويدعي بأنهم كتبوا ما لم يفعله ثم يؤتى بجيرانه وأقاربه وعشيرته فيشهدون عليه فيكذب شهادتهم . فلا يقبل تلك الشهادات كلها إلا شاهدا من نفسه ظنا منه أنه سينفعه وينجيه من عذاب الله تعالى يومئذ ، فيختم الله تعالى على فمه ويأمر سبحانه جوارحه أن تتكلم بما فعلت من المعاصي فتنطق بما فعلت ، وذلك بما أودعه الله تعالى فيها من النطق – وهو سبحانه القادر على ذلك ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء – فيكون هذا الجاحد في أشد

الحيرة من أمره ، فهو يجاهد أن ينجو بنفسه من النار بما في ذلك جوارحه كلها والتي يجدها تشهد عليه فيقول لهم حينئذ : بعدا لكن وسحقا ، عنكن كنت أجادل !! فيوم القيامة لا يستطيع المرء إخفاء شيء من أمره مما كان يفعله في دنياه ، فكل شيء سوف يظهر ، فقد قال تعالى : ﴿ **يوم تبلَى السرائر** ﴾ [الطارق : ٩] ، فإن كانت السرائر - وهي ما يحدث المرء نفسه به - سوف تظهر يوم القيامة ، فما بالنا بما فعله المرء عيانا بيانا ؟! قال تعالى : ﴿ **ولا يكتمون الله حديثا** ﴾ [النساء : ٤٢] ، فالمرء إن حاول كتمان شيء - وأنى له ذلك - فإن جميع جوارحه سوف تشهد عليه وتنطق بما كتم ، والذي يهمنا في موضوع بحثنا من ذكر الجوارح والأعضاء هو عبوديتها لله عز وجل في اعترافها يوم القيامة بأن الله تعالى هو الذي أنطقها وأودع فيها النطق وهو القادر على ذلك ، وهذا في خطاب رائع بين هذا الإنسان الجاحد وبين أعضائه من السمع والبصر واليد والرجل والجلد وغيرها . فقال تعالى : ﴿ **حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذِى أنطق كل شىْء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذِى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ [فصلت : ٢٠ - ٢٣] ، وأما كلام الجوارح فذلك في قوله تعالى : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [يس : ٦٥] .

وقد ذكر القرطبي - رحمه الله تعالى - أسباب هذا الختم ومنها : « لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق لخروجه مخرج الإعجاز - وإن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز - ثم قال : ليعلم أن أعضاءه التي كانت أعوانا في حق نفسه صارت عليه شهودًا في حق ربه » [1] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٥ - ص ٤٩ .

وليس هذا بمستغرب أن نجد تلك الجوارح تتحدث بهذه الكلمات الدالة على عبوديتها لله عز وجل فتقول : ﴿ **أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ [فصلت : ٢١ ، ٢٢] . في أسلوب بليغ لاذع ومؤلم في الوقت نفسه لتلك النفس الجاحدة .

والذي يؤكد كلام تلك الجوارح والأعضاء هو ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك – رضي الله تعالى عنه – قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك ؟! قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربه . فيقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني . قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودًا . قال : فيُختم على فيه ، فيُقال لأركانه : انطقي . قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بُعدا لكُن وسحقًا فعنكن كنت أناضل » [١] .

وقد جاءت رواية أخرى وفيها أن فخذه ولحمه وعظمه يشهدون عليه ، وذلك في حديث أبي هريرة وفيه : « ثم يقال : الآن نبعث شاهدنا عليك ، فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » [٢] .

وأول ما تتكلم من تلك الأعضاء وتشهد على صاحبها ، فخذه . فقد جاء في الحديث : « إن أول ما يتكلم من الآدمي فخذه » [٣] .

---

(١) مسلم / ك : التوبة – ب : شهادة أركان العبد يوم القيامة عليه . (مختصره / ح رقم ١٩٣٣) .
(٢) المرجع السابق / ك : التوبة – ب : تقرير النعم يوم القيامة على الكافر والمنافق .
(ومختصره / ح رقم ١٩٣٢) .
(٣) رواه أحمد / ٥ – ٣ .

فالشواهد تدل على كلام وشهادة الأعضاء كلها من اليد والرجل والفخذ واللحم والعظام والجلود والأذن والعينين فتطيع أمر الله تعالى بالإدلاء بما فعل كل عضو منها ، والخطاب الموجود في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والمحاورة بين الإنسان وأعضائه يدل على أنها تعقل وتفهم .

كما أن كلام تلك الأعضاء يدل على إدراكها في الوقت نفسه .

ولقائل أن يقول : إن تلك الشواهد خاصة بما سيحدث يوم القيامة من الأشياء المغايرة لأحوال الدنيا . فنقول له بأن تلك الأعضاء تخضع لله عز وجل وتعقل حتى في الدنيا بل تحث بعضها البعض على تقوى الله تعالى والاستقامة وعدم الاعوجاج ، بل وتسجد لله عز وجل . فقد جاء في سنن الترمذي [(١)] عن أبي سعيد الخدري – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا » [(٢)] .

وقوله ﷺ : « فتقول » أي إن الأعضاء يكلم بعضها بعضا خاصة اللسان وذلك من خطره وآفته على الإنسان ، فبسببه يُوضع الناس في النار ، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ معاذا في الحديث الصحيح وفيه : « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم » [(٣)] .

لذا حث النبي ﷺ على الصدقة لكل عضو من أعضاء الإنسان فقال : « على كل عضو من أعضاء بني آدم صدقة » [(٤)] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة

---

(١) هو : أبو عيسى محمد بن عيسى الإمام المحدث صاحب السنن ، يمتاز بدقة نقده في الرجال ، أحد الأئمة ، ثقة حافظ ، توفي سنة ٢٧٩ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ١٩٨) .

(٢) ترمذي / ك : زهد – ب : حفظ اللسان . (وصحيحه رقم ١٩٦٢) .

(٣) بخاري / ك : الفتن – ب : لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه .

(٤) أحمد / ٢ – ٣٩٥ ، والسلسلة الصحيحة / ح رقم ٥٧٤ .

وكل تهليلة صدقة » [1] . والفم دون غيره من الأعضاء يختم عليه يوم القيامة كما مر من الآيات ﴿ **اليوم نختم على أفواههم** ﴾ والحديث : « **فيختم على فيه** » .

ومما يؤكد كلام هذه الأعضاء في الدنيا ، أنها ستتحدث في آخر الزمان وعلينا أن نسلم بالإيمان بكلامها حيث أخبر عليه الصلاة والسلام بأن فخذ الإنسان سوف تحدثه بما فعل أهله من بعده وهي من علامات الساعة . فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنسَ وحتى يكلم الرجُلَ عذبةُ سوطه وشراكُ نعله وتخبره فخذُه بما أحدث أهله بعده » [2] .

وأما عن سجود تلك الأعضاء لله عز وجل فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب وجهه وكفاه وركبتاه وقدماه » [3] وأمر ألا يكفت الثياب ولا الشعر [4] حتى يثبت سجود الشعر بانتشاره وهذا ما ذكره الشيخ الألباني [5] . فالشواهد دالة على عبودية تلك الأعضاء لله عز وجل وإدراكها الذي أودعه الله تعالى فيها بما يحدث لها في الدنيا والآخرة ، فليعمل المرء منا على محاسبة نفسه ومراقبة أفعاله ، وأن يُعمِل تلك الأعضاء في طاعة الله عز وجل ، ولا يعملها فيما يوجِب سخطه وغضبه سبحانه ، وليعلم أنها شاهدة عليه وعلى أفعاله يوم القيامة إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ [يونس : ٤٤] .

ولكن عجبا لهذا الإنسان الجحود حقا ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾ [عبس : ١٧] .

---

(١) مسلم / ك : الصلاة – ب : صلاة الضحى ركعتان . (ومختصره ح رقم ٣٦٤) .

(٢) ترمذي / ك : فتن – ب : كلام السباع . (وصحيحه رقم ١٧٧٢) .

(٣) أحمد / ١ – ٢٠٦ ، ٢٠٨ . وآراب : أعضاء (جمع إرب) .

(٤) مسلم / ك : الصلاة – ب : على كم يسجد . (ومختصره ح رقم ٢٩٩) .
يكفت : يضم من الإنتشار .

(٥) صفة صلاة النبي ﷺ / ص ١٥١ .

لم يكفه شهادة الله عز وجل ولا شهادة الملائكة ولا شهادة جيرانه وأهله وعشيرته ، بل يجادل لآخر لحظة وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شئ جدلا** ﴾ [الكهف : ٥٤] .

فتأتي أعضاؤه التي هي منه وتشهد عليه وتتكلم بما فعل فحينئذ لا يجد مخرجا ولا ناصرا ﴿ **يقول الإنسان يومئذ أين المفر** ﴾ [القيامة : ١٠] .

وأريد هنا أن أزيد شيئا ما دمنا نتكلم عن الأعضاء فقد ورد أن عضوا من شاة تكلم وهو الذراع ، وذلك على عهد رسول الله ﷺ حين سمَّته المرأة اليهودية فعن جابر : أن يهودية من أهل خيبر سمَّت شاة مصلية ثم أهدتها لرسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها وأكل رهط من أصحابه معه ثم قال لهم : « ارفعوا أيديكم » فأرسل إلى اليهودية فدعاها فقال : « أسممت هذه الشاة ؟ فقالت : مَنْ أخبرك ؟! قال : أخبرتني هذه في يدي – للذراع – قالت : نعم » [1] .

البحـر والبـر

لقد سخر الله عز وجل البحر لبني آدم ليستخرج منه ما يأكله من الحيتان كما يستخرج منه الآليء والمرْجان ، قال تعالى : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا** ﴾ [النحل : ١٤] .

والبحر من الكائنات التي تشفق من يوم الجمعة ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » [2] .

---

(١) أبو داود / ك : ديات – ب : فيمن سقي رجلا سما أو أطعمه فمات أيقاد منه ؟ .
، (مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٩٣١) .
(٢) ابن ماجة / ك : إقامة – ب : في فضل الجمعة . (وصحيحه / ح رقم ٨٨٨) .

وقد استجاب البحر لأمر الله تعالى وكذلك البر ، وذلك لما جاء في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال : « قال رجل لم يعمل خيرا قط : إذا مات فحرقوه واذروا نصفه في البحر ونصفه في البر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالَمين – فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع مافيه ثم قال : لم فعلت هذا ؟! قال : من خشيتك فأنت أعلم . فغفر له » [(١)] . فالحديث يدل على أن البحر قد أمره الله تعالى بجمع نصف الرجل واستجاب البحر لذلك وخضع لأمره سبحانه كما استجاب البر كذلك .

ومن عجائب البحر التي تدل على إدراكه ، وتدل ايضا على عبوديته لله تعالى أنه يعظُم عليه أن يرى ابن آدم وهو يعصي الله عز وجل مع حلمه سبحانه به ، فيتألم لذلك ويتمنى هلاك ابن آدم بل ويستأذن ربه في ذلك . فقد جاء في مسند أحمد [(٢)] عن عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – : أن النبي ﷺ قال في الحديث القدسي عن رب العزة : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله تعالى أن ينتضح عليهم فيكفه الله عز وجل » . وفي رواية أخرى : « ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق ابن آدم والملائكة تعاجله وتهلكه والرب سبحانه وتعالى يقول دعوا عبدي » [(٣)] . فالبحر يتمعر بسبب معصية ابن آدم ويتمنى إغراقه مع استطاعة البحر في ذلك ولكنه مأمور من قِبَل خالقه ، لذا فهو يستأذن . والسبب في استطاعته في إغراق البشر هو أن نسبة الجزء المائي للكرة الأرضية يمثل ثلاثة أرباعها ، وأما الجزء الذي يعيش عليه

---

(١) بخاري / ك : التوحيد – ب : قوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ .

(٢) هو : أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي البغدادي ، الإمام الحافظ الحجة ، صاحب المسند ، ولد سنة ١٦٤ هـ ، امتحن في فتنة القول بخلق القرآن ، توفي سنة ٢٤١ هـ .
(تذكرة الحفاظ / جـ ٢ – ص ٤٣١) .

(٣) مسند أحمد / ١ – ٤٣ .

البشر هو الربع ، والغريب أن الجزء المائي يعلو ذلك الربع ، ومع هذا لم يحدث ولا يحدث بأن يعلو الماء على الجزء الذي تعيش عليه الكائنات البشرية والحيوانية والجمادية . وهذا من حكمته سبحانه في هذا الكون . يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها ، هذا طبع الماء ، ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره ، و لم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية » [1] أ.هـ . وهذا هو أحد الأقوال الموجودة في قوله تعالى : ﴿ **والبحر المسجور** ﴾ [الطور : ٦] أي الممسوك . يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها ، قاله علي بن أبي طلحة [2] عن ابن عباس » [3] . الأمر الذي يجعلنا نؤمن بعبودية البحر لله عز وجل ونؤمن بالإدراكات التي فيه ولا نستبعده بل نؤمن بأن الله تعالى على كل شيء قدير .

عبودية الجبال (الحجر والحصى)

إن الاعتقاد الغالب على بني البشر أن هذا الكائن الشاهق وهو الجبال من الجمادات التي لا تعقل ولا تدرك . ولكن ما مدى صحة هذا الاعتقاد ؟ هذا ما نعمل جادين في الوصول إلى الحقيقة على ضوء النصوص الشرعية المتضافرة في ذلك . وكلامنا هنا عن الجبال يشمل الحجارة والحصى ، فكثيرا ما يكونان

---

(١) مفتاح دار السعادة / جـ ١ – ص ٢٠٤ .

(٢) هو : علي بن أبي طلحة بن سالم ، مولى بني العباس ، سكن حمص ، صدوق قد يخطيء ، مات سنة ١٤٣ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٣٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٢ – ص ٢٤٠ .

من فتات الجبال ، فهما من جنسها وسيتناول ثلاث نقاط هي :

(١) عبوديتها لله تعالى .

(٢) موقفها مع بعض الأنبياء .

(٣) موقفها مع المسلمين .

(١) عبودية الجبال لله تعالى :

دلت النصوص الشرعية على أن الجبال تسجد لله تعالى وتسبح وتخشع له وأنها ثالث الكائنات التي عُرضت الأمانة عليها لحملها ، وأنها جاءت بأفعال تدل على إدراكها وإليك بيانها في النصوص الآتية :

(أ) سجود الجبال لله تعالى :

لقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِي السمٰوات ومن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [الحج : ١٨] .

فهذه الآية عامة في إثبات السجود لله تعالى من جميع الكائنات كلها ، والعطف يفيد أنها جميعا عابدة لله تعالى فأما الكيفية فلا يعلمها إلا هو سبحانه .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – عن سجود الجبال : « وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل » (١) .

(ب) تسبيح الجبال :

لقوله تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين** ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، وقوله تعالى : ﴿ **يا جبال أوِبى معه والطير** ﴾ [سبأ : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشيِّ والإشراق** ﴾ [ص : ١٨] . فالتسبيح

---

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٣ – ص ٢١١ .

في الآيات السابقة هو على الحقيقة ، فقد جعل الله سبحانه لها إدراكًا تسبح به ، وهي مسبحة لله تعالى ، واقترانها بالتسبيح مع داود عليه السلام وتسخيرها لذلك هو من باب إظهار معجزة هذا النبي عليه السلام وكذلك استئناسًا وإعانة له على التسبيح بحيث تردد معه تسبيحه أو تسبح هي بأمره لها ، فجعلها الله عز وجل مسخرة لأمره عليه السلام . وليس كما ذهب البعض بأن هذا التسبيح على سبيل المجاز ، فالنداء في قوله تعالى : ﴿ **يا جبال** ﴾ للخطاب لمن يدرك ، ونحن نورد أقوال أهل العلم في هذا :

فيقول الشوكاني – رحمه الله تعالى – : « والتسبيح إما حقيقة وإما مجاز . وقد قال بالأول جماعة وهو الظاهر ، وذلك أن داود عليه السلام إذا سبح سبحت الجبال معه وقيل : إنها كانت تصلي معه إذا صلى . وقال بالمجاز آخرون وجعلوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبا من عظيم خلقها وقدرة خالقها . وقيل : إنها كانت تسير مع داود عليه السلام فكان من رآها تسير سبح » (١) أ.هـ .

فعجبا ممن حمل سير الجبال مع داود عليه السلام على الحقيقة وأجازه ، ومنع تسبيح الجبال على الحقيقة وجعله مجازا بمعنى أن من رآها سبح !! أليس التسبيح والسير من الإدراكات التي أودعها عز وجل في الكائنات وتدل على عظيم سلطانه سبحانه ؟!

قال القرطبي – رحمه الله تعالى – : « ذكر الله تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه . قال مقاتل (٢) : كان داود عليه السلام إذا ذكر الله عز وجل ذكرت الجبال معه . فكان عليه السلام يفقه تسبيح الجبال .

---

(١) فتح القدير / جـ ٣ – ص ٤١٩ .

(٢) هو : مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني أبو الحسن البلخي ، رمي بالتجسيم مع أنه كان من أوعية العلم بحرا في التفسير ، مات سنة ١٠٥ هـ .

(تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٧٢) .

، (تذكرة الحفاظ مع ترجمة مقاتل بن حيان / جـ ١ – ص ١٧٤) .

ثم قال – رحمه الله تعالى – : « وأن ذلك التسبيح تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال وكان عند طلوع الشمس وعند غروبها » [1] .

وقال – رحمه الله تعالى – : « كان داود عليه السلام إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **سخرنا** ﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح ، والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ **وكنا فاعلين** ﴾ مؤكد لقوله تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة مظنة لأن يكذب به الكفرة والجهلة » [2] أ.هـ .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى – : « والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام المذكور ، تسبيح حقيقي لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها كما قال تعالى : ﴿ **وإن من شيْء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [3] أ.هـ .

(جـ) تلبية الحجر :

لقوله ﷺ : « ما من ملب يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أومدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا » [4] فهذا إخبار بأن الحجر يلبي وأنها تلبية حقيقية ليس كما يُظن أنها صدى لتلبية الملبي فترددها الأماكن المرتفعة من حول الملبي ، ولكنها تلبية حقيقية ناشئة عن الإدراك لأنها تشهد لصاحبها عند الله تعالى كما يدل على ذلك الحديث الآتي .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٥ – ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق / جـ ١١ – ص ٣١٩ .

(٣) أضواء البيان / جـ ٤ – ص ٦٧٢ .

(٤) ابن ماجة / ك : مناسك – ب : التلبية . (وصحيحه / ح رقم ٢٣٦٣) .

(د) سماع الحجر الأذان :

لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما يسمعه جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر إلا شهد له »[1] . فعطف الشجر والحجر على الجن والإنس يدل على أن سماع الأذان للكل ثابت .

(هـ) خشية الجبال الله تعالى :

لقوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ [الحشر : ٢١] .

فالله عز وجل يذكر الناس بخشيته والخوف منه سبحانه ، وذلك باجتناب المعاصي وفعل الطاعات ، فيضرب الله تعالى مثلا بقياس الأولى ، فالجبل مع صلابته ومع افتراض نزول القرآن عليه فإنه يخشع لله عز وجل ، فالبشر مع تفضيل الله تعالى لهم على كثير من الكائنات أولى بأن يكونوا أكثر لله تعالى خشية .

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى – : « فدل هذا كله على أنه تعالى وإن لم ينزل القرآن على جبل ، أنه لو أنزله عليه لرأيته كما قال تعالى : ﴿ **خاشعا متصدعا من خشية الله** ﴾[2] أ.هـ .

كما يذكر – رحمه الله تعالى – أمثلة أخرى لهذا التصدع للجبال من خشيتها لله عز وجل فيقول : « وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أقل من هذا التصدع في قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها** ﴾ الآية [الأحزاب : ٧٢] فهذا نص صريح بأن أشفقت الجبال من حمل الأمانة وهي أمانة التكليف بمقتضى خطاب الله تعالى لها ، فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليها فكيف بها لو أنزل عليها وكلفت بها ؟!

---

(١) ابن ماجة / ك : أذان – ب : فضل الأذان وثواب المؤذنين .
(وصحيحه / ح رقم ٥٩١) .
(٢) أضواء البيان / جـ ٨ – ص ١٠١ .

ومنها : أن الله تعالى لما تجلى للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . ومنها : النص على أن بعض الجبال وهي الحجارة ليهبط من خشية الله »[1] أ.هـ .
والحجارة هي بعض الجبال ، وقد شهدت النصوص بخشيتها لله تعالى ، فقال عز وجل : ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ [البقرة : ٧٤] . فقد جاء هذا الإخبار بعد وصف الله تعالى لقلوب الكفرة من بني إسرائيل بالقساوة والصلابة التي يستحيل معها الإيمان ، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله عز وجل مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة ، فإن الحجارة مع قسوتها وصلابتها في الظاهر فهي أشد خشية لله تعالى من قلوب أولئك الكفرة المعاندين لإذعانها لله تعالى وانقيادها له .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « وإن منها ما يهبط من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه ، وقد زعم بعضهم أن هذا هو من باب المجاز كما أسندت الإرادة للجدار في قوله تعالى : ﴿ **يريد أن ينقض** ﴾ [الكهف : ٨٢] ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة »[2] أ.هـ .

وذكر القرطبي – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **وإن منها ليهبط من خشية الله** ﴾ ما نصه : « ما تردى حجر من رأس جبل ولا تفجر نهر من حجر ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ، نزل بذلك القرآن الكريم » . وقال بعض المتكلمين : إنه البرد الهابط من السحاب . وهذا بعيد ، وقيل : إن لفظة الهبوط مجاز ، ثم قال : والأول هو الصحيح بأنه لا يمتنع أن يعطي بعض الجمادات المعرفة فيعقل »[3] .

---

(١) أضواء البيان .
(٢) تفسير القرآن العظيم / مجلد ١ – ص ١١٣ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١ – ص ٤٦٥ .

وذكر الألوسي – رحمه الله تعالى – قول المتكلمين الآنف الذكر وتهكّم عليه فقال : « هذا القول أبرد من الثلج !!

ثم قال : فذهب قوم أنها هنا حقيقة وهو المروي عن مجاهد وغيره فيجوز أن يخلق الله تعالى العقل والحياة في الحجر ، وظواهر الآيات ناطقة بذلك » (١) .

ومن مظاهر تصدع الجبال من خشية الله تعالى إنكارها الشديد الإد المفترى على الله عز وجل بأن له ولدا ، وذلك من قبل كفرة النصارى بقولهم : إن المسيح ابن الله – قاتلهم الله تعالى – فلم يفظع لتلك الفرية أحد قدر السموات والأرض والجبال على ما فيهن من الجمودة وعدم الإدراك – كما يُظن – فقد شتموا الله عز وجل ، هؤلاء الكفرة بقولهم على الله تعالى ذلك . فقد جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى : كذبني ابن آدم و لم يكن له ذلك وشتمني و لم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **تكاد السمٰوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ [مريم : ٩٠ ، ٩١] فيه بيان لرد فعل الجبال لتلك الفرية العظيمة ومدى تأثرها لذلك بما أودعه الله تعالى فيها من الإدراكات عند سماعها هذا الإد .

فيقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم ، إعظاما للرب وإجلالا لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة

---

(١) روح المعاني / مجلد ١ – جـ ١ – ص ٢٩٧ .
(٢) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٣ – ص ١٣٨ .

له ولا كفء له بل هو الواحد الأحد . وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد » [1] أ.هـ .

وينقل القرطبي عن ابن مسعود – رضي الله تعالى عنه – عن تحدث الجبال بعضها لبعض فيقول : « إن الجبل ليقول للجبل : يا فلان هل مر بك اليوم ذاكر لله ؟ فإن قال : نعم سُر به ثم قرأ عبد الله ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ الآية قال : افتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير [2] ؟!

(و) وأما عن خوف الجبال وإشفاقها من الله تعالى :

فقد جاء في الحديث في بيان فضل يوم الجمعة . قال عليه الصلاة والسلام : « وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » [3] .

(ز) شهادة الحجر يوم القيامة :

والحجر يشهد يوم القيامة للمؤذن على أذانه ومعه آخرون يشهدون ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » [4] . وهذه الشهادة في عموم الأحجار وهناك شهادة خاصة للحجر الأسود ، فهو يأتي يوم القيامة ويشهد لمن استلمه بحق – أي بإخلاص لله تعالى – قال عليه الصلاة والسلام : « ليأتين هذا الحجر يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق بهما ، يشهد على من يستلمه بحق » [5] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١١ – ص ١٥٧ .
(٢) المصدر السابق / جـ ١١ – ص ٢٥٧ .
(٣) سبق تخريجه ص ٢٩٩ .
(٤) سبق تخريجه ص ٢٨٥ .
(٥) ابن ماجة / ك : مناسك – ب : استلام الحجر .
(وصحيحه / ح رقم ٢٣٨٢) ، (صحيح الجامع ح رقم ٥٢٢٢) .

وهذه الإدراكات المنصوص عليها في الحديث مثل : الإبصار والنطق والشهادة التي خلقها الله تعالى في الحجر الأسود ، وإن كانت تقع يوم القيامة - إلا أن إدراك الأحجار واقع ثابت ، خلقه الله عز وجل عند خلقه لها ، وليس خلقا جديدا يحدثه الله تعالى بعد خلقها ، فإن شهادتها وإن كانت لا تقع إلا يوم القيامة فإن إدراك ما تشهد به سابق على شهادتها .

والآيات والأحاديث كثيرة في إثبات إدراكات لها ولغيرها كما بينا سابقا وسنبين بعد قليل بشيء أوضح .

(ح) عرض الأمانة على الجبال :

والجبال من جملة من عُرض عليه أمانة التكليف وما يتبعها من الثواب والعقاب مع السموات والأرض لقوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، وقد تقدم أن العرض والإباء والإشفاق هو على الحقيقة كما ذهب إليه كثير من أهل العلم .

(ط) سرور الجبال وفرحها بمن يذكر الله تعالى :

وقد تقدم نقل القرطبي - رحمه الله تعالى - عن ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - في هذا [(١)] .

(٢) موقف الجبال والأحجار مع بعض الأنبياء :

(أ) موقف موسى عليه السلام والحجر :

كان موسى عليه السلام يغتسل وحده ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فخرج موسى في إثره يقول : « ثوبي يا حجر » حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام ، فقالوا : والله ما بموسى من بأس ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١١ - ص ١٥٧ . وانظر : النص ص ٣٠٨ .

وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا » [1] . وذلك تفسير لقوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾** [الأحزاب : ٦٩] .

يقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « قوله : « ثوبي يا حجر » أي أعطني . وإنما خاطبه لأنه أجراه مجرى من يعقل لكونه فر بثوبه فانتقل من حكم الجماد إلى حكم الحيوان فناداه ، فلما لم يعطه ضربه » [2] .

ويقول القرطبي – رحمه الله تعالى – : « فإن قيل : كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل ؟! قيل : لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل » [3] .

وتذييلا لكلام ابن حجر والقرطبي السابق الذكر لابد أن نعلم بأن هروب الحجر ليس دليلا إلا على أن الحجر قد أدرك أمر ربه سبحانه فامتثل ، فخاطبه موسى عليه السلام لعلمه أنه مدرك لخطابه ، فحاشا لموسى أن يكلم من لا يدرك الخطاب . كما أن ضرب موسى عليه السلام للحجر يدل على معاقبته له ، بل وترك أثرا للضرب على الحجر . كما جاء في الحديث ، وفيه : « فطفق بالحجر ضربا ، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا » .

والندب : هو أثر الجرح الباقي على الجلد .

والموقف الثاني للحجر مع موسى عليه السلام هو :

لما سأل موسى عليه السلام رؤية ربه تعالى . فأمره المولى عز وجل بأن ينظر إلى ذلك الجبل فإن لم يستقر مكانه مع صلابته وقوته لتجلي الله تعالى فمن باب أولى أن لا يستطيع هو مع ضعفه البشري أن يصمد أمام هذا المشهد العظيم .

---

(١) بخاري / ك : غسل – ب : من اغتسل عريانا وحده في الخلوة .
كما ذكره في / ك : الأنبياء – ب : عن ذكر موسى عليه السلام .
ومسلم / ك : الأنبياء وفضلهم – ب : في ذكر موسى عليه السلام . (ومختصره / ح رقم ١٦١٠) .
(٢) فتح الباري / جـ ١ – ص ٣٨٦ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٤ – ص ٢٥ .

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « فالجبل أكبر منك وأشد خلقا ، فنظر موسى إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فدُك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا » (١) .

(ب) موقف الجبال مع داود عليه السلام :

قد سخرت الجبال لتسبح مع نبي الله داود – عليه السلام – بحيث إذا سبح سبحت ، أو أمرها هو بالتسبيح أطاعته . وهي وإن كانت معجزة لداود عليه السلام إلا أن التسبيح قائم بها من قبل داود عليه السلام ومن بعده ومن المعجزات التي تفضل الله بها على داود عليه السلام تسبيح الجبال معه وخضوعها لأمره لها بالتسبيح . قال تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشيِّ والإشراق** ﴾ [ص : ١٨] وقد تقدم الكلام عن هذه الآية وأمثالها في إثبات التسبيح للجبال (٢) .

(جـ) موقفها مع محمد عليه الصلاة والسلام :

١ – أخبر عليه الصلاة والسلام أن حجرًا كان يسلم عليه قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام . فيقول : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن » (٣) . ففي الحديث دلالة على الإدراكات التي أودعها الله تعالى في هذا الكائن حتى أنه يعلم أن المار هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولمعرفته بذلك كان يسلم على النبي عليه السلام قبل بعثته ، فكان الحجر يميز النبي عليه السلام دون غيره من الناس ، ولذلك يقول

---

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٢ – ص ٢٤٤ .

(٢) راجع / ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٣) مسلم / ك فضائل – ب : فضائل النبي ﷺ . (ومختصره ح رقم ١٥٢٨) .

النووي – رحمه الله تعالى – : « فيه إثبات التمييز في بعض الجمادات ، فيجعل الله تعالى فيه تمييزًا بحسبه » (١) أ.هـ .

وورد أنه بعد مبعثه ﷺ كانت الجبال تسلم عليه وكذلك الأشجار وذلك لما جاء عن علي بن أبي طالب – رضي الله تعالى عنه – قال : كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله » (٢) .

٢ – أخبر عليه الصلاة والسلام أن أُحدا (وهو الجبل المعروف بالمدينة) يحب النبي عليه السلام وأصحابه كما يبادلونه هم هذا الحب . فيقول عليه الصلاة والسلام عن جبل أُحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » (٣) .

يقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « قيل هو على الحقيقة ، ولا مانع من وقوع مثل ذلك بأن يخلق الله المحبة في بعض الجمادات ، وقيل هو على المجاز والمراد أهل أحد على حد قوله تعالى : ﴿ **واسأل القرية** ﴾ » (٤) أ.هـ .

٣ – وقد صعد النبي عليه الصلاة والسلام أُحدا ذات يوم وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فخاطب النبي عليه الصلاة والسلام أُحدا فقال : « اثبت أُحد فإن عليك نبي وصديق وشهيدان » (٥) .

والخطاب على الحقيقة هو الراجح كما دلت عليه النصوص الكثيرة .

يقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « وأُحد منادى ونداؤه وخطابه يحتمل المجاز وحمله على الحقيقة أولى » (٦) أ.هـ .

---

(١) شرح صحيح مسلم / جـ ١٥ – ص ٢٦ .
(٢) مشكاة المصابيح / ح رقم ٥٩١٩ .
(٣) بخاري : ك : جهاد – ب : فضل الخدمة في الغزو .
(٤) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٨٧ .
(٥) بخاري / ك : أصحاب النبي ﷺ – ب : قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذا خليلا » .
(٦) فتح الباري / جـ ٧ – ص ٣٨ .

٤ – تسبيح الحصى في يد النبي عليه الصلاة والسلام :

ففي حديث أبي ذر قال : تناول رسول الله ﷺ سبع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا ، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن ثم وضعهن في يد عمر فسبحن ثم وضعهن في عثمان فسبحن » [(١)] .

(٣) موقف الحجر مع المسلمين :

وهو من علامات آخر الزمان ، وفيه بيان لولاء الحجر للإسلام والمسلمين وبراءته من الشرك وأهله . فستكون حرب بين المسلمين واليهود ، فينصر الله عز وجل عباده المؤمنين ويخزي الكفرة من اليهود – لعنهم الله تعالى – فيدل الحجرُ المسلمَ بأن وراءه يهوديا حتى يقتله ، وهذا من الأدلة الساطعة التي لا تحتاج إلى تأويل أو حملها على المجاز كما ذهب البعض في غيرها من الأدلة .

يقول عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه يهودي : يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله » [(٢)] .

والحديث يدل على أن المسلم فقط دون اليهودي سيسمع قول الحجر – وكذلك الشجر كما جاء في بعض الروايات – ليسهل على المسلم قتل اليهودي دون أن يشعر .

يقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « وفي الحديث ظهور آيات قرب قيام الساعة من كلام الجماد من شجرة وحجر وظاهره أن ذلك النطق حقيقة ، ويحتمل المجاز بأن يكون المراد أنهم لا يفيدهم الاختباء ، والأول أولى » [(٣)] .

---

(١) ذكره الحافظ – رحمه الله تعالى – في الفتح / جـ ٦ – ص ٥٩٢ .

(٢) سبق تخريجه في عبودية النبات عند الكلام عن الشجر / ص ٢٩٢ . واللفظ هنا من صحيح الجامع / ح رقم ٧٢٩١ .

(٣) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٦١٠ .

من الأدلة السابقة يتبين لنا عظم عبودية هذا الكائن الضخم ، فهو آية من آيات الله تعالى الكونية التي تشهد بوحدانيته عز وجل وتخضع له وتذل وتقدس له وتسبح له وتسجد إجلالا لعظمته سبحانه ، كما تقوم بغيرها من العبادات التي تظهر بها عجزها وأنها مربوبة مخلوقة ، والأدلة لا تدع مجالا للشك في ثبوت ذلك .

ويجدر بنا هنا أن نذكر كلام ابن القيم – رحمه الله تعالى – عن الجبال ، فهو ممتع للغاية .

فيقول – رحمه تعالى – ما نصه بعد بيان حكمة الله تعالى من خلق الجبال على ما هي عليه : « هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشفق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ، ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه ، ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكدك ، ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورا على نبيه وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم ، ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية . (ثم قال) : ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه وهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم ، فسبحان من اختص برحمته من شاء من الجبال والرجال . هذا وإنها لتعلم أن لها موعدا ويوما تنسف فيها نسفا وتصير كالعهن فهي مشفقة من هول ذلك الموعد .

فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة ، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته ، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله .

فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تعالى فلا تلين ولا تخشع !! » [1] أ.هـ .

---

(١) مفتاح دار السعادة / جـ ١ – ص ٢٢١ .

الرعـــد

إن الرعد من آيات الله تعالى الكونية التي نسمعها فتحدث صوتا دويا في السماء ، ولكن عجبًا أن نعلم أن هذا الرعد يسبح الله عز وجل ، ويخاف من خالقه ، ليظهر بذلك عبوديته لله تعالى . قال تعالى : ﴿ **ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فِي الله وهو شديد المحال** ﴾ [الرعد : ١٣] . فتصرح الآية الكريمة أن للرعد تسبيحا كما للملائكة ، فالكل يسبح بحمد الله عز وجل . كما صرحت الآية الكريمة الأخرى : ﴿ **وإن من شيْء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

يقول الأستاذ سيد قطب – جعله الله تعالى من الشهداء – : « إن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من آثار صنعته من جمال وإتقان وقد يكون المدلول المباشر للفظ يسبح هو المقصود فعلا ويكون الرعد يسبح فعلا بحمد الله . فهذا الغيب الذي زواه الله عن البشر لابد أن يتلقاه البشر بالتصديق والتسليم وهم لا يعلمون من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسهم إلا القليل » [1] أ.هـ .

ويقول الشوكاني – رحمه الله تعالى – : « أي يسبح الرعد نفسه بحمد الله أي متلبسا بحمده وليس هذا بمستبعد ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿ **وإن من شيْء إلا يسبح بحمده** ﴾ [2] أ.هـ .

---

(١) في ظلال القرآن / المجلد ٤ – ص ٢٠٥١ .

(٢) فتح القدير / جـ ٣ – ص ٧٢ .

وقد قيل بأن الرعد ملك موكل بالسحاب ، وذلك لحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٤/١) فقال ﷺ : « الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب » والحديث حسَّن إسناده الشيخ الألباني في تعليقه على الحديث رقم (١٨٧٢) من السلسلة الصحيحة . وقيل بأن قوله : ﴿ **ويسبح الرعد بحمده** ﴾ كلام على حذف مضاف أي سامعو الرعد .

(راجع : ابن كثير / مجلد ٢ – ص ٥٠٤ ، فتح القدير / جـ ٣ – ص ٧٢ ، روح المعاني / مجلد ٥ / جـ ١٣ – ص ١١٨) .

وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : « سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » ثم يقول : « إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد » [1] .

الريـــاح

إن الرياح التي نشعر بها ولا نراها في حياتنا قد نستغرب من شأنها حين نعلم أن لها ذاتا وإدراكا تخضع لأمر خالقها وموجدها ومسخرة لأمر بعض الأنبياء

---

(١) الموطأ / ك : الكلام - ب : القول إذا سمعت الرعد .

قول غلاة الرافضة في الرعد والتعليق عليه

وسموا بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ، وقيل : لرفضهم زيد بن علي ، وقيل : لقول زيد ابن علي لهم : رفضتموني . وهم مجمعون على أن النبي عليه الصلاة والسلام نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاته (راجع : مقالات الاسلاميين / ص ١٦) . وأما قول غلاتهم في الرعد بأنه صوت علي - رضي الله عنه - ، وأن البرق سوطه وهو قول بعض السبئية أتباع عبد الله بن سبأ ، قال لعلي : أنت الإله حقا ، فنفاه علي - رضي الله عنه - إلى المدائن ، وقال ابن سبأ : لم يمت علي ، ولم يقتل ابن ملجم إلا شيطانا تصور في صورة علي ، وعلي في السحاب ، والرعد صوته والبرق سوطه ، ويقولون عند سماع الرعد : « وعليك السلام يا أمير المؤمنين » أ.هـ (راجع كتاب التعريفات للجرجاني / ص ٧٩) .

وقد عدهم الشهرستاني من أول الفرق الغالية (الملل والنحل / جـ ١ - ص ١٧٢) . وأخرجهم عبد القاهر البغدادي عن فرق الإسلام . فقال - رحمه الله تعالى - « كيف يكون من فرق الإسلام قوم يزعمون أن عليا كان إلها أو نبيا ؟! ولئن جاز إدخال هؤلاء في جملة فرق الإسلام جاز إدخال الذين ادعوا نبوة مسيلمة الكذاب في فرق الإسلام » أ.هـ .

كما علق - رحمه الله تعالى - على قولهم بأن عليا في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه فقال : « كيف تصح دعواكم أن الرعد صوت علي والبرق سوطه ، وقد كان صوت الرعد مسموعا والبرق محسوسا في زمن الفلاسفة قبل زمان الإسلام ؟ ولهذا ذكروا الرعد والبرق في كتبهم واختلفوا في علتها » أ.هـ .
(الفرق بين الفرق / ص ٢٣٦) .

وهو سليمان عليه السلام . فهي تشفق من قيام الساعة كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام عن إشفاق الرياح وغيرها من الكائنات الأخرى من يوم الجمعة حيث تقوم الساعة فيه . فيقول عليه السلام : « وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (١) .

فالإشفاق المنسوب للرياح ولغيرها من الكائنات حقيقي حيث عطفت على إشفاق الملائكة فلا نستبعد هذا حيث صرح به النص ، كما هو كذلك معروف من تسخير الرياح لسليمان عليه السلام حيث كانت تغدو وتروح وتجري بأمره حيث أراد أن توصله ، فقال تعالى : ﴿ **فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب** ﴾ [ص : ٣٦] .

ومن عجائب هذا المخلوق أنها هاجت لموت منافق . فعن جابر – رضي الله تعالى عنه – قال : قدم رسول الله ﷺ من سفر فلما كان قرب المدينة هاجت ريح تكاد أن تدفن الراكب فقال رسول الله ﷺ : « بعثت هذه الريح لموت منافق » فقدم المدينة فإذا عظيم من المنافقين قد مات (٢) .

وهو ما يدل على تبرأ الريح من أهل المعاصي الذين خرجوا عن عبودية الله تعالى الحقة .

ومن حقائق هذا المخلوق المأمور من قبل خالقه في عبوديته لله عز وجل ، أن نهى عليه الصلاة والسلام عن لعن الريح بقوله : « لا تلعن الريح فإنها مأمورة » (٣) .

---

(١) سبق تخريجه / ص ٢٩٩ .

(٢) مسلم / ك : صفات المنافقين – ب : بعث الريح الشديدة لموت منافق .

(ومختصره / ح رقم ١٩٤٣) .

(٣) سبق تخريجه في التمهيد من القسم الثاني من عالم الشهادة .

السحـــاب

إن هذا السحاب [1] الذي نراه في السماء ويدل على عظمة خالقه وقدرة فاطره له عبودية لله عز وجل ، وله إدراك خاص به ، فيؤمر بإنزال المطر في مكان ما كما يؤمر بمسكه عن مكان آخر وهو في كلا الحالين مسخر ومطيع لأوامر خالقه عز وجل .

فقد شهدت السنة الصحيحة بإثبات عبودية هذا الكائن لله عز وجل ، وإثبات إدراكات خاصة به وموالاته لأهل طاعة الله تعالى . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا في سحابة « اسق حديقة فلان » فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة ، فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها فقال : ما اسمك يا عبد الله ؟ قال : فلان للاسم الذي سمعه في السحابة .

فقال له : يا عبد الله لم تسألني عن اسمي ؟

فقال : إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها ؟

---

(١) للسحاب أسماء أخر :

أ – السماء : لقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ [الفرقان : ٤٨] .

ب – المزن : لقوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** ﴾ [الواقعة : ٦٩] .

جـ – العنان .

د – روايا الأرض .

وذلك لحديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذه العنان ، هذا راويا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » . (والحديث مخرج في مشكاة المصابيح برقم ٥٧٣٥ ، في إسناده ضعف ، كما ذكر الشيخ ناصر الدين الألباني) .

قال : أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها وأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد فيها ثلثه [1] .

فكانت تلك السحابة مأمورة بإنزال ما فيها من ماء على حديقة ذلك الرجل الذي كان يتصدق بثلث ماله ، فإدراك تلك السحابة للخطاب وسريانها إلى حديقة ذلك الرجل ومعرفتها باسمه وإنزالها الماء على الحديقة المعنية يدل على الإدراكات التي أودعها الله عز وجل في السحاب . لم يخلق الله تعالى ذلك عبثا ، ذلك تقدير العزيز العليم وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

عبودية السموات والأرض

بيّن الله عز وجل في كتابه العزيز ملكه الواسع وكونه العظيم من الأشياء المادية وغير المادية ، والغيبية وغيرها ، فكان ذكر السموات والأرض كثيرا في سور القرآن الكريم . ولعل في ذكرهما الدائم إشارة لعظم خلقهما وأنهما يستوي في رؤيتهما المؤمن والكافر ، فهما آيتان كونيتان على مر الزمان لمن أراد العبرة والوصول إلى الحق بالإيمان بصانعهما . فذكر الله عز وجل عن خلقهما الكثير وما يحدث لهما وكيفيتهما وتسخيرهما إلى غير ذلك من أمرهما . والذي يتعلق من أمرهما ببحثنا هذا هو بيان عبوديتهما لله عز وجل ، وإثبات الإدراك لهما ، والذي به يطيعان الله عز وجل ويمتثلان لأوامره سبحانه . فالسماء والأرض خلقان من خلق الله تعالى العابد له والمقر بوحدانيته ، والمطيع لأوامره عز وجل ، بل والمسبح له سبحانه ، ولهما من الإدراك والتمييز ما يقومان به تجاه ربهما من الكلام والسمع والإعراض والإشفاق والتسبيح . كله حق و لم يخلق الله عز وجل ذلك باطلا . وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾ [ص : ٢٧] .

---

(١) مسلم / ك : الزهد - ب : فضل الإنفاق على المساكين وابن السبيل .
(بشرح النووي / جـ ١٨ - ص ١١٤) .

وكلامنا عن السموات والأرض سوف يشمل بمشيئة الله تعالى موضوعين :

الموضوع الأول : الكلام عنهما مجتمعتين ، حيث إنهما غالبا ما يكونا مقترنين معا .

الموضوع الثاني : الكلام عن الأرض فقط . بما لها من إضافات أخرى .

مستعينين في هذا وغيره بالله عز وجل .

أولا : الكلام عن السموات والأرض معا :

خلق الله تعالى السموات والأرض وخلق لكل منهما أهلا ، وذكر سبحانه وتعالى عنهما الكثير ، وبيَّن سبحانه عبوديتهما له في آيات كثيرة ، كما ثبت أيضا في السنة المطهرة ما يدل على ذلك . وإليك بيان ذلك :

(١) عرض الأمانة عليهما :

بعد أن خلق الله عز وجل السموات والأرض والجبال عرض الله عز وجل أمانة التكليف على السموات والأرض والجبال ولكنهم أبوا وأشفقوا على أنفسهن أن لا يقوموا بحقها ، والعرض والإباء والإشفاق على الحقيقة ، كما قاله كثير من أهل العلم ، وأنه لا مجاز فيه . وذلك في قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

قال القرطبي – رحمه الله تعالى – : « عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنه – قال : الأمانة الفرائض ، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألَّا يقوموا به ، ثم عرضها على آدم فتقبلها بما فيها » [١] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٤ – ص ٢٥٥ .

ويقول الشيخ الشنقيطي – رحمه الله تعالى – : « وهذا العرض والإباء والإشفاق كله حق وقد خلق الله تعالى السموات والأرض والجبال إدراكًا يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها وأبت وأشفقت أي خافت على حملها . ومثل هذا الإدراك دلت عليه آيات وأحاديث كثيرة . فذكرها – رحمه الله تعالى – ثم قال : فكل ذلك المذكور في الكتاب والسنة إنما يكون بإدراك يعلمه الله تعالى ونحن لا نعلمه » (١) .

(٢) طاعتهما أمر الله تعالى :

فقد أمرهما الله عز وجل بالإتيان والإذعان – لما أمرهما به – طوعا أو كرها فاستجابتا إليه سبحانه طوعا غير كارهين . فقال تعالى : ﴿ **ثم استوَىٰ إلى السماء وهِيَ دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾ [فصلت : ١١] ﴿ **فقال لها وللأرض** ﴾ واضح أنه سبحانه يخاطب السموات والأرض ، وفي قوله تعالى : ﴿ **قالتا** ﴾ أي : قالت السماء والأرض لا غيرهما . فهما قد أذعنتا لأمر الله تعالى وأظهرتا الطاعة لله عز وجل . قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين . – ثم قال – : ﴿ **قالتا أتينا طائعين** ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين . قال الحسن البصري (٢) : لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه » (٣) .

وقال القرطبي – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **قالتا أتينا طائعين** ﴾ : « وفي الكلام حذف أي أتينا أمرك طائعين ، وقيل معنى هذا الأمر

---

(١) أضواء البيان / جـ ٦ – ص ٦٠٥ .

(٢) هو : أبو سعيد الحسن بن يسار البصري مولى زيد بن ثابت الأنصاري ، إمام أهل البصرة ، وحبر زمانه ، وكان عالما فقيها فصيحا ، توفي سنة ١١٠ هـ . (تهذيب التهذيب / جـ ٢ – ص ٢٦٣) .

(٣) تفسير القرآن العظيم / جـ ٤ – ص ٩٣ .

التسخير ، أي كونا فكانتا ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما قولنا لشيْء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما . وعلى الأول قال ذلك بعد خلقهما وهو قول الجمهور . وفي قوله تعالى لهما وجهان : أحدهما أنه قول تكلم به ، والثاني : أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد . - ثم قال - : وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلما كما أراد الله تعالى » [1] .

ومن الأوامر التي أطاعت السماء والأرض ربهما :

- أمره سبحانه للأرض أن تبتلع ما عليها من ماء وكذلك للسماء أن تنقطع عن المطر وذلك بعد عذاب الطوفان الذي حل بقوم نوح عليه السلام لما كذبوه .

فقال عز من قائل : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعِي ماءك ويا سماء أقلعِي وغيض الماء وقضِيَ الأمر واستوت على الجودِيِّ وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ [هود : ٤٤] .

(٣) إنكارهن قول النصارى إن المسيح ابن الله :

لقد كان رد فعل السموات والأرض والجبال للفرية التي ادعاها النصارى شديدا . هذه القرية هي القول بأن عيسى عليه السلام ابن الله . فما أن سمعت - السموات والأرض والجبال - هذا الإد حتى كادت تهد هدا . إنكارا لهذا الشرك المبين المنافي لما خلق الله تعالى عليه الكائنات كلها من توحيده عز وجل فقال تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ [مريم : ٩٠ ، ٩١] .
قال ابن جرير [2] - رحمه الله تعالى : « عن ابن عباس - رضي الله تعالى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٥ - ص ٣٤٤ .

(٢) هو : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، إمام المفسرين ، المؤرخ المقرىء المحدث ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، وكان من المجتهدين ولم يقلد أحدا ، مات سنة ٣١٠ هـ .
(سير أعلام النبلاء - الذهبي / جـ ١٤ - ص ٢٦٧) .

عنه - قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول منه لعظمة الله »[1] .
وذلك أن السموات والأرض والجبال مؤسسات على توحيد الله عز وجل وأنه لا شريك له وأنه سبحانه لم يلد ولم يولد . فكان لتلك الفرية من فجرة بني آدم الأثر العظيم على تلك المخلوقات الموحدة بالله عز وجل .

(٤) تسبيح السموات والأرض لله عز وجل :

فكان لتسبيح السموات والأرض لله عز وجل ما جعلهما يقدسان خالقهما وينزهانه عن كل نقص ، فالسماء والأرض تسبحان ربهما تسبيحا خاصا بهما ، ونحن نؤمن بأن لهما تسبيحا لا نفقهه كما قال تعالى : ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيْء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .
يقول القرطبي - رحمه الله تعالى - : « أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها من فعل العاقل وهو التسبيح »[2] .

(٥) إشفاقهن من يوم الجمعة :

فالسموات والأرض يشفقن من يوم الجمعة لأنه تقوم الساعة فيه . فهن يخفن من ذلك اليوم وما سيحدث فيه من المشاهد التي تذهل العقول .
فعن أبي لبابة بن عبد المنذر[3] قال : قال النبي ﷺ : « إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله . وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة »[4] .

---

(١) ابن جرير الطبري / جـ ١٦ - ص ٩٨ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٠ - ص ٢٦٦ .
(٣) سبقت ترجمته ص ٢٤٨ .
(٤) سبق تخريجه ص ٢٩٩ .

(٦) بكاء السموات والأرض على فراق المؤمنين الصالحين :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ [الدخان : ٢٩] ففيه إثبات البكاء للسماء وللأرض وأنهما لا يبكيان على الكافرين ، بل يبكيان على فراق المؤمن الصالح من هذه الدنيا ، وليس بالضرورة أن يكون هذا البكاء بدموع وأنين حتى يشبه بكاء الإنس ولكنه بكاء خاص بهما . لا يعلمه إلا خالقهما . يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : « بكاء كل شيء بحسبه . قد يكون خشية لله ، وقد يكون حزنا على فراق المؤمن » [(١)] .

ثانيا : الكلام عن الأرض :

زيادة على ما سبق فإن الأرض قد أُمرت بأشياء كثيرة ورد ذكرها في النصوص الشرعية .. مثل :

١ - ما جاء في حديث الفتن وذكر يأجوج ومأجوج - قوله عليه الصلاة والسلام : « ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك وردي بركتك » [(٢)] .

٢ - وجاء في حديث الرجل الذي لم يعمل خيرا قط وأمر بنيه أن يحرقوه ثم يطحنوه ثم يذروه في الريح خوفا من عذاب الله تعالى به . وفيه : « فأمر الله الأرض فقال : أجمعي ما فيك منه ، ففعلت » [(٣)] .

والخطاب من الله تعالى للأرض حقيقي . ذكره الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الفتح [(٤)] .

---

(١) جامع الرسائل - ابن تيمية / ص ٣٧ (رسالة في قنوت الأشياء كلها لرب العالمين) .

(٢) ابن ماجة / ك : فتن - ب : فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم .
(وصحيحه / ح رقم ٣٢٩٤) .

(٣) متفق عليه : بخاري / ك : الأنبياء - ب : ٥٤ .
ومسلم / ك : التوبة - ب : في خشية الله عز وجل وشدة الخوف من عقابه .
(ومختصره / ح رقم ١٩٣٤) .

(٤) فتح الباري / جـ ٦ - ص ٥٢٣ .

٣ – وجاء في حديث قاتل المائة – المشهور – الذي تاب ، وذهب إلى الأرض التي بها قوم صالحون . وقد أدركه الموت في وسط الطريق ، وقد تنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وفيه أنه تعالى قال لأرض السوء أن تبعد وأن تقرب أرض الخير . فقال عليه الصلاة والسلام : « فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي » (١) . وذلك من سعة رحمة الله تعالى بعباده إذا ما أتوا إليه تائبين ، فلما كانت نية ذلك الرجل صادقة مع الله عز وجل كانت سعة رحمة الله تعالى به أن أوحى إلى الأرض ما أوحى حتى أخذته ملائكة الرحمة .

٤ – وأما عن كلام الأرض وتحديثها فذلك في قوله تعالى : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحَى لها** ﴾ [الزلزلة : ٣] . وهذا مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة . فتطيع الأرض ربها وتخبر عما جرى عليها من أعمال الكائنات كلها وذلك بما أوحاه الله تعالى إليها .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت ولادتها ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطونها إلى ظهورها وتقول : رب هذا ما استودعتني وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر » (٢) .

فيأمر الله عز وجل الأرض يوم القيامة أن تتحدث بما عُمل على ظهرها . ذكر ابن كثير – رحمه الله تعالى – عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنه قوله : – في قوله تعالى : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾ قال : « قال لها ربها قولي فقالت » .

---

(١) هذه الرواية لمسلم / ك : توبة – ب : قبول التوبة ممن قتل مائة نفس . عن أبي سعيد الخدري . (ومختصره / ح رقم ١٩١٩) .

(٢) مفتاح دار السعادة / جـ ١ – ص ٢٢١ .

وذكر حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - وفيه : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها [(١)] » [(٢)] .

وقيل : إن تحديثها يكون بلسان المقال ، وقيل : بلسان الحال ، والأول هو الصحيح لما شهدت به النصوص السابقة ، وكذلك لحديث عبد الله ابن مسعود الصريح في تحديث الأرض يوم القيامة ، وأن القول لها ، وذلك بما ينطقها الله عز وجل يومئذ . وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبتة إليها الحاجة فإذا بلغ أقصى أثره قبضه الله سبحانه فتقول الأرض يوم القيامة : رب هذا ما استودعتني » [(٣)] .

٥ - وكما أن السماء والأرض لا تبكي على موت الكافرين والمنافقين فإن الأض لا تقبل أجسام بعض المنافقين للدفن فيها ، وذلك لما قدموه من الكفر وعصيان الله عز وجل ، فتنبذ أجسادهم خارجها . فعن أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - قال : « كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ ، فانطلق هاربا حتى لحق بأهل الكتاب ، قال : فعرفوه . قالوا : هذا يكتب لمحمد ، فأعجبوا به ، فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم ، فحفروا له فواروه ، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها . فتركوه منبوذا » [(٤)] .

---

(١) أحمد / جـ ٢ - ص ٣٧٤ ، الترمذي / ك : التفسير - ب : سورة الزلزلة .

(٢) تفسير القرآن العظيم / جـ ٤ - ص ٥٣٩ .

(٣) ابن ماجة / ك : الزهد - ب : ذكر الموت والاستعداد له . (وصحيحه / ح رقم ٣٤٣٨) .

(٤) مسلم / ك : صفات المنافقين - ب : في نبذ الأرض المنافق المرتد وتركه منبوذا .
(مختصره / ح رقم ١٩٤٥) .

كما يَحرُم على الأرض أكل أجساد الأنبياء ، كما جاء في الحديث عن أوس ابن أوس [1] – رضي الله تعالى عنه – قال : قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » [2] .

مما سبق يتبين أن الأرض تعبد خالقها وفاطرها . فهي تسمع أوامره وتطيعه ، وسوف تشهد يوم القيامة بما عمل عليها العاملون . فليتحفظ الإنسان من الأرض ويعمل عليها الخير ويجتنب محارم الله تعالى ويحقق عبوديته لخالقه جل وعلا .

الشمس والقمر

الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى الكونية التي يراها جميع المخلوقات وتدل على عظمة خالقها وقدرة باريها ، وهما من الكائنات المخلوقة والمسخرة لبني آدم والمأمورة من قبل الله عز وجل . فقال تعالى : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السمٰوات والأرض فِى ستة أيام ثم استوَىٰ على العرش يغشِى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ [الأعراف : ٥٤] . وقال تعالى : ﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار** ﴾ [إبراهيم : ٣٣] .

والشمس والقمر يسجدان لله عز وجل سجود طاعة وانقياد وخضوع وهذا ما يظهر من الآيات القرآنية .

فيقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته » [3] .

كما نجد بعض النصوص الشرعية تشهد بأن للشمس وللقمر سجودا حقيقيا ، وأما عن كيفيته فلا يعلمه إلا الله عز وجل .

---

(١) هو : أوس بن أوس ، صحابي ، سكن دمشق . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٨٥) .
(٢) ابن ماجة / ك : إقامة – ب : في فضل الجمعة . (وصحيحه / ح رقم ٨٨٩) .
(٣) تفسير القرآن العظيم / جـ ٢ – ص ٢٢١ .

فيقول تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾ [الحج : ١٨] .

فعطف سجود الشمس والقمر على سجود الملائكة والبشر يدل على حقيقة هذا السجود للكائنات كلها .

ومما يؤكد هذا السجود ما جاء في الصحيحين عن أبي ذر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال يوما : « أتدرون أين تذهب الشمس » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها » الحديث [١] .

فإخباره عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق بأن الشمس تخر ساجدة تحت العرش يدل على عبوديتها لله عز وجل كما يدل على حقيقة هذا السجود ، كما يعتبر دليلا للرد على حمل آيات عبودية الكائنات غير البشرية على المجاز . فماذا يقول في هذا الدليل الواضح في سجود الشمس الحقيقي ؟!

ونحن هنا إذ نثبت حقيقة السجود لا نتعرض للكيفية إذ لا يعلمها إلا الله تعالى . كما يدل الحديث على أن طلوع الشمس كل يوم من مشرقها مرتبط بأمر الله تعالى وإذنه لها بالطلوع وليس كما يظن بأن طلوع الشمس يوميا من مشرقها أمر طبعي واعتيادي ، لتؤكد بذلك عبوديتها لله عز وجل وأنها مأمورة وتخضع لأمر خالقها وتطيعه .

والحديث يدل أيضا على الإدراكات التي أودعها الله عز وجل وخلقها في هذا الكائن حتى إنها تستأذن للسجود فيؤذن لها كما صرحت بذلك رواية البخاري

---

(١) بخاري / ك : التوحيد - ب : قوله تعالى : ﴿ **وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم** ﴾ .
مسلم / ك : التفسير - ب : في قوله تعالى : ﴿ **لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل** ﴾ .
(ومختصره / ح رقم ٢١٣٨) .

وفيها : « فإنها تذهب تستأذن في السجود فيؤذن لها » .

فالحديث يبين أن الشمس لا غيرها هي التي تذهب وتستأذن للسجود ، فتسجد وتؤمر فتطيع الأمر .

قال ابن تيمية – رحمه الله تعالى – تعليقا على حديث أبي ذر وفيه سجود الشمس : « فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذانها ، وكذلك قال أبو العالية وغيره . قال أبو العالية [1] : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا ويقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه .

ومعلوم أن الشمس لا تزال في الفلك كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ **وهو الذِى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فِى فلك يسبحون** ﴾ [الأنبياء : ٣٣] فهي لا تزال في الفلك وهي تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبي ﷺ ، فهي تسجد سجودا يناسبها وتخضع له وتخشع كما يخضع ويخشع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس » [2] أ.هـ .

وقد أنكر قوم سجودها وذهب آخرون بأنه سجود من هو موكل بها من الملائكة ، وقد نقل الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – ذلك في الفتح [3] .

ولقائل أن يقول بأن سجودها على هذا النحو يلزم توقف دورانها لتذهب فتستقر تحت العرش !!

ويرد عليه بأنه لا يمتنع وقوع ذلك أثناء دورانها بحيث تسجد وتؤمر ، فقد دلت النصوص الصحيحة التي يجب الإيمان بها إجمالا ، فيقول ابن حجر – رحمه

---

(١) هو : رفيع بن مهران أبو العالية الرياحي ، ثقة ، من أجِّل التابعين وثقاتهم ، مات سنة ٩٢ هـ . (تذكرة الحفاظ / جـ ١ – ص ٦١) .

(٢) جامع الرسائل / ص ٣٧ – الرسالة الأولى (قنوت الأشياء كلها لرب العالمين) .

(٣) راجع : فتح الباري / جـ ١٣ – ص ٢٩٩ .

الله تعالى – نقلا عن الخطابي [(١)] : « المراد باستقرارها تحت العرش أنها تستقر تحته استقرارا لا نحيط به نحن ، وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق دورانها في سيرها . قلت (أي الحافظ ابن حجر) : وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري . والله أعلم » [(٢)] .

كما يرد عليه وعلى غيره ممن يشك في سجود الشمس تحت العرش بما هو أشد من ذلك وقوعا . فقد جاءت الأحاديث الشريفة تبين أن الشمس قد حُبست لنبي من الأنبياء وهو يوشع بن نون حين قاتل الجبابرة ، **وأو**شكت الشمس على المغيب وأراد أن يقضي على هؤلاء الجبابرة قبل الليل فأمرها أن تحبس حتى قضى عليهم ، وكان ذلك معجزة لهذا النبي ، فقد جاء في كتاب صحيفة همام بن منبه [(٣)] ما نصه (في رواية سعيد بن المسيب) [(٤)] : « فلقي العدو عند غيبوبة الشمس فقال للشمس أنت مأمور وأنا مأمور اللهم احبسها علي شيئا فحبست عليه » الحديث .

وخطابه للشمس يفيد احتمال خلق الله تعالى فيها من التمييز والإدراك ما تصلح معه للمخاطبة بذلك ، ودعاؤه بأن تحبس عليه شيئا أي بقدر ما تنقضي حاجته ، وقد اختلف في حبس الشمس فقيل : ردت على أدراجها ، وقيل : وقفت ولم ترد ، وقيل : أبطيء بحركتها وكل ذلك من معجزات النبوة . – ثم قال – : وقع في الأوسط للطبراني من حديث جابر أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر

---

(١) الإمام العلامة المحدث أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي ، صاحب التصانيف ، توفي سنة ٣٨٨ هـ . (تذكرة الحفاظ / جـ ٣ – ص ١٠١٨ – ١٠٢٠) .

(٢) فتح الباري / جـ ٨ – ص ٥٤٢ .

(٣) هو : همام بن منبه بن كامل الصنعاني ، أبو عتبة وأخوه وهب ، ثقة ، يماني تابعي ، مات سنة ١٣٢ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٣٢١) .

(٤) هو : سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عابد المخزومي ، أحد العلماء الأثبات ، الفقهاء ، الكبار ، مات بعد التسعين . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٣٠٦) .

الشمس فتأخرت ساعة من نهار . وإسناده حسن » . ثم أورد شارح كتاب « صحيفة همام بن منبه » الروايات التي فيها دعاء النبي عليه الصلاة والسلام لله تبارك وتعالى بأن يرد الشمس حتى يصلي علي - رضي الله تعالى عنه - صلاة العصر ، ففي رواية أسماء بنت عميس : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كاد يغشى عليه ، فأنزل الله عليه يوما وهو في حجر علي فقال له رسول الله ﷺ : صليت العصر يا علي ؟ قال : لا يا رسول الله . فدعا الله فرد عليه الشمس حتى صلى العصر . قالت (أسماء) : فرأيت الشمس طلعت من بعدما غابت حين ردت حتى صلى العصر .

وذكر الشارح تصحيح أهل العلم كابن حجر والطحاوي لهذا الحديث وتخطأة من ضعفه » [١] أ.هـ .

وأورد أبو الفضل العراقي - رحمه الله تعالى - نقلا عن القاضي عياض قوله : « وقد روي أن نبينا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم حبست له الشمس مرتين » أ.هـ وذكرهما [٢] .

فيرتفع بذلك الإشكال الذي قد يورد في سجود الشمس تحت العرش ، فكما أننا نرجع ذلك إلى علم الله تعالى وقدرته على إحداث ذلك من حبس الشمس ليوشع بن نون وللنبي محمد عليهم السلام ، وترك كيفية حدوث ذلك وتصوره ، فكذلك فإنا نؤمن بسجود الشمس كل يوم تحت العرش كما دلت وأخبرت به النصوص الصحيحة ، ونرجعها هي الأخرى لعلم الله تعالى بالكيفية .

فلا داعي لإدخال العقل في الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها إجمالا وإلا اضطرنا ذلك لرد كثير من النصوص الشرعية بمقتضى العقل الذي يستبعد وقوع ذلك ولا يتصوره ، وقد مدح الله تعالى المؤمنين الذين يؤمنون بالأمور

---

(١) يراجع كتاب / صحيفة همام بن منبه - للدكتور رفعت فوزي عبد المطلب / ص ٦١٧ - ٦٢٤ وفيه الحديث برواياته وتخريجاتها والتعليق عليها بشيء من التفصيل المفيد .

(٢) طرح التثريب / جـ ٧ - ص ٢٤٧ .

الغيبية دون استبعاد ذلك بعقولهم وجعلها هداية لهم دون غيرهم وجعلهم بذلك من المفلحين . فقال تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدًى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ [البقرة : ١ - ٥] .

والمقام هنا لا يتسع البحث فيه ، كما لا يقتضيه بحثنا [١] ، حيث إن الغرض الأساسي من البحث هو إظهار عبودية الكائنات جميعها لله تعالى . والشمس والقمر من تلك الكائنات التي تخضع لله تعالى وتطيع أوامره سبحانه ، وقد أظهرنا بما لا يدع مجالا للشك عبوديتهما لله تعالى ببيان سجودهما وطاعتهما لأوامر الله تعالى .

وقد حدث للقمر أمر خارق للعادة كما يحدث للشمس باستقرارها وسجودها تحت العرش كل يوم وكذلك حبسها ليوشع بن نون ومحمد عليهما السلام . وهو انشقاقه على عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام ليكون آية للمشركين في صدق دعواه ، ولكنهم أعرضوا ولم يؤمنوا به مع إيمانهم ورؤيتهم لانشقاق القمر فقالوا : إنه لسحر ، وقال بعضهم : إن محمدا سحر القمر . وذلك في قوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر** ﴾ [القمر : ١ - ٥] .

وقد أورد ابن كثير - رحمه الله تعالى - الأحاديث الواردة في انشقاق القمر في الصحيحين وغيرهما وقال : « ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء - أي انشقاق القمر - وقد وقع

---

(١) أوردنا في تمهيد القسم الثاني من الفصل الثاني أدلة كثيرة على تجسيم الأعراض تدفع المؤمن إلى الإيمان بالغيب فيما جاء عن الله جل وعلا أو عن رسوله ﷺ / ص ٢٦١ .

في زمان النبي عليه الصلاة والسلام وأنه كان إحدى المعجـزات الباهرات » [1] أ.هـ .

ونذكر من هذه الأحاديث ما رواه البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال : « سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر » [2] .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي االله عنه - قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » [3] .

فسبحان الذي سخر الأكوان ، يسيرها كيف شاء بحكمته بحيث يعتاد الناس على رؤيتها بكيفية . كما يريهم سبحانه قدرته فيسيرها بكيفية خلاف ما اعتادوا عليه ليؤمنوا بأن الله تعالى على كل شيء قدير وأنه أحاط بكل شيء علما وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وأن قوانين الكون بأكمله لا تخضع للقوانين البشرية ، حتى يستحيل العقل ما يثبته النص ، وإنما تخضع تلك السنن الكونية للقانون الإلهي الذي يحوي قوله تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ [يس : ٨٢] .

فيجب علينا أن نؤمن بذلك ونقول ما نطقت به الآية التالية وهي قوله تعالى : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾ [يس : ٨٣] .

وقد خصت الشمس والقمر بذكر سجودهما حيث عُبدا من دون الله تعالى ، كما ورد ذلك في كتاب الله تعالى عن قوم بلقيس ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** ﴾ [النمل : ٢٤] . وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ [فصلت : ٣٧] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ - ص ٢٦١ .

(٢)،(٣) البخاري / كـ : التفسير - ب : سورة القمر .

فبيّن سبحانه أنه لا ينبغي عبادة الشمس والقمر من دونه سبحانه فإنهما يعبدان الله تعالى الذي خلقهما ويستحق العبادة دون غيره .

وتبكيتا لأهل الشرك من عبّاد الشمس والقمر فإن الله تعالى يجعلهما في النار ليكون ذلك أوقع في الحسرة والندامة لهؤلاء المشركين يوم لا ينفع الندم .

فقد جاء في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة » (١) . كونهما في النار لا يفهم منه أنهما يعذبان عقوبة لهما فحاشا لله تعالى أن يعذب من أطاعه ، فقد ثبت سجودهما لله تعالى بالآيات والأحاديث السابقة .

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – حيث قال : « وأخرج أبو يعلى (٢) من حديث أنس وفيه : (ليراهما من عبدهما) كما قال تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ قال الخطابي : ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك ، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلا » (٣) أ.هـ .

الطعـــام

الطعام الذي يأكله الإنسان ويستفيد منه له تسبيح خاص به . هذا وقد يكون مستغربا عند قراءته ، ولكنه حدث في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسمعه الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – . فعبد الله بن مسعود – رضي الله تعالى عنه – يخبرنا عن ذلك فيقول : « ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو

---

(١) بخاري / ك : بدء الخلق – ب : « صفة الشمس والقمر بحسبان » .
ومخرج بشرحه في سلسلة الأحاديث الصحيحة / برقم ١٢٤ .

(٢) هو : الحافظ الثقة محدث الجزيرة أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى التميمي صاحب المسند الكبير ، مات سنة ٣٠٧ هـ . (تذكرة الحفاظ / جـ ٢ – ص ٧٠٧ – ٧٠٨) .

(٣) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٣٠٠ .

يؤكل » [1] . فيه إشارة أن الصحابة كانوا يسمعون ذلك التسبيح من الطعام . وذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - : « إن ذلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غالبا وقد اشتهر تسبيح الطعام وتسبيح الحصى وحنين الجذع ، ولم يكذب رواتها » [2] .

إذن فلا نستبعد نسبة هذا التسبيح للطعام حيث أكدته الأدلة ، خاصة أنها في البخاري وأيده السلف ، فلا نخوض في الكيفية وحمل ذلك على المجاز ، ما دام النص صحيحا وصريحا في ذلك . بل ولا عجب أن نجد ما هو يقارب ذلك وهو القصعة التي تحمل الطعام فإنها تستغفر للاعقها بعد أكله منها ، وهذا ما روي عن المصطفى عليه الصلاة والسلام في الحديث : « من أكل في قصعة ثم لحسها استغفرت له القصعة » [3] .

الظـــلال

إن ظل الأشياء التي يحدثها الضوء الذي يسقط عليها سواء كانت من ضوء الشمس أو ضوء غيرها له عبودية لله تعالى بنص الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فيقول تعالى : ﴿ **ولله يسجد من فِي السمٰوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ [الرعد : ١٥] ، فيبين سبحانه عظمته وسلطانه وملكه الذي دان له كل شيء طوعا من المؤمنين وكرها من الكافرين ، وذلك لخضوعهم لسنن الله الكونية . فيقول تعالى : ﴿ **ألم يروا إلى ما خلق الله من شْيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون** ﴾ [النحل : ٤٨] .

---

(١) بخاري / ك : مناقب - ب : علامات النبوة في الإسلام .

(٢) فتح الباري / جـ ٦ - ص ٥٩٢ .

(٣) أحمد / ٥ - ٧٦ .

ابن ماجة / ك : الأطعمة - ب : ١٠ ، الترمذي / ك : الأطعمة - ب : ١١ . إلا أن الشيخ ناصر الألباني (حفظه الله تعالى) ذكر هذه الرواية في ضعيف الجامع وحكم بضعفها / ح رقم ٥٤٨٧ .

فالآيات تدل على سجود الكائنات وسجود ظلالها ، وليس كما يظن بأن ظل الأشياء أمر طبعي يحدثه سقوط الضوء عليها دون تدخل من القوة العليا المهيمنة على الكون . فهو القادر على إبقاء هذا الظل وثبوته كما قال عز من قائل : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ [الفرقان : ٤٥] .

يقول حنفي أحمد : « أي ولو شاء لجعل الظل ساكنا بسكون الأرض ودوام ضياء الشمس على الأرض أو بعدم طلوعها ودوام ظل الأرض عليها وكلا الحالين مهلك للحياة على الأرض ومبطل لتعاقب الليل والنهار وهذه الجملة تنبيه لحكمته تعالى ورحمته بالناس » [(١)] أ.هـ .

والسجود في الآيات السابقة بمعنى الخضوع والانقياد ليشمل سجود الكفار فالكل منقاد وخاضع تحت سلطان الله تعالى الذي لا يقهر ، كما يشمل سجود الكائنات المؤمنة به سبحانه والتي أدت السجود لربها طواعية .

فيقول الشوكاني – رحمه الله تعالى – : « إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقي فذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن ، وأما الكفار فلا يصح في حقهم فلابد أن يحمل السجود ويفسر بالانقياد لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقادون لأمره وحكمه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت والفقر والغنى . ثم قال – رحمه الله تعالى – عن سجود الظلال نقلا عن ابن الأنباري : « ولا يبعد أن يخلق الله للظلال أفهاما تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيحه ، وظل المؤمن يسجد لله طوعا وظل الكافر يسجد لله كرها » [(٢)] أ.هـ .

ومن الواضح من كلام الشوكاني أنه جمع في تفسير الآية بين المعنى العام للسجود وهو الخضوع والانقياد ، وبين المعنى الحقيقي لسجود الإنسان .

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن / ص ٣٤٩ .

(٢) فتح القدير / جـ ٣ – ص ٧٣ .

وسواء شمل المعنيين أو أحدهما فالثابت هو أن للظلال سجودا بحسبه تخضع به لخالقها سبحانه الذي يخضع له من في السموات ومن في الأرض من جميع الكائنات ، وتظهر به عبوديتها له عز وجل وأحقيته بالعبادة دون سواه .

النجـــــوم

النجوم من الكائنات العلوية التي سخرها الله عز وجل لبني آدم يهتدي بها في ظلمات الليل وتعينه على تحديد بعض الاتجاهات لقوله تعالى : ﴿ **وعلامات وبالنجم هم يهتدون** ﴾ [النحل : ١٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذِى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فِى ظلمات البر والبحر** ﴾ [الأنعام : ٩٧] . إلى غير ذلك من فوائدها ، فهي مسخرة خاضعة لأمر الله تعالى لها حيث قال تعالى عنها : ﴿ **والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ [النحل : ١٢] . وهي كغيرها من الكائنات تعبد الله عز وجل وتسجد له وذلك في قوله تعالى : ﴿ **والنجم والشجر يسجدان** ﴾ [الرحمن : ٦] ، وفي قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فِى السمٰوات ومن فِى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس** ﴾ الآية [الحج : ١٨] .

وقد اختلف في « النجم » في آية الرحمن السابقة فالبعض [١] يذهب إلى أنه النبات الصغير ، وآخرون [٢] قالوا بأنه النجم الذي في السماء حيث إن القرآن يفسر بعضه بعضا والآية التي تليها توضح سجود النجوم كلها ، والرأي الثاني هو الأولى . وأيا كان الأمر فالسجود ثابت للنجوم بالآية القرآنية التي في سورة الحج .

★ ★ ★

---

(١) أبو السعود في تفسيره / مجلد ٥ – ص ٦٦٠ ، الشوكاني في فتح القدير / جـ ٥ – ص ١٣١ ، والألوسي في روح المعاني / جـ ١٧ – ص ١٠٠ .

(٢) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان / جـ ٧ – ص ٧٣٧ .



الفصل الثالث
عبودية عالم الغيب

وفيه

* **تمهيد**
* **القسم الأول : الأحياء الغيبية .**
- المبحث الأول : الملائكة .
- المبحث الثاني : الجن والشياطين .
* **القسم الثاني : الكائنات الغيبية .**
- المبحث الأول : عبودية الجنة والنار .
- المبحث الثاني : عبودية القلم والعرش .



تمهيد

قدمنا في بداية الفصل الثاني كلاما شافيا عن عبودية الكائنات عامة وسردنا من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وأقوال أهل العلم في ذلك بما يغني عن إعادته هنا . فحديثنا في هذا الفصل عن عالم الغيب . وهو كل ما غاب عن الحس ولا نعلم عنه سوى ما أثبتته النصوص الشرعية . وهو قسمان :

القسم الأول : الأحياء الغيبية . ونقصد بها الملائكة والجن والشياطين .

القسم الثاني : الكائنات الغيبية . وتشمل الجنة والنار ، كما تشمل القلم والعرش .

والكلام عن عبودية القسم الأول مع بعض الخلافات التي حول الملائكة في عبوديتهم نحو خالقهم هل هم مقهورون عليها أم لهم اختيار ؟ والراجح أنهم مختارون ، كما سنرى إن شاء الله تعالى . فالكلام عن عبودية القسم الأول . لا تعتبر مع الخلاف السابق شاذة أو مستغربة . إنما الذي يستدعي الدهشة والاستغراب أن نجد أفراد القسم الثاني – وهي ما أطلقنا عليها بالجمادات الغيبية – لها عبودية لخالقها جل وعلا ، كما أن لها من الإدراكات ما تميز به وتعقل قول باريها لها ، مثلها في ذلك الجمادات التي تحدثنا عنها في عالم الشهادة .

وكما قلنا من قبل – ونقول هنا – إن صحة النصوص الشرعية التي نعتمد على الاستدلال بها تجعلنا نؤمن بها وبما فيها من أخبار عن تلك الكائنات – وغيرها – .

القسم الأول
الأحياء الغيبية

المبحث الأول
عبودية الملائكة

التعريف بالملائكة

هم أجسام نورانية لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة ، مسكنها السموات ، وشأنها الطاعات . خلقت من نور ، وذلك لما جاء عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أنه ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور » [1] .

والملائكة يعبدون الله تعالى حق عبادته باختيار منهم ، ومدحوا على عبادتهم لله تعالى بأعلى صفة وهي صفة العبودية ، فقال تعالى عنهم : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ [الأنبياء : ٢٦] ، فلو كانت عبادتهم اضطرارية لمَا أُثني عليهم . فكما بالنسبة للبشر لم يمدحوا على إتيانهم عملية التنفس وعملية الهضم وعملية الإخراج ، وهي عمليات اضطرارية ، والإنسان مجبور عليها ومخلوق بها ، كذلك بالنسبة للملائكة لو كانت عبادتهم اضطرارية لما مدحوا [2] .

---

(١) مسلم / ك : التفسير - ب : سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ . (ومختصره / ح رقم ٢١٦٩) .

(٢) تعليق : لا عبرة لقول من قال إن عبادة الملائكة لله عز وجل عبادة تسخير وأنهم مجبورون عليها ، فالمدح والثناء والذم لازم للفعل الاختياري ، وليس كذلك للفعل الاضطراري ، فلو سقط شخص من أعلى دون قصد منه ، على حيوان مفترس فأراح الناس من شره فقتله فهل يسمى هذا الشخص بطلا ؟! =

وذكر القزويني عنهم الكثير . فقال مما قال : « واعلم أن الملائكة جواهر مقدسة عن طلب الشهوة وكدورة الغضب ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون ، طعامهم التسبيح ، وشرابهم التقديس ، وأنسهم بذكر الله تعالى ، وفرحهم بعبادته ، خلقوا على صورة مختلفة وأقدار متفاوتة لإصلاح مصنوعاته ، وإسكان سمواته » (١) أ.هـ .

أصنافهم :

وهم أصناف كثيرة حسب ما وكل إليهم من أعمال ، فمنهم حملة العرش ، ومنهم الكرام الكاتبين ، ومنهم خزنة الجنة وخزنة النار ، ومنهم الموكلون بقبض الأرواح ، ومنهم من وكل بالسؤال في القبر . إلى غير ذلك من الوظائف المختلفة التي وكلوا بأدائها .

صفاتهم :

فهم مع اختلاف وظائفهم يشتركون في صفات حميدة ، مثل : الطاعة الكاملة والخضوع التام ، والطهر ، وغيرها . قال تعالى عنهم : ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [التحريم : ٦] . وهؤلاء هم خزنة جهنم – أو الزبانية – قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله تعالى ، ولكنهم وغيرهم مع بقية الملائكة مستسلمون لأمر الله تعالى ، مطيعون له ، لا يبدر منهم أي معصية (٢) ، كما يصطفي الله تعالى منهم رسلا يقومون بأداء مهمات خاصة

= وكذلك من كان وجهه جميلا – وهو شيء قد جبل وخلق هذا الشخص عليه – هل نقول له جزاك الله خيرا على وجهك الجميل ؟ فبالطبع لا .. ولكن من يأتي طاعة ربه ويمتثل أوامره ويقدسه وينزهه عن كل سوء ويجتنب محارمه ، استحق المدح والثناء ، والعكس بالعكس . فمن أتى الكفر وعصى أمر ربه وأتى محارمه استحق الذم واستحق لعنة الله وملائكته والناس أجمعين .

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات – القزويني / ص ٥٦ .

(٢) فالملائكة معصومون من الذنوب والكبائر ولا يتأتى منهم أي معصية ، وهذا ما عليه أئمة المسلمين قاطبة ولا ينظر إلى المبتدعة الذين قالوا بعدم عصمة الملائكة وهم الكرامية أتباع محمد بن كرام . يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، وأنكروا أن يكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق =

توكل إليهم دون بقية الملائكة . فيقول تعالى : ﴿ **الله يصطفِي من الملائكة رسلا ومن الناس** ﴾ [الحج : ٧٥] .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى : ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم** ﴾ الآية : « أي مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه ولا يتأخرون عنه طرفة عين وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه » [(١)] أ.هـ .

كما قال تعالى عنهم : ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ [الأنبياء : ٢٧] ، وأما عن طهرهم . فيقول تعالى : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ [الواقعة : ٧٩] . وهم الملائكة – على الرأي الراجح – وقيل : بأنهم الطاهرون من الحدث أو الذنوب أو الشرك . قاله ابن كثير وغيره من أئمة التفسير [(٢)] .

فالملائكة يتسمون بصفات عالية وبأخلاق سامية منزهون عن النقائص والآثام ، ومفضلون على كثير من الأنام [(٣)] . وهم مع علو منزلتهم ورفعة مكانتهم ، وتمام عبوديتهم يتفاوتون فيما بينهم في قدر منازلهم .

أشهرهم :

اشتهر أن رؤساء الملائكة ثلاث : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل – عليهم السلام – فجبرائيل هو أمين الوحي ، وميكائيل موكل بالقطر ، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور .

= باللسان إيمانا ، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان . (لمعرفة المزيد من آرائهم راجع مقالات الإسلاميين / ص ١٤١) ، و(الملل والنحل – الشهرستاني / ص ١٠٨ – ١١٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ – ص ٣٩١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ – ص ٢٩٨ .

راجع : كلام الشوكاني في فتح القدير / جـ ٥ – ص ١٦٠ .

(٣) راجع هذه المسألة بالتفصيل في الفتاوى – ابن تيمية / مجلد ٤ – ص ٣٤٢ – ٣٩٢ ، وشرح الطحاوية / ص ٣٣٧ – ٣٤٨ .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن الملائكة : « ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل . فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم . وقد أثنى الله تعالى على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات . فقال تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم * ذِى قوة عند ذِى العرش مكين * مطاع ثَمَّ أمين** ﴾ [التكوير : ١٩ - ٢١] »[1] أ.هـ .

وقد أثنى الله تعالى على ملائكته كما جاء ذلك كثيرا في آيات القرآن الكريم ، فقرن ذكرهم به سبحانه ورفع منازلهم . لما يقومون به تجاه ربهم وخالقهم من عبوديتهم له سبحانه في خضوع تام . فحققوا مراتب عالية في العبودية فاستحقوا بذلك أن يكونوا عباد الله المكرمين . فقال تعالى : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ [الأنبياء : ٢٦] .

وجاء في شرح الطحاوية ما نصه : « والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم فتارة يقرن الله تعالى اسمه وصلاته بصلاتهم ، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف ، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له ، ومراتبهم من الدنو ، وتارة يصفهم بالإكرام والكرام ، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص . قال تعالى : ﴿ **كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، ﴿ **شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو والملائكة وأولوا العلم** ﴾ [آل عمران : ١٨] ، ﴿ **هو الذِى يصلِّى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾ [غافر : ٧] ، ﴿ **وترَى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضِىَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [الزمر : ٧٥] . - ثم قال - : « وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم . فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة[2] التي هي

---

(١) إغاثة اللهفان - لابن القيم / جـ ٢ - ص ١٢٧ ، ١٢٨ - باختصار - .

(٢) هكذا قال والصواب أنها أحد الأصول الستة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

أركان الإيمان » [1] .

مما سبق يتبين لنا عبودية الملائكة لخالقها عز وجل بما استحقت بها مكانتها ومنزلتها . ولكن لمزيد من الإيضاح لعبوديتهم لله تعالى فإليك هذا التفصيل .

فنقول وبالله التوفيق :

عبوديتهم

(١) إيمانهم بالله عز وجل وشهادتهم بالتوحيد :

فالملائكة عليهم السلام يؤمنون بالله عز وجل إيمانا كاملا ويشهدون أنه لا إله إلا هو سبحانه ويخضعون لأوامره تعالى . كما يؤمنون به سبحانه وبأسمائه وصفاته وأنه تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، فيقول تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

كما يشهدون – بعد شهادة الله تعالى – على صدق الوحي وأنه منزل من عند الله العزيز الحكيم . فقال تعالى : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون** ﴾ [النساء : ١٩] .

وعن إيمانهم بأسماء الله تعالى وصفاته . فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ [البقرة : ٣٢] . ويقول تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيْء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾ [غافر : ٧] .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكروبيين بأنهم يسبحون بحمد

---

(١) شرح الطحاوية / ص ٣٣٧ .

ربهم أي يتقربون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه » [1] .

(٢) إقامتهم الصلاة :

فهم يؤدون الصلاة لربهم سبحانه سواء مع أنفسهم أو مع المؤمنين ، أو كما جاء عن جبريل عليه السلام بأنه صلى مع رسول الله ﷺ . ففي صحيح البخاري أنه ﷺ قال : « نزل عليَّ جبريل فأمَّني فصليت معه ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس صلوات » [2] .

وأما عن صلاتهم مع المؤمنين ، وهو ما يظهر من تأمينهم في الصلاة وكذلك حضورهم صلاة الجمعة لسماع الخطبة ، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا أمَّن الإمام فأمّنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » [3] .

وأما عن حضورهم صلاة الجمعة وذلك بعد تسجيلهم أسماء المبكرين إلى الجمعة ، فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال النبي ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر » [4] .

وأما عن صلاتهم الخاصة بهم وهي ما أخبر به المصطفى صلوات الله وسلامه عليهم في حديث الإسراء الطويل . فعن أنس بن مالك – رضي الله تعالى عنه – قال النبي عليه الصلاة والسلام : « فأتيت إبراهيم فسلمت عليه فقال : مرحبا بك من ابن ونبي فرفع لي البيت المعمور ، فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر

---

(١) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ – ص ٧١ .

(٢) البخاري ك / بدء الخلق – ب : ذكر الملائكة .

(٣)،(٤) البخاري / ك : بدء الخلق – ب : ذكر الملائكة .

ما عليهم ... » الحديث [1] .

(٣) التسبيح والتحميد والسجود :

فهم - الملائكة - يسبحون ويحمدون الله عز وجل لا يفترون ولا يملون . فيقول تعالى : ﴿ **ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته** ﴾ [الرعد : ١٣] ، كما اعترفوا بأنفسهم أنهم يسبحونه تعالى ويقدسونه في قوله تعالى : ﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وله من فِي السمٰوات والأرض ومن عنده** [2] **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .

فالملائكة يقومون بخالص العبودية دون استكبار منهم أو علو ، وهم مطيعون وفي غاية الخضوع له سبحانه . يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - : « أخبر الله تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلا ونهارا فقال : ﴿ **وله من فِي السمٰوات والأرض ومن عنده** ﴾ يعني الملائكة . وقوله : ﴿ **ولا يستحسرون** ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا مطيعون قصدا وعملا قادرون عليه » [3] أ.هـ .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ **وترَى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [الزمر : ٧٥] . فيخبر الله تعالى عن ملائكته بأنهم ملتفون حول العرش العظيم يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور [4] . كما يخبر الله تعالى عن تسبيحهم في قوله : ﴿ **تكاد السمٰوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾ [الشورى : ٥] .

---

(١) البخاري / ك : بدء الخلق - ب : ذكر الملائكة .
(٢) المراد بمن عنده : الملائكة (كما سيأتي بعد قليل) .
(٣) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٣ - ص ١٧٥ .
(٤) راجع : المصدر السابق / مجلد ٤ - ص ٦٨ .

وعن سجود الملائكة وتسبيحهم أيضا ، فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولله يسجد ما فِي السمٰوات وما فِي الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرن** ﴾ [النحل : ٤٩] .

ويقول سبحانه : ﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون** ﴾ [الأعراف : ١٠٦] .

والذين ﴿ **عند ربك** ﴾ هم الملائكة بإجماع المفسرين . ذكره القرطبي (١) – رحمه الله تعالى – فهم يعظمونه وينزهونه عن كل سوء ويسجدون له .

وفي الحديث عن أبي ذر – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ إني لأرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدا » (٢) .

(٤) خوفهم من الله تعالى ومن يوم القيامة .

وعن وجلهم وخوفهم من الله تعالى يقول عز وجل عنهم : ﴿ **ولله يسجد ما فِي السمٰوات وما فِي الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [النحل : ٤٩ ، ٥٠] .

وعن إشفاقهم من يوم القيامة حيث فيه الأهوال العظيمة والأحداث المشيبة . يخبر عليه الصلاة والسلام أن الملائكة وغيرها من المخلوقات يشفقون من يوم الجمعة لقيام الساعة فيه . فلا يعلم قيامها إلا الله عز وجل . فعن أبي لبابة بن عبد المنذر قال : قال رسول الله ﷺ : « وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / جـ ٧ – ص ٣٥٦ .

(٢) الترمذي / ك : الزهد – ب : مَا جاء في قوله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا » . (وصحيحه / ح رقم ١٨٨٢) .

، ابن ماجة / ك : الزهد – ب : الحزن والبكاء . (وصحيحه / ح رقم ٣٣٧٨) .

(٣) ابن ماجة / ك : إقامة – ب : في فضل يوم الجمعة . (وصحيحه / ح رقم ٨٨٨) .

(٥) الولاء والبراء عند الملائكة :

خلق الله تعالى الملائكة من نور ، ونزههم عن المعاصي والآثام ، فتجلّى لهم عظم خالقهم ، فقدروه حق قدره ، فلم يصدر منهم إلا الطاعة والخضوع التام ، وكبر عليهم أن يُعصى الإله سبحانه ، فأحبوا أهل الطاعة فوالوهم في الله تعالى ، كما كرهوا أهل المعصية فعادوهم وتبرءوا منهم .

فأما موالاتهم لأهل الطاعة . فتظهر في حب الملائكة إياهم ودعائهم لهم ، وتأييدهم ونصرتهم وتثبيتهم في القتال وحضور مجالسهم ، وسؤال المغفرة لهم ، ووضع أجنحتهم لطالب العلم خاصة ، ويتضح ذلك من الأدلة التالية :

- فعن استغفار الملائكة ودعائهم للمؤمنين :

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيْء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التِي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [غافر : ٧ - ٩] .

وقوله تعالى : ﴿ **تكاد السمٰوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فِي الأرض إلا إن الله هو الغفور الرحيم** ﴾ [الشورى : ٥] .

- وتقوم بتبشير المؤمنين بالجنة في الدنيا عند موتهم والسلام عليهم في الآخرة عند دخولهم الجنة .

فأما في الدنيا . فكما في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التِي كنتم توعدون نحن أولياؤكم فِي الحياة الدنيا وفِي الآخرة ولكم فيها ما تشتهِي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** ﴾ [فصلت : ٣٠] .

فيخبر الله تعالى بأن الملائكة تتنزل على المؤمنين الصادقين عند الموت وتقول : لا تخافوا مما تقدموا عليه من أمر الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر

الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإنا نخلفكم فيه . كما يبشرونهم بالجنة التي وعدوا بها [1] .

وأما في الآخرة فكما في قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ [الزمر : ٧٣] .

وكما جاء في قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .

- ومن دعائهم للمؤمنين . قوله عليه الصلاة والسلام : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » [2] .

- وعن حضور الملائكة مجالس الذكر واستغفارهم لأصحابها ولطالب العلم . ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » [3] .

وعنه أيضا عن النبي ﷺ قال : « إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيَّارة فضلا يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم

---

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ - ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) مسلم / ك : الدعاء - ب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب .
(ومختصره / ح رقم ١٨٨٢) .
وابن ماجة / ك : المناسك - ب : فضل دعاء الحج . (وصحيحه / ح رقم ٢٣٤٠) .

(٣) مسلم / ك : الذكر - ب : فضل الإجتماع على تلاوة كتاب الله . (ومختصره / ح رقم ١٨٨٨) .

بعضا بأجنحتهم حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا » [1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض » [2] .

– ومن مظاهر ولاء الملائكة لأهل طاعة الله تعالى :

نصرتهم وتأييدهم للمؤمنين في القتال . وقد حدث ذلك في بعض غزوات النبي ﷺ . فقال تعالى : ﴿ **إذ يوحِي ربك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقِي فِي قلوب الذين آمنوا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ [الأنفال : ١٢] .

ويقول تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ **إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلَى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾ [آل عمران : ١٢٤ ، ١٢٥] .

وفي الحديث عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – : أن النبي ﷺ قال يوم بدر : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب » [3] .

وقد مدح رسول الله ﷺ من شهد بدرا من المؤمنين ، ومن الملائكة ، بل وجعلهم من أفضل الملائكة .

جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ قال : « ما تعدون أهل بدر فيكم » ؟ قال : « من أفضل المسلمين » ، أو كلمة نحوها . قال : « وكذلك من شهد بدرا من الملائكة » [4] .

---

(١) البخاري / ك : الدعوات –ب : فضل ذكر الله عز وجل .
مسلم / ك : الذكر – ب : فضل مجالس الذكر . (ومختصره / ح رقم ١٨٩٠) .
(٢) ابن ماجة / المقدمة – ب : فضل العلماء والحث على طلب العلم . (وصحيحه / ح رقم ١٨٤) .
(٣) بخاري / ك : المغازي – ب : شهود الملائكة بدرا .
(٤) المصدر السابق .

ومن مظاهر تأييد الملائكة لأهل طاعة الله تعالى تأييد جبريل عليه السلام لحسان ابن ثابت [1] في هجاء الكافرين .

فقد قال النبي ﷺ لحسان : « اهجهم – أو هاجهم – وجبريل معك » [2] .

– وعن حب الملائكة لأهل طاعة الله تعالى :

ذكر أبو هريرة – رضي الله تعالى عنه – عن النبي ﷺ قال : « إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله تعالى يحب فلانا فأحببه ، فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض » [3] .

إلى غير ذلك مما يبين ولاء الملائكة لأهل طاعة الله تعالى .

وأما عن براءتهم من أهل الكبائر والمعاصي فيظهر ذلك كثيرا في آيات القرآن والأحاديث الشريفة ، وأول هؤلاء هم أهل الكفر والشرك لأنه أكبر الكبائر . فيقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ [البقرة : ١٦١] .

– وبغضهم لأئمة الكفر أشد وأغلظ :

ففرعون – عليه لعنة الله تعالى – لما تجرأ على مقام الألوهية واستكبر على مقام العبودية وقال : أنا ربكم الأعلى . كان جبريل عليه السلام يسارع في إهلاكه وهو يغرق حتى لا تدركه رحمة الله تعالى حيث قال : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ، فظن جبريل عليه السلام أن هذا سينفعه فكان يسارع في

---

(١) هو : حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي ، أبو عبد الرحمن ، شاعر النبي ﷺ ، مشهور ، مات سنة ٥٤ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ١٦١) .

(٢) البخاري / ك : بدء الخلق – ب : ذكر الملائكة .

(٣) متفق عليه :

بخاري / ك : الأدب – ب : المقة من الله تعالى .

مسلم / ك : البر – ب : إذا أحب الله عبدا حببه لعباده . (ومختصره / ح رقم ١٧٧١) .

إدخال الماء إلى فيّ فرعون ليعجل بهلاكه ، وذلك لأن فرعون قد تجرأ على الله عز وجل .

ففي الحديث عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنه – أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : « لو رأيتني وأنا آخذ من حمأ البحر فأدسه في فيّ فرعون ، مخافة أن تدركه الرحمة » [1] .

وكذا موقفهم عليهم السلام مع النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أبو جهل أن يقترب من النبي عليه الصلاة والسلام كي يقتله .

فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم [2] ؟ فقيل : نعم . فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي – زعم ليطأ على رقبته – فما فجئهم منه إلا وهو يركض على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة . فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » [3] .

وعموما فإن الملائكة تبغض كل كافر بالله تعالى وكل عاص وكل من يبغضه سبحانه . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « .. وإذا أبغض الله تعالى عبدا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ثم توضع له البغضاء في الأرض » [4] .

---

(١) صحيح الجامع / ح ٤٢٢٩ . فإن قيل : كيف فعل ذلك جبريل عليه السلام بفرعون مع حرص أهل الإيمان على إيمان الكفار ، قيل : فعل ذلك غضبا لله تعالى لطغيان كفره وعظم جرمه .

(٢) أي هل يصلي ويسجد على التراب ؟

(٣) مسلم / ك : فضائل النبي ﷺ – ب : منع النبي ﷺ ممن همَّ بأذاه .
(ومختصره / ح رقم ١٥٣٩) .
وانظر : صحيح الجامع / ح ٥١٤٥ ، ومشكاة المصابيح / ح ٥٨٥٧ .

(٤) جزء من حديث أبي هريرة السابق / ص ٣٥٣ .

كما يبغضون أهل المعاصي من المؤمنين . ففي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » (١) .

– كما تقوم الملائكة عليهم السلام بامتهان الكافرين ، وذلك بضرب وجوههم وأدبارهم عند موتهم .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ **ولو ترَى إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذقوا عذاب الحريق** ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

– تحديث الملائكة إلى عصاة المؤمنين وإلى الكافرين :

في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالِمِي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فِي الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾ [النساء : ٩٧] .

وقوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلَى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ [الزمر : ٧١] .

وقوله تعالى : ﴿ **كلما ألقِيَ فيها فوج سألتهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلَى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىْء** ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

موقف الكفار من الملائكة

افترق الناس في منزلة الملائكة . فقد حط من قدرهم أقوام ، وغالى فيهم آخرون . فمنهم من عاداهم ، وهم اليهود ، ومنهم من جعلهم إناثا وهم المشركون ، ومنهم من جعلهم آلهة تعبد من دون الله تعالى .

فأما اليهود فقد عادوا المصطفين من الملائكة وعلى رأسهم جبريل عليه السلام

---

(١) البخاري / ك : بدء الخلق – ب : ذكر الملائكة .

أمين الوحي . فقد كان اليهود يعتقدون بأن جبريل عليه السلام عدو اليهود من الملائكة » [1] .

فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدًى وبشرَىٰ للمؤمنين * من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ [البقرة : ٩٧ ، ٩٨] .

وأما الذين حطوا من منزلة الملائكة فقد جعلوهم إناثا ، وقالوا : بأن الملائكة بنات الله – تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا – . فرد الله فريتهم الشنيعة ، فقال تعالى : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ [الزخرف : ١٩] .

فالأنوثة والذكورة لا تعرفان إلا بالمشاهدة أو بإخبار من الله تعالى ، إما في كتابه أو على لسان رسله ، ولم يكن لديهم واحد منهما . فلا يقال في الملائكة ذكور كما لا يقال هم إناث . ورُوي عن سعيد بن المسيب أنه قال : الملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتوالدون » [2] .

قال تعالى : ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون** ﴾ [الصافات : ١٤٩ – ١٥٢] فالذي لم يتورع ولم يخف من قوله إن الملائكة بنات الله . قد سهل عليه قوله بأن لله ولدا . فتبًّا لمن استخف بهؤلاء الكرام البررة . فكل من استخف بإلهه الحق وملائكته الكرام استحق النار حيث هي مثواه .

وأما الذين غالوا في منزلة الملائكة . فهم على طرف نقيض من سابقيهم ، فأولئك قد حطوا من منزلتهم ، أما هؤلاء فقد رفعوا الملائكة إلى مرتبة الألوهية ،

---

(١) البخاري / ك : بدء الخلق – ب : ذكر الملائكة .

(٢) ذكره ابن حجر في الفتح / جـ ٦ – ص ٣٠٦ .

فعبدوهم من دون الله تعالى ، فكفروا وضلوا عن الجادة . قال تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] .

فالواجب شرعا تجاه الملائكة هو إنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله تعالى من أنهم عباد مكرمون ، وأنهم صنف مختار من مخلوقات الله تعالى . وأنهم لا يقدمون على شيء إلا بأمر الله تعالى لهم . والموت والفناء جائز عليهم ، وجعل الله لهمّ أجلا يعلمه هو سبحانه وهم بالغوه . فلا يوصفون بصفة تؤدي إلى الاستهزاء بهم أو الإشراك به سبحانه ، كالحط من منزلتهم ، كمعاداتهم أو وصفهم بأنهم بنات الله أو تأليههم .

قال تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ [النساء : ١٢٧] .

فيجب الإيمان بهم إجمالا وتفصيلا وذلك لقوله تعالى : ﴿ **كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ولقوله تعالى : ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة** ﴾ الآية [البقرة : ١٧٧] .

* * *

المبحث الثاني

عبودية الجن والشياطين

التعريف بالجن

الجن في اللغة : اسم جنس جمعي وواحده جني . وهو مأخوذ من الاجتنان وهو التستر والاستخفاء ، ومنه الجِنة ، والجنين ، والجنون ، والجَنة . وهم نوع من العالم سموا بذلك لاختفائهم عن الأبصار فلا يرون [١] .

وأما في الاصطلاح فقيل : بأنهم نوع من العالم المخالف للبشر والملائكة . وقيل : إن الجن في لسان الشرع – بناء على ما جاء في الكتاب والسنة، وقاله المفسرون : عالم غيبي مخالف للبشر والملائكة خلقهم الله تعالى من نار وكلفهم بالشرائع ، فمنهم العاصي ومنهم المطيع ، يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ويرون البشر من حيث لا يرونهم [٢] .

فالجن من جملة المخلوقات الغيبية التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام .

إثبات عبودية الجن :

ولعل ما يهمنا في بحثنا هذا في الكلام عن الجن هو ما يخص عبوديتهم لله تعالى وإثبات ذلك . أما ما ذكرناه فأمر يحتاج إليه البحث لبيان ما هم عليه من الحال ، فالخلافات التي تدور حول الجن كثيرة وأولها في إثبات وجود الجن أصلا

---

(١) بخاري / ك : بدء الخلق – ب : ذكر الجن .
الترمذي / ك : الطهارة – ب : كراهية ما يُستنجى به . والحديث عنده عن عبد الله بن مسعود – رضي الله تعالى عنه – (صحيحه / ح رقم ١٧) .

(٢) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٣٤٥ .

حيث أنكر كثير من الزنادقة [1] وجودهم رأسا ، كما ذكر ذلك ابن حجر – رحمه الله تعالى – في الفتح [2] ، نقلا عن إمام الحرمين . أما ما عليه الجمهور وسلف هذه الأمة وخلفها هو إثبات وجودهم لما أخبر به الله تعالى وأخبر به رسوله عليه الصلاة والسلام عنهم وعن أحوالهم . وبناء على هذه النصوص القطعية والمتواترة والصحيحة فقد بوب الإمام البخاري – رحمه الله تعالى – بابا في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم ، وعلق ابن حجر – رحمه الله تعالى – على التبويب فقال : « أشار بهذه الترجمة إلى إثبات وجود الجن إلى كونهم مكلفين » [3] . وإذا ثبت وجودهم بالقطع فيهمنا في هذا المقام إثبات كونهم مكلفين .

(أ) هل الجن مكلفون ؟

فأما عن كونهم مكلفين فهم مكلفون بالتوحيد وأركان الإسلام كما ذكره ابن حجر ونقل – رحمه الله تعالى – أن الجن عند الجماعة مكلفون . كما نقل

---

(١) الزنادقة : ظهرت هذه الكلمة في أيام ماني بن فديك في عهد الدولة الساسانية بالفرس ، وذلك أن الفرس حين عمل لهم زرادشت تفسيرا لكتابهم (النسياه) سماه الزند ، وعمل لهذا التفسير شرحا سماه البازند وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل ، وكان من أورد في شريعتهم شيئا بخلاف المنزل الذي هو « النسياه » وعدل إلى التأويل الذي هو الزند قالوا : هذا زندي ، فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر منَ المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل . فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا : زنديق . أ.هـ . بتصرف من مروح الذهب (جـ ١ ، ص ١٩٣ ، ٢١٢) .

وقال النووي – رحمه الله تعالى – الزنديق : هو الذي ينكر الشرع جملة .

(شرح صحيح مسلم / جـ ١ – ص ٢٠٧) .

وقيل : إن له معان عدة منها :

(أ) الزنديق هو : القائل بالنور والظلمة .. أتباع ماني ومزدك .

(ب) الزنديق هو : المتبع لدين ماني باطنا مع اعتناق الإسلام ظاهرًا .

(جـ) الزنديق هو : من يبطن الكفر ويظهر الإسلام .

(د) الزنديق هو : الملحد الذي لا يؤمن بالله مطلقا .

(هـ) الزنديق هو : المستهتر بأمور الدين .

(راجع : كتاب الزندقة والزنادقة / ص ١١١ – ١١٢ – تأليف عاطف شكري) .

(٢)،(٣) فتح الباري / جـ ٦ – ص ٣٤٣ .

راجع : إنكار وجود الجن .. في الفتاوى / جـ ١٩ – ص ١٠ .

أنه لا خلاف بين أهل النظر في ذلك ، إلا ما حكي عن بعض الضالين أنهم (أي الجن) مضطرون إلى أفعالهم وليسوا بمكلفين » [(١)] .

وكما ذكر أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة قولهم في الجن بأنهم مكلفون ومختارون فقال : « واختلف الناس في الجن هل هم مكلفون أم مضطرون ؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم هم مأمورون منهيون قد أمروا ونهوا لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمٰوات والأرض فانفذوا** ﴾ [الرحمن : ٣٣] وأنهم مختارون ، وزعم زاعمون أنهم مضطرون مأمورون » [(٢)] أ.هـ .

وقد علق ابن القيم – رحمه الله تعالى – على قولة أبي الحسن الأشعري هذه لأنه نسبها إلى المعتزلة دون أن ينسبها إلى أهل السنة والجماعة إذ هم الأصل دون غيرهم والآخرون تبع لهم فقال – رحمه الله تعالى – بعد ما أورد نص المقالات : « قلت : والصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر ، فإضافة هذا القول إلى المعتزلة بمنزلة أن يقال : ذهبت المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان ، ونحو ذلك مما هو من أقوال أهل الإسلام » [(٣)] أ.هـ .

ثم سرد – رحمه الله تعالى – الأدلة من القرآن والسنة على تكليف الجن وأنهم مأمورون منهيون . بما لا يدع مجالا للشك في هذا أو حجة للمخالف [(٤)] .

فقال من جملة ما قال : « ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتّى نبعث رسولا** ﴾ [الإسراء : ١٥] وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى

---

(١) راجع : فتح الباري / جـ ٦ – ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
(٢) مقالات الإسلاميين / ص ٤٤٠ .
(٣) طبقات المكلفين / ص ١٠٩ .
(٤) فليراجعها من شاء – ص ١١٠ من المصدر السابق .

به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل » [1] .

كما جاء في كتاب « حياة الحيوان الكبرى » ما نصه : « لاشك أن الجن مكلفون في الأمم الماضية ، كما هم مكلفون في هذه الأمة لقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ [الأحقاف : ١٨] . وقوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] قيل : المراد مؤمنو الفريقين فما خلق أهل الطاعة منهم إلا لعبادته وما خلق الأشقياء إلا للشقاوة ولا مانع من إطلاق العام وإرادة الخاص ، وقيل معناه إلا لآمرهم بعبادتي وأدعوهم إليها ، وقيل إلا ليوحدون (فإن قيل) لم اقتصر على الفريقين ولم يذكر الملائكة (فالجواب) أن ذلك لكثرة من كفر من الفريقين بخلاف الملائكة فإن الله قد عصمهم » [2] أ.هـ .

فالجن إذا مكلفون بأصول الشريعة وفروعها وهذا ما يظهر من عموم الأدلة إلا أنهم يختلفون بعض الشيء فيما كلفوا به عن الإنس بحسبهم .

وهو ما أجاب به ابن تيمية حين – سئل – رحمه الله تعالى – عن الجان المؤمنين : هل هم مخاطبون بفروع الإسلام كالصوم وغير ذلك من العبادات ؟ أم هم مخاطبون بنفس التصديق لا غير ؟

فقال : « لا ريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق ، ومنهيون عن أعمال غير التكذيب ، فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا مماثلي الإنس في الحد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساويا ما على الإنس في الحد ، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعا بين المسلمين » [3] أ.هـ .

---

(١) طبقات المكلفين / ص ١١٤ .
(٢) حياة الحيوان الكبرى / جـ ١ – ص ١٩٢ .
(٣) الفتاوى / جـ ٤ – ص ٢٣٣ .

وذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - : « وإذا تقرر كونهم مكلفين فهم مكلفون بالتوحيد وأركان الإسلام ، وأما ما عداه من الفروع فاختلف فيه لما ثبت من النهي عن الروث والعظم وأنهما زاد الجن . فدل على جواز تناولهم للروث وذلك حرام على الإنس » (١) .

وهذا يوافق قول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - السابق بأن الجن مكلفون بحسبهم . فما ثبت تحريمه أو تحليله على الجن بالنص فهو خاص بهم . فاعلم - رحمك الله تعالى - أن الجن مأمورون ومنهيون ومكلفون بما جاء من عند الله تعالى عن ألسنة رسله عليه الصلاة والسلام (٢) وهذا يستلزم تكليفهم بشرائع

---

(١) فتح الباري / جـ ٦ - ص ٣٤٥ - بتصرف - .

تعليق : إن العظم والروث يرجعان لما كان عليه أولا ، فالعظم يرجع لحما واللحم ليس بنجس ، وكذلك الروث ، يكون علفا لدوابهم كما في حديث ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة فقال : « كل عظم لم يذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » فقال ﷺ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن » .

(رواه الترمذي / ك : التفسير - ب : سورة الأحقاف) . كما ذكره مختصرا في / ك : الطهارة - ب : كراهية ما يستنجى به) (وصحيحه / ح رقم ١٧) .

(٢) تعليق : هؤلاء الرسل سواء أكانوا من الإنس إلى الجن كما هو مذهب الجمهور بأن الرسل من الإنس وليس ذلك في الجن إنما فيهم منذرون يسمعون ما جاء من عند الله تعالى من رسل البشر ثم يبلغون أقوامهم من الجن فيكونون بمنزلة الرسل كما حكى الله تعالى عن رسل عيسى عليه السلام وهم أتباعه في قوله تعالى : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون** ﴾ [يس : ١٤] ، أم كانوا رسلا من الجن كما ذهب إلى ذلك الضحاك بن مزاحم ومقاتل بن سليمان وغيرهما ، واحتج الضحاك بأن الله تعالى أخبر أن من الجن والإنس رسلا أرسلوا إليهم بقوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم** ﴾ [الأنعام : ١٣٠] فكما أن للإنس رسلا منهم كذلك الجن لهم رسل منهم وتبعه في هذا الرأي الرازي وابن حزم وغيرهما . وهذه المسألة وهي : هل بعث الله تعالى رسلا من الجن ؟ مختلف فيها بين من يثبت ذلك وبين من ينكره إلا أن الفريقين متفقان على أن الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام مرسل إلى الجن والإنس معا ، وهذا من تمام ختم النبوة به عليه السلام ، وهي خصوصية له عليه الصلاة والسلام لإرساله إلى الثقلين .

(راجع في هذه المسألة : طبقات المكلفين - لابن القيم / ص ١٠٣ .

وفتح الباري - لابن حجر / جـ ٦ - ص ٣٤٤ .

وحياة الحيوان الكبرى - للدميري / جـ ١ - ص ١٩٢ .

وتفسير الرازي / مجلد ٧ - جـ ١٣ - ص ٢٠٥ - ٢٠٦) .

يجب اتباعهم لها ، وذلك بطاعة هؤلاء الرسل ، ونظرًا لأنه قد أجمع المسلمون قاطبة على عموم رسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام إلى الثقلين ولا خلاف بينهم في ذلك ، بل جعلها بعضهم له خصوصية كابن عبد البر وإمام الحرمين وابن تيمية وغيرهم ، كما نقله ابن حجر عنهم (١) ، وكذلك الطحاوي (٢) . فإن الجن مكلفون باتباع شريعة الإسلام التي جاء بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام . وفي هذا يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : « فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدا ﷺ بعث إلى الجن والإنس وأنه يجب على الجن طاعته كما يجب على الإنس » (٣) .

(ب) ما يُظهر عبوديتهم لله عز وجل :

تكلمنا فيما مضى أن الجن مكلفون بالشرائع وبجميع الأوامر والنواهي التي أوحاها الله تعالى إلى رسله عليهم السلام وبلغوها عنه سبحانه ، فامتثل من آمن بالله تعالى من الجن وجحد من كفر به سبحانه . فالذين آمنوا بالله ورسله فأولئك هم المفلحون فكان مما يظهر عبوديتهم لله تعالى ما يلي :

(١) التوحيـد :

وهو إفراد الله تعالى بما شرع من العبادة من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة حيث شملهم تكليف الله تعالى بصفة خاصة والإنس معهم لعبادته سبحانه وعدم الإشراك به . وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] . فتدل الآية على الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى الجن والإنس ألا وهي عبادته سبحانه دون سواه .

---

(١) راجع فتح الباري / جـ ٦ - ص ٣٤٥ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية / ص ١٧٦ .

(٣) طبقات المكلفين / ص ١٠٧ .

(٢) إسـلام الجن :

ومما يدل على إسلام الجن ما روي في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود – رضي الله تعالى عنه – قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم فنزلت : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

وقد أقر مؤمنو الجن بإفراد العبادة لله عز وجل في قوله تعالى عنهم : ﴿ **ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ [الجن : ٢] .

كما أنهم نزهوا الله عز وجل من أن يكون له صاحبة كما قال مشركو العرب ، أو أن يكون له ولد كما زعم بعض الكفرة من اليهود في عزير بأنه ابن الله ، وكما زعمت النصارى في عيسى عليه السلام بأنه ابن الله – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا – . فقال تعالى حكاية عن قول مؤمني الجن : ﴿ **وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا** ﴾ [الجن : ٣] . وذلك كنظير قوله تعالى : ﴿ **بديع السمٰوات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىْء وهو بكل شىْء عليم** ﴾ [الأنعام : ١٠١] .

والظاهر من التحقيق أن مردة الجن وهم الشياطين . هم الذين زينوا للبشر من اليهود والنصارى والمشركين وسائر الكفرة عبادة غير الله تعالى ، وهذا ما أقسم عليه إبليس اللعين . فقال تعالى حكاية عنه : ﴿ **وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله** ﴾ [النساء : ١١٩] . فهؤلاء المشركون ما عبدوا في الحقيقة غير الجن . وهذا كما جاء على ألسنة الملائكة في قوله تعالى عنهم : ﴿ **سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ [سبأ : ٤١] .

هذا والله تعالى أعلم . [٢] .

---

(١) بخاري / ك : التفسير – ب : سورة بني إسرائيل .
مسلم / ك : التفسير – ب : سورة سبحان (ومختصره / ح رقم ١٢٤٥) .
(٢) راجع : تفسير القرآن العظيم / مجلد ٢ – ص ١٦٢ .

(٣) سماعهم الأذان :

فالجن يسمعون أذان الصلاة من صوت المؤذن ويشهدون له مع من يشهد يوم القيامة . كما في حديث البخاري عن أبي سعيد الخدري – رضي الله تعالى عنه – قال : « إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ »[1] .

(٤) استماعهن القرآن :

فقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الصحيحة في إثبات ذلك عنهم منها قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضِىَ ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدِى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعِىَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعِىَ الله فليس بمعجز فِى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فِى ضلال مبين** ﴾ [الأحقاف : ٢٩ – ٣٢] وقوله تعالى : ﴿ **قل أوحِىَ إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدِى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ [الجن : ١ ، ٢] . فيه دليل على سماع الجِن للقرآن وإعجابهم به ، واهتدائهم بهديه وإيمانهم بالله عز وجل . كما يدل على إيمانهم بالرسل ، كموسى عليه السلام . كما هو صريح في سورة الأحقاف ، وبرسوله ﷺ من قوله تعالى : ﴿ **أجيبوا داعِىَ الله وآمنوا به** ﴾ وهو سيدنا محمد ﷺ – كما ذكره المفسرون – كما يدل على إيمانهم بالنار وبالجزاء والحساب في إثابة المطيع وعقاب العاصي ، كما يدل على إيمانهم بالكتب المنزلة كالتوراة والقرآن . وبالجملة فإنهم يؤمنون بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر والحساب .

---

(١) بخاري / ك : الأذان – ب : رفع الصوت بالنداء .

ولقد قرأ رسول الله ﷺ على الجن سورة الرحمن ، حيث إنها تتحدث إلى الثقلين معا وأخبر عليه الصلاة والسلام أنهم كانوا أحسن مردودا من الإنس . فعن جابر – رضي الله تعالى عنه – قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا . فقال : « لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ **فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » [1] .

ولقد تكرر قوله تعالى : ﴿ **فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان** ﴾ في سورة الرحمن ثلاثين مرة ، وهو ظاهر أنه خطاب للثقلين معا . وقد جاء مثل هذا الخطاب كثيرا في سور القرآن الكريم . فقد شمل الجن والإنس التحدي على الإتيان بمثل هذا القرآن مجتمعين أو منفردين وذلك في قوله تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

(٥) إيمانهم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى :

لقد كانت الجن من جملة المخلوقات التي سخرها الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام – المؤمنون منهم والكافرون – فكانوا يعملون له ما يشاء من الأعمال الشاقة . فقال تعالى : ﴿ **فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد** ﴾ [ص : ٣٦ – ٣٨] .

وقال : ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير** ﴾ [سبأ : ١٢] . وقال : ﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون** ﴾ [النمل : ١٧] . ففيه دلالة على إطاعة الجن – المؤمنين منهم والكافرين من مردة الشياطين – لأمر الله تعالى لخدمة سليمان عليه السلام بل وتوعدهم بالنكال في مخالفتهم له . فعلموا أن الله تعالى هو الحق المبين وأنه سبحانه ذو الألوهية على خلقه أجمعين فأطاعوه وأذعنوا لأمره ، بل إن الله تعالى قد أعطى نبيه سليمان

---

(١) الترمذي / ك : تفسير القرآن – ب : سورة الرحمن . (وصحيحه / ح رقم ٢٦٢٤) .

عليه السلام سلطانا كاملا على الجن حيث كان يأمر من شاء منهم ويعاقب من عصى أمره من مردة الجن [1] .

وكان من أمر الجن مع سليمان عليه السلام حين موته شيء عجيب . فقد كانت الجن تزعم بأنهم يعلمون الغيب ، والظاهر أن الشياطين منهم هم الذين اعتقدوا ذلك ، فإن المؤمنين منهم قالوا فيما حكاه الله تعالى عنهم : ﴿ **وإنا لا ندرِى أشر أريد بمن فِى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾ [الجن : ١٠] فيه اعتراف مؤمنيهم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى . وجاء في تفسير أضواء البيان في معنى الآية : « فيه نص على أن الجن لا تعلم الغيب » [2] .

أما اعترافهم جميعا بما فيهم المردة من الشياطين فهذا يظهر حين موت سليمان عليه السلام . كما حكى القرآن الكريم عن ذلك . فجاء في محكم التنزيل : ﴿ **فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فِى العذاب المهين** ﴾ [سبأ : ١٤] .

فكانت الجن تعمل – وكذلك غيرهم – اعتقادا منهم أنه عليه السلام حي ، وقائم على تسخيرهم فكان ذلك خير دليل عملي أمام أعينهم بأنهم لا يعلمون الغيب وأنه بيد الله تعالى وحده . قال تعالى : ﴿ **قل لا يعلم من فِى السمٰوات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ [النمل : ٦٥] . ولكن يطلع الله تعالى بعض غيبه على بعض رسله ، كما قال تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

(٦) قيامهم بالدعوة والإنذار إلى أقوامهم :

فقد قام الجن بدعوة قومهم إلى الإيمان بالله تعالى وبرسوله عليه السلام واتباع

---

(١) راجع : البداية والنهاية – لابن كثير / جـ ٣ – ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) أضواء البيان / جـ ٨ – ص ٥٤٣ .

أمرهما ، كما أنذروهم بالنار لمخالفة دين الله تعالى . فقال تعالى : ﴿ **قالوا أنصتوا فلما قضِيَ ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدِي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعِيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣١] .

والشاهد أن قيام الجن بعبوديتهم لله تعالى من خلال ما رأينا سابقا يجلعنا نؤمن بهم ونؤمن بأن منهم الصالحين ومنهم الجاحدين . وقد مدح رسول الله ﷺ وفد الجن الذي أتوا واستمعوا القرآن . فقال عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة [(١)] : « أتاني وفد نصيبين ، ونعم الجن » وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث جابر السابق [(٢)] : « لقد قرأتها - يعني سورة الرحمن - على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم » .

فمدحه عليه الصلاة والسلام وفد نصيبين بأنهم : نعم الجن ، وبأنهم كانوا أحسن ردا من الصحابة عند سماعهم سورة الرحمن يدل على أنهم طائعون لله تعالى . إذ المدح يكون لمن أتى الواجبات وانتهى عما يسخط الله تعالى . كما أثبت عليه الصلاة والسلام محبته لأهل الطاعة منهم . فقال عن أهل الطاعة من الجن في حديث ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - [(٣)] : « فإنه طعام إخوانكم من الجن » وقصد بذلك الصالحين منهم .

وعن المردة من الجن حين سئل عن الطاعون قال عليه الصلاة والسلام : « وخز أعدائكم من الجن » [(٤)] .

وقد أخبرت الجن عن أصنافهم ، فهم فيهم كافرون ومسلمون . والمسلمون : صالحون ودون الصالحين . فقال تعالى حكاية عنهم : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا** ﴾ [الجن : ١١] . وقال تعالى : ﴿ **وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾ [الجن : ١٤ ، ١٥] .

---

(١) بخاري / ك : بدء الخلق - ب : ذكر الجن .
(٢) سبق ذكره ص ٣٦٦ .
(٣) ترمذي / ك : الطهارة - ب : كراهية ما يستنجى به : (وصحيحه ح رقم ١٧) .
(٤) رواه أحمد / ٤ - ٣٩٥ ، ٤١٣ .

وهم كأصناف الإنس كما ذكر ابن القيم – رحمه الله تعالى – فقال : « قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات . صالحين ، دون الصالحين ، وكفار . وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم ، فإنها ثلاثة : أبرار ، ومقتصدون ، وكفار » [1] أ.هـ .

ما أعده الله عز وجل لكافرهم ومؤمنهم

وإذا ثبت كونهم مكلفين ، ثبت كونهم مجزيين على أعمالهم في إثابة المطيع وعقاب الكفرة منهم .

(أ) جزاء الكافرين والعصاة من الجن :

فقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ **ولكن حق القول منِّى لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين** ﴾ [السجدة : ١٣] وقوله : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . وقوله : ﴿ **قال ادخلوا فِى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فِى النار** ﴾ [الأعراف : ٣٨] وهذا حكم كافرهم في الآخرة . أما العصاة من الجن فحكمهم حكم عصاة المؤمنين من الإنس فالحسنات يذهبن السيئات . ومرتكب الكبيرة دون الكفر وإن مات بدون توبة فهو في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه دون تخليده في النار ، وإن شاء عفا عنه لقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ [النساء : ٤٨] .

(ب) جزاء المؤمنين من الجن :

أما مؤمنو الجن فقد اختلف العلماء في ثوابهم [2] فقيل : إنهم يدخلون الجنة

---

(١) طبقات المكلفين / ص ١٠٥ .

(٢) راجع : التفسير الكبير للرازي / جـ ٢٨ – ص ٣٣ ، الفتاوى – لابن تيمية / جـ ٤ – ص ٢٣٢ ، فتح الباري / جـ ٦ – ص ٣٤٦ ، طبقات المكلفين – لابن القيم / ص ١١٨ . وتفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ – ص ٢٧٨ .

وهو ما ذهب إليه الجمهور .

وقيل : بأن المؤمنين من الجن يكونون في ربض الجنة .

وقيل : بأن مؤمني الجن من أهل الأعراف .

وقيل : بأن ثواب مؤمنيهم النجاة من النار ثم يصيرون ترابا . وهو ما حكي عن أبي حنيفة [1] - رحمه الله تعالى - وغيره .

والقول الأول هو الصواب : إذ أن الجن والإنس مشتركون في الغاية التي من أجلها خلقوا وهي عبادة الله تعالى وإفراده بها وعدم الإشراك به سبحانه . فمن أتاها من الفريقين استحق الجنة ومن جحدها واستعلى عليها كان من أهل الشقاوة في النار خالدا فيها أبدًا . وهو ما ذهب إليه الجمهور من العلماء والمفسرين والأئمة ، إلا ما ذهب إليه أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - إلى أن ثوابهم هو نجاتهم من النار ، ثم يصيرون ترابا فنقول : إن كان النص القرآني الذي في هذه المسألة ظاهره يدل على نجاتهم من النار في مثل قوله تعالى : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعِيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾ .

فأين النص القرآني الذي يدل بظاهره أو باطنه على أنهم يصيرون ترابا كالبهائم ؟!!

أدلة الأقوال السابقة :

(أ) حجة الفريق الأول :

ذهب الجمهور إلى أن مؤمني الجن في الجنة ، واستدلوا لذلك بأدلة منها :

(١) قوله تعالى : ﴿ **وأنا لما سمعنا الهدَى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا** ﴾ [الجن : ١٣] .

---

(١) فقيه العراق النعمان بن ثابت بن زوطا التيمي ، مولده سنة ٨٠ هـ ، كان إماما ورعا عالما متعبدا كبير الشأن ، كان موته سنة ١٥٠ هـ . (تذكرة الحفاظ / جـ ١ - ص ١٦٨ ، ١٦٩) .

فقالوا : وبهذه الحجة احتج البخاري - رحمه الله تعالى - [1] . ووجه الإحتجاج : أن البخس المنفي هو نقصان الثواب ، والرهق : الزيادة في العقوبة أو الظلم على ما عمل ، فلا ينقص مؤمنهم من ثواب حسناتهم ولا يزداد في سيئاتهم . ونظيره قوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** ﴾ [طه : ١١٢] .

(٢) قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان** ﴾ [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] . وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾ [الرحمن : ٥٦] . هذا دليل على أن ثواب محسنهم الجنة . والخطاب في سورة الرحمن للثقلين معا من أول السورة إلى آخرها . وتكرر قوله تعالى : ﴿ **فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان** ﴾ للجن والإنس معا ، وقد تقدم حديث جابر - رضي الله تعالى عنه - وفيه أن الجن كانوا أحسن مردودا لما قرأت عليهم هذه السورة ، وفي قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ [الرحمن : ٤٦] فقد رتب سبحانه الجزاء المذكور وهو الجنة على خوف مقامه ، فدل استحقاقهم به .

وفي قوله تعالى : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾ [الرحمن : ٥٦] ذكر وصف نسائهم أي نساء أهل الجنتين ، ومعناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم ، ولا نساء الجن جن قبلهم .

(٣) لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار وكل من لم يدخل النار من المكلفين بتنجية الله تعالى له ، فالجنة مثواه ، كما أن مَنْ لم يدخل الجنة من المكلفين فالنار مثواه .

(٤) أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم يستغفرون لمن في الأرض في قوله تعالى : ﴿ **تكاد السمٰوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فِي الأرض** ﴾ [الشورى : ٥] . والذين في الأرض وعليهم مدار التكليف

---

(١) فتح الباري / جـ ٦ - ص ٣٤٦ ، طبقات المكلفين / ص ١١٨ .

هم الجن والإنس فإنهم - أي الملائكة - يقولون : ﴿ **فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التِي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ [غافر : ٧ ، ٨] . فدل على أن كل مؤمن غفر الله تعالى له ووقاه عذاب الجحيم ، فقد وعده بالجنة فتعين دخول مؤمني الجن الجنة إذ كان الله لا يخلف وعده [(١)] .

(ب) أدلة الفريق الثاني :

ذهب الفريق الثاني إلى القول بأن المؤمنين من الجن يكونون في ربض الجنة ، وهذا منقول عن مالك وطائفة ، وقيل : بأنه ورد في ذلك حديث رواه الطبراني أنهم يكونوا في ربض الجنة يراهم الإنس من حيث لا يرونهم [(٢)] .

(جـ) أدلة الفريق الثالث :

وهم القائلون بأن مؤمني الجن من أهل الأعراف . وأما القول بأن ثواب مؤمنيهم النجاة من النار ثم يصيرون ترابا فقد حكي عن أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - وغيره . واحتج بقوله تعالى : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعِيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾ [الأحقاف : ٣١] . قالوا فلم يذكر دخول الجنة ، فدل ذلك على أنهم لا يدخلونها .

ويرد عليهم : بأن ذكر أحد ما يترتب عليه الإيمان بالله تعالى وهو النجاة من النار لا يدل على انتفاء الأمر الآخر وهو ثواب دخول الجنة . فقد يكون الاقتصار عليه لأن الترهيب أشد في حملهم على الإيمان بالله تعالى » [(٣)] .

كما استدلوا بما رواه ابن أبي الدنيا عن ليث بن أبي سليم قال : « ثواب الجن

---

(١) راجع : طريق الهجرتين / ص ٤١٧ ، فتح الباري / جـ ٦ - ص ٣٤٦ .

(٢) راجع : الفتاوى / جـ ٤ - ص ٢٣٣ ، فتح الباري / جـ ٦ - ص ٣٤٦ .
ولم يحكم ابن تيمية على حديث الطبراني بضعف أو صحة ، ولم أعثر على الحكم عليه .

(٣) اليواقيت والجواهر / جـ ١ - ص ١٣٦ .

أن يجاروا من النار ثم يقال لهم : كونوا ترابا »[1] .

وهذا لا دليل فيه إذ أن ليث بن أبي سليم هذا متكلم فيه بضعفه من قبل أهل الحديث . فقد ذكر الإمام الذهبي[2] – رحمه الله تعالى – أقوال أهل العلم فيه من أنه : مضطرب الحديث ، ضعيف ، اختلط في آخر عمره[3] .

الرأي الراجح :

إن ظاهر عموم الآيات التي استدل بها الجمهور تدل على أن ثواب مؤمني الجن الجنة وأنهم يتنعمون بنعيمها كغيرهم من البشر ، مجازاة لهم على طاعتهم .

قال الفخر الرازي : « والصحيح أنهم في حكم بني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية »[4] .

وقال النووي – رحمه الله تعالى – : « والصحيح أنهم يدخلونها ويتنعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما »[5] .

ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب ، على أن محسنهم في الجنة وأن مسيئهم في النار »[6] . وقال أيضا : « أما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة فجمهور الخلف والسلف على أنهم في الجنة »[7] والله تعالى أعلم .

* * *

---

(١) ذكره ابن حجر في الفتح / جـ ٦ – ص ٣٤٦ .

(٢) هو : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الحافظ ، ولد سنة ٦٧٣ هـ بكفر طنا من غوطة دمشق ، توفي سنة ٧٤٨ هـ .
(الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة / جـ ٣ – ص ٤٢٦) .

(٣) ميزان الاعتدال – الذهبي / جـ ٣ – ص ٤٢٠ – ٤٢١ ، المغني في الضعفاء / جـ ٢ – ص ١٣٦ .

(٤) التفسير الكبير / جـ ٢٨ – ص ٣٣ .

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم / جـ ٤ – ص ١٦٩ .

(٦) طبقات المكلفين / ص ١١٨ .

(٧) طريق الهجرتين / ص ٤١٨ .

القسم الثاني
الجمادات الغيبية
المبحث الأول
عبودية الجنة والنار

الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان وهما مآل العباد يوم القيامة . فيؤتى بالموت وينحر بينهما فيقال حينئذ لأهل الجنة خلود بلا موت ، ويقال لأهل النار خلود بلا موت .

ولقد اختصمت الجنة والنار إلى ربهما بما يفيد عبوديتهما لله تعالى . واختصامهما إليه سبحانه يدل على معرفتهما بأنه عز وجل خالقهما ، كما يدل أيضا على إدراكهما وأن الله تعالى قد أودع فيهما التمييز الذي جعلهما يحاجان بعضهما البعض ويتكلمان إلى ربهما . فكل منهما يُخاطَب ويُخاطِب . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطتهم وغبرتهم . فقال الله عز وجل للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك مَنْ أشاء من عبادي وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها » [1] . والحديث يدل على أن الاحتجاج والأقوال منسوبة للجنة والنار لا لخزنتهما ، فلنلحظ قول الجنة مثلا : « فما لي لا يدخلني » يبيِّن أن الكلام للجنة لا لخزنتها ، وكذلك النار فالحديث على ظاهره ولا يحتاج إلى التأويل .

---

(١) بخاري / ك : التفسير – ب : سورة « ق » .
، مسلم / ك : صفة النار – ب : النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء .
(مختصره / ح رقم ١٩٨٠) .

قال النووي – رحمه الله تعالى – : « والحديث على ظاهره ، وأن الله يخلق في الجنة والنار تمييزا يدركان به ويقدران على المراجعة والاحتجاج » [١] .

ونقل الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « أنه يجوز أن يكون هذا الخصام حقيقة بأن يخلق الله فيهما حياة وفهما وكلاما والله قادر على كل شيء » [٢] .

وهذا غير مستبعد بل هو الصحيح ، كما رأينا وسنرى بعد قليل المزيد من الأدلة في هذا . وتحقيقا لعبودية الجنة والنار لخالقها عز وجل مع ما مر بنا من احتجاجهما وتخاصمهما إلى ربهما ، فقد جاء عن النار شكواها لربها وأنها تغتاظ من رؤية الكافرين وهم آتون إليها .

فأما عن شكوى النار إلى ربها عز وجل ، فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – : « اشتكت النار إلى ربها وقالت : أكل بعضي بعضا ، فجعل لها نفسين ، نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف . فأما نفسها في الشتاء فزمهرير ، وأما نفسها في الصيف فسموم » [٣] .

وشكواها إلى خالقها يدل على كلامها ونطقها بكلام مفهوم تدرك معناه . وإلا فما المقصود بالشكوى إذًا ؟!

وإن قيل : كيف يتحقق هذا الكلام بدون لسان ؟

فنقول : أما تدري أن للنار لسانا بل لها أذنان وعينان ، وإليك ما يطمئن قلبك . فعن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق فيقول : إن وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي / جـ ١٧ – ص ١٨١ .
(٢) فتح الباري / جـ ١٣ – ص ٤٣٦ .
(٣) ترمذي / ك : صفة جهنم – ب : أن للنار نفسين (وصحيحه / ح رقم ٢٠٩٠) .
ابن ماجة / ك : الزهد – ب : صفة النار (صحيحه / ح رقم ٣٤٨٧) .

مع الله إلها آخر ، وبالمصورين » [1] .

وأما عن تغيظ النار لرؤية الكافرين القادمين إليها فذلك في قوله تعالى : ﴿ **بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ [الفرقان : ١١ ، ١٢] .

فالنار يزداد لهيبها عندما ترى الكافرين وهم قادمون إليها من على بعد ، وهي تراهم بأعينها فيزداد غيظها وحنقها عليهم بسبب كفرهم بالله عز وجل وتكذيبهم بيوم القيامة والآية تدل على أن النار هي التي تغتاظ وليس خزنتها .

قال القرطبي – رحمه الله تعالى – في هذه الآية : « المعنى : إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم ، وقيل : المعنى إذا رأتهم خزانها سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على عذابهم . والأول أصح » [2] أ.هـ .

ثم ذكر حديث أبي هريرة – السابق – لإثبات كلام جهنم ورؤيتها .

ويقول الشيخ الشنقيطي – رحمه الله تعالى – : « إن النار يوم القيامة إذا رأت الكفار من مكان بعيد أي في عرصات المحشر اشتد غيظها على مَنْ كفر بربها وعلا زفيرها فسمع الكفار صوتها من شدة غيظها وسمعوا زفيرها » [3] .

كما استدل – رحمه الله تعالى – بقوله عز وجل : ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ على حدة بصرها وقوته [3] .

ومما يستدل به أيضا على تغيظ النار لرؤية الكافرين قوله تعالى : ﴿ **إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهِيَ تفور * تكاد تميز من الغيظ** ﴾ [الملك : ٧ ، ٨] .

فإذا كانت الأدلة القرآنية والأحاديث الشريفة تدل على صفات النار وما لها من العين والأذن واللسان وأنها تدرك فتتكلم وتغتاظ . بما لا يدع مجالا للشك ،

---

(١) ترمذي / ك : صفة جهنم – ب : صفة النار (وصحيحه / ح رقم ٢٠٨٣) .
(والسلسلة الصحيحة / ح رقم ٥١٢) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٣ – ص ٧ .
(٣) أضواء البيان / جـ ٦ – ص ٢٨٧ .

فما الداعي لصرف تلك البراهين وتأويلها على غير حقيقتها فيقال بأن المقصود خزنة جهنم !! .

وكما أن النار تغتاظ ويسمع لها زفير عندما ترى الكفار قادمين إليها . فإن الجنة تشتاق لأهلها ، فقد جاء عن أنس بن مالك – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : لعلي وعمار وسلمان » (١) .

واعلم أن قول النار إجابة عن سؤال ربها إليها في قوله تعالى : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ [ق : ٣٠] . على الحقيقة ولا تجوز فيه وليس من كلام خزنة جهنم أيضا . وهذا ما أيده كثير من أهل التفسير المعتبرين . وإليك كلام بعضهم :

فيقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : « يخبر الله تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة هل امتلأت وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجِنة والناس أجمعين ، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ويلقي وهي تقول : هل من مزيد ؟ » (٢) أ.هـ .

ويقول القرطبي – رحمه الله تعالى – بعد أن ذكر القول بالمجاز : « وقيل : ينطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح . وهذا أصح على ما بيناه في سورة الفرقان (٣) » (٤) أ.هـ .

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى – : « واعلم أن قول النار في هذه الآية ﴿ **هل من مزيد** ﴾ قول حقيقي ينطقها الله به » (٥) أ.هـ .

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ١٥٩٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم / مجلد ٤ – ص ٢٢٦ .
(٣) سبق ذكره في الصفحة السابقة .
(٤) الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٧ – ص ١٨ .
(٥) أضواء البيان / جـ ٧ – ص ٦٥٣ .

وذكر – رحمه الله – كلاما طيبا عن رؤية النار وكلامها يجدر بنا أن ننقله هنا بأكمله . فقال : « اعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة ، كما صرح الله بذلك في قوله هنا : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد** ﴾ ورؤيتها إياهم من مكان بعيد تدل على حدة بصرها كما لا يخفى ، كما أن النار تتكلم ، كما صرح به في قوله : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد** ﴾ والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة ، كحديث محاجة النار مع الجنة ، وكحديث اشتكائها إلى ربها فأذن لها في نفسين ، ونحو ذلك ، ويكفي في ذلك أن الله جل وعلا صرح في هذه الآية أنها تراهم وأن لها تغيظا على الكفار وأنها تقول : هل من مزيد ؟ ، واعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم من المنتسبين للعلم من أن النار لا تبصر ولا تتكلم ، ولا تغتاظ ، وأن ذلك كله من قبيل المجاز ، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها . كله باطل ولا معول عليه لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند والحق هو ما ذكرنا . فقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما هو معلوم في محله » [1] أ.هـ .

وكلام أهل التفسير السابق يدل على الإدراكات التي أودعها الله تعالى في النار وأنها حق بصريح الكتاب والسنة . كما أن كلام الشيخ الشنقيطي يعتبر ردا قويا على من ذهب إلى القول بالمجاز ، أو بأن المقصود من الآيات : هم خزنة النار .

وأريد أن أضيف شيئا للرد على من قال : إن المقصود هم خزنة النار . فأقول : لاشك أن الله تعالى وهو القادر سبحانه قد أنزل هذا القرآن بألفاظه على أكمل نحو وأحكم نظم ، فقد نسب سبحانه في سورة الزمر القول والسؤال الموجه إلى الكفار إلى خزنة النار – كما نسب القول والسلام الموجه إلى المؤمنين

---

(١) أضواء البيان / جـ ٦ – ص ٢٨٨ .

إلى خزنة الجنة ، فقال عز من قائل : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ [الزمر : ٧١] . فهذا هو كلام خزنة النار وليس كلام النار . أما عن كلام خزنة الجنة فيقول الله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ [الزمر : ٧٣] . فعلم بذلك أن الكلام الموجود في سورة الزمر منسوب إلى خزنة النار وخزنة الجنة وهم الملائكة . فسبحانه عز من قائل قادر أن ينزل ألفاظ القرآن الموجودة في آية الفرقان فتكون : ﴿ **إذا رآهم خزنتها من مكان بعيد** ﴾ وفي آية ق : ﴿ **وتقول خزنتها هل من مزيد** ﴾ .

ولكن الألفاظ المنزلة تدل دلالة واضحة على أن الرؤية والكلام وغيره منسوبة إلى النار لا إلى غيرها ، بل وشهدت السنة المطهرة على صدق هذا ، وبينته فيجب الإيمان بذلك دون تأويل أو تحريف ، ونسلم بتلك الأمور الغيبية التي لا نعلم كنهها ولا حقيقتها إلا ماثبت بالنص الصريح الصحيح .

نـار الدنـيـا

مر بنا فيما سبق الكلام عن عبودية النار لخالقها عز وجل ، إلا أنه كان عن نار الآخرة . فماذا عن نار الدنيا . هل لها من عبودية لموجدها عز وجل ؟

إن الأدلة القرآنية والأحاديث الثابتة تدل على أن هذه النار – وهي نار الدنيا – مأمورة هي الأخرى ، وخاضعة لأمر باريها . وأنه سبحانه إن شاء لها وأمرها بالخروج عما خلقت وألفت من الإحراق استجابت لذلك . وإليك بيان ذلك .

- فللنار موقف عظيم مع نبي الله إبراهيم عليه السلام حين ألقاه قومه فيها فنجاه الله تعالى منها ، وذلك بخطابه سبحانه وتعالى وأمره للنار بأن تكون بردا وسلاما فلا تمس إبراهيم عليه السلام بسوء . فقال تعالى : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [الأنبياء : ٦٨ – ٧٠] .

فكانت كما أمرها ربها ولم تمس إبراهيم بأذى ، والقول في قوله تعالى : ﴿ **قلنا** ﴾ قول حقيقي كما أوضحه الألوسي بقوله : « الظاهر أن الله تعالى هو القائل لها : ﴿ **كوني بردا** ﴾ إلخ ، وأن هناك قولا حقيقة » [1] أ.هـ .

والنداء في قوله تعالى : ﴿ **يا نار** ﴾ يدل على إدراك النار للخطاب . ونجاته عليه السلام من الإحتراق رغم إلقائه مكتوفا في المنجنيق ، يدل على استجابه النار لأمر ربها ، وطاعتها إياه .

- كما كان للنار موقف آخر مع نبي من الأنبياء هو يوشع بن نون عليه السلام يدل على إدراك النار ، فقد أبت أن تحرق الغنائم بعدما زفرها هذا النبي وجنوده لما كان في الغنائم من غلول . قال النووي - رحمه الله تعالى - : « هذه كانت عادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في الغنائم . أن يجمعوها فتجيء نار من السماء فتأكلها فيكون ذلك علامة لقبولها وعدم الغلول » [2] أ.هـ .

والحديث عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « غزا نبي من الأنبياء .. ثم قال .. حتى فتح الله عليه ، قال : فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار تأكله فأبت أن تطعمه فقال : فيكم غلول ، فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل ، فقال : فيكم الغلول ، فلتبايعني قبيلتك فبايعته ، قال : فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة فقال : فيكم الغلول أنتم غللتم . قال : فأخرجوا له رأس بقرة من ذهب . قال : فوضعوه في المال وهو في الصعيد فأقبلت النار فأكلته » [3] .

فأبت النار أن تأكل الغنائم لما أعلمها الله عز وجل بأن فيها غلولا ، فلما أوتي ما أخذ من الغنائم أكلتها النار ، وقبلت الغنائم . فالله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبا .

* * *

---

(١) روح المعاني / مجلد ٦ - جـ ١٧ - ص ٦٩ .

(٢) صحيح مسلم - شرح النووي / جـ ١٢ - ص ٥٢ .

(٣) مسلم / ك : السير - ب : تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (ومختصره / ح ١١٣٧) .

المبحث الثاني
عبودية القلم والعرش

القلم :

من الكائنات التي خلقها الله عز وجل وشهدت بخالقها . وهو من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها إجمالا حيث أخبرت بها النصوص القطعية ، فأخبرت بأن القلم قد تكلم . وذلك في حديث عبادة بن الصامت – رضي الله تعالى عنه – حيث يقول : قال عليه الصلاة والسلام : « إن أول ما خلق الله القلم . فقال له : اكتب ! قال : رب !! وماذا أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » [1] .

فإخباره عليه الصلاة والسلام عما قاله القلم حين خلق ، يدل على حقيقة كلام القلم وعلى إدراكه الذي أودعه عز وجل فيه . حتى سأل ربه استفسارا عما يكتب ، وفيه إقرار من القلم بربوبيته لله عز وجل .

العرش :

العرش من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها إجمالا ، كما أخبر الله تعالى وأخبر رسوله عليه السلام عنها ، وهو من الكائنات المخلوقة أيضا . وليس غرضنا هنا في رسالتنا أن نتعرض للأدلة على إثباته أو إثبات استواء المولى عز وجل عليه ، أو ذكر الخلافات الكثيرة في هذا ، ولكن نحب أن نبيِّن هنا عبوديته لله تعالى حيث اهتز العرش لموت صحابي جليل من خيرة الأنصار وهو

---

(١) أبو داود / ك : سنة – ب : في القدر .

سعد بن معاذ (1) . فعن جابر – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اهتز عرش الرحمن عز وجل لموت سعد بن معاذ » (2) .

قال ابن حجر – رحمه الله تعالى – : « والمراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه » (3) .

وذكر النووي – رحمه الله تعالى – أقوال العلماء في اهتزاز العرش . فقالت طائفة : إنه على ظاهره ، وإنه تعالى جعل للعرش تمييزًا حصل به هذا ولا مانع منه ، كقوله تعالى : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ الآية [البقرة : ٧٢] .

وقال آخرون : إن المراد باهتزاز العرش هو اهتزاز حملة العرش من الملائكة .

وقال جماعة : المراد اهتزاز سرير الجنازة ، وهو النعش . وهذا القول باطل لصريح هذه الروايات ، حيث أضيف العرش إلى الرحمن سبحانه وتعالى ، ولا يقال للنعش عرش الرحمن (4) فالعرش له ولاء لأهل الطاعة والتقوى . وسواء اهتز استبشارا لقدوم روح سعد أو حزنا على موته . فالاهتزاز للعرش ثابت وولاؤه لبعض الصحابة ثابت أيضا .

★ ★ ★

---

(١) هو : سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري الأشهلي أبو عمر ، سيد الأوس ، شهد بدرا ، واستشهد بسهم أصابه بالخندق ، مناقبه كثيرة . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٢٨٩) .

(٢) بخاري / ك : مناقب الأنصار – ب : مناقب سعد بن معاذ – رضي الله تعالى عنه – . مسلم / ك : فضائل الصحابة – ب : في فضل سعد بن معاذ – رضي الله تعالى عنه – . (ومختصره / ح رقم ١٧٠٠) .

(٣) فتح الباري / جـ ٧ – ص ١٢٤ .

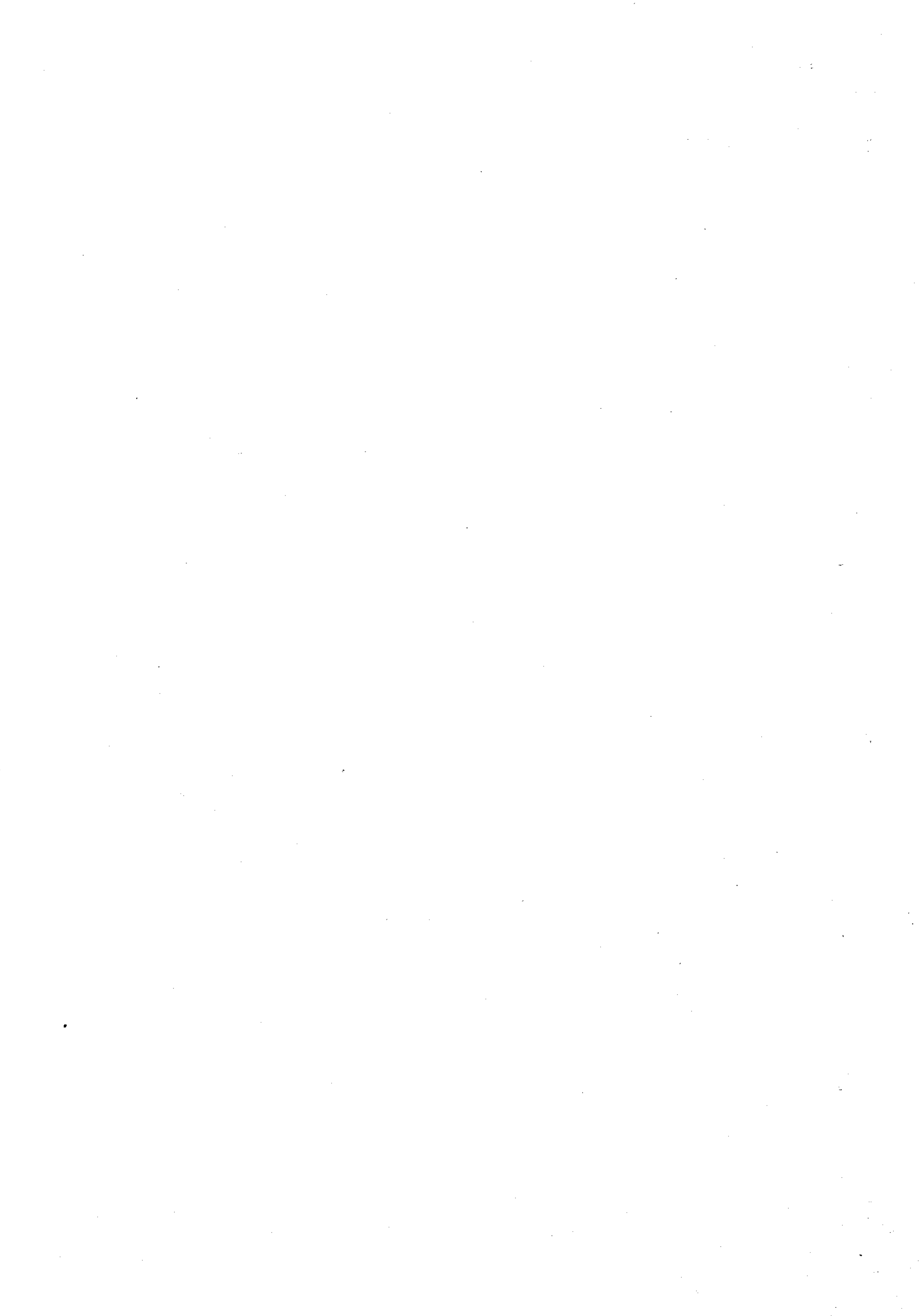
(٤) راجع : شرح مسلم للنووي / جـ ١٦ – ص ٢٢ .

الفصل الرابع

العبادات في الأديان الكتابية المحرفة وبُعدها عن تحقيق العبودية

وفيه

* تمهيد
* المبحث الأول : العبادات عند اليهود .
* المبحث الثاني : العبادات عند النصارى .



تمهيد

رأينا فيما سبق [1] بعضا من العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى للوصول إلى غاية خلق الكائنات كلها . ألا وهي عبوديتها له سبحانه ، كما أوضحنا منهج الإسلام في تحقيق عبودية الكائنات كلها له سبحانه .

وها نحن في هذا الفصل إذ نبيِّن منهج الديانات الكتابية – اليهودية والنصرانية – المحرفة ، والبعد الشاسع بينها وبين تحقيق العبودية لله تعالى من خلال العبادات التي شرعت وابتدعت ، والتي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان . وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها** ﴾ [الحديد : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ [التوبة : ٣١] .

أي أن اليهود والنصارى أطاعوا أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوه من الحرام وحرموه من الحلال [2] . وهذا يدلنا على أن كثيرا من الشرائع والعبادات التي لدى اليهود والنصارى من صنع علمائهم . أما المسلمون فهم يعبدون ربهم عز وجل بما شرعه هو سبحانه لهم – في كتابه المحفوظ الذي لم يتبدل ولم يتغير بل تكفل الله تعالى بحفظه كما أخبر بذلك ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩] – وبما شرعه رسولهم ﷺ في سنته . هذا وإن كان قد نبت فيهم من خرج عن منهج الله تعالى ورسوله ﷺ فابتدع ما شاء من عبادات متبعا اليهود والنصارى في ذلك . فاليهود والنصارى قد اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله

---

(١) في المبحث الأول من الفصل الثاني .

(٢) وهو ما فسر به النبي ﷺ الآية لعدي بن حاتم (رضي الله تعالى عنه) .
(ترمذي / ك : التفسير – ب : سورة التوبة) . (وصحيحه / ح رقم ٢٤٧١) .

تعالى فضلوا وأضلوا . قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدِى القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٥٠] .

لقد كانت الديانة اليهودية وكذلك النصرانية في أصلهما – كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم – هي الإسلام الصافي وديانة التوحيد الخالصة ، والتي تتجلى فيها علاقة العبد بربه عز وجل ، ويتصف بها الله تعالى بصفات الكمال والتنزيه عن كل نقص .

ولكن حدث مع الزمن في هذه الديانة تغير وبعد عن هذا الأصل الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام ، فدخلت فيه الأهواء والبدع والتحريفات خاصة في الكتاب المنزَّل عليهم مما زاد في تشويه هذا الأصل . بدء بعقيدة الألوهية التي تعرضت للتحريف الشديد وانتهاء بالشرائع والعبادات التي لم تعد تحقق الغاية منها بأدائها بعد تحريفها فيشعر العبد بعبوديته لله تعالى كما يستشعر عظمة خالقه . فشوهت معالمها وأصبحت طقوسا تؤدى . إضافة إلى ما ابتدعوه فيها كالرهبانية ، وصكوك الغفران ، وعصمة البابوات وغيرها – بالنسبة للنصارى – .

فهكذا . إله غير واضح الرؤيا والمعالم ، مشوه ، ويعبد بشرائع وعبادات مبتدعة ومن صنع العابدين .

فأي ديانة هذه التي تنقص من الذات العلية في صفاته وأفعاله – كما فعلت اليهود – ؟! أم أي ديانة هذه التي تجعل إلهها اثنين وثلاثة ، وتجعل العبد إلها ، والإله يموت كما يموت البشر – كما زعمت النصارى – ؟!

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – مقارنا الدين الإسلامي بالديانات الأخرى المحرفة من المجوسية واليهودية والنصرانية :

« وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن ، والعمل بما يحبه ويرضاه مع الإخلاص في السر والإعلان . وبين دين أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار بصاحبه في النار . أو دين أسس بنيانه على عبادة الصلبان والصورة المدهونة في السقوف والحيطان ،

وأن رب العالمين نزل عن كرسي عظمته فالتحم ببطن أنثى وأقام هناك مدة من الزمان بين دم الطمث في ظلمات الأحشاء تحت ملتقى الأعكان ، ثم خرج صبيا رضيعا يشب شيئا فشيئا ويبكي ويأكل ويشرب ويبول وينام ويتقلب مع الصبيان . هذا وقد قُطعت منه القلفة حين الختان . فما ظنك بفروع هذا أصلها الذي قام عليه البنيان ؟!

أو دين الأمة الغضبية الذين انسلخوا من رضوان الله كانسلاخ الحية من قشرها ، وباءوا بالغضب والخزي والهوان ، وفارقوا أحكام التوراة ونبذوها وراء ظهورهم واشتروا بها القليل من الأثمان ، فترحل عنهم التوفيق وقارنهم الخذلان واستبدلوا بولاية الله وملائكته ورسله وأوليائه ولاية الشيطان » [(١)] .

فبنو إسرائيل منذ القدم قد أتعبوا موسى عليه السلام . فلم تقبل عقولهم ونفوسهم إلها لا يرونه ، فعلقوا إيمانهم بموسى عليه السلام وبرسالته على رؤية الله تعالى . يقول عز من قائل : ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾ [البقرة : ٥٥] .

فكانوا يريدون إلها مجسما محسوسا مرئيا وهو ما طلبوه بالفعل حيث يخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون** ﴾ [الأعراف : ١٣٨] .

وقد كان من المفروض عليهم – شرعا وعقلا – أن يكونوا أكثر عبودية لله تعالى لإحسانه إليهم حيث أنجاهم من فرعون الطاغية وجنوده الظالمين ، وجاوز بهم البحر بفلقه لهم ليتسنى لهم عبوره ، ولكنهم ما إن ثبتت أقدامهم بعد نجاتهم من فرعون وجنوده حتى وقعوا في الشرك به سبحانه بسؤالهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنما ليتخذوه إلها .

وأما عن النصارى فكانوا في الضلال – مقارنة باليهود – أشد وأنكى والعياذ بالله تعالى .

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم / ص ٣ – ٤ .

فلما أجرى الله عز وجل على يد عيسى عليه السلام بعض المعجزات الخارقة لعادة البشر بإذن منه سبحانه . اعتقد بعض النصارى بأنه الإله ، واعتقد الكثيرون منهم بأنه ابن الله – تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا – .

ورغم بيان عيسى عليه السلام لهم أن تلك المعجزات كل واحدة منها على حدة بإذن من الله تعالى . كما أخبر الله عز وجل عما قاله عيسى عليه السلام لقومه : ﴿ **ورسولا إلى بَنِي إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية من ربكم أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرِىء الأكمه والأبرص وأحيِ الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فِي بيوتكم إن فِي ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ [آل عمران : ٤٩] . ويقول تعالى : ﴿ **إذ قال الله يا عيسَى ابن مريم اذكر نعمتِي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فِي المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنِي فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنِي وتبرِىء الأكمه والأبرص بإذنِي وإذ تخرج الموتى بإذنِي** ﴾ [المائدة : ١١٠] .

ورغم ولادته وحياته التي عايشوها بأنفسهم – رغم ذلك كله – فإنهم لم يعبأوا بما قال لهم واندهشوا من المعجزات التي رأوها أمام أعينهم فنسبوها إلى الذي أجراها أمامهم و لم ينسبوها إلى خالقها الحقيقي والذي تمت بإذنه ، فضلوا وكفروا . قال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ [المائدة : ٧٢] .

كما كانت النصارى – أيضا واليهود من قبل في التبجح على الله تعالى سواء بسواء . فبنو إسرائيل أرادوا رؤية الله تعالى وتجسيمه في عصر موسى عليه السلام ، أما في عصر عيسى عليه السلام فقد شكّوا في قدرة الله تعالى في إنزال مائدة من السماء . والذي يزيد في الأمر دهشة أن قائل ذلك هم الحواريون ! قال تعالى مخبرا عنهم : ﴿ **إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء** ﴾ [المائدة : ١١٢] .

وهكذا نرى أن اليهود والنصارى قد تصوروا الإله الحق في صورة مشوهة ، وتخيلوه في صورة مجسمة كما وصفوه بكثير من صفات الحوادث وصفات النقص

مثل : الضعف ، والكذب ، والغفلة ، والظلم ، والحزن ، والندم ، والحلول ، والولادة ، والأكل والشرب – تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا – .

فإن كان هذا تصورهم للذات العلية ، فكيف بشرائعهم وعباداتهم ؟!

هذا ما سوف نتكلم عنه – بمشيئة الله تعالى – في المبحثين الآتيين حتى نبين العبادات عند كل من اليهود والنصارى وكيف أنها بعدت عن تحقيق العبودية لله تعالى . وذلك من خلال أسفارهم ودينهم المحرف . أما ما أنزله الله تعالى على موسى وعيسى عليهما السلام وهو الإسلام – وهو الأصل في الرسالات كلها – فهو بلاشك الدعوة إلى عبودية الله تعالى وحده لا شريك له .

* * *

المبحث الأول
العبادات عند اليهود

اليهود في سطور

هم تلك الأمة التي غضب الله تعالى عليها ولعنها وأعد لها العذاب الأليم في الدنيا بتشريدهم في مشارق الأرض ومغاربها ، وضرب الذلة والمسكنة عليهم وفي الآخرة أعد لهم جهنم وبئس المصير .

أمة مغضوب عليها . عرفت من خلال تاريخهم وأسفارهم على مر العصور بالتعنت والضلال وعبادة العجل الذي صنعته أيديهم ، ونسبة النقائض إلى الله تعالى ، وبقتل الأنبياء ورميهم بأشنع الإتهامات ، وبجرأتهم على خالقهم ونبيهم موسى عليه السلام بقولهم : ﴿ **لن نؤمن لك حتَّى نرَى الله جهرة** ﴾ ، وبقولهم : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا** ﴾ ، وبقولهم : ﴿ **سمعنا وعصينا** ﴾ ، وبقولهم : ﴿ **إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ ، وبقولهم : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

كما عرفت هذه الأمة بنقض العهود ، وتحريف كتاب الله تعالى – التوراة – وتبديل أحكامه وتحريف الكلم عن مواضعه ، وبالحسد ، وبالسحر ، كما اشتهرت بالخبث والبهت ، وبأكل الربا وقد نهوا عنه ، وبالتكذيب بعيسى عليه السلام ورميهم له ولأمه بالعظائم والحرص على قتله .

كما عرفت بتكالبها على الدنيا وحرصها عليها ، وبقسوة القلب ، وبكثرة السخرية من أنبياء الله تعالى وأتباعهم ، هذا إلى جانب العديد من مثالب هذه الأمة الغضبية والتي ملأت كتبهم قبل كتب مخالفيهم .

فماذا يظن بشريعة وعبادة قوم تلك صفاتهم وتلك أحوالهم ؟!

لاشك أن ما جاءت به رسلهم من عند الله هو الحق المبين . ولكنهم أعرضوا عنه وبدلوه بالباطل ووضعوه بأيديهم في كتابهم وادعوا أنه من عند الله فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحله – قاتلهم الله أنى يؤفكون – قال تعالى : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ [البقرة : ٧٩] .

أساس دين اليهود

تقوم كل الشرائع والعبادات عند اليهود على العنصرية الشديدة لجنسهم ، وهي أهم ما يميز هذه الديانة ، وتعتبر أتباعها هم شعب الله المختار ، كما تعتبر جميع الأجناس – من غير اليهود – كلابا وخنازير وخرافا قد سخرهم الله تعالى لخدمتهم – كما ورد ذلك في أسفارهم المحرفة – وتظهر هذه العنصرية في زعمهم :

١ – أن إلههم إله خاص بهم وهو إله إسرائيل ، وأنهم هم أبناؤه وأحباؤه [١] وأنه ليس إله الأمم الأخرى بل لها آلهة خاصة بها [٢] . لذا فاليهود يعتزون بجنسهم أشد الاعتزاز ولا يريدون من أحد أن يعتنق دينهم .

٢ – قد ورد في بعض فقرات التلمود [٣] أن الجنة لا يدخلها إلا اليهود

---

(١) تعليق : إذا فلم يكتب الله تعالى عليهم الذلة والمسكنة واللعنة والغضب والتشريد من الأرض على مر العصور ؟!!

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق** ﴾ [المائدة : ١٨] .

(٢) راجع : الأسفار المقدسة – علي عبد الواحد / ص ٢٧ .

(٣) التلمود : تنقسم الأسفار لدى اليهود إلى قسمين :

الأول : تعاليم مكتوبة هي التوراة ، والثاني : تعاليم شفهية سموها « المشناة » بمعنى : الشريعة المكررة ثم تتالت العصور فصعب على اليهود فهم المشناة ، فوضع أحبارهم شرحا وحواشي وتعليقات على المشناة سموها « الجمارا » ثم سمي المشناة وشرحه الجمارا معا بالتلمود ، وهو نوعان : تلمود أورشليم وتلمود بابل ، وإذا أطلق التلمود فينصرف إلى تلمود بابل لأنه أوسع . (من محاضرات مادة الأديان ، د. عبد العزيز عبيد التي درست لطلبة السنة المنهجية سنة ١٤٠٦ هـ في جامعة أم القرى بمكة المكرمة) . =

وأن النار لغير اليهود [1] ، وهو ما أخبر الله تعالى به حكاية عن قولهم وقول النصارى من بعدهم ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلَى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [البقرة : ١١١ ، ١١٢] .

٣ - يحرم القتل فيما بين اليهود كما يحرم عليهم إخراج بعضهم البعض من ديارهم ، في حين أنه مباح لهم قتل غير اليهود واسترقاق نسائهم وأولادهم ، بل من الواجب عليهم ذلك [2] .

ونجمل ما جاء في عنصرية تلك الأمة ما نقله الدكتور أحمد شلبي فقال : « جاء في التلمود أن الإسرائيلي معتبر عند الله تعالى أكثر من الملائكة وأن اليهودي جزء من الله ، فإذا ضرب الأممي إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية ، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان ، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود ، ولليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم غير اليهودي ، والشعب المختار هم اليهود فقط ، أما باقي الشعوب فهي حيوانات ، ويعتبر اليهود غير اليهود أعداء لهم ولا يجيز التلمود أن يشفق اليهود على أعدائهم ، ويلزم التلمود بني إسرائيل أن يغشوا سواهم ، فقد جاء فيه : يلزم أن يكون طاهرا مع الطاهرين ودنسا مع الدنسين . ويمنع التلمود أن يحبوا غير اليهود ما لم يخشوا ضررهم ، ويجيز التلمود استعمال النفاق مع غير اليهود ولا يجيز أن يقدم اليهود صدقة لغير اليهود . كما أنه مصرح لليهودي أن يغش غير اليهودي ويحلف له أيمانا كاذبة .

= وزاد د. علي عبد الواحد بأن التلمود : هو الأسفار الخفية لدى اليهود ، وتتكون من ثلاثة وستين سفرا ، وضعها أحبار اليهود من الفريسيين وغيرهم ، وهم دون غيرهم من فرق اليهود يعتقدون قدسيتها ولا يدخل النصارى أسفار التلمود ضمن أسفار العهد القديم ولا يعتبرونه مقدسا .

(راجع : الأسفار المقدسة / ص ٢٠) .

(١) راجع : الأسفار المقدسة - علي علبد الواحد / ص ٣٤ .

(٢) سفر التثنية / إصحاح ٢٠ - فقرتي ١٣ ، ١٤ .

ولا يغفر الله ذنبا ليهودي إن رد للأمي ماله المفقود ولا يصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا ، وأرواح غير اليهود ليست لها حرمة ، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحدا من الأميين من هلاك أو يخرجه من حفرة وقع فيها ، بل إذا وجد ذلك لزمه أن يسد الحفرة عليه بحجر !! » [1] أ.هـ .

إن ما سبق بيانه – وغيره كثير – يدل على مظهر التفرقة العنصرية الذي تتسم به الشرائع لدى اليهود . أضف إلى ذلك مظاهر التضارب واختلاط المسائل التي بها ، مما يؤكد على أن أسفارهم من صنع أيديهم وأنه لا يوجد ثمة تشابه بين توراتهم المزعومة وبين التوراة الصحيحة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ [النساء : ٨٢] [2] . فالشريعة التي من عند الله تعالى لا تقر بحال العنصرية بين أفراد الآدميين ، بل إن معيار التفرقة بينهم هو مدى تقواهم لله عز وجل واتباعهم لشرعه . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وصف الذات العلية لدى اليهود

تصف الأسفار اليهودية الذات العلية في صورة مجسمة ، متصفة بكثير من صفات الحوادث والنقص .

فمن أمثلة ذلك :

١ – ما ورد في سفر التكوين في قصة آدم وحواء وإخراجهما من الجنة وأن الله بحث عنهما مخترقا طرق الجنة بعد ما أكلا من الشجرة وكانا مختبئين حتى لا يراهما ربهما عريانين [3] . وهذا من بعض سخافاتهم واستخفافهم بالله

---

(١) باختصار – مقارنة الأديان – اليهودية – / ص ٢٧٦ – ٢٧٨ .

(٢) راجع : الأسفار المقدسة / ص ٣٧ – ٣٨ .

(٣) سفر التكوين / إصحاح ٣ .

تعالى في نسبة الجهل إليه سبحانه واختراقه طرق الجنة قائلا لآدم : يا آدم أين أنت ؟! قال : اختبأت لأنني عريان . نعوذ بالله تعالى من الشياطين .

٢ - كذلك ما ورد في سفر التكوين أن يعقوب عليه السلام لقي الله وصارعه ذات ليلة حتى بزغ الفجر ولم يستطع الله التغلب على يعقوب وطلب من يعقوب أن يخلي سبيله ، فلم يقبل يعقوب ذلك إلا أن يباركه الرب فباركه » [١] .

٣ - ومن ذلك أيضا ما يرويه هذا السفر في قصة إهلاك قوم لوط إذ يذكر أن الله واثنين من الملائكة جاءوا إلى إبراهيم فسألهم أن يستريحوا من عناء السفر ، وقدم إليهم ماء وحنيذا ، وغسل أرجلهم ، فانتحوا تحت ظل شجرة وأخذوا يأكلون مما قدمه إليهم [٢] .

إلى غير ذلك من النقص الذي ألصقوه بذات الله تعالى وصفاته مما يخجل المرء ويخاف في الوقت نفسه من تدوينه على سبيل النقل والاستدلال [٣] !!.

يقول الدكتور أحمد شلبي : « لم يستطع بنو إسرائيل في أي فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذي دعا إليه الأنبياء ، فكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحا في جميع مراحل تاريخهم » [٤] .

---

(١) سفر التكوين / إصحاح ٣٢ - فقرة ٢٤ - ٣٢ .

تعليق : لذا فلقب يعقوب من يومها - على زعمهم - بإسرائيل أي مصارع الله وسمي المكان الذي جرت فيه المصارعة فنوئيل أو فنيئيل ومعناه وجه الله .

(٢) سفر التكوين / إصحاح ٦ - فقرة ١ - ٥ .

تعليق : ولا يجدون خجلا في كتابه هذا ، ولا أحد منهم ينكر عليهم ما دونوه بأيديهم إذ كيف يكون الإله مجسما على هيئة رجل يأكل ويشرب ويغسل رجله وينسب إليه الراحة من عناء السفر . تعالى الله عما قالوا علوا كبيرا .

(٣) لمزيد من المعلومات لبيان وصف اليهود للذات العلية .

راجع : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لابن حزم / جـ ١ - ص ١٦٣ ، « الأسفار المقدسة » - على عبد الواحد / ص ٢٣ - ٣٥ . ، « اليهودية » - أحمد شلبي / ص ١٨٠ .

(٤) مقارنة الأديان - اليهودية / ص ١٨٠ .

وصدق الله تعالى القائل : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [الزمر : ٦٧] .

فقد بعدوا عن العبودية الحقة لله عز وجل وشطوا شططا لا حصر له ولا حد له .

صور من عبادات اليهود

إن الدين الذي لدى اليهود اليوم – وكذلك النصارى – هو دين الحاخامات والأحبار والرهبان وليس دين الله تعالى الذي أنزله على رسوله موسى عليه السلام أو من قبله أو من بعده من الأنبياء . إذ شرع لهم الأحبار اليهود وعلماؤهم عبادات من صلاة وصوم – وغيرهما – لم ينزلها الله تعالى على موسى عليه السلام ولم يأمرهم بها . والشاهد من صلاتهم وأدعيتهم أنهم يعبدون الله تعالى للمصلحة فقط ألا وهي إعادة بناء الهيكل ورجوع مملكة اليهود في أورشليم ، لا لأنه سبحانه عز وجل يستحق العبادة دون غيره وأنهم عبيد يخضعون له سبحانه فتظهر فيهم العبودية .

فتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم إذ يحقق لهم المصالح الدنيوية . وهذا ما يتجلى في عبادتهم . فنذكر منها :

(١) صلاتهم ودعاؤهم وابتهالاتهم :

فإنهم يقولون في صلاتهم :

« اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا وأقبضنا جميعا من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك . سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل » .

ويقولون : « أردد حكامنا الأولين ومسراتنا كالابتداء وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا وأعزنا بابتنائك سبحانك يا باني أورشليم » [١] .

---

(١) راجع : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان – لابن القيم / جـ ٢ – ص ٣٢٧ .

فلما رأوا لا فتح لهم ولا بناء لهم لهذه المملكة وهذا الهيكل في أرض السلام - أورشليم - وأن هذا الأمل قد طال بهم وضاقوا بذلك ذرعا . تطاولوا على الله تعالى واتهموه بالغفلة وأمروه أن يستيقظ .

فإنهم في العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة - يهودية - يقولون في صلاتهم : « لم تقول الأمم : أين إلههم ؟ انتبه ! كم تنام يارب ؟ استيقظ من رقدتك !! » (١) .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - تعليقا على هذا الإد المفترى : « وهؤلاء إنما أقدموا على هذه الكفريات من شدة ضجرهم من الذل والعبودية وانتظار فرج لا يزداد منهم إلا بعدا فأوقعهم ذلك في الكفر والتزندق الذي لا يستحسنه إلا أمثالهم وتجرأوا على الله سبحانه وتعالى بهذه المناجاة القبيحة . كأنهم ينخونه بذلك لينتخي لهم ويحمي لنفسه ، فكأنهم يخبرونه سبحانه وتعالى بأنه قد اختار الخمول لنفسه ولأحبابه ولأبناء أنبيائه فينخونه للنباهة واشتهار الصيت » (٢) أ.هـ .

فلم تكن لديهم - والله تعالى أعلم - صلاة منتظمة كما لدى المسلمين في وجوب المحافظة عليها وعلى شروطها وأركانها ، اللهم إلا من قبل الأنبياء حيث يتضرعون إلى خالقهم بأن يرفع غضبه وسخطه عن شعب اليهود الذين طغوا وتمردوا . ومن ذلك : تضرع النبي إرميا برفع الغضب والسخط عن بني إسرائيل ، فيرد الله عليه بقوله - كما جاء في الكتاب المقدس - : « وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة لأني لا أسمع في وقت صراخهم إلا من قبل بليتهم » (٣) .

وتضرع النبي دانيال إلى الرب حين ضربت مدينة أورشليم في وقته : « فاسمع الآن يا إلهنا صلاة عبدك وتضرعاته وأضيء بوجهك على مقدسك الخرب » .

---

(١)،(٢) راجع : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان - لابن القيم / جـ ٢ - ص ٣٣٨ .
(٣) سفر إرميا / إصحاح ١١ - فقرة ١٤ .

وقوله أيضا : « يا سيد اسمع يا سيد اغفر أصغ واصنع لا تؤخر من أجل نفسك يا إلهي لأن اسمك دعي على مدينتك وعلى شعبك »[1] .

أو تضرع وصلاة النبي نحميا حين يقول : « يا سيد – لتكن أذنك مصغية إلى صلاة عبدك وصلاة عبيدك الذين يريدون مخافة اسمك »[2] .

ويلحظ القاريء المؤمن – الذي استقر إيمانه على تنزيه الإله الحق في دعائه واتصاف خالقه بصفات الكمال – أثر اليد العابثة التي حرفت الكلم عن مواضعه في الأمثلة السابقة والتي لم يراع فيها الأدب مع الخالق عز وجل ولا حسن المسألة ، ولا تنزيهه عن المشابهة بالمخلوق – فجعلوا لله أذنا . إلى غير ذلك من المصلحة والمنفعة الدنيوية من وراء أدعيتهم لبناء الهيكل .

فالأنبياء معصومون ومنزهون عن أن ينسبوا إلى خالقهم نقصا ، ولا يصدر منهم مثل ذلك ألبتة . ومثل تلك النصوص السابقة بل تزيد عنها – في النقص وعدم تنزيه الرب سبحانه وعدم الأدب معه – ما جاء في بعض الأدعية المنسوبة إلى بعض أنبيائهم كما ورد في سفر إرميا ما نصه : « دعوت باسمك يا رب من الجب الأسفل بصوتي سمعت لا تستر أذنك عن زفرتي ، عن صياحي »[3] .

ونص آخر في سفر نحميا وفيه : « أيها الرب إله السماء الإله العظيم المخوف الحافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظي وصاياه . لتكن أذنك مصغية وعيناك مفتوحتين لتسمع صلاة عبدك الذي يصلي إليك نهارا وليلا »[4] .

وتظهر على تلك الأدعية – وغيرها مما هو مدون في كتبهم – عدم التزام

---

(١) سفر دانيال / إصحاح ٩ – فقرة ١٧ – ١٩ .

تعليق : هؤلاء الذين ذكروا بالنبوة عند اليهود مثل : إرميا ودانيال ونحميا وغيرهم ليس لدينا نحن المسلمين ما يثبت نبوتهم أو ينفيه ولذلك نتوقف في التصديق في نبوتهم وفيما نسب إليهم .

(٢) سفر نحميا / إصحاح ١ – فقرة ١١ .

(٣) سفر مراثي إرميا / إصحاح ٣ – فقرة ٥٥ – ٥٧ .

(٤) سفر نحميا / إصحاح ١ – فقرة ٥ – ٦ .

الأدب مع الله عز وجل وإساءة الطلب والمسألة كما لا يظهر فيها تذلل العبد لربه لإظهار خضوعه وعبوديته لخالقه جل وعلا ، كما تفتقر إلى ذكر الثناء على الله عز وجل بما هو أهله ، وتنزيهه تعالى بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى . وهو ما يدل على فقدان تلك الأدعية لعبودية الله تعالى الحقة .

وأما عن الابتهالات فإنها تظهر بوضوح في سفر المزامير حيث فيها تهاليل وتسابيح وتمجيد للرب . كما تظهر فيه الصلة الوثيقة بين العبد وربه ، وافتقار العبد لخالقه وتنزيه الله تعالى عن النقص ، ونعته بالصفات العلى والأسماء الحسنى . وفيها من الخضوع والتذلل إلى الله تعالى ما يجد أثره كل قاريء لهذا السفر . وهذا يجعلنا نستأنس إلى أنها قد تكون من تسابيح داود عليه السلام ومزاميره . فورد في أحد المزامير المنسوبة إليه ما نصه : « هللويا .. سبحوا الرب من السموات سبحوه في الأعالي سبحوه يا جميع ملائكته سبحوه يا كل جنوده سبحيه يا أيتها الشمس والقمر سبحيه يا جميع كواكب النور سبحيه يا سماء السموات ويا أيتها المياه التي فوق السموات . لتسبح اسم الرب لأنه أمر فخلقت وثبتها إلى الدهر والأبد وضع لها حدا فلن تتعداه »[1] .

وهذا النص يوافق إخبار نصوص القرآن الكريم عن تسبيح تلك الكائنات كلها لله رب العالمين . منها قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ولكن عجبا لهذه الأمة الغضبية التي جمعت بين المتناقضين وفرقت بين المتماثلين !!

فهذا داود عليه السلام الذي نسبوا إليه في كتابهم هذه الأدعية والتسابيح والابتهالات والتي فيها تنزيه الله تعالى وافتقار العبد لخالقه وإظهار عبوديته لمولاه ، هو نفسه قد ألصقوا به أعمالا قبيحة تتنافى مع عصمة الله تعالى له ، بل تتعارض

---

(١) سفر المزامير / المزمور ١٤٨ – فقرة ١ – ٦ .

مع الخلق الكريم في ذاته ولا يتصور صدورها إلا من سقطة الناس . وكان من المفروض عليهم أن يقتدوا بهذا النبي الكريم في عبوديته لله عز وجل ولكنهم عوضا عن ذلك نسبوا إليه ما يتناقض مع ما علم منه من إخلاص العبودية لله عز وجل ، حيث زعموا في أسفارهم المحرفة - زورا وبهتانا - أن داود عليه السلام وقع نظره على امرأة أحد جنوده وهي تستحم عارية فشغف بها وزنا بها - ثم تحايل بعد ذلك على قتل زوجها [1] - فتبا لتلك القلوب القاسية التي هان عليها سب الأنبياء .

(٢) صيامهم :

وأما عن صيامهم : كصوم (إحراق بيت المقدس) ، وصوم (أحصا) ، وصوم (كدليا) التي جعلوها فرضا ، فإنه لم يصمها موسى عليه السلام ولا يوشع بن نون من بعده ، وليس شيء من ذلك في التوراة ، بل من وضع حاخاميهم [2] .

(٣) النذر والذبح :

فينذرون ويذبحون للإله الذي شوهوا معالم التنزيه فيه ، ولهم سفر اللاويين الخاص بالذبائح وأنواع المذبوحات وطرق الذبح وأهل الذباحة وهم لابد وأن يكونوا من نسل لاوي وهو أحد أبناء يعقوب وجد موسى عليهما السلام لذا فقد سمي السفر بهم وهم القائمون على أمر الذبح والذبائح [3] .

فجاء في أسفارهم المحرفة ما نصه : « من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك » [4] . ولكنهم شددوا فشدد الله تعالى عليهم في هذا وغيره : فشددوا على

---

(١) سفر صموئيل الثاني / إصحاح ١١ .

(٢) راجع : إغاثة اللهفان - لابن القيم / جـ ٢ - ص ٣٢٧ . وأنواع الصيام المذكورة لم نجد لها معنى - الباحث - .

(٣) انظر : مقارنة الأديان - اليهودية - لأحمد شلبي / ص ٢٤٢ .

(٤) سفر الخروج / إصحاح ٢٢ - فقرة ٢٠ .

أنفسهم في باب الذبائح – وغيرها مما ليس له أصل عن موسى عليه السلام ولا هو في التوراة وإنما هو من وضع الحاخاميم وآرائهم ، فوقعوا في شرك العبادة وشرك التشريع . قال تعالى : ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضِيَ بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ [الشورى : ٢١] .

(٤) موقفهم من أوامر الله تعالى ورسله :

إن اتباع أوامر الله تعالى ورسله يدل على الخضوع الحق للخالق والتسليم له قال تعالى : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ [النور : ٥١] .

فبنو إسرائيل لم يعهد منهم طاعة وتسليم لحكم الله تعالى ورسله . بل ما اعتادوه مع الله تعالى ورسله عليهم السلام هو الكفر والعناد والحيلة والسخرية بأحكام الله تعالى ورسله والبعد عن العبودية الحقة لله تعالى والانسلاخ منها بالكلية . والأمثلة كثيرة من واقع حياتهم منها :

أ – موقفهم من تحريم صيد الحيتان يوم السبت :

فإن الله تعالى قد حرم عليهم الصيد يوم السبت فقال تعالى : ﴿ **وقلنا لهم لا تعدو فِي السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ [النساء : ٤٧] .

وزاد أمر الابتلاء لهم أن جعل الله تعالى الحيتان تكثر وتطفو على الماء في يوم السبت الذي قد نهوا عن الصيد فيه ، فقال تعالى : ﴿ **إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم** ﴾ [الأعراف : ١٦٣] « أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائها في اليوم الحلال لهم صيده » [(١)] ولحرصهم على الحياة ، كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون** ﴾ [البقرة : ٩٦] ، تحايلوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم – لابن كثير / مجلد ٢ – ص ٢٥٧ .

على حكم الله تعالى بأن وضعوا للحيتان الشصوص – الشباك – والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل فلم تخلص منها ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت [1] . فلما فعلوا ذلك عاقبهم الله تعالى على انتهاك أوامره بالحيل والخبث والمكيدة ، بأن مسخهم قردة . والعياذ بالله تعالى . قال تعالى : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾ [البقرة : ٦٥ ، ٦٦] .

ب – موقفهم من الأمر بذبح البقرة :

وهي قصة مشهورة حيث تحكي أن رجلا من بني إسرائيل قد قتله ابن أخيه الذي أراد إرثه . ووضعه ليلا على باب رجل من القوم . فلما أصبحوا وشاع الخبر اختلفوا في معرفة القاتل ، فذهبوا إلى موسى عليه السلام ليساعدهم على معرفة القاتل ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام بأن يذبحوا بقرة ﴿ **وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ [البقرة : ٦٧] . فلم يذعنوا لأمر الله تعالى بذبح أي بقرة بل شددوا فشدد الله تعالى عليهم . فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشُدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمِروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا [2] ، فتلكأوا في الامتثال وتحايلوا عليه بأن سألوا موسى عليه السلام عن صفات تلك البقرة وكنهها ولونها وعملها فعُيِّنت لهم وبحثوا عنها وظنوا أن بتحايلهم هذا يسقط عنهم أمر الله تعالى لهم لما جُبِلوا عليه من العناد والتكذيب . ولكنهم وجدوها فضُرب القتيل ببعض البقرة فقام فسألوه عمن قتله فقال : هذا – لابن أخيه – ثم مات ثانية ، وكان من المنتظر من تلك الأمة الغضبية بعد ما رأوا هذه الآية

---

(١) تفسير القرآن العظيم – لابن كثير / مجلد ٢ .

(٢) المصدر نفسه / مجلد ١ – ص ١٠٨ .

البينة أمام أعينهم أن يكونوا أكثر التزاما بشريعة الله تعالى وأشد امتثالا لأوامر الله تعالى ورسله ولكنهم قساة القلوب وغلاظ الرقاب مليئة قلوبهم بحب العاجلة والحرص عليها فلم يبق فيها حظ لحب الله تعالى ورسله وما جاءوا به من الحق . قال تعالى بعد ما أخبر عن هذه الآية العظيمة ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيِ الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ [البقرة : ٧٣ ، ٧٤] .

جـ - موقفهم من التوراة :

لما أنزل الله عز وجل عليهم التوراة وأمرهم باتباعها لم يقبلوها ولم يذعنوا لكلام الله تعالى ولأوامره ونواهيه بل رفضوها بالكلية ابتداء . ثم أخذوها مكرهين عليها بعد أن امتحنهم الله تعالى برفع الجبل فوقهم تخويفا لهم بأن يوقعه عليهم إن لم يأخذوا بشريعة الله تعالى ويمتثلوا أمره وأمر رسله ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

ورغم هذه الآية المخوفة لهم والتي هي كافية بأن تجعلهم يذعنون لأمر الله تعالى في التو فإنهم ما إن استقر الجبل مكانه ثانية حتى تولوا وأعرضوا عما في كتاب ربهم من البينات والهدى ونبذوه وراء ظهورهم . قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين** ﴾ [البقرة : ٦٣ ، ٦٤] .

د - موقفهم من الأمر بدخول الأرض المقدسة :

وهو ما يدل على عصيانهم أمر الله تعالى وأمر رسوله جهارا دون خوف أو تردد . فقد أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله تعالى لهم وبشرهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم تلك القرية ، فقال تعالى مخبرا

عن قول موسى عليه السلام : ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ [المائدة : ٢١] .

ولكنهم – كدأبهم مع الأنبياء – لم يمتثلوا أمر رسولهم بل قابلوه بأقبح المقابلة وأظهروا له عصيانهم جهارا ، واعتذروا بعذر هو أقبح من الذنب نفسه ، ثم سخروا منه ومن ربه عز وجل – قاتلهم الله تعالى – قال تعالى : ﴿ **قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ [المائدة : ٢٢] .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – تعليقا على رد فعل اليهود لقول نبيهم : « فقابلوه أقبح مقابلة ، فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم : ﴿ **يا موسى إن فيها قوما جبارين** ﴾ فلم يوقروا رسول الله وكليمه حتى نادوه باسمه ولم يقولوا : يا نبي الله وقالوا : ﴿ **إن فيها قوما جبارين** ﴾ ونسوا قدرة جبار السموات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته وكان خوفهم من أولئك الجبارين – الذين نواصيهم بيد الله – أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه فكانوا أشد رهبة في صدورهم منه . ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة فقالوا : ﴿ **إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها** ﴾ فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد .

أحدها : تمهيد عذر العصيان بقولهم : ﴿ **إن فيها قوما جبارين** ﴾ .

الثاني : تصريحهم بأنهم غير مطيعين وصدَّروا الجملة بحرف التأكيد وهو « إن » ثم حققوا النفي بأداة « لن » الدالة على نفي المستقبل أي لا ندخلها الآن ولا في المستقبل » (١) أ.هـ .

وأما سخريتهم واستهزاؤهم بالله تعالى وبرسوله فهو كما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** ﴾ [المائدة : ٢٤] .

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان – لابن القيم / جـ ٢ – ص ٣١٢ – ٣١٣ .

فاستحقوا عذاب الله تعالى لهم بالتيه أربعين سنة ، قال تعالى : ﴿ **قال فإنها محرمة عليكم أربعين سنة يتيهون فِي الأرض فلا تأس على القوم الظالمين الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٢٦] .

أما الأمة المحمدية التي استحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس فقد باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، فرضي الله تعالى عنهم ورضوا عنه فقدموا أنفسهم إلى رسول الله ﷺ بالامتثال الكامل لما يأمرهم به . فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : لقد شهدت من المقداد بن الأسود [١] مشهدا ، لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : « لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربلك فقاتلا إن ههنا قاعدون ، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك ومن بين يديك ومن خلفك . فرأيت رسول الله ﷺ أشرق وجهه لذلك وسر به . أي من قوله » [٢] .

فتلك الأمة المغضوب عليها لم تك أمة خالصة في عبوديتها لله عز وجل في فترة من فترات حياتها ، ولا مع أنبيائها سوى فئة قليلة تمسكوا بالإسلام الذي جاء به موسى ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام . رغم ما أوتوا من الفضل ، والنعم ، والعفو من الله مرارا على ما أجرموه ، ورغم ما رأوا من الآيات البينات والدلائل الساطعة . وصدق الله تعالى إذ يقول فيهم : ﴿ **كيف يهدِى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدِى القوم الظالمين** ﴾ [آل عمران : ٨٦] .

* * *

---

(١) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة البهراني ثم الكِندي ثم الزهري ، حالف أبو كندة ، وتبناه الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فنسب إليه ، صحابي مشهور ، من السابقين ، لم يثبت أنه كان ببدر فارسا غيره ، مات سنة ٣٣ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٧٢) .

(٢) بخاري / ك : المغازي – ب : قوله تعالى : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم** ﴾ [الأنفال : ٩] .

المبحث الثاني
العبادات عند النصارى

النصارى في سطور

هؤلاء هم الضالون ، الذين ركبوا المستحيلات ، ونسبوا إلى الله تعالى السخافات ، وقالوا في نبيهم المتناقضات ، وجمعوا في كتابهم بين التبديل والتحريفات ، ونصبوا رهبانهم وعلماءهم أربابا في وضع التشريعات ، ومنحوهم العصمة وهالة من القدسيات ، حتى أصبح لهم الحق في غفران السيئات والحرمان من دخول ملكوت السموات ، وأسقطوا الحدود والتعزيزات ، ولم يوجبوا شيئا من العبادات ، فعملوا ما شاءوا فقد فدا المسيح المخلوقات !

أساس دين النصارى قائم على شتم الذات الإلهية (١)

إن الأساس الذي عليه دين النصارى هو مسبة الله تعالى مسبة لم يسبه بها أحد من البشر سواهم . فهم لا يتورعون ولا يقدرون الله تعالى حق قدره إذ قالوا : إن رب السموات والأرض نزل عن كرسي عظمته وعرشه ودخل في بطن امرأة تأكل وتشرب وتتغوط وتحيض ، فالتحم ببطنها وأقام هناك تسعة أشهر ثم خرج من فرجها يبكي وألقمته أمه ثديها ثم كبر ، وآل أمره إلى لطم اليهود خديه وصفعهم قفاه وبصقهم في وجهه ، ووضعهم تاجا من الشوك على رأسه استخفافا به وانتهاكا لحرمته ثم قربوه إلى صليب من الخشب فشدوه عليه وربطوه بالحبال وسمروا يديه ورجليه وهو يصيح ويبكي ويستغيث من حر الحديد وألم الصلب . هذا وهو الذي خلق السموات والأرض وقسم الأرزاق والآجال ،

---

(١) انظر في هذا – هداية الحيارى لابن القيم / ص ١٣٩ .

ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن يمكن أعداءه من نفسه لينالوا منه ما نالوا فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم ويفدي أنبياءه ورسله وأولياءه بنفسه فيخرجهم من سجن إبليس ، فإن روح آدم وإبراهيم ونوح وسائر الأنبياء - عندهم - كانت في سجن إبليس في النار حتى خلصها من سجنه بتمكينه أعداءه من صلبه !!

وقالوا في مريم وابنها بهتانا حيث زعموا أن مريم أم المسيح ابن الله في الحقيقة ، ولا أب لابنها إلا الله ، ولا ولد له سواه وأن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه الوحيد من سائر النساء ، وإنها جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها وابنها عن يمينه والنصارى يدعونها ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب [١] .

هذه هي الأمة الضالة المضلة ، التي هي أضل من البهائم في اعتقادها في الله تعالى ونسبة تلك النجاسات والسخافات إليه سبحانه - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - . وافتراؤهم على الذات الإلهية بأن له ولدا ، قائم على حجة هي أعظم من الذنب نفسه ، ذكرها ابن القيم - رحمه الله تعالى - حكاية عنهم ، وهي أن الله أنجب ولدا بحجة أن من لم يكن والدا يكون عقيما ، والعقم آفة وعيب ، والخلفة كمال ، فلابد أن يكون الله متصفا بها [٢] - قاتلهم الله تعالى - .

وهذا قياس فاسد - إذ ليس كل عيب وآفة في حياة البشر يكون الله تعالى متصفا بضدها وإلا لزمهم على قولهم الفاسد بأن يكون الله تعالى متصفا بالقدرة على التبول والتبرز والجماع . إذ أن عدم القدرة على ذلك عيب وآفة . وهذا لا يقول به عاقل !

---

(١) انظر في هذا - هداية الحيارى لابن القيم / ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق / ص ١٤٠ .

ولكنَّ الضابط في هذا هو الإيمان بصفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسله دون تدخل من البشر . فقد كادت السموات والأرض والجبال [1] أن تتصدع لسماعهن هذا الإد المفترى والكفر البواح ، وهذه السبة لله عز وجل . فقد قال تعالى : ﴿ **تكاد السمٰوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغِي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فِي السمٰوات والأرض إلا آتِي الرحمن عبدا** ﴾ [مريم : ٩٠ - ٩٣] .

وفي الحديث الصحيح . قال عليه الصلاة والسلام عن ربه جل وعلا : « شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك . أما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا ، وأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون من إعادته » [2] .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : « فلو أتى الموحدون بكل ذنب وفعلوا كل قبيح وارتكبوا كل معصية ما بلغت مثقال ذرة في جنب هذا الكفر العظيم برب العالمين ومسبته هذا السب ، وقول العظائم فيه . فما ظن هذه الطائفة برب العالمين أن يفعله بهم إذا لقوه » [3] أ.هـ ؟!

العبادات والتشريعات

تعتبر العبادات والتشريعات التي عليها النصارى الآن هي - بجملتها - من صنع الرهبان وعلماء النصرانية ، والله عز وجل كما تبرأ منهم ومن اعتقادهم فيه .

---

(١) سبق الحديث عن رد فعل هذه الكائنات من قول النصارى : « إن المسيح ابن الله » وكذلك التعليق على الآية - . (راجع : ص ٣٢٢) .

(٢) بخاري / ك : بدء الخلق - ب : وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده .

، / ك : التفسير - ب : سورة البقرة - قوله تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه** ﴾ .

(٣) هداية الحيارى - لابن القيم / ص ١٤٠ .

تبرأ أيضا من عباداتهم وتشريعاتهم التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان . فقد وضعوا لأنفسهم الدين الذي يوافق أهواءهم وأمزجتهم فضلوا وأضلوا . وهذه العبادات والتشريعات التي لدى النصارى لا تحقق ألبتة عبودية العبد لخالقه عز وجل ، ولا تليق بألوهية الخالق جل وعلا . وسوف نجد ذلك واضحا بمشيئة الله تعالى . فنقول وبالله التوفيق :

أولا : العبـادات :

تعتبر أهم تلك العبادات لديهم الصلاة والصوم ، مع وجود عبادات أخرى سنوردها ، إلا أنها ليست ملزمة بمعنى أنها غير واجبة بل هي من المباحات وقد ترتقي إلى المستحبات . يقول د. أحمد شلبي : « يرى كثيرون من المسيحيين أن الانتظام في الصوم والصلاة توجيه اختياري لا إجباري » [1] أ.هـ ، وبصفة عامة فإن كل تلك العبادات – بصورتها الموجودة عند النصارى – لم يفعلها عيسى عليه السلام ولم يأمر بفعلها . إنما هي من وضع علماء النصارى ، وتفقِد في جملتها الصلة بين العبد وربه ، وهو ما نحاول إبرازه في هذا المبحث حيث تبعد عن تحقيق العبودية لله عز وجل بالكلية .

(١) الصلاة :

أمر الله عز وجل – كما جاء في القرآن الكريم – عيسى عليه السلام بالصلاة والزكاة فقال : ﴿ **وأوصانِي بالصلاة والزكاة ما دمت حيا** ﴾ [مريم : ٣١] . وجاء في إنجيلهم المحرف ما نصه : « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس . الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق عليك بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية » [2] .

---

(١) مقارنة الأديان – المسيحية – لأحمد شلبي / ص ٢٣٤ .

(٢) إنجيل متى / إصحاح ٦ – فقرة ٥ ، ٦ .

فلاشك بأن الصلاة التي أمر الله تعالى بها عيسى عليه السلام ، قد بين له كيفيتها وأركانها . والذي نجزم به هو أن الصلاة التي كان يصليها عيسى عليه السلام ليست بالكيفية التي يؤديها النصارى ، حيث فيها من المخالفات والشرك ما لا يرضى به موحد لله تعالى . فالصلاة كما ينقلها عنهم الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – [1] وفيها :

(أ) الصلاة إلى الصور والتماثيل والسجود لها . فلا تخلو كنيسة من كنائسهم من صورة المسيح وأمه ، والحواريين وغيرهم من القديسين عندهم ، ويدعون أصحاب تلك الصور من دون الله تعالى .

(ب) لا يشترطون فيها الطهارة ولا يوجبونها كما يذهب بذلك طوائف منهم – وهم الروم وغيرهم – حيث لا يرون الاستنجاء بالماء . بل يقولون بأن الصلاة بالجنابة والبول والغائط أفضل من الصلاة بالطهارة لأنها حينئذ أبعد من صلاة اليهود والمسلمين وأقرب إلى مخالفة الأمتين .

(جـ) يتجهون بصلاتهم نحو مشرق الشمس ، وما صلى المسيح إلى المشرق قط إلى أن رفعه الله تعالى إليه إلا إلى بيت المقدس قبلة داود والأنبياء قبله ، وقبلة بني إسرائيل .

(د) التصليب على الوجه . وهو مخالف لما في كتابهم المقدس من العهد القديم وفيه : ملعون من تعلق بالصليب ، ولكنهم جعلوا شعار دينهم ما يلعنون به !! ولو كان لهم أدنى عقل لكان الأولى أن يحرقوا الصليب حيث وجدوه ويكسروه فإنه قد صُلب عليه إلههم ومعبودهم بزعمهم وأهين عليه . فبأي وجه – بعد هذا – يستحق هذا الصليب التعظيم لولا أن القوم أضل من الأنعام .

(هـ) يقرأ القس أو البابا نصوصا من الإنجيل – المحرف – باللغة اللاتينية

---

(١) هذا ملخص ما ذكره في : (إغاثة اللهفان / جـ ٢ – ص ٢٨٥ ، ص ٢٩٥) . (هداية الحيارى / ص ١٤١) .

أو القبطية بطريقة غنائية قد لحنها لهم الذين يتقدمون ويصلون بهم يجري مجرى النوح والأغاني .

(و) [١] وعدد الصلوات سبع في اليوم والليلة ، وهي : صلاة البكور ، وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة ومنتصف الليل .

(ز) ليس لها ترتيب خاص وإنما هي أدعية تختلف من مكان إلى مكان .

(ح) غاية ما يلزم أن تحويه هذه الصلاة أن تكون على نسق الصلاة الربانية التي قدمها لهم المسيح – بزعمهم – وهي : « أبانا الذي في السموات . ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد . آمين » [٢] .

هذا وإن كان النص يوحي بتمجيد الله عز وجل وتعظيمه ، ولكن النصارى يتوجهون بتلك الصلاة إلى الإله الذي هو الأب والإبن والروح القدس . والذي هو غاية الشرك بالله تعالى والكفر به .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – ختاما عن تلك الصلاة : « فصلاة مفتاحها النجاسة وتحريمها التصليب على الوجه وقبلتها الشرق وشعارها الشرك ، كيف يخفى على العاقل أنها لا تأتي بها شريعة من الشرائع ألبتة ؟! » [٣] .

---

(١) هذه الإضافات من كتاب مقارنة الأديان – المسيحية – للدكتور أحمد شلبي ص ٢٣٤ – ٢٣٦ .
(٢) إنجيل متى / إصحاح ٦ – فقرة ٩ – ١٣ .
(٣) إغاثة اللهفان – لابن القيم / جـ ٢ – ص ٢٩٧ .

(٢) الصـــوم :

أما الصوم فقد جاء ذكره في إنجيل متى وفيه حث على الصوم وعدم الرياء فيه ، وهذا نصه : « ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين . الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم . أما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذي في الخفاء فأبوك يرى في الخفاء يجازيك علانية » (١) .

ونحن لا نشك في أن عيسى عليه السلام كان يتعبد بالصوم قربة إلى الله عز وجل وأمر به قومه وذلك من قبل الله عز وجل ، وهو ما يظهر من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ [البقرة : ١٨٣] . والذين كتب عليهم الصوم قبلنا يشمل عيسى عليه السلام وقومه . ولكن هل الصوم الذي يؤديه النصارى هو ما شرعه لهم الله تعالى ورسوله عيسى عليه السلام ؟ هذا ما سوف نجيب عنه من خلال الكلام عن صوم النصارى .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن صومهم : « ويصومون صوما لم يشرعه المسيح لهم كصيام صوم العذارى ، ولهم صيام للحواريين ، وصيام لماري - مريم - وصيام لماري جرجس وصيام للميلاد ، كما يأكلون في الصوم أشياء ويحرمون على أنفسهم أكل أشياء ، فيتركون أكل اللحم في صيامهم . وهذا مما أدخلوه في دين المسيح » (٢) أ.هـ .

ويذكر الدكتور أحمد شلبي أن صيامهم - وكذلك الصلاة - غير متفق على تحديده ، فالصوم عندهم هو الإمتناع عن الطعام من الصباح حتى بعد منتصف النهار ثم تناول طعام خال من الدسم ، ويشمل الصوم عندهم صيام يوم الأربعاء وهو يوم المؤامرة التي انتهت بالقبض على عيسى ، ويوم الجمعة لأن المسيح

---

(١) إنجيل متى / إصحاح ٦ - فقرة ١٦ - ١٨ .

(٢) راجع : هداية الحيارى / ص ١٤١ ، إغاثة اللهفان / جـ ٢ - ص ٢٨٧ .

صُلب فيه . وهذا مما يدل دلالة واضحة على وضعية هذه العبادات إذ يصومون أياما لم يشرعها لهم عيسى عليه السلام ، ولكن من وضع علمائهم . كما يصومون صوم الميلاد ، وعدد أيامه ثلاثة وأربعون يوما تنتهي بعيد الميلاد ، والصوم المقدس ، وعدد أيامه خمسة وخمسون يوما هي عبارة عن الأربعين يوما التي صامها المسيح مضافا إليها أسبوعان [(١)] . أسبوع قبل الأربعين يوما وأسبوع بعدها ، ويمتنع فيه عن أكل كل حيوان أو ما يتولد منه أوما يستخرج من أصله ويقتصر على أكل البقول ، ولا يعقد في أثنائه سر الزواج ، وعندهم صوم الرسل ، وصوم العذراء [(٢)] . فابتدعوا في صيامهم – وفي دينهم – الكثير ، بل هو مختلق على يد القساوسة والرهبان . يذكر ابن القيم – رحمه الله تعالى – بعض الأشياء التي أحدثوها في الصوم منها : أنهم زادوا صيام سبعة أيام في بدء الصوم الكبير ، يصومونها لهرقل مخلص بيت المقدس حيث أخلف عهدا أعطاه لليهود لصالح النصارى ، فهم يصومون لهرقل الملك طلبا للمغفرة له لنقضه العهد ، كما أنهم لما ثقل عليهم الصيام في فصل الصيف أرادوا نقل الصوم إلى فصل الربيع المعتدل وتغيير شريعة المسيح فزادوا فيه عشرة أيام عوضا وكفارة لنقضهم له وما ابتدعوه فيه [(٣)] .

ويفعلون ذلك – من الزيادة والتبديل والابتداع في دين الله تعالى – بغير سند من الله تعالى أو من عند رسوله ، بل اتباعا لأهوائهم وأمزجتهم .

(٣) الدعـــاء :

فإنهم يدعون غير الله تعالى ويسألون غيره ، يقولون في دعائهم مستغيثين بمريم : « يا والدة الإله اشفعي لنا » [(٤)] !!

---

(١) لعل هذه الأيام التي أضافوها هي عوضا وكفارة عما فعلوه من نقل الصوم إلى شهر الاعتدال ، كما سيأتي من كلام ابن القيم بعد قليل .

(٢) راجع : مقارنة الأديان – المسيحية – لأحمد شلبي / ص ٢٣٤ – ٢٣٦ .

(٣) راجع : إغاثة اللهفان – لابن القيم / جـ ٢ – ص ٢٩٣ – ٢٩٤ .

(٤) نقلا عن ابن القيم – هداية الحيارى / ص ١٤٠ .

كفر بالله عز وجل وشرك به جعل المسيح وأمه إلهين من دون الله – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا – .

(٤) الصـــدقة :

قد سبق إيراد قوله تعالى مخبرا عما قاله عيسى عليه السلام ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا** ﴾ [مريم : ٣١] .

وفيه دلالة على وجود الزكاة في شريعة عيسى عليه السلام ، أما كيفيتها وأنصبتها ، فلم يرد ذكره في القرآن ولا في السنة ، وجاء نص في الإنجيل – المحرف – يحث على التصدق وإعطائها في الخفاء . وفيه : « احترزوا من أن تضعوا صدقاتكم قدام الناس لكي ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات .. إلى .. وإما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء ، فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية » [(١)] .

ولكن ما يعتقده النصارى هو التثليث المحض في ذلك الإله الذي في السموات فهو الأب والإبن والروح القدس وليس هو الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، حتى تُقبل صدقاتهم . ويتحقق بها عبوديتهم لله تعالى .

(٥) أعيادهـــم :

ومن أعيادهم المختلقة والمبتدعة عيد الصليب ، فإن ظهور الصليب كان بعد المسيح بزمن بعيد ، فعجبا ممن جاء في كتابه المقدس أن من اتخذ صليبا يكون ملعونا ، إضافة إلى أن إلهه قد قتل عليه – كما زعموا زورا – ثم يفرح لذلك الصليب ويُنشيء له عيدا . يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « ولو أنهم

---

(١) إنجيل متى / إصحاح ٦ – فقرة ١ – ٤ .

فعلوا كما فعل أشباههم من الرافضة [١] حيث اتخذوا وقت قتل الحسين - رضي الله تعالى عنه - مأتما وحزنا لكان أقرب إلى العقول » [٢] !

ومن الأعياد التي ابتدعوها عيد ميكائيل [٣] وهو - وغيره - مما ليس من دين المسيح في شيء ، وتصرف العباد عن عبوديتهم الحقة لخالقهم جل وعلا .

(٦) العشاء الرباني :

يعتبر هذا العشاء الذي يقيمونه في بعض أعيادهم من أهم عباداتهم المقدسة . فتعمل الكنيسة على إعداد خبز وخمر بطقوس خاصة ليتناولها المصلون ، فيعتقدون بأن الخبز والخمر قد أصبحا بعد إعدادهما على هذه الصورة أجزاء من جسد ودم المسيح . فالخبز قطعة من جسده ، والخمر قطرات من دمه ، وبذلك يمتزج لحم المسيح ودمه بلحم ودم من يتناوله ، فيتذكر المصلون المسيح وما فعله فداء لتخليص البشرية من خطاياهم التي علقت بهم منذ الأزل . أي منذ خطيئة آدم التي توارثها جيل بعد جيل ، وقد جاء وصف هذا العشاء في إنجيل متى وفيه : « وفيما هم يأكلون أخذ المسيح الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال : كلوا هذا هو جسدي ، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا : اشربوا منها كلكم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » [٤] .

فعجبا لتلك العقول التي أطبق عليها الجنون والغفلة والحماقة فأي رسول من عند الله تعالى أو أي إله - على زعمهم - يُحل لقومه شرب الخمر وهي

---

(١) الرافضة : هي إحدى أصناف الشيعة الضالة . سموا بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر . مجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب ، وأن الصحابة قد ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ ، أبطلوا الاجتهاد في الأحكام ، وقالوا بأن عليا رضوان الله تعالى عنه كان مصيبا في كل أحواله ولم يخطىء في شيء من أمور الدين ، فرقهم عديدة .

(راجع : مقالات الإسلاميين . لأبي الحسن الأشعري / ص ١٦ - ٦٤) .

(٢) إغاثة اللهفان / جـ ٢ - ص ٢٩٥ .

(٣) لمزيد من المعلومات . راجع : المصدر السابق / جـ ٢ - ص ٢٩٤ .

(٤) إنجيل متى / إصحاح ٢٦ - فقرة ٢٦ - ٢٨ .

محرمة بنص كتابهم في العهد القديم رغم تحريفه ؟! فقد جاء فيه ما نصه : « لا تشرب الخمر ولا المسكر ، كذا ولا أبناؤكم معكم . لا في الهيكل بين حشد المصلين أبدا حتى الموت » [1] .

وكيف يتخيل من به عشر عقل ، وليس عقلا كاملا ، أن قطعة خبز هي قطعة من جسد المسيح ، وأن بعضا من الخمر هو بعض من دم المسيح ؟! إلا أن القوم قد صاروا والبهائم سواء ببعدهم عن تحقيق عبوديتهم الحقة لله عز وجل .

ومن المضحك من أمرهم : أن الكنائس الغربية تجيز استعمال الفطائر عوضا عن الخبز في الوقت الذي لا تجيزه الكنائس الشرقية ، وتحافظ على حرفية النص السابق ! في إنجيل متى فتستوجب استخدام الخبز [2] !! .

(٧) صكوك الغفران :

لدى النصارى مهزلة لا تقل جرما وزورا عما قالوه في الله تعالى وسبوه به وهي أنهم جعلوا المسيح فداء الخطيئة ، وذلك بصلبه ، فتحمل ذنوب الأولين والآخرين إلى قيام الساعة ، وعليه فإن من يعمل - من النصارى - سوءا ولو من الكبائر فلا شيء عليه . وفوضوا أمر محو هذه الكبيرة والإشفاق على العاصي بندمه والتخفيف عليه إلى القساوسة والرهبان في غفران الذنوب . فيخرج القسيس للعاصي صكا بغفران ذنبه مقابل دراهم يدفعها العاصي للقسيس . ونص الصك كالتالي : « ربنا يسوع المسيح يرحمك يا ... (يكتب اسم العاصي) ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية ، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام الطائلات الكنيسية التي استوجبتها . وأيضا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل

---

(١) سفر اللاويين / إصحاح ١٠ - فقرة ٩ - كما وردت نصوص أخرى في تحريم الخمر منها : سفر صموئيل / ١ - ١٤ ، سفر أشعيا / ٥ - ٢٢ ، الأمثال / ٢٠ - ١ ، ٣١ - ٤ ، ٥ .

(٢) راجع : (الأسفار المقدسة - علي عبد الواحد / ص ١٢١) .
(مقارنة الأديان - المسيحية - أحمد شلبي / ص ٢٥٣) .

علة ... إلى ... باسم الآب والإبن والروح القدس » [1] .

إن ما يفعله بعض النصارى من كرسي الاعتراف والتوبة من الذنب على يد القسيس وصك الغفران المعطى للمذنب مقابل المال ، من القبح العظيم والشرك بالله تعالى إذ التوبة لا تكون إلا لمن يملك المغفرة واسمه « الغفور » فمن يملك محو الذنب الذي يقع فيه رجال الدين إذا ؟! والجواب عن هذا أنهم فوق المعاصي ، وأنهم معصومون كما زعمت النصارى ذلك لهم ، ولذا فقد رفعوا العبء عن النصارى كلهم من الحدود والتعزيزات واكتفوا بالتوبة على أيديهم . يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : « وليس عند النصارى على من زنا أو لاط أو سكر ، حد في الدنيا أبدًا ولا عذاب في الآخرة . لأن القس يغفر لهم ، فكلما أذنب أحدهم ذنبا أهدى للقس هدية أو أعطاه درهما أو غيره ليغفر له به !! وإذا زنت امرأة أحدهم بيَّتها عند القس ليطيّبها له [2] ، فإذا انصرفت من عنده وأخبرت زوجها أن القس طيبها قَبِل ذلك منها وتبرك به !! » [3] أ.هـ .

بُعد صريح عن العبودية الحقة التي شرعها الله تعالى لعباده . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ، ما وقع فيه بعض المسلمين بسبب المبتدعة من الصوفية مثل ما وقع فيه النصارى من طلب غفران الذنب على يد شيخ أو ما يسمونه هم « ولي » فيقول العاصي : طهرني من ذنبي ، أو حللني ، أو ما شابه ذلك اتباعا لضلال النصارى ، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم » قلنا : يا رسول الله آليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » [4] .

---

(١) منقول من كتاب (الأسفار المقدسة - علي عبد الواحد / ص ١٢٣) ومن (مقارنة الأديان - المسيحية - لأحمد شلبي / ص ٢٥٤) .

(٢) أشار الدكتور أحمد شلبي إلى الفضائح التي تحدث باسم الدين ويندى لها الجبين ووقع فيها بعض رجال الدين بالاعتداء ومحاولة العدوان على المعترفات بالذنب . (مقارنة الأديان - المسيحية / ص ٢٥٥) .

(٣) هداية الحيارى - لابن القيم / ص ١٤٢ .

(٤) بخاري / ك : الأنبياء - ب : ما ذكر عن بني إسرائيل .

وهذا مما يؤسِف أنه قد انتشر هذا في بعض البلاد التي يكثر فيها الجهل والبدع والخرافات ، ولعل ضياع حكم الإسلام وحدوده بين المسلمين أحد الأسباب التي أدت إلى ذلك . وهو من الكفر الصريح الذي حاربه الإسلام .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – : « ومن أنواع الشرك : التوبة للشيخ ، فإنها شرك عظيم . فإن التوبة لا تكون إلا لله كالصلاة والصيام والحج والنسك ، فهي خالص حق الله تعالى . وفي المسند : أن رسول الله ﷺ أُتي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال رسول الله ﷺ : « عرف الحق لأهله » [1] أ.هـ [2] . فالحمد لله على نعمة الإسلام ، فقد جعل الله تعالى التوبة خالصة له سبحانه وبين عبده ولم يجعل هذا الحق لأوليائه ولا لأنبيائه . قال تعالى : ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** ﴾ [الزمر : ٥٤] ، وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾ [التحريم : ٨] . فلا يملك حق مغفرة الذنوب والكبائر إلا هو سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يفعلون** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

(٨) الولاء والبراء :

أما عن نظرة النصارى إلى الولاء والبراء ، والحب في الله تعالى والبغض فيه ، والذي هو من أوثق عرى الإيمان ، ففيها شطط كبير وخروج عن الجادة – كبقية معتقداتهم – فتدعوهم أناجيلهم المحرفة إلى حب الأعداء والمخالفين قبل محبة الأصدقاء والمحبين ، فجمعوا بين المتناقضين . فجاء في الإنجيل – المحرف – : « سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم

---

(١) مسند أحمد / ٣ – ٤٣٥ .

(٢) مدارج السالكين – لابن القيم / جـ ٣ – ص ٣٤٥ .

ويطردونكم » [1] .

هذه التعاليم تحتمل أمرين . الأول : عداوة في الدين ، وهذا مما لا ينبغي التساهل فيه فمن عادى مؤمنا لإيمانه وجبت معاداته لأن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّى وعدوكم أولياء** ﴾ [الممتحنة : ١] .

الثاني : عداوة شخصية ، فهذا مما يخير المرء فيه بين المجازاة بالمثل وبين العفو والصفح ، قال تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾ [النحل : ١٢٦] . وقال تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وواقع النصارى يدل على أنهم لم يلتزموا بهذا النص في كلتا الحالتين .

وتشهد لهم الحروب الصليبية التي أريقت من أجلها دماء المسلمين . فالنصارى مناقضون لما عليه تعاليمهم ومخالفون لأصل من أصول العبودية الحقة لله عز وجل وهو الولاء والبراء الذي يخبر الله عز وجل عنه من خلال فعل إبراهيم عليه السلام إلى قومه بقوله : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فِي إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ [الممتحنة : ٤] .

فأهل الإيمان يوالون أهل الإيمان ويتبرأون من أهل الشرك ولا يوالوهم ، قال تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فِي شيْء إلا أن تتقوا منهم تقاه ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير** ﴾ [آل عمران : ٢٨] . والتحذير من موالاة الكفار عام إلى المسلمين قاطبة بما فيهم النبي ﷺ وإن كان قليلا ، قال تعالى : ﴿ **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا** ﴾ [الإسراء : ٧٤ ، ٧٥] . وكما يقول د. أحمد شلبي عن هؤلاء النصارى الذين لم يحبوا أعداءهم ألبتة من خلال تاريخهم :

---

(١) إنجيل متى / إصحاح ٥ - فقرة ٤٣ - ٤٤ .

« إن المسيحيين في الغالب لم يتبعوا في سلوكهم هذا الاتجاه بل لم يقنعوا بالعدالة التي قالت بها التوراة ، وراح أكثرهم يستعمرون ويظلمون » [١] .

ثانيا : التشريعات والحدود :

لا نستطيع بحال أن ننسب شريعة النصارى التي لديهم إلى جملة الشرائع التي أُنزلت من عند الله تعالى على رسله لدعوة أقوامهم . ولكنا نستطيع أن ننسبها إلى الرهبان والقساوسة ورجال الدين منهم ، وهو ما يؤكده القرآن الكريم والسنة النبوية ويجزم به كثير من الباحثين في علم مقارنة الأديان ، فقد خالفوا جميع التعاليم الموجودة في العهد القديم ، رغم إيمانهم بثبوتها ، وأحدثوا دينا جديدا يوافق ويلائم طبيعة الناس الذين يدعونهم إلى النصرانية . وهو كفر صريح بألوهية الله عز وجل إذ الحكم لله تعالى وحده ، واستكبارا منهم على مقام العبودية لله تعالى الحقة فنصبوا رهبانهم أربابا من دون الله تعالى في التشريع . وهذا ما سوف نراه بعد قليل من خلال المراحل التي مر بها التشريع النصراني .

مراحل التشريع [٢] في النصرانية :

في المرحلة الأولى : لم يأت عيسى عليه السلام بتشريع جديد ولكن كان يقرر ما في التوراة ، وكل ما اهتم به عيسى عليه السلام هو الوعظ والوصية والتسامح ، واكتفى بما في التوراة من تشريع مع تحليل بعض ما حرم الله تعالى عليهم من قبل عقوبة لهم .

فجاء في إنجيل متى ما نصه : « لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل ، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول

---

(١) مقارنة الأديان – المسيحية – لأحمد شلبي / ص ٢٣٢ .

(٢) هذه المراحل مجمل ما كتبه د. أحمد شلبي في كتاب « مقارنة الأديان – المسيحية – ص ٢٢٨ – ٢٣٤) .

السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل » [1] . ولكنّا سوف نجد بعد قليل خلاف ذلك حيث خالفوا التوراة بأكملها ، وهو ما يناقض عبوديتهم لله جل وعلا .

المرحلة الثانية : من الغريب أن ينتقل التشريع بعد ذلك إلى الرسل ، وهم قادة النصرانية ، حيث رأوا أن التشريع اليهودي قد شق على الأتباع الجدد في اعتناق النصرانية ، وكان الختان أهم ما يشق على هؤلاء ، فأخذ النصارى يقللون من التكاليف وأباحوا الخمر ولحم الخنزير والربا مع وجود حرمتها في التوراة . وقد استطاعوا أن يضعوا ذلك في أسفار جديدة وألحقوها بأناجيلهم ، وغيَّروا فيها وبدلوا ما اشتهت نفوسهم ونسبوا إليها العصمة والتقديس حتى يلزموا أتباعهم باتباعها دون نقاش . وقد كانت لتلك النصوص المحرمة لما أحلوه في العهد القديم الذي يؤمنون به وجود ثابت لدى أعدائهم من اليهود وهو ما كان حائلا دون تبديلها أو محوها بالكلية حتى لا يكون لها وجود . ولكنهم غيروها بطريقة أخرى على يد بولس . يقول الدكتور أحمد شلبي : « وجاء بولس فلعب دورا كبيرا في التشريع المسيحي فكان تارة يشرح ما روي عن عيسى وتارة يقترح من عنده هو ، وكان الختان من أهم ما عني بولس بإيقافه وطالما صرخ في رسائله بقوله : (ما هو نفع الختان ؟) أ.هـ [2] . وقد وجدت نصوصا في العهد الجديد – في إحدى رسائل بولس – تدل على أنه يجتهد رأيه في كثير من المسائل . منها قوله : « وأما العذارى فليس عندي أمر من الرب ، ولكني أعطي رأيا كمن رحمه الرب أن يكون أمينا » [3] . وقوله : « .. ولكنها أكثر غبطة إن لبثت هكذا بحسب رأيي . وأظن أني أنا أيضا عندي روح الله » [4] .

---

(١) إنجيل متى / إصحاح ٥ – فقرة ١٧ ، ١٨ .

(٢) مقارنة الأديان – المسيحية – أحمد شلبي / ص ٢٣٢ .

والنص الذي استدل به د. أحمد شلبي من رسالة أهل رومية / إصحاح ٣ – فقرة ١ وفيه : « إذا ما هو فضل اليهودي أو ما هو نفع الختان » ؟

(٣) رسالة بولس لأهل كونثوس / إصحاح ٧ – فقرة ٢٥ .

(٤) الرسالة السابقة / إصحاح ٧ – فقرة ٤٠ .

فأعطى لنفسه حق التشريع حيث منح لنفسه العصمة وعدم الزلل لأنه قد أُيّد بروح الله – كما ادعى – وبالتالي استطاع أن يبدل دين المسيح بالكلية .

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – نقلا عن أحد كتبهم ، والتي تثبت التحريف والتبديل في الشرائع والعبادات : « إن قوما من النصارى خرجوا من بيت المقدس وأتو أنطاكية وغيرها من الشام فدعوا الناس إلى دين المسيح الصحيح ، فدعوهم إلى العمل بالتوراة وتحريم ذبائح من ليس من أهلها ، إلى الختان وإقامة السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة ، فشق ذلك على الأمم واستثقلوه ، فاجتمع النصارى ببيت المقدس وتشاوروا فيما يحتالون به على الأمم ليحببوهم إلى دين المسيح ، فاتفق رأيهم على إنشاء شريعة تكون بين شريعة الإنجيل وما عليه الأمم » [1] أ.هـ . فأحلوا وأباحوا جميع ما استثقلته الأمم من الشرائع ، ليكون دينا حسب الأمزجة .

في المرحلة الثالثة : انتقل التشريع فيها إلى الرؤساء الروحانيين من خلال المجامع التي لم تكتف بالتشريع فحسب بل غاصت في زخرفة وتشكيل التثليث (الآب والإبن والروح القدس) وأجرت ذلك في مجمع تم التصويت عليه لتقرير العقيدة ! كما تقرر لرجال الدين حق الغفران ، وعصمة البابوات ، وحق الحرمان من ملكوت السموات لمن يعارض . مما أدى إلى وجود إنفجار ثوري على تلك المعتقدات وعلى طغيان الكنيسة ومفاسدها ، على يد المصلحين الذين ظهروا في القرن السادس عشر الميلادي ، وهو ما سوف نتكلم عنه بمشيئة الله تعالى بعد قليل .

نماذج من التشريعات والحدود لدى النصارى :

جاء ذكر القتل والزنا والقصاص في الأناجيل ، وتبدو الشريعة النصرانية في حالة سلبية للغاية تجاه مقترفي الكبائر ، فلا اتبعت التوراة في إقامة الحد على الجاني ، ولا هذبت تعاليمها نفوس تابعيها في البعد عن الآثام والكبائر ، فاكتفت

(١) هداية الحيارى – لابن القيم / ص ١٤٣ .

بما ابتدعه علماؤها عقابا للجاني أن يعترف أمام البابا أو القس بذنبه ويحله منه ويستخرج له صكا بالغفران . فخالفوا شرع الله عز وجل المنزل بالقصاص ، وخالفوا العقل كذلك فماذا تفعل فيمن قطع يد ابنك أو رجله بعمد من الجاني ، ثم اعتدى على ابنتك فزنا بها ؟! ثم اغتصب مالك ؟!

فنظرة النصرانية كالتالي :

(١) بالنسبة للقصاص :

لا يؤخذ من الجاني أو يقتص منه بما فيه صراحة في نهاية المطاف بإلغاء العقوبات والتعزيزات بالكلية . فينص الإنجيل – المحرف – على : « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا »[1] . أما شريعة الله تعالى الحقة فهي الشريعة التي أوجبت القصاص والأخذ على يد الظالم والمتعدي وإعطاء حقوق الناس حتى ترضى نفوسهم وتهدأ مما وقع عليها من اعتداء ، هذا مع الحث على العفو والمسامحة والصبر ، ولقلة وجود هذا الخلق الأمثل أوجب الله تعالى القصاص . فقال تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ [النحل : ١٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إن الله لا يحب الظالمين** ﴾ [الشورى : ٤٠] .

(٢) الزنـــا :

لا حد له ولا عقاب والاكتفاء بعهد يؤخذ على الزاني ألَّا يعود للذنب ثانية . فتروي أسفارهم المحرفة الآتي : « ثم حضر أيضا إلى الهيكل في الصبح وجاء إليه جميع الشعب فجلس يعلمهم وقدَّم إليهم الكتبة والفريسيون امرأة أُمسكت في الزنا . ولما أقاموها في الوسط قالوا له : يا معلم هذه المرأة أُمسكت وهي تزني في ذات الفعل ، وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم . فماذا تقول

---

(١) إنجيل متى / إصحاح ٥ – فقرة ٣٨ – ٤١ .

أنت ؟ قالوا هذا ليجربوه لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه . وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فيرمها أولا بحجر ، ثم انحنى أيضا إلى أسفل وكان يكتب على الأرض . وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحدا فواحدا مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط . فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحدا سوى تلك المرأة قال لها : يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك ، أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد يا سيد . فقال لها يسوع : ولا أنا أدينك ، اذهبي ولا تخطئي أيضا » [١] .

إن تعاليم المسيح ، كما تبدو في أناجيلهم - تنهى عن القرب من فعل الشر ابتداء وليس الشر ذاته ، فوصلت الشريعة إلى ما هو أبعد عن النهي في فعل الكبائر مثل نهيه عن بغض الأعداء حتى لا يحملك ذلك الى الوقوع في القتل ، وكذلك نهيه ألا تُشتهي امرأة حتى لا يقع المرء في الزنا ، فقد جاء في أحد أناجيلهم : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء [٢] : لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم . وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم » [٣] . وقد جاء أيضا في أحد أناجيلهم :

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى قلبه » [٤] .

وهذه النصوص منها ما يوافق القرآن في مثل قوله تعالى عن الزنا : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ [الإسراء : ٣٢] . فنهى الله تعالى عن مقدمات الزنا ، وهو ما عبر عنها بالقرب منها .

---

(١) إنجيل يوحنا / إصحاح ٨ - فقرة ٢ - ١١ .
(٢) يعني بهم اليهود من قبلهم .
(٣) إنجيل متى / إصحاح ٥ - فقرة ٢١ ، ٢٢ .
(٤) إنجيل متى / إصحاح ٥ - فقرة ٢٧ ، ٢٨ .

والظاهر من نصوص الإنجيل السابقة أنها تدعو إلى تهذيب النفوس في عدم القرب من القتل ولو من بدايته ، وهو الغضب ، وعدم القرب من الزنا من بدايته بالشهوة إلى المرأة ولكن ماذا نفعل في المجتمعات التي يوجد فيها القتل والسرقة ؟ ، وكل المجتمعات مليئة بهذا ؟! فالنصارى لا يوجبون حدا ويكتفون بتوبة العصاة بألّا يعودوا للذنب ثانية .

أما حكم الله تعالى الذي أنزله على رسله في الزاني والزانية – مثلا – هو الرجم كما ورد في شريعة موسى عليه السلام في التوراة ، وكما ورد في شريعة محمد ﷺ برجم المحصن ، وجلد غير المحصن . فالله عز وجل الرءوف الرحيم الذي هو أرحم بعباده من الأم بولدها ، يقول في كتابه العزيز : ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله تعالى إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ [النور : ٢] .

والرجم هو ما حكم به ﷺ لليهود ، إيمانا منه ﷺ واتباعًا لما أُنزل على موسى عليه السلام ، حتى بهت اليهود من معرفته بذلك ؛ فقد جاء في الصحيح عن ابن عمر – رضي الله تعالى عنهما – قال : إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم » ؟! فقالوا : نفضحهم ونجلدهم . قال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، قالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم . فأمر بهما ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة [1] .

هذا هو شرع الله تعالى الحق الذي يأخذ على يد المفسدين والعصاة ليرتدع المفسدون ويستتب الأمن في المجتمع ، ويُقضى فيه على الفواحش والموبقات حتى لا تنتشر المعاصي ، . ولكنَّ النصارى – بمعتقداتهم الفاسدة – أنشأوا مجتمعا

---

(١) بخاري / ك : الحدود – ب : أحكام أهل الذمة .

قائما على الدعارة وشرب الخمر وأكل لحم الخنازير وأكل الربا .. إلى غير ذلك مما هو حادث بالفعل الآن في المجتمعات الكافرة الغربية ، حيث فشا فيهم الزنا واللواط بشكل واسع جدا ، جعل البابا التابع لهم يدعو إلى الحد من هذه الموجة العارمة [1] ، والتقليل من الممارسات الجنسية تدريجيا حيث انتشرت فيهم الأمراض التي لم تكن في أسلافهم [2] .

(٣) السرقة والغصب :

نجد العجب كذلك حيث تدعوا تعاليمهم إلى عدم مقاومة الشر . فمن سرق ثوبك ساعده أكثر على السرقة وأعطه الرداء كذلك . فقد جاء في أحد أناجليهم : « لا تقاوموا الشر ، من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا » [3] .

(٤) الزواج والطلاق :

رأينا فيما سبق أن النصارى في كثير من معتقداتهم قد خالفوا الشرع والعقل معا . أما في أمور الزواج والطلاق فقد خالفوا – زيادة على ما سبق – الفطرة الإنسانية التي فطر الله تعالى الناس عليها ، وأوجبوا عليها ما يضاد طبيعتها ، وتتلخص نظرة النصارى في الزواج والطلاق فيما يلي :

١ – الزواج مكروه ، بل محرم – عند بعض فرقهم – كما سنرى بعد قليل .

---

(١) اقرأ جريدة « المسلمون » عدد ٢٣٨ / تاريخ ٢٤ محرم ١٤١٠ هـ .

ولمزيد من فضائحهم ومهازلهم راجع ما كتبوه هم عن أنفسهم في مجلة « التايم » الأمريكية تحت عنوان « أطفال لديهم أطفال » تتحدث عن بنات أعمار ١٣ – ١٩ سنة حوامل من الزنا وبنسبة عالية . عدد رقم ٩/٤٩ ديسمبر ١٩٨٥ م .

(٢) منها مرض « الإيدز » وهو مرض القرن العشرين وحديث العصر الذي يؤثر على الأصحاء كذلك . وهو ناتج عن العلاقات الجنسية غير شرعية .

(٣) إنجيل متى / إصحاح ٥ – فقرة ٣٩ ، ٤٠ .

٢ - إن كان ولابد من الزواج خوفا من الإحتراق بسبب الشهوة والوقوع في الزنا ، فواحدة فقط ، وحرمت النصرانية التعدد بعد أن كان مباحا عند اليهود [(١)] ، فجاء في أحد أناجيلهم - وصفا للزوجين - : « يكون الإثنان جسدا واحدا إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان » [(٢)] . وبناء على ذلك فإنه .

٣ - لا يجوز أن يُفرِّق بين الزوجين إلا بسبب وقوع جريمة الزنا من أحد الزوجين . ولا يجوز لهما الزواج ثانية بعد التفرقة بينهما ، وبعض فرقهم وهي الكاثوليكية لا ترى التفرقة مطلقا ، ولا تعد الخيانة الزوجة مبررا للطلاق بل يكتفي بالتفرقة الجسمية مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما ، كما لا تجيز النصرانية زواج أحد الزوجين إذا توفي الآخر . فحرموا الطلاق تحريما باتا ، فقد جاء في أحد أناجيلهم ما نصه : « فتقدم الفريسيون وسألوه : هل يجوز للرجل أن يطلق امرأته ليجربوه ، فأجاب وقال لهم : بماذا أوصاكم موسى ؟ فقالوا : موسى أذن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق ، فأجاب يسوع وقال لهم : من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية ... من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها وإن طلقت المرأة زوجها وتزوجت بآخر تزني » [(٣)] .

تلك تعاليم النصرانية المحرفة وليست من شرع الله تعالى ، والله ورسوله والمؤمنون بريئون من تلك التعاليم التي تخالف الفطرة الإنسانية [(٤)] ، ولمزيد من

---

(١) ذكر د. أحمد شلبي أن التعدد كان مباحا في مطلع النصرانية استنادا لما كانت عليه اليهود في شرعهم . (راجع : مقارنة الأديان - المسيحية / ص ٢٣٥) .

(٢) إنجيل مرقس / إصحاح ١٠ - فقرة ٨ .

(٣) إنجيل مرقس / إصحاح ١٠ - فقرة ٢ - ١٢ .

(٤) تعليق : إن مما يؤسف - أن نجد في حاضرنا المعاصر تلك المعتقدات الفاسدة التي لدى النصارى في أمور الزواج والطلاق قد انتقلت برمتها إلى أذهان كثير من المسلمين بل إلى قلوبهم . فأخذوا ينظرون إلى الطلاق بصفة عامة ، ولو في حالات توجبه ، أنه حرام ، وكذلك إلى التعدد في الزواج جريمة لا تغتفر ويعاقب عليها القانون الوضعي في بعض البلدان المتمسلمة . كما يعدون الزوج الذي يتزوج بعد وفاة زوجته خائنا ، ويقف هذا الرجل حائرا بين شهوته التي فُطر عليها ، وبين تلك العادات والاعتقادات الفاسدة =

الإيضاح سأورد هنا ملخصا عما كتبه د. علي عبد الواحد في الزواج والطلاق لدى النصارى [1] : « فيما يتعلق بالزواج وتكوين الأسرة فقد ساد في المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج وأن هذه المباديء مستمدة من روح الأناجيل ، فيقول بولس في رسالته لأهل كورنثوس : « إذا من زوَّج فحسنا يفعل ، ومن لا يزوج يفعل ما هو أحسن » [2] ويقول : « فحسن للرجل ألا يمس امرأة ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة زوجها » [3] ، ويقول أيضا : « ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسن لهم إذا ثبتوا كما أنا ولكن إذا لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق » [4] .

ويأتي أحد كتاب النصارى فيزيد الطين بلة فيعلق على النصوص السابقة قائلا : « إن الزواج لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم . ولكن الخير أن يتقي الإنسان الأمرين معا فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار وإن كان قصارى ما يحققه الزواج أن يعصم الفرد من الخطيئة على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ويتيح له أن يأتي بالمعجزات ، فجسم المسيح نفسه جاء من بتول عذراء ، والقديس يوحنا ، والرسول بولس ، وجميع إخوانه الحواريين والذين سجلت أسماؤهم في سفر الخلود آثروا التبتل وحثوا الناس عليه » .

بل إن كثيرا من فقهاء النصارى ينظرون إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور

= التي أجبر عليها ، وأولاده يقفون له بالمرصاد حتى ولو فكر - فقط - في ذلك .

وهكذا يتبع المسلمون اليهود والنصارى في أمورهم كلها نسأل الله تعالى العافية والسلامة .

(١) ما سأورده في السطور التالية هو ملخص ما كتبه الدكتور علي عبد الواحد في الأسفار المقدسة / ص ٨٢ - ٨٥ .

(٢) رسالة أهل كورنثوس / إصحاح ٧ - فقرة ٣٨ .

(٣) رسالة أهل كورنثوس / إصحاح ٧ - فقرة ١ ، ٢ .

(٤) رسالة أهل كورنثوس / إصحاح ٧ - فقرة ٨ ، ٩ .

المسلمة من الدين بالضرورة ومستمدة من روح الأناجيل ومن نصوصها . وقد طردت الكنيسة في أحد المجامع راهبا عارض المبدأ النصراني الذي يقرر أن التبتل خير من الزواج . وقد ذهبت إحدى فرقهم وهي المرقيونية [1] إلى تحريم الزواج تحريما باتا على جميع أفراد نحلتها وأوجبت على كل متزوج يرغب في اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن زوجه وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده .

هذا وقد أدت نظرة النصارى إلى التبتل على أنه الحالة المثلى وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة ، أدت هذه النظرة بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على القسيسين والرهبان في المذهب الكاثوليكي . وغني عن البيان أن هذه المبادىء النصرانية بحثها على العزوبة دون الزواج تعمل على انقراض النوع الإنسان وتعجل بفناء الكون » أ.هـ . وهذا هو سر انقراض هذه الفرقة من النصارى .

ويقول د. علي عبد الواحد : « إن الشريعة التي تذكرها هذه الأناجيل تبدو في كثير من أحكامها مظاهر العنت والحرج والتضييق على الناس وعدم إقامة وزن لضرورات الحياة ولا لشئون المجتمع كأحكامها الخاصة بتحريم الطلاق ، وتحريم الزواج على الزوجين إن فرق بينهما عقب ارتكاب أحدهما لجريمة الزنا . بل إن بعض أحكامها ليترتب على العمل بها إشاعة الفوضى واضطراب الأمن في المجتمع وانتشار الفسق والفجور كاتجاهها إلى إلغاء حد الزنا وإلغاء العقوبات ، بل إن بعض أحكامها ليؤدي إلى انقراض النوع الإنساني ويعجل بفناء الكون من عالمنا الأرضي كنظرتها إلى العزوبة على أنها الوضع الأمثل للرجل والمرأة على النحو الذي سبق بيانه ، وشريعة كهذه لا يمكن أن تصدر عن عاقل ، بل ولا صدورها عن الله الحكيم العليم » [2] أ.هـ

---

(١) وهي فرقة المرقيونيين أتباع مرقيون ، وهو من رجال القرن الثاني الميلادي ، وكان قسيسا . يقوم مذهبه على الاعتقاد بإلهين ، أحدهما : الإله العادل ، والآخر : الإله الخير وهو المسيح ، وأهم ما تختص به هذه النحلة أنها حرمت الزواج تحريما باتا على جميع أفراد نحلتها .

(راجع : الأسفار المقدسة – لعلي عبد الواحد / ص ١٠٦) .

(٢) الأسفار المقدسة – لعلي عبد الواحد / ص ٨٩ ، ٩٠ .

فإن شريعة الله الحكيم العليم هي التي تبيح الزواج وتحث عليه وتوجبه على المسلمين جميعا – بما فيهم علماء الشريعة – وتبيح الطلاق عند الشقاق وعدم حصول الألفة بين الزوجين ، كما تبيح التعدد في الزوجات الذي هو أصل الشرائع كلها – إلا شريعة الرهبان – وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾ [المائدة : ٥٠] .

إن النصوص السابقة في القصاص والزنا والسرقة والزواج والطلاق – وغيرها كثير – تدل صراحة على إلغاء العقوبات والتعزيرات بالكلية . وتخالف في الوقت نفسه نصوص التوراة مما جاء به موسى عليه السلام مخالفة صريحة . ونجد في أحد أناجيلهم عن عيسى عليه السلام قوله : « ما جئت لأنقض بل لأكمل »[١] . فيقال لهم هنا : إن كان عيسى عليه السلام – كما تزعمون – لم يأت لينقض الناموس – التوراة – ولا الأنبياء الذين قبله . إنما جاء مكملا ، فماذا تقولون في النصوص التالية لهذا النص – من الإنجيل نفسه – مباشرة ، والتي تدل في جملتها على إلغاء الحدود الموجودة في التوراة ؟! إنه التناقض والتحريف والشرك الذي وقع فيه هؤلاء الضالون . قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا اختلافا كثيرا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

رد الفعل العكسي تجاه مخالفات الكنيسة ورجال الدين

إن كثرة الضلال والإضلال الذي وصلت إليه النصارى في مخالفتهم التوراة ، وابتداعهم في دين الله تعالى ما لم ينزل به سلطانا من التبتل للعوام وللقساوسة بصفة خاصة ، وصكوك الغفران التي جعلت حق الغفران على يد الرهبان والقساوسة ، وإرهاب الكنيسة الذي سيطر على النصارى جميعا ، وكذلك المخالفات الجنسية التي ظهرت بين القساوسة والراهبات بالأديرة النصرانية ، وتبرير فعله ... ، ... ، إلى غير ذلك من المخالفات التي يصعب حصرها ، أدى ذلك

---

(١) النص بأكمله سبق الإشارة إليه في ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

بمجمله إلى رد فعل عكسي من بين النصارى أنفسهم اعتراضا على تلك المخالفات التي لم يعد العقل السليم يبيح لنفسه قبولها والإذعان لها دون معارضة . فظهرت نحلة جديدة في عالم النصرانية في القرن السادس عشر تدعو إلى الإصلاح الديني ، وتعارض بشدة كثيرا من مخالفات رجال الدين خاصة صكوك الغفران ووصفوها بأنها مهزلة . هذه النحلة هي البروتستانتية – أي الاحتجاج – وأشهر دعاتها هم : مارتن لوثر [1] ، وزنجلي [2] ، وكلفن [3] . وقد التف حولهم الكثيرون ممن كانوا في أشد التوق لمن يتكلم عنهم ويعبر عما بداخلهم من حقد تجاه رجال الدين النصراني . فانفجروا جميعا وفرض المذهب نفسه ، وأصبح يدين بهذه النحلة غالبية دول أوروبا وأمريكا .

هذه النحلة – البروتستانتية – لا تختلف عن نحل النصارى الأخرى فيما يتعلق بالتثليث وألوهية المسيح وبنوته وصلبه وفدائه لتكفير خطايا البشر وحسابه العالم . ولكنها تختلف عنهم في أمور فرعية أهمها :

١ – لا تحرم الزواج على رجال الدين كما تحرمه الكاثوليكية على جميع الرهبان والقساوسة بمختلف درجاتهم .

٢ – تنكر بشدة أن يكون لرجال الدين الحق في غفران الذنوب إنما تجعل ذلك الحق لله وحده .

---

(١) مارتن لوثر : (١٤٨٣ – ١٥٤٦ م) راهب ألماني . تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا .
(قاموس المورد – جزء : معجم الأعلام / ص ٥٦ – حرف L) .

(٢) أولريخ زنجلي : (١٤٨٣ – ١٥٣١ م) . مصلح بروتستانتي سويسري ، تأثر بتعاليم لوثر .
(قاموس المورد – جزء : معجم الأعلام / ص ٩٠ – حرف Z) .

(٣) كالفن جون : (١٥٠٩ – ١٥٦٤ م) لاهوتي فرنسي مؤسس المذهب الكالفني . نشر راية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا ثم في سويسرا .
(قاموس المورد – جزء : معجم الأعلام / ص ١٥ – حرف C) .

٣ – تحرم أن تقام الصلاة بلغة غير اللغة المفهومة للمتعبدين ، كما تفعل الكنائس الأخرى إذ تقيمها بلغة ميتة كاللاتينية أو القبطية .

٤ – تعطي الحق لكل نصراني قراءة الكتاب المقدس وتفسيره وليس ذلك محصورا على رجال الدين .

٥ – لا علاقة للعشاء الرباني بجسم المسيح ودمه ، كما تقول المذاهب الأخرى ، إنما هو ذكرى فقط لما حدث للمسيح [١] .

فيتضح لنا أن ثورة البروتستانتية لم تغير شيئا من أصول النصرانية ، إنما كانت ثورة على انحرافات الكنيسة ورجال الدين .

يقول د. أحمد شلبي عن حركة لوثر : « كانت الحركة إصلاحا للكنيسة لا إصلاحا للمسيحية ، والفرق بين الموضوعين كبير . ومعنى هذا أن ما أثار لوثر ومعاصريه هو أفعال الكنيسة في ذلك العهد ، أما البحث في الأشياء الهامة التي دخلت المسيحية الأصلية فلم يكن موضوع إصلاح عند لوثر ومعاصريه » [٢] أ.هـ .

دين النصارى قائم على قاعدة خالف تعرف !

هذا ما نستنتجه من خلال قراءتنا للأناجيل وكتبهم عموما . فما من شيء كانت عليه اليهود ، إلا وقد نقضته النصارى ، وفعلت خلافه بحجة أن اليهود ليسوا على الحق ، وأنهم – أيّ النصارى – على الحق المبين ، وهذا هو دينهم الذي جعلهم يبتعدون عن عبوديتهم الحقة لله عز وجل . قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليس النصارَى على شَيْء وقالت النصارَى ليست اليهود على شَيْء وهم يتلون الكتاب** ﴾ [البقرة : ١١٣] . فأي حق هذا الذي يدعيه هؤلاء الضالون ؟!

---

(١) المراجع التي درسناها في هذه الفترة : (الأسفار المقدسة – لعلي عبد الواحد / ص ١٢٤ – ١٢٦) ، (مقارنة الأديان – المسيحية – لأحمد شلبي / ص ٢٥٩ – ٢٦٠) ، (محاضرات في النصرانية – محمد أبو زهرة / ص ١٨٣ – ١٨٨) .

(٢) مقارنة الأديان – المسيحية – لأحمد شلبي / ص ٢٦١ .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - مبينا تناقض النصارى ومخالفتهم اليهود :
« فرأوا اليهود قد قالوا في المسيح : إنه ساحر مجنون ممخرق ولد زنية ، فقالوا : هو إله تام وهو ابن الله ! ورأوا اليهود يختتنون فتركوا الختان !! ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة !! ورأوهم يتجنبون مؤاكلة الحائض وملامستها ومخالطتها جملة فجامعوها ! ورأوهم يحرمون الخنزير ، فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة ، وقالوا : كل ما شئت ودع ما شئت ولا حرج ، ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة فاستقبلوا هم الشرق ، ورأوهم يحرمون على الإله نسخ شريعة شرعها فجوزوا هم لأساقفتهم وبتاركتهم أن ينسخوا ما شاءوا ويحللوا ما شاءوا ويحرموا ما شاءوا . ورأوهم يحرمون السبت ويحفظونه فحرموا هم الأحد وأحلوا السبت مع إقرارهم بأن المسيح كان يعظم السبت ويحفظه ، ورأوهم ينفرون من الصليب ، فإن في التوراة : « ملعون من تعلق بالصليب » ، والنصارى تقر بهذا ، فعبدوا هم الصليب ، كما أن في التوراة تحريم الخنزير نصا فتعبدوا هم بأكله مع إقرار النصارى بأن عيسى عليه السلام قال لأصحابه : إنما جئتكم لأعمل بالتوراة ووصايا الأنبياء قبلي ، وما جئت ناقضا بل متمما . فذهبت النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكايدة اليهود » [1] .

ونضيف نحن هنا مخالفات أخرى للنصارى فنقول : إن التوراة أباحت الزواج والتعدد فيه ، فحرموا هم الزواج بالكلية وقالوا بأن العزوبة أفضل إلا لضرورة ، ولا يكون إلا بواحدة ، كما وجدوا موسى عليه السلام يبيح الطلاق فحرموه مطلقا ولو بسبب الزنا الواقع من أحد الطرفين ! ووجدوا في شريعة موسى عليه السلام القصاص وحد الرجم وعقاب الجناة فألغت النصارى العقوبات والتعزيرات بالكلية ، واكتفت بتحلل المذنب من ذنبه على يد القساوسة والرهبان ، بصك الغفران مقابل دراهم .

ووجدوا في التوراة النهي عن التصوير وعمل التماثيل باعتبارهما من الشرك ،

---

(١) هداية الحيارى - لابن القيم / ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

فملأت النصارى كنائسهم بالصور والتماثيل لعيسى ومريم والحواريين وسجدوا لها وعبدوها من دون الله تعالى .

ووجدوا أن اليهود تزعم بأن إلههم يغفر لليهود فقط دون غيرهم ، فأعطوا هم لبابواتهم وقساوستهم حق غفران الذنوب لكل من يؤمن بالثالوث (الآب والإبن والروح القدس) .

والأهم من هذا وذلك - أصل عقيدتهم - حيث وجدوا في التوراة - من أولها إلى آخرها بما يسمونه هم العهد القديم - الحديث عن إله واحد ، وإن كانت النصوص المحرفة قد ألصقت به صفات النقص والحوادث بما لا يقوله عابد عاقل في معبوده . إلَّا أن النصوص قد تحدثت عن إله واحد هو إله بني إسرائيل وإله موسى فقط - على زعمهم - فجاءت النصارى وبدلت هذا الأصل في الوحدانية وخالفته واعتقدت بما حير العقول في فهمه وقبوله فقالوا بالآب والإبن والروح القدس - ثلاثة في واحد - وواحد في ثلاثة . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

خلاصة دين النصارى

وخلاصة دين النصارى ، هو مخالفة العقل والشرع والفطرة . يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - : « والمقصود أن هذه الأمة جمعت بين الشرك وعيب الإله وتنقصه وتنقص نبيهم وعيبه ومفارقة دينه بالكلية ، فلم يتمسكوا بشيء مما كان عليه المسيح لا في صلاتهم ولا في صيامهم ولا في أعيادهم ، بل هم في ذلك أتباع كل ناعق مستجيبون لكل ممخرق ومبطل ، أدخلوا في الشريعة ما ليس منها وتركوا ما أتت به » [1] أ.هـ .

ويقول الشيخ صفي الدين المباركفوري : « وأما النصرانية فقد عادت وثنية

---

(١) إغاثة اللهفان - لابن القيم / ص ٢٨٧ .

عسرة الفهم وأوجدت خلطا عجيبا بين الله والإنسان . ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي » [1] أ.هـ .

هذه هي الصورة الكاملة لدين النصارى ، والتي تظهر بوضوح تام بُعدها الكامل عن شريعة الله تعالى وعبوديته الحقة ، وعدم تمييزها ألبتة بين ألوهية الله عز وجل واستعلائه على مخلوقاته ، وبين عبودية العبد وافتقاره لخالقه عز وجل .

قال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السمٰوات يتفطرن منه وتنشق الجبال وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من في السمٰوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ [مريم : ٨٨ - ٩٥] .

* * *

(١) الرحيق المختوم - لصفي الدين المباركفوري / ص ٤٨ .

الفصل الخامس
واقع المسلمين

وفيه

* تمهيد
* المبحث الأول : أسباب الانحراف.
* المبحث الثاني : آثار الانحراف .
* المبحث الثالث : طريق النجاة .

تمهيد

رأينا فيما سبق النظام الكامل ، والاتساق الشامل ، والموكب الموحد ، لعبودية الكائنات كلها لرب العالمين ، والذي يدل مجمله ومفصله على حكمة الصانع ، ووحدانيته من خلال وحدة المخلوقات واتحادها في الغاية التي خلقوا من أجلها ، ألا وهي عبوديتهم وخضوعهم لله تعالى .

كما رأينا شذوذ المخلوق البشري عن هذا الموكب وخروجه على الخضوع التام للإله الحق ، فانقسم إلى فريقين : فريقا هدى ، وفريقا حق عليه الضلالة .

وظهرت لنا الصفحة البيضاء من عبودية المخلوق البشري ، ممن هداهم الله تعالى مبتدء بصفوة البشر منهم وهم الأنبياء ، ثم أتباعهم ثم الذين دونهم .

وها نحن إذ نتكلم في هذا الفصل عن واقع المسلمين اليوم نجد العجب من حالهم بالمقارنة بالقمة في تحقيق العبودية التي وصل إليها سلف الأمة ، كما تظهر من خلال سيرة نبيهم ﷺ وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم - ، وسلفهم الصالح فإنا نجد فرقًا شاسعًا وبونا واسعا . فلاشك أن ما كان عليه أولئك ليس كما عليه هؤلاء ، وهذا مما يؤسف .

ولكننا نتساءل ما الذي أوجد هذه الهوة الشاسعة التي بين المسلمين وبين عبوديتهم لخالقهم ؟ وما أسبابها ؟ وما النتائج التي ترتبت على وجودها ؟

ثم بعد ذلك ما العلاج للخروج من هذه الهوة ؟

هذه الأسئلة المطروحة سابقاً سوف نحاول - بمشيئة الله تعالى - أن نجد لها الأجوبة المناسبة من خلال الصفحات التالية من هذا الفصل ، مع إيراد الأدلة الشافية من الكتاب والسنة وآراء أهل العلم .

ولكني قبل أن أشرع في هذا فإني أريد أن أكتب موقفا قد حدث لي خلال زيارتي لليابان [1] حيث يعطي الصورة الواقعية لما آل إليه المسلمون اليوم من التفريط في دينهم شيئا فشيئا حتى لم يعد فيه سوى أسمائهم الإسلامية . نسأل الله العافية والسلامة إلا ما رحم الله .

والحكاية كالتالي :

دار حديث بيني وبين أحد المسؤولين في المركز الإسلامي بطوكيو ، ويعمل في الوقت نفسه مترجما في شركة يابانية ، عن أحوال المسلمين وما آلو إليه من حالة الذل والهوان الذي لم يكن قط في وقت من العصور السالفة . فأخبرني بحوار دار بينه وبين المدير الياباني بالشركة حول كتيب ترجمه من اللغة اليابانية إلى اللغة العربية وقدمه إلى المدير الياباني – الذي لديه خلفية لا بأس بها باللغة العربية – فإذا به يمزق الكتيب بأكمله في سلة المهملات .

فاستغرب الأخ الفاضل وسأل المدير : ولم هذا ؟!

فقال المدير : إنك لم تكن دقيقا في عملك .

فقال الأخ الفاضل : لقد عملت جاهدًا لإخراج عمل جيد في الترجمة . فأخبرني عن عدم الدقة ؟!

فقال المدير : إنك لم تضع في الكتيب بأكمله النقطتين الخاصتين بالياء الممدودة مثل : (كهربائي) حتى تفرق بينها وبين المقصورة في مثل : (قصوى) .

فقال الأخ الفاضل : ولكن هذا شيء بسيط جدا ولا يذكر .

فقال المدير : نعم .. !! أحب أعرفك . بأننا نحن اليابان بنينا بلدنا في خلال أربعين سنة لأننا بدأنا بما ليس له أهمية بالنسبة للآخرين وبسيط . فالذي يجعلك

---

(١) انتدبت من قبل رابطة العالم الإسلامي في شهر رمضان عام ١٤٠٨ هـ لصلاة التراويح بطوكيو – اليابان .

تفرط في البسيط .. يجعلك تفرط في المتوسط .. ومن ثم في الكبير .. والكبير جدا . أ.هـ .

ثم علق الأخ الفاضل بقوله : وهكذا حال المسلمين . فقد ضيعوا وفرطوا في دينهم بالكلية ، وذلك بتهاونهم في المستحبات والسنن . ثم تدريجيا في الواجبات والفرائض حتى ضيعوا دينهم بالكلية . نسأل الله تعالى العافية والسلامة . ولقد تهاونوا في أمور كثيرة جعلوها من قشور الإسلام ، وليست من صلبه فأدى ذلك إلى التهاون في الأمور الأساسية من الدين فتنازلوا عن الإسلام شيئا فشيئا ابتداء بالمستحبات وانتهاء بالواجبات ، كما تهاونوا في ارتكاب المكروهات فأدى ذلك إلى انتهاك المحرمات والاستهانة بها . فمن الأمور التي استهانوا بها من أوامر الشرع ونواهيه : الثوب القصير ، والسواك ، وإعفاء اللحى ، وحجاب المرأة المسلمة ، وإلقاء السلام فيما بينهم ، وتسوية صفوفهم في الصلاة ، والتصوير الفوتوغرافي ، وشرب المحرمات – ومنها الدخان – ، ثم انتقلوا إلى التفريط فيما هو أعظم من ذلك مثل : الصلاة ، وخاصة صلاة الجماعة في المساجد ، والصيام ، وهربوا من أداء الزكاة المفروضة – إلا من رحم ربك – ، كما تركوا الجهاد في سبيل الله ، وركنوا إلى ملذات الحياة ، كما ملئت بلدانهم بالبنوك الربوية ، وفشا فيهم الغناء ، والرقص والمعازف والقتل والزنا واللواط إلى غير ذلك من الكبائر والفواحش صغيرها وكبيرها ، أضف إلى ذلك ولاءهم لأعدائهم مما أصبح له أكبر الأثر في حالة المسلمين اليوم في اتباع عادات وتقاليد الغرب ، والبلاد الكافرة عمومًا ، وثقافاتهم ، وهو الذي أخبر به النبي ﷺ فقال : « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم » قلنا : يا رسول الله آليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » [1] .

وجاءت في إحدى الروايات .. « وحتى لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم » [2] .

---

(١) بخاري / ك : الأنبياء – ب : ما ذكر عن بني إسرائيل .
مسلم / ك : الفتن – ب : لتتبعن سنن الذين من قبلكم . (ومختصره / ح رقم ٢٠٠٢) .
(٢) الأحاديث الصحيحة / ح رقم – ١٣٤٨ .

إن المتتبع لأحوال المسلمين اليوم ، وما هم عليه ، يجد صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به في الحديث السابق ، وفي الحديث الذي يقول فيه أيضا : « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها ، فأولهن نقضا الحكم ، وآخرهن الصلاة » (١) .

فنحن نرد على هؤلاء الذين يجعلون تلك الأمور من قشور الإسلام (٢) . فنقول لهم : إن تلك الأمور ليست هي الإسلام .. بالتأكيد .. ولكنها من الإسلام ، وكل واحدة منها على حدة قد حث الشارع عليها وحذر وتوعد من تركها ، فما بالك وهي مجتمعة كلها ؟! فكما يقولون : ومعظم النار من مستصغر الشرر . فيجب على المسلمين طاعة الله ورسوله في كل ما أمر به والبعد عن كل ما نهى عنه .

وكل ما أتى به الرسول   فحقه التسليم والقبول

فخذ إليك على سبيل المثال :

(أ) صلاة الجماعة :

فقد جاء التحذير والوعيد الشديد لتاركها من قبل النبي ﷺ حيث يقول : « لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » (٣) . وقال أيضا : « لينتهين رجال عن ترك الجماعة أو لأحرقن بيوتهم » (٤) .

إلى غير ذلك من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة على وجوب صلاة الجماعة ، ولكن ما يزيد المرء حسرة أن يأتي بعض الدعاة ـ

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ٤٩٥١ .

(٢) ووالله الذي لا إله إلا هو . قد عدَّ أحد الدعاة البارزين في هذا العصر كون الإنسان أصله قرد أم لا ، من قشور الإسلام حيث إن مشكلة المسلمين أعظم !

(٣)،(٤) ابن ماجة / ك : الصلاة – ب : التغليظ في التخلف عن الجماعة . (صحيح ابن ماجة / ح رقم ٦٤٦ ، ٦٤٧) .

وقد رأيت بعضهم - يستهين بهذا الواجب فيصلي في بيته ولا يصلي في المسجد الذي يبعد خطوات قليلة من منزله ، ثم يقول : إن مشكلة المسلمين اليوم أكبر وأهم من صلاة الجماعة !! فأي مشكلة للمسلمين أكبر من ترك الصلاة ، وحضور الجماعات ؟! [1] . فأي مشكلة أشد وأكبر من أمر يجعل النبي ﷺ عقاب تاركه التحريق بالنار ؟!

(ب) ثم نأتي لمسألة الثوب القصير :

وكيف حث النبي ﷺ عليه وحذر من إطالة الثوب سواء للخيلاء أو لغيره - ولاشك أن العقوبة أشد للخيلاء - فعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ قال : « ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار » [2] . وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَنْ جر إزاره بطرا » [3] .

ورغم هذا التحذير الشديد من النبي ﷺ إلا أن الكثير من المسلمين يسبلون ثيابهم وملابسهم [4] ، غير عابئين بهذا التحذير . ويا ليت

---

(١) تراجع هذه المسألة في كتاب / صحيح الترغيب والترهيب - للحافظ المنذري . (بتحقيق الشيخ ناصر الألباني / جـ ١ - ص ١٧٢) .

(٢) بخاري / ك : اللباس - ب : ما أسفل الكعبين فهو في النار .

(٣) المصدر السابق - ب : من جر ثوبه من الخيلاء .
مسلم / ك : اللباس والزينة - ب : لا ينظر الله إلى من يجر إزاره بطرا .
(ومختصره / ح رقم ١٣٥٦) .

(٤) تعليق : أما إن كان لضرورة من وجود إصابة بالقدم ويستدعي الأمر تغطيتها فلا بأس فيه ، كما ذكر ذلك ابن حجر في الفتح فقال - رحمه الله تعالى - : « ويستثنى من إسبال الإزار مطلقا ما أسبله لضرورة كمن يكون بكعبيه جرح مثلا ويؤذيه الذباب إن لم يستره بإزاره حيث لا يجد غيره ، واستدل على ذلك بإذنه ﷺ لعبد الرحمن بن عوف - رضي الله تعالى =

الأمر يتوقف إلى هذا الحد فحسب . بل يستهزءون بمن يحرص على تقصير الثوب ويرمونه بما لا يُرمى به العصاة والمجرمون . وإنا لله وإنا إليه راجعون . فإن كان ابن عمر – رضي الله تعالى عنه – وهو أحد الصحابة الأتقياء لم يسكت النبي ﷺ عن إرخاء إزاره بل أمره أن يرفعه . فكيف بمن دون هؤلاء الصحابة الأعلام ؟!! . فقد جاء في الحديث عن ابن عمر – رضي الله تعالى عنه – قال : « مررت برسول الله ﷺ وفي إزاري استرخاء ، فقال : « يا عبد الله ارفع إزارك » فرفعته ، ثم قال : « زده » فزدت ، ما زلت أتحراها بعد . فقال بعض القوم : إلى أين ؟ قال : إلى أنصاف الساقين » [1] .

فأمر ﷺ هذا الصحابي الجليل برفع إزاره [2] وكان في الإمكان أن يأمره بألا يتكبر إن كانت علة النهيْ هي الخيلاء والكبر فقط ، وإنها إذا انتفت فلا بأس في الإسبال . فهل يُظن بابن عمر – وهو الصحابي الزاهد الورع – سوء ، فنقول إنه متكبر ؟ كلا وحاشا ! بل بادر – رضي الله تعالى عنه – إلى الاستجابة ، فهل من مستجيب اليوم من المسلمين ؟! .

= عنه – في لبس القميص الحرير من أجل الحكة ، والجامع بينهما جواز تعاطي ما نُهي عنه من أجل الضرورة ، ويُستثنى من الوعيد أيضا في ذلك النساء » أ.هـ (فتح الباري / جـ ١٠ – ص ٢٥٧) . أما الإسبال في عصرنا . فهو ليس من وجود جروح في أقدام المسلمين .. ولكنهم مبتلون بجروح في عقولهم وقلوبهم !!

(١) مسلم / ك : اللباس والزينة – ب : في رفع الإزار إلى أنصاف الساقين .
(ومختصره / ح ١٣٥٨) .

(٢) يراجع : تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني في مقدمة كتاب :
« مختصر الشمائل المحمدية » / ص ١٠ .

(جـ) وأما عن عدم تسوية صفوف المسلمين في الصلاة :

فهي مما عمت به البلوى بين المسلمين في جميع أقطارهم - إلا ما رحم الله تعالى - والتفريط في هذا الجانب من الذين يأمون الناس في الصلاة فضلا عن المأمومين فيكتفي الواحد منهم بقول : استووا .. اعتدلوا ، ولا شأن له بما يحدث في الصفوف ، حتى الأول منها الذي يليه مباشرة ، والسبب في ذلك هو أنه قد فشا بينهم أن تسوية الصفوف وغيرها من هوامش الإسلام وليست هي الصلب الذي يهتم بها .

ولكن لنتساءل كيف كان اهتمام رسول الله ﷺ بتسوية الصفوف في الصلاة ؟!

لقد كان ﷺ أشد الناس حرصًا على تسوية الصفوف في الصلاة خوفا على أمته من الشقاق ، واختلاف قلوب أصحابه ، وخوفا عليهم من وخذ الشياطين في التحريش فيما بينهم .

فعن النعمان بن بشير [(١)] - رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم » [(٢)] .
وعن ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله » [(٣)] .

وبيّن عليه الصلاة والسلام أن السبب في سد الخلل وعدم ترك فرجة بين الصفوف هو منع اختراق الشياطين خلال هذه الفرجات . فعن

---

(١) هو : النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي ، له ولأبويه صحبة ، سكن الشام ، ثم ولي إمرة الكوفة ، ثم قتل بحمص سنة ٦٥ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ - ص ٣٠٣) .
(٢) بخاري / ك : أذان - ب : تسوية الصفوف عند الإقامة .
(٣) أبو داود / ك : الصلاة - ب : تفريع أبواب الصفوف .

أنس بن مالك – رضي الله تعالى عنه – أن النبي ﷺ قال : « رصوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا الأعناق ، فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف »[(١)] .

وكان الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – ينكرون على من بعدهم تفريطهم في أمر تسوية الصفوف . فعن أنس بن مالك – رضي الله تعالى عنه – أنه قدم المدينة فقيل له : ما أنكرت منا منذ يوم عهدت رسول الله ﷺ ؟ قال : ما أنكرت شيئا إلا أنكم لا تقيمون الصفوف »[(٢)] . وعن أبي مسعود[(٣)] – رضي الله تعالى عنه – قال : « كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافا »[(٤)] .

فعجبا لهؤلاء المفرطين في دين الله تعالى . أي أمر ، وأي مشكلة للمسلمين أهم من أمر تسوية الصفوف الذي بتركه يكونون في اختلاف وفرقة وتشتت فيما بينهم . لا أقول إنه السبب الوحيد في تفرقهم واختلافهم ولكنه أحد تلك الأسباب . فإذا كان اختلاف القلوب الذي أنكره أبو مسعود – رضي الله تعالى عنه – وأثبته لهؤلاء التابعين فيما بينهم بسبب تركهم تسوية الصفوف في الصلاة . فما بالنا نحن ومدى اختلاف القلوب الواقع بيننا في عصرنا هذا ؟!!

---

(١) أبو داود / ك : الصلاة – ب : تفريع أبواب الصفوف .

(٢) بخاري / ك : أذان – ب : إثم من لم يتم الصفوف .

(٣) هو : عقبة بن عمرو أبو ثعلبة الأنصاري ، أبو مسعود البدري ، صحابي جليل مات قبل الأربعين . (تقريب التهذيب / مجلد ٢ – ص ٢٧) .

(٤) مسلم / ك : الصلاة – ب : تسوية الصفوف . (مختصره ح ٢٦٧) .

فقد بلغ من حرص النبي ﷺ بهذا الأمر الذي يعتبره كثير من المسلمين من هوامش الإسلام أن كان يسوي صفوف المسلمين بيده ، ولا يكبر إلا إذا استوت الصفوف ، ويقول : « سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة » [١] .

(د) ومما ابتلى به المسلمون في عصرنا الحديث وعمت به البلوى من علماء وعامة وشباب وشيبان هو حلق اللحى مخالفين بذلك أمر النبي ﷺ بقوله : « أنهكوا الشوارب وأعفوا اللحى » [٢] .

وسواء أكان هذا الأمر للوجوب أو للاستحباب - كما يدعي البعض - فإن النبي ﷺ طلبه منا ، وقد فعله ، وكانت له لحية بها شعيرات بيض [٣] ، فواجب علينا التأسي به كما أمرنا ربنا جل وعلا فقال : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، فما بالنا إن حذرنا ﷺ من مشابهة الكفار وأمرنا بمخالفتهم . فقال عليه الصلاة والسلام : « خالفوا المشركين ووفروا اللحى وأحفوا الشوارب » [٤] ، وكان الإمام مالك - رحمه الله تعالى - يرى بأن من يحلق شاربه - دون لحيته - يوجع ضربا ، ويقول : هذه بدعة ظهرت في الناس [٥] . فإن كان هذا الحكم من الإمام مالك - رحمه الله تعالى - فيمن حلق الشارب فقط . فماذا يكون حكمه - رحمه الله تعالى - فيمن يحلق اللحية مدعيا أن الإعفاء سنة لا يؤاخذ من خالفها ؟!

---

(١) أبو داود / ك : الصلاة - ب : تفريع أبواب الصفوف .
(٢) بخاري / ك : اللباس - ب : إعفاء اللحى .
(٣) مختصر الشمائل المحمدية / باب : ما جاء في شيب رسول الله ﷺ - ص ٣٥ .
مسلم / ك : الحيض - ب : أحفوا الشوارب واعفوا اللحى . (مختصره ح رقم ١٨٤) .
(٤) بخاري / ك : اللباس - ب : تقليم الأظافر .
مسلم / ك : الحيض - ب : أحفوا الشوارب واعفوا اللحى . (مختصره ح رقم ١٨٤) .
(٥) فتح الباري / جـ ١٠ - ص ٣٤٧ .

هذا وقد ذكرها ابن تيمية – رحمه الله تعالى – من جملة المخالفات التي يجب على المسلمين مخالفة المشركين فيها في كتابه القيم « اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم » فقال بعد أن ذكر الأحاديث الموجبة لإعفاء اللحى : « .. وذلك دليل على أن مخالفة المجوس أمر مقصود للشارع ، وهو العلة في هذا الحكم ، أو علة أخرى ، أو بعض علة ، وإن كان الأظهر عند الإطلاق : أنه علة تامة . ولهذا لما فهم السلف كراهة التشبه بالمجوس – في هذا وغيره – كرهوا أشياء غير منصوصة بعينها عن النبي ﷺ من هدي المجوس » [1] أ.هـ .

هذا عن حلق اللحية . فما بالنا اليوم بمن يحلق لحيته وشاربه ، ويتشبه باليهود والنصارى والمجوس والمشركين عامة . وهو من عداد المسلمين ؟! نسأل الله العافية والسلامة .

تلكم بعض الأمور التي يعتبرها كثير من المسلمين اليوم قشورا ، وكيف أثرت في المسلمين بتركهم إياها . هذا بخلاف العديد من تعليمات ومباديء الإسلام التي فرط فيها أغلبية المسلمين . ولكنا أردنا التدليل على أحوال المسلمين اليوم في بعدهم عن العبودية الحقة . فالإسلام يعيش في غربة أشد من الغربة الأولى التي بدأ بها وأخبر عنها عليه الصلاة والسلام فقال : « إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » [2] .

* * *

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم – لابن تيمية / ص ١٧٨ . تعليق : مخالفة المجوس ليست علة تامة ، لأنها من خصال الفطرة . وراجع في هذا تفسير ابن كثير / جـ ١ – ص ١٦٥ في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

(٢) مسلم / ك : الإيمان – ب : بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ (ومختصره / ح رقم ٧٢) .

المبحث الأول
أسباب الانحراف

إن الانحراف الواقع في حياة المسلمين حتى يومنا هذا - بصفة خاصة - لم يحدث في خلال يوم أو بين عشية وضحاها . إنما هو تتابع سلسلة من الأحداث والأسباب التي أثرت تدريجيا في المسلمين وفي أعز ما يملكون وهو دينهم ، فدفعت أهله وأذابتهم في وحل الكفار ، فامتزجوا بعناصر غريبة حتى أصبحوا في قالب يصعب تميزه بالكلية ، كما يصعب استخلاص عنصره ومعدنه الأصلي . كما نلحظ أن الانحراف الذي حدث في الأمة الإسلامية على مر عصور التاريخ منذ بدايته ، كان يزحف بخطى قصيرة وقليلة وبكمية ضئيلة ، ومع تتالي السنوات والقرون زادت خطوات انحراف المسلمين بخطى متباعدة وبكميات هائلة وبسرعة فائقة .

بادرة الانحراف

تعتبر حادثة مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - بتمرد تلك الفئة الباغية وتطاولها عليه وإقدامها على قتله هي نقطة بداية الانحرافات في حياة الأمة الإسلامية . ولعلي أستدرك فأقول : إن ما حدث في بداية خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - من أمر مانعي الزكاة وهم المرتدون كان بادئة انحراف إلا أنه قد تصدى لها أبو بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - وقطع جذورها وأبادهم واستأصل شوكتهم .

أما ما حدث عند مقتل عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - فإنه يمثل انحرافا ظلت آثاره - وما زالت إلى الآن - في حياة الأمة الإسلامية ، وكذلك من بعد تولي الخلافة علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - ثم مقتله وظهور

الفرق الثلاث الكبرى ، وهي الخوارج والشيعة والمرجئة ، هذه الانحرافات لم تبتر جذورها كالمرتدين ، وإن أصيبت بضربات ، ولكنها بقيت وانتشرت وما زالت إلى وقتنا الحالي . وقد أثرت هذه الانحرافات في كثير من تصورات الإسلام . ثم جاء العهد الأموي فازدادت فيه الانحرافات على يد كثير من الحكام وبطانات السوء ، ولما أتى العهد العباس ازدادوا فيه من الترف وملذات الحياة والجري وراء الشهوات ، هذا مع اتساع الرقعة الإسلامية مما جعلهم يكنزون الأموال ويبذرونها في غير ما وضعت له شرعا ، كما كان بعضهم لا يعدلون في كثير من الأحكام . هذا مع وجود انحرافات الفرق التي ذكرناها آنفا والمنتشرة في أماكن مختلفة من بلاد المسلمين وكادت هذه الفتن أن تشوه مباديء العقيدة الإسلامية ، إلا أنه قد قيض للأمة من يذب عن العقيدة ومبادئها من سلف الأمة بالسنان واللسان والقلم فبقيت محتفظة بصفائها وقوتها إلا أنها قد تسرب إليها بعض المعتقدات الفاسدة والبدع والتصورات الباطلة .

ترجمة العلوم اليونانية

أضف إلى ذلك حدثا من أهم الأحداث الخطيرة التي أثرت بصورة مباشرة في العقيدة الإسلامية وأخرجتها من سهولتها ونقاوتها إلى متاهات وقوالب فلسفية في التجرؤ على الله تعالى والتقول عليه سبحانه . وهو ما حدث في العصر العباس من ترجمة العلوم اليونانية وبصفة خاصة علم المنطق . وظهور علم الكلام الذي ساهم في تقوية الفكر الاعتزالي وإثرائه فظهرت بقوة فرقة المعتزلة التي قدمت العقل عن النص فأبقت من النصوص الشرعية ما وافق عقلها وألغت ما يعارضه ، فأفسدت في دين الله تعالى كثيرا خاصة في العقيدة الإسلامية ، وأثرت في الفكر الإسلامي عمومًا – إلى وقتنا هذا – تأثيرا سيئا للغاية .

الصـــوفيـــة

كانت الصوفية عند ظهورها سلوكا محمودًا يتقرب أصحابها إلى الله عز وجل بالطاعات والنوافل كما أنهم عزفوا عن الحياة وملذاتها وزهدوا فيها مع قدرتهم على العيش الرغيد إلا أنهم آثروا ما عند الله عز وجل من النعيم المقيم على اللذة العاجلة واتبعوا فعل النبي ﷺ وزهده في نعومة العيش ولذة المأكل والمشرب . وكذا فعل الصحابة والتابعين . وهؤلاء القوم من الصوفية يذكر عنهم الشيخ ابن تيمية – رحمه الله تعالى – بأنهم قوم مجتهدون في طاعة الله ، وفيهم السابق المقرب ، وفيهم المقتصد الذي قد يجتهد فيخطيء ، ثم يبين الشيخ أن من الناس من انتسب إلى هذا الصنف من الصوفية بالذات وهو عند التحقيق ليس منهم [1] ، ثم يذكر الشيخ – رحمه الله تعالى – عن طائفة منهم اقتصروا على اللباس والآداب الوضعية والسلوكيات فيظن الجاهل من أمرهم أنهم من أهل الصنف الأول ، وهم ليسوا كذلك [2] ، فاعتبرهم من أتباع وأذناب الصوفية . أما الصنف الأول وهم أهل عبادة وزهد قد أعطوا للتصوف صورة حسنة لدى العامة ، بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – يعترف بأن في الصوفية من يستحق الاحترام والتكريم والإشادة بما أوتوا من علم وعمل وحكم عالية ومواعظ مؤثرة . إلا أنه قد وجدت في الصوفية طائفة جمعوا بين الزهد والفلسفة والمذاهب اليونانية والهندية القديمة وصاغوها بعبارات صوفية فخرجوا بالتصوف من صورته المحمودة إلى مزالق الكفر والإلحاد كابن عربي [3] وغيره من الغلاة المارقين الذين قالوا

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية / جـ ١١ – ص ١٨ . وراجع فيه أقسام الصوفية .

(٢) المصدر نفسه / ص ٢١ .

(٣) ابن عربي : هو أبو بكر بن علي الملقب بمحيي الدين بن عربي الحاتمي ، من أردأ تواليفه كتاب « الفصوص » ، توفي سنة ٦٣٨ هـ . (سير أعلام النبلاء / جـ ٢٣ – ص ٤٨) .

أقوالا تخرج عن الملة منها : وحدة الوجود [1] والحلول والاتحاد [2] ، وأن ما عبده قوم نوح من الأصنام ، وما عبده بنو إسرائيل من العجل حق مبين ، وما عبدوا إلا الله الذي تصوروه فيما صوروه . وأن فرعون اللعين كان حين قال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ محقا حيث إن الله حل فيه - كما افتروا - وقد كانت جملة هذه الترهات - وغيرها - في حياة هؤلاء الغلاة الذين خرجوا من العبودية باسم العبودية وانحراف الناس عن العبودية بعد نشأة هؤلاء المتصوفة ، وانتشرت أفكارهم في العصور التالية لهم بشكل أوسع وبضلال أشد وفساد أعمق ، فقضت تماما على الصورة المحمودة والسمعة الطيبة للأوائل من الصوفية . فبُنيت القبور والقباب ، وانتشرت البدع والخرافات من الحلول والاتحاد والعلم اللدني والوصول إلى الحقيقة الكونية التي تسقط معها التكاليف الشرعية ، وألوهية العبد ، والتمائم والتعويذات و... إلخ .

وما إلى ذلك من الخرافات التي لا أول لها ولا آخر ، والتي برمتها نعيش بين ظهرانيها وبين الضالين الداعين إليها في كثير من البلدان الإسلامية . وأصبحت

---

(١) وحدة الوجود .. وهي أن وجود المخلوقات هو وجود الحق .

(عند ابن عربي - راجع : مجموعة الرسائل - لابن تيمية / جـ ١ - ص ١٧٢) .

أو : هي أن الله هو الوجود المطلق والمعين وعليه فإن وجود الله لا وجود له إلا الوجود القائم بالمخلوقات .

(عند الصدر القونوي - راجع : مجموعة الرسائل / لابن تيمية / جـ ١ - ص ٧٧) .

(٢) والحلول : وهو اعتقاد حلول الخالق بالمخلوقات . والاتحاد : هو اتحاد بين الخالق والمخلوقات . وهو كما يزعم بعض الصوفية أن الواحد منهم قد يصل إلى مرحلة ينكشف له فيها أن الحق هو الخلق والخلق هو الحق ولا فرق بينهما ، بل لا اثنينية ، فالكثرة متوهمة والحقيقة واحدة . وقد قال بعضهم إن الذات الإلهية تحل أو تتحد ببدن الإنسان أو روحه حينا وتفارقه حينا آخر .

(راجع : موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية - د. أحمد البناني / ص ١٧١) .

الصوفية بصورتها الحالية تساوي الشرك بالله عز وجل ، حيث جعلوا الخالق في جميع المخلوقات فلم يفرقوا بين ألوهية الله تعالى التي ينبغي أن تكون له ، وبين عبودية العبد تجاه خالقه ، فضاعت فيهم العبودية الحقة التي دعا الله تعالى ورسله إليها .

وأصبحت الصوفية هي السمة البارزة في العهد العثماني كذلك وهي الطريقة المثلى والصورة الواقعية للإسلام . فضاع فيهم الدين الصحيح واقتصر فهمه ومضمونه على الشعائر التعبدية من الصلاة والزكاة والصوم والحج . وإهمال بقية أحكام الدين من الجهاد والحدود والتعزيرات والحكم بما أنزل الله عز وجل . وركن الناس إلى التصوف حيث التواكل والبعد عن عبودية الله تعالى الحقة . وسلوكيا فقد أصبح الناس لا شأن لهم بأمور سياسة الدولة وترك أغلبهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم واكتفوا بالشعائر التعبدية ، وأصبح مفهوم الدين عند العامة هو المشايخ والأضرحة والتوسل وكرامات الأولياء والمسبحة والبدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ومردودة على أصحابها . فانعزل الدين عن الدولة في نفوس كثير من العوام حتى جاءت الغزوات الصليبية الأخيرة بكل ثقلها للقضاء على الإسلام وأهله ، فضاعت الخلافة العثمانية وقضي على الإسلام وانفصل الدين عن الدولة بالفعل بكل صراحة وبكل جرأة على يد كثير من المسلمين ..! فضلا عن أعداء الإسلام من الكفار .

وقد كان المسلمون جميعا مع وجود الانحرافات التي لا تعد ولا تحصى قبل سقوط الخلافة متحدين في كلمتهم وتحت زعامة قائد عام ؛ وشريعة الله تعالى والحكم الذي أنزله هو المهيمن على البلاد عموما . وكان أعداء الإسلام لا يجرأون على رفع أعينهم أمام تلك القوة على الرغم مما أصابها من الفساد والانحرافات ، إذ أنهم موقنون تماما بأن إشارة من إمام المسلمين وقائدهم الأعلى بالتحرك للجهاد كافية بأن يسارعوا إلى الاستجابة والتلبية فينظر أعداء الإسلام إلى الأمة الإسلامية بمجموعها باعتبارها حامية الإسلام والمسلمين . وقد نقل الأستاذ محمد قطب شيئا

يصدق ذلك عن أحد المنصرين قوله : إن أوربا تفزع من « الرجل المريض » [(١)] لأن وراءه ثلاث مائة مليون من البشر ، مستعدين للجهاد بإشارة من إصبعه [(٢)] .

إن الأسباب التي أدت بانحراف المسلمين لم تكن قاصرة على مجال دون الآخر ، إذ لا يُعرف في الإسلام التجزئة والتفرقة بين أركانه وأسسه ، فالإسلام يشمل عبادة الله تعالى وحده وإفراده تعالى بالعبادة كما يشمل التحاكم إلى ما أنزله في شئون الحياة كلها في جميع المجالات الدينية والدنيوية والولاء للحكومة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله تعالى . لذا فإننا نجمل أسباب انحراف المسلمين في بعدهم عن دينهم ، ولكننا نجد أن انحراف المسلمين في تحقيق العبودية لخالقهم أكبر من بقية المجالات الأخرى . وصار حال المسلمين اليوم كما قال ربنا : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

الانحراف في المجال السياسي

لعل أول ما بدأ الانحراف في هذا المجال هو انتقال الخلافة من نهجها الإسلامي من اختيار الإمام الذي تتوافر فيه شروط الخلافة ، إلى الملك الوراثي . فتوارث بنو أمية وكذلك العباسيون وكذلك العثمانيون الحكم فيما بينهم . فهذه أول مخالفة شرعية كانت على يد الحكام ، ومع توالي السنوات أصبحت أمرًا واقعًا لم يبد اعتراض عليه منذ بدايته ، أو وُجد ولكنه تحت القوة والسلطان أُرغم الناس على قبوله حتى أصبح تدريجيا يحل محل الأصل وهو الخلافة الراشدة إن لم يكن هو الأصل .

هذه المخالفة لم تكن وحدها أساسا للانحراف . ولكننا نلتمس لهؤلاء الحكام العذر فنقول إنهم اجتهدوا في هذا فأخطأوا [(٣)] . وأيا كان الأمر فحكم الله

---

(١) يقصد به السلطان عبد الحميد ، آخر خليفة للمسلمين في الدولة العثمانية .

(٢) راجع : واقعنا المعاصر – محمد قطب / ص ٣٨٥ .

(٣) راجع : واقعنا المعاصر – الأستاذ محمد قطب / ص ١١٨ – ١٢١ .

عز وجل هو الغالب على الدولة و لم يجرؤ أحد من الحكام - على مر السنين كلها حتى مع نهاية الخلافة العثمانية - أن يغيّر أو يبدل حكما في كتاب الله تعالى ، أو في سنة نبيه عليه الصلاة والسلام أو أن يحكم بأحكام غير شريعة الله تعالى . ولكنهم وقعوا في مفاسد خلقية ومخالفات شرعية كثيرة وقعت في قصور بعض الخلفاء والأمراء والوزراء حيث كثر فيها شرب الخمر والمجون والجواري والمغنيات والراقصات والشعراء المنافقون فانشغل الحكام والوزراء بهذه المفاتن وتركت أمور الدولة وضعفت فكان عقاب الله تعالى لها - حيث يمهل سبحانه وتعالى ولا يهمل - بين الحين والحين بتسليط الأعداء عليهم حتى يفيقوا من غفلتهم ويسترجعوا مجدهم ، ولكنهم انحدروا ثانية في الموبقات . وهكذا ومع الأيام استبدلت بعض الأحكام الشرعية بأحكام وضعية ، حتى تساوت الأحكام الشرعية مع الأحكام الوضعية الكافرة ثم غلبت بعد ذلك الأحكام الوضعية حتى نحيت شريعة الله تعالى بالفعل ، وتحاكم المسلمون فيما بينهم إلى القوانين والأحكام الكافرة وإلى شريعة غيرهم من الكفار ، وهم - مع انتشار الفكر الإرجائي فيما بينهم - غافلون عما يدور حولهم ولا يعبأون بما حدث في أس دينهم من تنحية شريعة الله تعالى بل رضوا بالأحكام الكافرة حيث غُرس في حسهم على يد أعدائهم وعلماء السوم منهم أنهم مع هذا مسلمون كاملو الإيمان ولا يضرهم التحاكم إلى غير ما أنزل الله تعالى كما سنرى بعد قليل في الكلام عن علماء السوء .

كما كان لبطش الحكام بالمصلحين ودعاة الحق ، أثر في تقلص مهمة العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاكتفى كثير منهم بالإنكار القلبي الذي هو أضعف الإيمان الذي أخبر عنه ﷺ بقوله : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » [1] .

هذا بالإضافة إلى الاختلاط بالأجناس الكافرة والوثنية وموالاتهم والاستعانة

---

(١) مسلم / ك : الإيمان - ب : من الإيمان تغيير المنكر باليد واللسان والقلب .
(مختصره / ح رقم ٣٤) .

بهم في شئون الحكم والإدارة . فكانت هذه الفئة الكافرة تظهر العون والمساعدة للخلفاء وإبداء النصح لهم ، وهم في الوقت نفسه يكنون كل بغض وحقد ليس على أشخاص الحكام ولكن الحقد على الإسلام المتمثل في هؤلاء الحكام حتى قويت شوكتهم فأفسدوا الحكام والدين بأكمله . فكانت من أسوأ المخالفات التي وقع فيها الحكام وهي الاستعانة ببطانة الكفر التي حذرنا الله جل وعلا منها فقال عز من قائل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ [آل عمران : ١١٨] . وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضكم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ [المائدة : ٥١] . وقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوِّى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ [الممتحنة : ١] .

هذه المفاسد والانحرافات كانت محفوفة بخلافة المسلمين العامة وكلمتهم واحدة ، وأما حين سقطت الخلافة ، وانقسمت الأمة الإسلامية إلى دويلات مستقلة في الحكم والعرق واللون واللهجة واللغة أصبح أمر حكام المسلمين – الذين يحملون أسماء إسلامية – في شر مستطير ، وبُعْد عن دين الله تعالى بالكلية ومحاربة له ، والعداء والتنكيل بأهله وبمن يدعون إليه ، وإحلال الأحكام الوضعية والأفكار الإلحادية فقست قلوب الحكام ومُلئت حقدا على الإسلام وأهله وأنهكوا قواهم في تدمير وتحطيم الإسلام وأهله بتحريك من أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والملحدين واجتمع هؤلاء الحكام جميعا – إلى الآن – على هدم الإسلام والمسلمين ، ولكنهم تفرقوا واختلفوا في الطرق الموصلة لهدف اجتماعهم ، وأصبحت أحكام الدول الكافرة هي التي تعلو البلاد الإسلامية ومالوا بقلوبهم وعقولهم وأجسادهم إلى الكفار وليس الاستعانة بهم فقط ، بل بحبهم وإطاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه فأصبحوا ألعوبة في أيدي أعدائهم وأدوا الدور الذي وُكِل إليهم من قبل أعدائهم في القضاء على الإسلام وأهله وإبعادهم عن العبودية

الحقة مستخدمين أخبث الوسائل والمخططات في ذلك منها : [1] :

(١) دور بعض الاتجاهات الأدبية والفكرية والإعلامية :

ويشمل الإعلام : الإذاعة والتلفاز والصحف والمجلات . وغيره من المخترعات الحديثة والتي بجملتها في يد الحكام المفسدين في الأرض ، فيستخدمونها كيف شاءوا وحيث أرادوا . فنراهم يرفعون كل وضيع ، ويحقرون كل جليل ، ويجعلون الحق باطلا والباطل حقا ويزينون للناس المنكر والخبيث ، ويتطاولوا على دين الله تعالى ورسوله وأتباعه بالسخرية والتهكم والاستهزاء ، ابتداء بالتلميح وباللمز والهمز وانتهاء بالتصريح الفاضح في السخرية بالله عز وجل والنيل من أنبيائه [2] - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وعاقبهم بما يستحقونه - كل هذا بحجة حرية الفكر وحرية الصحافة وحرية الأدب . وتعمل الحكومات - إلا من رحم الله تعالى - في دفع المسلمين إلى ترك دينهم رويدا رويدا كما تبث روح الوطنية والقومية فيهم بدعوى الجاهلية وخروج المرأة من بيتها وابتذالها وخلع حجابها والقضاء

---

(١) سوف أسرد أهم تلك الوسائل الخبيثة بشيء من الإختصار وما آلت إليه بشيء من الإيجاز ، فالكلام عنها منفردة ودورها في الإفساد وانحراف المسلمين يحتاج إلى رسالة كاملة .

(٢) كما فعل طه حسين بتجرأه على القرآن بالطعن فيه في كتابه : « الشعر الجاهلي » فيقول فيه : « للتوراة والإنجيل أن يحدثانا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما كذلك ، ولكن هذا وذاك لا يثبت لهما وجودا تاريخيا ! » (نقلا عن كتاب واقعنا المعاصر / ص ٢٧٩) .

ويقول محمد محمد حسين عن هذا الكتاب وغيره : « وظهرت كتب هزت المجتمع بجرأتها عليه ، مثل كتاب : « الشعر الجاهلي » لطه حسين الذي استفز مشاعر المسلمين حتى طالبوا بفصل مؤلفه من الجامعة ومحاكمته ثم وقف الأمر عند الاكتفاء بمصادرة الكتاب وجمع نسخه من الأسواق » (أزمة العصر - محمد محمد حسين / ص ١١٨) وكما حدث على يد نجيب محفوظ في روايته « أولاد حارتنا » التي فيها استهزاء صريح بالله عز وجل وبملائكته ورسله . وكما حدث على يد الفاجر سليمان رشدي في كتابه : « نصوص شيطانية » وفيه استهزاء وسب صريح للأنبياء وبخاصة سيدنا محمد ﷺ والتقليل من شأنه . وغيرهم كثير ممن تطاول على الله عز وجل ورسله والإسلام ، ومن العجب أن يُكافأ هؤلاء المجرمون المستهزءون على إجرامهم بجوائز ، فيُمنح الأول لقب « عميد الأدب العربي » ويمنح الثاني جائزة نوبل للآداب ، وذلك لسوء أدبه مع الله عز وجل ، كما تدافع انجلترا ودول العالم الكافرة عن الثالث وتحميه من أي سوء أو تهديد يمسه !! وحسبنا الله ونعم الوكيل .

على حيائها والرضا بالحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، والاستهزاء بالدين والداعين إليه والسخرية من علماء الدين والشكوى من صعوبة اللغة العربية التي هي لغة القرآن - حتى ينصرف المسلمون عن كتاب ربهم - والمساواة بين الرجل والمرأة ، وتحديد النسل وعدم تعدد الزوجات ، وعدم الطلاق ، وعمل المرأة ، والالتزام بالشعائر التعبدية ، وفصل الدين عن السياسة ، وصرف الناس عن تعلم العلوم الشرعية وإيهامهم أن تخلف المسلمين اليوم هو ناتج عن دينهم ولابد من التخلي عنه والتبرأ منه ، وإظهار تقدم الغرب التكنولوجي في المجالات العلمية المختلفة والاختراعات الحديثة التي تملأ الآفاق ، ... إلخ .

وتقوم الحكومات ببث كل تلك السموم - السابقة - وغيرها كثير بكل دقة وعناية وتنظيم دقيق - والمسلمون في غاية الغفلة - وذلك عن طريق وسائل الإعلام [1] المختلفة والأدب والفكر [2] . من خلال برمجة تلك السموم في قوالب مختلفة مثل تمثيلية فكاهية أو درامية ، أو فيلم سينمائي ، أو مسرحية هزلية ، أو مقالة أدبية أو قصيدة نثرية أو مقطوعة شعرية أو مجلة نسائية . وتنتشر هذه السموم بين جميع الفئات بسرعة البرق ، وذلك بسيطرة الحكومات على أجهزة الإعلام المختلفة ويضحكون على العامة والمثقفين بأن بلادهم بلد الحريات ويعنون بها حرية الصحافة في سب الذات الإلهية والنيل من الأنبياء ، وحرية الفكر في سب الإسلام وأهله - وحرية الجنس ، وحرية علاقات الجنسين - البريئة طبعا !! وحرية التعليم ، وحرية المرأة وحرية الغناء والرقص ، وحرية الإلحاد ، وحرية .. إلخ .

أما حرية التدين بالدين الإسلامي الحنيف ، وحرية الدعوة إليه ، فهذه الحرية مقيدة !! دون غيرها من الحريات . ومحاربة ومجمع على إبادتها وسحقها ، ومَنْ يدعو إليها وإن اختلف الطرق بين الحكام ، كما أسلفنا .

إننا نلحظ في الآونة الأخيرة - وهو ما يهمنا في الوقت الحاضر - تحالف

---

(١) راجع بالتفصيل : واقعنا المعاصر - محمد قطب / ص ٢٣٥ - ٢٥٠ .
(٢) راجع : المصدر السابق - ص ٢٩٥ - ٣٠٢ .
كتاب / الحداثة في ميزان الإسلام - عوض بن محمد القرني .

وسائل الإعلام - سواء المقروءة أو المسموعة أو المرئية - على هدم الإسلام والمسلمين ، حتى استطاعوا أن ينفذوا خلال فطرة الأطفال قبل الكبار لمحو الفطرة التي فطروا عليها ، وهي الإسلام التي أخبر عنها ﷺ في الحديث فقال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » [1] ، فبدلوا هذه الفطرة وغيروها بعقائد وثنية وفلسفية لينشأ الأطفال عليها منذ الصغر . وقد وُضعت في قوالب ظاهرها التسلية والفكاهة والتعليم ولكنها تحمل في باطنها كل خبيث يدمر أطفال المسلمين ، وقَل ما ينتبه أحد لتلك المخططات التي يعرضها أعداء الإسلام للقضاء على الإسلام وأهله ، وأنا أعني بصفة خاصة في الصفحات التالية الإعلام في برامج الأطفال ، فإذا اتضحت لنا الصورة في برامج الأطفال سوف يتضح لنا المعالم كاملة في البرامج كلها بصفة عامة [2] .

إن المتتبع لبرامج الأطفال المقدمة من خلال الإذاعة والتلفاز والمجلات ليجد العجب في خرق العقيدة الإسلامية ودس الوثنية والإباحية والإلحاد بين الأطفال منذ الصغر .

أولا : الإذاعــة :

وفيها محاولة وضع تمثيليات وقصص في الأغلب أنها مترجمة ، يُحَاول فيها نشر الأفكار المخالفة لعقيدة الإسلام عن طريق غير مباشر حتى تصل الأفكار في أذهان وقلوب الأطفال ولا يعترض على القائمين أحد . فينشرون التفسير بالتطور ، ونسبة الفعل للطبيعة ، وتفسير الأحداث البشرية بالحظ والصدفة ، وهذا يلغي الإيمان بقدرة الله عز وجل وقضائه وقدره . وهذا من أصول الإيمان التي يجب الإيمان بها .

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ٤٤٣٥ ، ٤٤٣٦ .

(٢) استفدت في هذا الموضوع من بحث قيم للدكتور فاروق الدسوقي في سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، قدم لمكتب التربية العربي لدول الخليج ، مع أبحاث قيمة أخرى في ندوة كان عنوانها : « ماذا يريد التربويون من الإعلاميين » ؟ / الجزء الأول - الرياض - المملكة العربية السعودية .

ثانيا : التفلزيون :

وهو أكثر خطرا وأشد فسادا من الإذاعة حيث تجتمع فيه حواس السمع والبصر ومن خلال الإثارة بالحركات والصور التي هي أشد خطرا في التأثير على حركات الأولاد في حياتهم اليومية . فتعرض فيه قصص مصورة وألعاب مسلية ، ومسابقات وفوازير ، يغلب عليها طابع القيم والأهداف القومية والانتماء العرقي . وهو مخالف بجملته شريعة الإسلام . والبرامج المقدمة في الدول العربية نلحظ خلوها تقريبا من الأهداف التربوية الإسلامية فهي لا ترمي إلا إلى التسلية والفكاهة كألف ليلة وليلة ، وحكايات السحر ، وحكايات الشاطر حسن ، حتى برنامج « افتح يا سمسم » وهو أمريكي الأصل تغلب عليه الأهداف التعليمية بينما تندر أو تنعدم إبراز الأهداف الإسلامية السامية . وفي بعض هذه البرامج تبرز أهداف وقيم بعيدة عن الإسلام وإن كانت تسمى قيما مثل : حب العمل واحترام العمل والنظافة والنظام . فإن غرس هذه القيم على أساس الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وما عند الله عز وجل من الثواب في عملها والعقاب في تركها يجعل لها صفة الاستمرارية والدوام بعكس أن تقوم على أساس الأخلاق العلمانية – اللادينية – التي تدعو إلى المصلحة الفردية والجماعية وإصلاح المجتمع فقط دون أن يهمها ألبتة رضا الله عز وجل وثوابه . والأهم في تلك البرامج وأشد خطرا على عقيدة الأطفال هي البرامج التي يغرسون فيها الإلحاد والكفر بالله جل وعلا بما فيه بعد تام عن العبودية الحقة . فمثلا :

١ – عرض أكثر من مرة مسلسل كرتوني بعنوان : « GOD ZELLA » أي « الإله زيلا » تدور مضمون القصة حول أسرة تجوب البحار والمحيطات ثم تعترضها وحوش خرافية للباخرة تهدد هذه الأسرة فلا ينقذها إلا « الإله زيلا » الذي تستدعيه الأسرة البشرية أو تدعوه بجهاز إلكتروني فيجيب في الحال وينقذ الجماعة البشرية من الوحوش المعترضة بالصراع معه ثم بهزيمتهم . ولهذا الإله « زيلا » ابن يصاحب الجماعة البشرية يدعوه أيضا فيجيب . وهي صورة مصغرة لما يعتقده النصارى في الأب والإبن . ولاشك أن هذا تصور وثني

للألوهية عنوانا وشكلا وموضوعا ، إن لم يفهمه الطفل العربي بسبب اللغة فإن الأحداث والمشاهد أمام الأعين تترك بصماتها في نفسه مما يشكل خطرا على فطرته الموحدة . إذ يكفي في تصور الطفل أن هناك كائنا بهذه القوة وبهذا النفع للإنسان يُدعى فيجيب في الحال فيكون ذلك جرحا وخدشا لفطرة التوحيد التي هو عليها .

٢ – المسلسلات الخاصة بحروب الفضاء ، وهي من أخطر المسلسلات إفسادا للعقيدة . فقد وضعوا أسلوب الإثارة فيها بكميات هائلة لجذب أكبر كمية من المشاهدين حتى انكب عليها الكبار قبل الصغار .

وهي تقوم على افتراض وجود أعداء للبشر في كواكب أخرى ويهددون سكان الأرض . وهذا الافتراض مخالف للواقع الكوني الذي أخبرنا عنه عز وجل في القرآن والسنة ، فالمخلوقات الحية في هذا الكون الملائكة والجن والإنس والحيوانات ، فلم يخبرنا الله عز وجل ولا رسوله ﷺ عن مخلوقات فضائية سوف تغزو الأرض . فذلك الإعتقاد الفاسد بوجود مخلوقات فضائية من شأنه أن يجعل الأولاد يعتقدون بالتفسير الأسطوري الخرافي لنشأة الكون ، ومحو ما ثبت بالقلوب في أن كل شيء في الكون قد تم – ويتم – بأمر الله تعالى وإرادته . ومن النتائج الخطيرة لهذه البرامج هو صرف عقول الأولاد وقلوبهم عن معرفة العدو الحقيقي من شياطين الإنس من اليهود الذين اعتدوا على القدس الشريف والنصارى الذين يكيدون لهدم الإسلام وأهله إلى تصور عدو وهمي قادم من الفضاء لغزو الأرض وإهلاك البشر .

ثالثا : الصحافة :

يبقى معنا دور صحف ومجلات الأطفال المعروضة في الدول العربية وأكثرها يصدر من بيروت حيث الإلحاد والإباحية والنصرانية الحاقدة على الإسلام وأهله ، ومن أبرز الأدلة على ذلك استخدامهم أسماء غير إسلامية ولا عربية . وهي

في مجملها ليس لها علاقة بالقيم والأهداف الإسلامية ، إلا أهداف القوة والعنف ، وإبراز السوأتين بشكل فاضح للجنسين من خلال الملابس الضيقة المشاهدة في الصور الملونة .

لاشك أن لهذه المجلات دورًا إيجابيا لا ننكره في تعود الطفل على القراءة مما يفيده في دراسته . ولكن هذه بمثابة نقطة بيضاء من سيل جارف مدمر أسود . هذا بالإضافة إلى استعمال اللغة العامية في بعض المجلات حتى يصرف الأطفال منذ الصغر عن التكلم باللغة العربية ، ومن ثَمَّ عدم فهمهم كتاب الله عز وجل ، وهذا ما يحلم به أعداء الإسلام في بعد المسلمين عن لغتهم حتى ينصرفوا عن قرآنهم ، وهم يفعلون العكس تماما ، فنجد إلزام اليهود بتعلم اللغة العبرية في مراحل التعليم المختلفة للاحتفاظ – كما يدعون هم بأنفسهم – بلغة كليم الله .

إلا أننا نجد بعضا من هذه المجلات مثل : « سعد » ، « ماجد » تعني إلى حد ما بالقيم الإسلامية وصياغتها باللغة العربية وإرفاق جزء خاص بالمعلومات الدينية من تفسير لآية أو ذكر لحديث ، كما ترفق مجلة « سمير » صفحتين بالمعلومات الدينية تحت عنوان « أحباب الله » .

هذا ملخص إجمالي عما يجري بخصوص إفساد الأطفال وتضليلهم منذ الصغر من الجانب الإعلامي . ومما يجدر الإشادة به في جانب الإعلام أن هناك بعضا من البرامج الناجحة والتي لها دور مثمر في البناء والوقاية وهي ما يقوم به الإعلام السعودي في برنامج « في ظلال القرآن » ، و« ناشيء في رحاب الله » ، في تقديم الأطفال الذين يحفظون كتاب الله عز وجل ، وهذا يشجع على حفظ القرآن الكريم وتجويده بين النشء . كما يوجد برنامج « أبناء الإسلام » وهو برنامج إسلامي ناجح تقوم به رابطة العالم الإسلامي ، له فوائد وأهداف إسلامية كثيرة . كما تقوم وزارة الحج والأوقاف بالسعودية بالمسابقة العالمية لحفظ كتاب الله تعالى وتفسيره وتجويده سنويا ، وهذا مما لاشك له ثمار طيبة بإذن الله تعالى .

وهذا يدعونا إلى وجود طبقة إسلامية مثقفة واعية غيورة على الإسلام وأهله تقوم بإعداد برامج وحلقات وأعمال فنية تلفزيونية كانت أم إذاعية في إطار الشريعة

السمحة وحدود الكتاب والسنة لتوجيه الإعلام الوجهة السليمة لتربية الأطفال بصفة خاصة منذ الصغر على القيم الإسلامية والاحتفاظ بعقيدتهم الفطرية وإنمائها ، فهذا هو الحل [1] الأمثل فكما يقولون :

التعلم في الصغر كالنقش على الحجر

وبهذا نصل إلى نهاية الكلام عن دور الإعلام في الإفساد باعتباره أحد أسباب الانحراف التي أدت إلى بُعْد المسلمين عن العبودية الحقة ، واكتفيت بتوضيح الانحراف في وسائل الإعلام من جانب ما يعرض للأطفال لتبديل فطرتهم ، فيتبين من باب أولى ما حدث للكبار – ويحدث – من مسخ لفطرتهم وانحراف لأخلاقهم ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) دور الأغاني والتمثيل :

لقد قام دور الفن – على زعمهم – الباطل – على يد الفنانين – الفتانين – بالمهمة التي أسندتها الهيئات اللادينية إليهم في توصيل الأفكار الخبيثة لإفساد المسلمين ولأبعادهم عن عبوديتهم لله جل وعلا . إما عن طريق كلمات رقيقة ماجنة بصبها في قالب يسهل حفظها وتردادها على الألسنة بما يسمى بالأغاني ، أو بصبها في قالب مرئي يثبت في الذهب عن طريق الحركات والمشخصات وتحرك النساء وميلهن بما يثير الشهوات ويفسد الأفئدة والعقول بما يسمى بالتمثيل ، فكل ما ترغب فيه تلك الهيئات من توصيله من أفكار لتفسد على المسلمين دينهم ، فإنهم يروجونها عن طريق الإعلام والفن . فنجد أنه ما تخلو دولة الآن من تمجيد لقوميتها ووطنيتها واعتزاز لتقاليدها ، ورفع لأصالتها ، عن طريق ما يعرف : بالسلام الجمهوري على عزف الموسيقى وتمجيد الدولة بالنشيد الوطني الذي يحفظه أبناء الأمة ويدرس ويحفظ منذ الصغر في المدارس . كما يمجد حاكم الدولة بأغاني

---

(١) هذا وإن كنا نتحدث عن أسباب الانحراف ، فإن هذا الحل يُضم مع المبحث الثالث من هذا الفصل والخاص بطريق النجاة . وأما ذكره هنا فقد استدعته الحاجة .

يحفظها العامة والمثقفون ، رغم اضطهاد ذلك الحاكم للمسلمين الملتزمين بالإسلام وتعذيبه لهم [1] .

وفي هذا تمجيد وإجلال وتعظيم للمخلوق من دون الله عز وجل وتعدي على العبودية الحقة لله عز وجل . كما يفخر الكثيرون بوطنهم وينشدون لذلك القصائد والأغاني فينشأ الشباب على حب الوطن ويشيب الشيبان عليه ، ويضيع الإنتماء إلى الإسلام ويحل محله الولاء للوطن وفداؤه بالروح والدم - كما يزعمون - .

ومما أدخلوه في قلوب وعقول المسلمين - إلا من رحم ربك - استخفافا بدينهم وضحكا عليهم ما سموه « بالأغاني الدينية » ، والدين منها ومنهم بريء . وهي في جملتها بُعْد صريح عن عبودية الله تعالى الحقة وكفر به سبحانه والتوسل بغيره جل وعلا [2] .

فينتشر بين العوام الاستعانة والاستغاثة بغير الله جل وعلا . كما يقوم دور الفن بترويج الإلحاد والإباحية والسخرية بعلماء الدين عن طريق الأفلام السينمائية والتمثيليات والمسرحيات . مما يشكل خطرًا على عقيدة المسلمين فيسبب جرحا في فطرتهم الموحدة وخدشا في حيائهم ، فيخرج من حيز الكتابة إلى السماع في الإذاعة حتى إذا ما رأى الناشيء هذه الموبقات على شاشة التلفاز أو السينما أو على المسرح اشتاقت نفسه إليها وإلى محاكاة ما يرى وما يسمع ، فيصبح الفسق في المجتمع أمرا واقعيا اعتاده الجميع - إلا من رحم ربك - والذي يخرج عن ما ألفه الناس من الفسق والفجور يعتبر شاذا متشددا . وينقل الأستاذ محمد محمد حسين كلاما موافقا لما سبق بيانه فيقول : « قد يعبس الفتى أو الفتاة حينا إذا قرأ أو قرأت مجونا جريئا عريانا . ولكن إذا ألفت العين والنفس أمرا كان مبعثا

---

(١) كما حدث في زمن جمال عبد الناصر من تقتيله وتعذيبه للإخوان المسلمين ، وكانت أغاني تمجيده كثيرة منها : « ناصر يا حرية » ، « وفداك عبد الناصر » ، « يا جمال يا حبيب الملايين » ، وغيرها كثير مما كان على ألسنة العديد من البلاد العربية من تمجيدها لهذا الطاغوت .

(٢) منها قول أحدهم : أنا جيت أزورك يا نبي وأقول مدد مدد يا نبي .. يا نبي مدد .

للحياء أمس ، فقد لا تلبث العين والنفس أن تنزعا إليه وتطلباه . فإذا فقدت النفس نفورها من قراءة المخازي وتصور معانيها ، فقد هانت عليه المرحلة التالية ، وهي التلبس بهذه المعايب سلوكا وعملا ، وإذا فعلى الصون والعفاف ألف عفاء » (١) .

إن ما في وسائل الإعلام من برامج وأفلام وتمثيليات لكاف في إفساد المسلمين ، ولكن أعداء الإسلام لم يكتفوا بذلك بل زادوا أمرا عجبا اجتمع المسلمون - وغيرهم - عليه وتكاتفوا ودافعوا عنه بأغلى ما لديهم من نفس ومال ، وهو الرياضة ، وهو أحدث إله - طاغوت - عبد من دون الله عز وجل في واقعنا المعاصر ، وُتنفق الأموال الطائلة في سبيل إعلائه في الوقت الذي تحتاج بعض البلاد الإسلامية التي أصابها الجفاف وبها مجاعات إلى عُشر ما يُنفق في الرياضة ، هذا مع ما ألحقت بالمسلمين - إلا من رحم ربك - من تركهم صلاتهم وعبادتهم لله عز وجل أثناء المباراة أو قيامهم بعد منتصف الليل لمشاهدة مباراة منقولة عن طريق القمر الصناعي - الذي وضعه الكفرة والملحدون للفساد والإفساد - ثم ينامون بعدها ولا يقومون لصلاة الفجر - إن كانوا يصلون ! التي أخبر النبي ﷺ عنها بقوله : « إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرِّق عليهم بيوتهم بالنار » (٢) .

ومن العجب من مشجعي الفنانين ومشجعي الرياضة أنهم يقتلون أنفسهم بأنفسهم بفقد أحد المغنيين أو فوز أحد الفرق أو الفريق القومي للبلد (٣) .

---

(١) أزمة العصر - محمد محمد حسين / ص ٢٤٦ .

(٢) بخاري / ك : الصلاة - ب : فضل صلاة العشاء في جماعة .
مسلم / ك : الصلاة - ب : التشديد في التخلف عن صلاة العشاء والصبح في جماعة .
(مختصره / ح رقم ٣٢٥) . واللفظ لمسلم .

(٣) كما حدث عند وفاة المغني المصري عبد الحليم حافظ أن انتحرت فتاة حزنا على فراقه حيث =

(٣) دور المناهج والتعليم :

يعتبر هذا الدور من أخطر الأسباب تأثيرا في الانحراف ، وقد استغله أعداء الإسلام أنجح استخدام . فقد استطاعوا على المدى البطيء والبعيد والمتدرج صرف أبناء الإسلام عن دينهم وبعدهم عن تحقيق العبودية الحقة لخالقهم فضلا عن صرفهم عن المعرفة بها ودس أفكار ونظريات الإلحاد في أذهان وقلوب النشء المسلمين لينسلخوا بذلك عن دينهم بالكلية . وهو ما حدث بالفعل على مر قرنين من الزمان منذ أن غزا أعداء الإسلام أرض المسلمين – بسبب غفلة المسلمين عن دينهم وبُعدهم عن تحقيق العبودية الحقة لخالقهم – إلى وقتنا هذا . فأنتج هذا العمل الدائب من أعداء الإسلام جيلا ملحدا بنسب كبيرة بين ما يسمونه بالمثقفين ، بعيدا عن أدنى انتماء للإسلام ولأهله سوى الأسماء الإسلامية . فانكبوا على ما وضعه لهم أعداء الإسلام من مناهج لصرفهم عن عبوديتهم لخالقهم اعتمادا على التجربة والمشاهدة في المعامل والمختبرات وافتتانا بما وصل إليه الغرب من تقدم تكنولوجي راغبين اللحاق بهم بشتى الطرق ولو على حساب دينهم إن كان هو الثمن ، ونسوا وأغفلوا أن ما عليه الغرب من تقدم كان بسبب ما أخذوه من المسلمين من علوم في الأندلس ، وبسبب ما رأوا في دينهم – النصرانية – من انحرافات جمة جعلتهم يتمردون عليها وعلى الدين بأكمله بتركه بالكلية . فلا يحق لنا أن نلطخ ألسنتنا فنقول : إنه لا تقدم للمسلمين إلا بتركهم دينهم كما فعل الغرب الذين تقدموا بتركهم دينهم ، فأولئك الكفرة قد تركوا دينا قد شُوهِّت معالمه وهُدِّمت دعائمه . أما نحن المسلمين فلا ينبغي لنا بحال أن نترك ديننا بحجة

= استحالت الحياة بمفارقة حليم ! وكما يحدث أيضا من التشجيع الحار عند فوز أحد الفرق أو الفريق القومي للبلد بطريقة جنونية تسبب حوادث جمة ويموت فيها أفراد كثيرة ، أقربها ما حدث بالعراق من وفاة وإصابة أكثر من مائة مصري ، كانوا يتهللون بصعود الفريق المصري لدورة كأس العالم ! والله لا أدري كيف سيقابل هؤلاء الفسقة ربهم يوم الحساب حين يُسألون ؟!!

إنه لبعد عن عبودية الله تعالى الحقة التي يجب على المسلمين معرفتها أولا ، ثم العمل بها وتحقيقها حيث هم بعيدون كل البعد عن حقيقتها ومعرفتها – إلا من رحم ربك – نسأل الله العافية والسلامة .

التقدم . فإنه لا شيء لنا إلا الذل والهوان والتأخر بتركنا ديننا . فعزتنا وتقدمنا نابع من التزامنا بالإسلام ، فإن ابتغينا العزة في غير الإسلام أذلنا الله تعالى . ولكنَّ أعداء الإسلام استطاعوا أن يزرعوا هذه الفكرة في أرض المسلمين وأتت ثمارها الخبيثة بين كثير من المسلمين .

فمن الوسائل التي وضعها أعداء الإسلام في المناهج الدراسية على مستوى المراحل الدراسية المختلفة ما يأتي :

١ - تشويه التاريخ الإسلامي وإبراز الخلافات التي وقعت بين المسلمين عند مقتل الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - ، وإبراز حالة التحلل الخلقي والإنحلال التي نسبت إلى بعض الخلفاء والأمراء ، وإظهار الشعر القبيح بما فيه الغزل الفاضح .

٢ - وضع مادة التربية الدينية والتي من خلال تسميتها نستشعر الغرض منها وهو التهذيب للنفوس فقط لا غير . بحيث لا تتعدى المادة إبراز ألوهية الله عز وجل ، وإبراز التحاكم لشريعة الله تعالى المنزلة ، وإظهار مبدأ الولاء والبراء في الإسلام . فيكفي في وضعها في المناهج الدراسية صورتها فقط . لذا فهي مادة غير إجبارية !! وغير داخلة في المجموع الكلي .

٣ - توضع في المناهج الدراسية لمادة الرياضيات أبواب في دراسة الربا بأنواعه بما يُطلق عليه - استخفافا وتدليسا - الفائدة . فتدرس للطلاب والتلاميذ الصغار الفائدة المركبة والبسيطة ، وكأن الربا أمر حتمي في الوجود الخارجي للمجتمع ولا شأن للدين في التحريم ، بل ولا يذكر ألبتة شيء عن حكم الإسلام في الربا ، وأعموا التلاميذ عن الإسم الحقيقي لتلك الكبيرة ، وهي الربا فسموها بالفائدة أو بالربح . وشتان بين هذا وذاك . قال تعالى : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

٤ - كما وضعوا في مادة « الطبيعة » بأن المادة لا تفنى ولا تُخلق من عدم . فنسبوا إلى الطبيعة الألوهية كما نسبوا إلى المادة القدم والأزل . لأنه على

زعمهم وزعم الكفرة أمثالهم من الفلاسفة أن ما جاز عدمه استحال قدمه ، وعليه فإن ما يبقى ولا يفنى فهو قديم . فكما نرى أنها محاولة لإلغاء الإعتقاد بألوهية الله عز وجل . والدارسون لا يهمهم سوى التعلم دون أن تمر تلك المفاسد على عقولهم فينتبهوا .

٥ - كما يدرس في المناهج الدراسية نظرية النشوء والإرتقاء ، وأن أصل الإنسان قرد وتطور في خلال عصور مختلفة إلى صورته الحالية . ويدرسها الطلاب وكذلك يسقيها المعلمون لهم في مادة « الأحياء » ولا تهتز لهم جارحة لذلك الإد المفترى الذي يخدش عقيدة التوحيد التي فطروا عليها بما تحمل هذه النظرية من سموم تعمل على إهدار الإيمان بألوهية الله تعالى وعبودية العباد لخالقهم . إذ ينفون بتلك النظرية الفاسدة القدرة الإلهية وتدبيره جل وعلا للمخلوقات حيث زعموا فيها أن النشوء والإرتقاء ذاتي في الحيوانات . وهو تعدي صريح على ألوهية الله جل وعلا .

إلى غير ذلك من الوسائل الخارجة عن الإسلام التي يستخدمها ويضعها أعداء الإسلام في إفساد الإسلام وأهله والتي ما زالت تدرس في كثير من البلدان التي أغلبية قاطنيها مسلمون ، ومجموعها يستهدف صرف المسلمين عن عبوديتهم الحقة تجاه خالقهم جل وعلا .

المجال الاقتصادي

ازدادت رقعة الأراضي الإسلامية التي سيطر عليها المسلمون طيلة قرون ، وقد أدى ذلك إلى وجود أموال كثيرة تدفقت من موارد الفيء والخراج والجزية والغنائم والزكاة ومن التجارة وازدهار النشاط الصناعي . إلا أنه قد استأثر بها طبقة الحكام واستخدمها معظمهم في ما لا يرضي الله تعالى من الترف والبزخ والمفاسد كالغناء والرقص والشعر واللهو والترفيه الاخلقي - إلا من عصمه الله تعالى من ذلك - .

ومع زيادة الأموال يكثر الفساد والإفساد ، حيث إن الترف مجلبة للفساد

- في غالب أحواله - ومدعاة للإنحلال الخلقي وحياة المجون . قال تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾ [الإسراء : ١٦] . وقد كان هذا الانحراف وتلك المفاسد ظاهرة بشكل فاضح في قصور كثير من الخلفاء والأمراء حيث كثر فيها الشراب والمغنيات والجواري الراقصات والشعراء المرتزقة . فانشغل الحكام والوزراء والأمراء بهذه المفاتن وتركت أمور الدولة وضعفت ، وكان عقاب الله تعالى لها حيث يمهل ولا يهمل أن سلط عليهم أعداءهم فأذاقوهم أشد العذاب والهوان ، فأصبح المسلمون بتركهم دينهم وبعدهم عن تحقيق العبودية الحقة لخالقهم جل وعلا - في ذل قد وقر في قلوب العديد منهم إلا من رحم ربك إلى يومنا هذا ، نسأل الله تعالى العافية والسلامة .

المجال الفكري

وهو ظهور الفرق التي لا أول لها ولا آخر ، والتي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة » [1] .

ولهذا السبب زاد المسلمون انحرافًا عن دينهم وبعدًا عن تحقيق العبودية الحقة لله تعالى ، فدبت فيهم الفرقة والاختلاف وزادت بينهم الشقة والنزاع . فأصبحت كل فرقة تدعو إلى منهج خاص بها ولها أتباع ، وتكفر مخالفيها وتدعي بأنها الفرقة الناجية دون غيرها ، وكلما ازداد المسلمون بعدًا عن عبوديتهم لخالقهم ازدادت دائرة التفرق والتحزب . وما زلنا إلى يومنا هذا نرى ظهور فرق جديدة تعمل في التمزيق والتفريق فيزداد بذلك رصيد الفرق ويزداد الخلاف !!

---

(١) الشريعة للآجري / ص ١٨ ، السلسلة الصحيحة / ح رقم ٢٠٤ .

دور الموالي في خط الانحـراف

يعتبر دور الموالي أحد الأسباب الرئيسية في انحراف المسلمين عن دينهم . وهذا السبب لا نستطيع أن نعممه على جميع الموالي ولا يمكننا التغافل عنه بحال إذ تشهد الوقائع التاريخية على تأثيرهم في دين الله تعالى بين شذوذ الغلو وأفكار التفريط على يد الفرق الضالة التي ظهرت باسم الإسلام ابتداء بمقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – على يد أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي ، وانتهاء بغلاة الشيعة الإثنى عشرية ، وكذا تفريط البهائية والقاديانية [1] التي تدعمها إنجلترا الصليبية ومركزها في الدعوة . وبين البداية والنهاية أسماء فرق وجماعات لا حصر لها في الضلال والغلو والتفريط . والسبب في إشاعة الانحرافات بين الموالي يرجع إلى أمرين :

أحدهما : حقد دفين للإسلام وأهله .

ثانيهما : رد فعل عكسي لما فعله بهم الأمويون .

- أما الأول فكما يرجح الأستاذ محمد قطب [2] بأنه قد كان الفرس من قبل ينظرون للعرب نظرة احتقار وازدراء مبعثها أنهم دولة ذات عراقة تاريخية وحضارة علمية ، بينما كان العرب هم أولئك الحفاة الجفاة المتخلفون بكل مقاييس الحضارة المادية التي وصل الفرس القمة إليها ، فلما جاء الإسلام

---

(١) البهائية : تنسب إلى حسين علي الملقب بالبهاء وسمي حركته بالبهائية وله كتاب سماه « الأقدس » ، وتوفي سنة ١٨٩٢ م . يقولون بالحلول والاتحاد وتناسخ الأرواح ، نشأت هذه الحركة سنة ١٨٤٤ م تحت رعاية الانجليز واليهود بهدف إفساد الإسلام .

القاديانية : حركة نشأت سنة ١٩٠٠ م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي بهدف إبعاد المسلمين عن فريضة الجهاد ، مؤسسها غلام أحمد مرزا القادياني . يبيحون الخمر والأفيون والمسكرات .

(راجع : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة / عن البهائية – ص ٦٣ ، القاديانية – ص ٣٨٩) .

(٢) راجع : واقعنا المعاصر . محمد قطب / ص ١٢٢ – ١٢٣ .

تغيرت المقاييس والمعايير وجاءت الفتوحات وانهزم الفرس هزائم ما كانوا يتوقعونها ودخلوا في دين الله تعالى . ولكنَّ الجيل الأول منهم رغم دخوله الإسلام كان ينطوي ولاشك على ضغينة للعرب المسلمين الفاتحين .

- وأما الأمر الثاني فقد عمدت الدولة الأموية إلى كبت الفرس وعدم السماح لهم بتولية الوظائف الخاصة بالدولة . فكان لهذه المعاملة أثر عكسي في نفوس الفرس الذين أسلموا إذ أنهم لم يجدوا معاني الأخوة الإسلامية وإذابة الفوارق بين المسلمين المتمثلة في قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ [الحجرات : ١٠] . وقوله : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فِي الدين** ﴾ [التوبة : ١١] .

ولست هنا بصدد سرد تاريخي للأحداث ولا للأسباب التي أدت إلى انحراف المسلمين . إنما أعني بصفة خاصة ذكر أهم الأسباب حسب ما رأيت – ورآها غيري – دون التعرض للحشو التاريخي لها .

وحقا فإن دور الموالي على مر العصور له أكبر الأثر والأهمية الكبيرة [1] في انحراف المسلمين . وهذا لا يجعلنا نغالي في هذه الحقيقة ، إذ خرج من بين تلك الأمة – الفرس – أعلام [2] يشار لهم بالبنان على مر العصور الإسلامية وكانوا هداة مهتدين حملوا لواء الإسلام ودافعوا عنه . وبين لنا النبي ﷺ فضلهم فيقول أبو هريرة – رضي الله تعالى عنه – : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نزلت

---

(١) أقترح بأن تفرد رسالة بالبحث في هذا الأمر « أثر الموالي في نهضة المسلمين ونكباتهم » لأهميته ، وتأثيره على الإسلام والمسلمين .

(٢) فقد وجد فيهم رجال يحملون سنة المصطفى ﷺ ويذبون عنها وأجمعت الأمة على ما دونوه كأصحاب الكتب الستة وهم : محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري ، وأبو داود السجستاني ، وأبو عيسى الترمذي ، والنسائي وابن ماجة وغيرهم كثير من الأعاجم عموما ممن له دور كبير في التاريخ الإسلامي ولعلي أذكر من العصر الحديث الشيخ أبا الأعلى المودودي ، وأبا الحسن الندوي فصدقت بذلك نبوءته ﷺ ، كما نقل ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (جـ ٨ / ص ٦٤٣) بأنه قد وقع ما قاله النبي ﷺ عيانا فإنه وجد من اشتهر ذكره من حفاظ الآثار والعناية بها ما لم يشاركهم فيه كثير من أحد غيرهم .

سورة الجمعة فلما نزلت : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ قالوا : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال – وفينا سلمان الفارسي [(١)] ، فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » [(٢)] .

فمن مظاهر نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام في عصرنا الحديث هو ما يجري في أفغانستان على يد المجاهدين الأفغان ضد العدو الملحد الشيوعي ، وما يحققونه من انتصارات أذهلت الأعداء قبل الأصدقاء . نسأل الله تعالى أن يؤيدهم ويخزي عدوهم .

إن دور الموالي كأحد أسباب الانحراف يعتبر سببا اجتماعيا لما فيه من العنصرية التي ظهرت في المجتمع بين العرب وأنفسهم ، وبين العرب والفرس ، والتي أدت إلى التفرقة والنزاع والحقد ، مما كان له الأثر السيء الذي أدى بالفرس – عموما – إلى الكيد للإسلام وأهله ويتحينون الفرص لهذا الإفساد .

علماء السوء

أما علماء السوء الذين تسلطوا على المسلمين وأصبح تنصيبهم من قبل الحكومات اللادينية التي جعلتهم رجال دين أتباعا لصنيع اليهود والنصارى ، فقد ضاع إيمان كثير من المسلمين على أيديهم ، فجرى هؤلاء العلماء وراء الشهوات والأهواء والشهرة ، وباعوا دينهم بدنياهم بثمن بخس دراهم معدودة .

فلا حكم ولا رأي إلا لهم ، ولا شكل للدين إلا بهم ، ولا يستفتي إلا إياهم ، فلا علماء في نظر العامة إلا هم ، فأفسدوا في دين الله تعالى ، وأفتوا

---

(١) هو : أبو عبد الله ، ويقال له سلمان الخير ، أصله من أصبهان ، أول مشاهده الخندق توفي سنة ٣٤ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ – ص ٣١٥) .

(٢) بخاري / ك : التفسير – ب : قوله تعالى : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ [الجمعة : ٣] . ومسلم / ك : فضائل أصحاب النبي ﷺ – ب : ما ذكر في فارس . (ومختصره / ح رقم ١٧٥١) .

بما يوافق أهواء الذين يوالونهم من الحكام ، ابتداء بأحمد بن أبي دؤاد [1] الذي كان يجادل علماء السنة في القول بخلق القرآن ، وغيره من علماء السوء الذين كانوا يمثلون بطانة السوء للحكام على مر التاريخ إلى أن وُجد منهم في القرون المتأخرة والأيام التي نعيشها من يتصدر للإفتاء للأمة ، ومنصوب من قبل الحكومة التي لا تحكم بما أنزل الله تعالى حتى انتشرت الفوضى على يد كثير من علماء السوء ، فدعا بلسانه وبقلمه إلى دفع المرأة إلى السفور وإلى الاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس فقال : إنه جركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى ، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم !! [2] .

وآخر يدعو إلى نزع الخلافة من الأتراك ، كما يدعو إلى الماسونية في تآخي الأديان [3] .

وآخر يقول كلاما ما أنزل الله به من سلطان : إن الإنجليز أولياء أمورنا في الوقت الحاضر ولا ينبغي أن نحاربهم ونقاومهم ، إنما واجبنا أن نتعلم منهم ، ثم نتفاهم معهم لتصفية ما بيننا من خلاف ! [4] .

فكما نرى الفوضى التي وصل إليها علماء السوء والتي ليس لها حد ، وأمثلتها ليس لها عد . حتى جاء في عصرنا الحديث من يبيح الطواف حول - ما يزعمون - ضريح الحسين [5] بالقاهرة . ويجعل ذلك تبركا به للتقرب إلى الله تعالى .

وأصبحت هذه الفئة من علماء السوء الذين يوالون حكامهم بغير ما أنزل الله تعالى - هي الحجة على الدين لدى عامة الناس ، فوجد مرضى القلوب مهربا

---

(١) هو : القاضي الكبير أبو عبد الله أحمد بن فرج بن حريز الإيادي البصري ثم البغدادي ، الجهمي ، عدو الإمام أحمد بن حنبل ، كان داعية إلى خلق القرآن ، ولد سنة ١٦٠ هـ بالبصرة ، وتوفي سنة ٢٤٠ هـ . (سير أعلام النبلاء - الذهبي / جـ ١١ - ص ١٦٩ - ١٧١) .

(٢) نقلا عن واقعنا المعاصر - لمحمد قطب ص ٢٠٩ ، حكاية عن رفاعة رافع الطهطاوي أحد علماء الأزهر الذين تشربوا بفساد الغرب .

(٣) المصدر السابق / ص ٢٣٩ حكاية عن جمال الدين الأفغاني .

(٤) المصدر السابق / ص ٣٠٧ حكاية عن أستاذ الجيل ! لطفي السيد .

(٥) هو : الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي سبط رسول الله ﷺ وريحانته ، استشهد سنة ٦١ هـ . (تقريب التهذيب / مجلد ١ - ص ١٧٧) .

من التكاليف ورخصة في الإنغماس في الشهوات والمعاصي ، فإذا اعترضت على فعل أحد من العوام لمخالفته الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، قيل لك : إن الشيخ فلان قال بذلك ! ومهما تبين له الأدلة والبراهين فلا سمع لك ولا طاعة .

فمن أنت ؟! إنهم رجال الدين .. ورجال الشريعة .. والمفتون في البلاد !

إن هؤلاء العلماء شاطروا الحكام في دفع المسلمين إلى الانحراف والبعد عن عبودية الله الحقة ، ففصلوا دين الله تعالى وقسموه بينهم شطرين : شطر للحكام وشطر للعلماء ، فأصبحت أنظمة الحكم والسياسة بيد الحكام الظلمة المارقين ، وأصبح الدين في يد علماء السوء ، وكل يفسد في شطره حيث شاء وكيف شاء . والعوام المحكومون يتخبطون بين شطط الحكام وجبروتهم وبطشهم بمن خالفهم أو دعا إلى تحكيم شريعة الله تعالى في الأرض واتهامهم له بأنه منحرف متشدد .. متطرف !! وبين نفاق علماء السوء الذين يوالون الحكام ويساعدونهم في تحقيق مآربهم . والعامة بين هذا وذاك في شر مستطير وجهل كبير .

أترى بعد ذلك نصر وتمكين لوعد الله تعالى بالخلافة لأمة هؤلاء هم حكامها ، وهؤلاء علماؤها ، وهؤلاء هم أتباعها ؟!

كلا وحاشا أن يفعل الله تعالى ما ينافي حكمته . فالله عز وجل يشترط تحقق عبوديته الحقة من العباد أولا ، ليتحقق لهم النصر والتمكين ، ليكونوا بذلك أهلا لحمل الرسالة ولإقامة شرع الله تعالى في الأرض بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها من العبادات . قال تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فِي الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذِى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننِي لا يشركون بِى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [النور : ٥٥] . وقال : ﴿ **الذين إن مكناهم فِي الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ [الحج : ٤١] .

إنه مما يؤسِف أن نجد في واقعنا كثيرا من علماء الشريعة وحامليها بهذه الصورة ، وأصبح لا وجود للعالم العامل في الواقع الخارجي إلا اليسير النادر .

فأولئك الذين ينبغي أن يكونوا أولى من غيرهم في تحقيق العبودية الحقة لله تعالى وقدوة لغيرهم ، أصبحوا دعاة سوء . نسأل الله تعالى العافية والسلامة ، وأن يجعلنا من العاملين وأن لا يفتنا في ديننا . قال تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

بعض الأسباب الأخرى

ومن أسباب انحراف المسلمين ، التي أثرت في تأخرهم وكانت سببا في انحرافهم وبعدهم عن عبوديتهم الحقة لخالقهم ما ذكره بعض الكتاب المسلمين ، منهم الأمير شكيب أرسلان بقوله : « أعظم الأسباب :

١ – الجهل والعلم الناقص .

٢ – فساد الأخلاق بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، وهذا بصفة عامة في المسلمين – إلا من رحم الله – ، وبصفة خاصة فساد أخلاق أمرائهم ومجاوزتهم الحد في البطش بمن عارضهم .

٣ – وعلماء السوء الذين يفتون بأهوائهم وجريا لأهواء أمرائهم ، فاتخذوا العلم مهنة للتعيش وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع الموبقات ، وأباحوا لهم خرق حدود الدين ، هذا والعامة مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء ويظنون ويعتقدون أن فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة والفساد بذلك يعظم ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمر .

٤ – الجبن والهلع [1] الذي أصابهم ، والقنوط من رحمة الله والإعتقاد بأن

---

(١) تعليق : هذا وإن كنت أرى أن الجبن والهلع الذي أصاب المسلمين ليس سببا في انحراف المسلمين كما ذكر ذلك الأمير شكيب ، إنما هو أثر من الآثار الناجمة عن انحراف المسلمين ، وذلك لحديث ابن عمر – رضي الله تعالى عنه – عن النبي ﷺ قال : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » .

(السلسلة الصحيحة / ح رقم ١١) .

الكفار على أي حال هم الأعلون ولا سبيل لمغالبتهم والتفوق عليهم بحال .

يقول عليه الصلاة والسلام : « توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « لا بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن » . قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » [1] » [2] .

فضياع المسلمين ناشىء عن تركهم دينهم ، فإن هم رجعوا إليه عادت إليهم عزتهم ومهابتهم المنزوعة من قلوب أعدائهم .

يقول شكيب أرسلان في موضع آخر :

« فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة أو كان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي ، ولمَّا كانت الشريعة جارية على حقها كان الإسلام عظيما عزيزا » [3] أ.هـ .

وهو بعد صريح من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله جل وعلا باختلاف دركاته وتباين كمياته .

وقد ذكر الأستاذ محمد قطب الأسباب التي أدت إلى انحراف المسلمين بقوله : « نستطيع أن نلخص الموقف في أربعة أسباب رئيسية ترد إليها بقية الأسباب الأخرى :

١ – فهناك أولا التفلت البشري الطبعي من التكاليف كلما امتد الزمان ،

---

(١) رواه أحمد / ٥ – ٢٧٨ .

أبو داود / ك : الملاحم – ب : في تداعي الأمم على الإسلام .

(٢) راجع : لماذا تأخر المسلمون – شكيب أرسلان / ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق / ص ١٠٨ .

والعلاج الرباني لهذا التفلت هو التذكير ، فنستطيع أن نقول إذًا إن التذكير لم يكن بالقدر اللازم الذي يمنع مجموع الأمة من التفلت ، أو لم يكن من حيث الكيف والكفاءة المطلوبة لمنع الأمة من الانحراف عن الجادة .

٢ - وفي الوقت الذي كان التذكير أقل من المطلوب في الكم والكيف ، وكان في حاجة إلى المزيد ، جاء تياران مضادان لعملية التذكير يزيدان من درجة العجز فيها ، أحدهما هو الفكر الإرجائي الذي يطمع العبد في رضا مولاه [(١)] بغير عمل حقيقي يقتضي الإيمان ، إتكالا على ما في القلب من وجدانيات ومشاعر .

٣ - والآخر هو الصوفية التي تطمع العبد في رضا مولاه عن طريق آخر غير أداء التكاليف الشرعية بالأوراد والأذكار والتبرك بالأولياء والمشايخ .

٤ - فإذا أضفنا إلى هذه العوامل الثلاثة الاستبداد السياسي الذي أدى إلى ضمور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في مجال السياسة خاصة وتحول الإسلام في حس الناس إلى ممارسة فردية بعد ضمور الممارسة الجماعية لهذا الدين .

نستطيع باختصار أن نقول : إن كثيرا من المفهومات الإسلامية قد فسدت وانحرفت في حس الأجيال المتأخرة ، بدء بمفهوم لا إله إلا الله التي أصبحت مجرد كلمة تقال باللسان والقلب غافل عنها ، والسلوك عنها بعيد - إلى مفهوم العبادة الذي انحصر في الشعائر التعبدية تؤدى أو لا تؤدى - إلى مفهوم القضاء والقدر .

---

(١) الطمع في رضا الله عز وجل مرغوب فيه ولكن مع الخوف منه سبحانه ومن عذابه فالجمع بين الطمع والخوف أو الخوف والرجاء هو المنهج الصحيح الذي كان عليه الأنبياء والمسلمون المقتدون بهم . فقد أخبر الله تبارك وتعالى عن أنبيائه : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . أما تغليب جانب على آخر فهو شطط عن الجادة وخروج عن نهج الأنبياء وهو ما وقع فيه المرجئة بتغليب جانب الرجاء والرغبة ، وما وقع فيه الخوارج بتغليب جانب الخوف والرهبة وكلاهما مخطيء .

وأصبح الدين في النهاية صورة باهتة خاوية عن الروح لا تستطيع أن تصمد للهجوم الوحشي الذي تدافع من كل صوب للقضاء على الإسلام » [(١)] .

هذا وإن كنا نقول : إن صورة هذا الدين لم تك قط ولن تكن باهتة مطلقا إنما هو تصور حامليه ومعتنقيه هو الذي بهت . أما دين الله عز وجل فإن صورته ناصعة نقية إلا أنها ليس لها وجود واقعي حقيقي في التطبيق من قِبَل معتنقيه - إلا من رحم ربك - كما أن هذا الدين يصمد أمام أي هجوم وحشي لأنه من عند الله العلي القدير ، ولكنه لا يعمل من ذاته ولا من فراغ بحيث إن أدير بزر تجاه التشغيل فإنه يعمل .. كلا .. ثم كلا إنه يعمل من خلال الطاقة البشرية التي تؤمن به وتعمل بما فيه وتتحرك به لتدفع الزر تجاه التشغيل فتعمل بكفاءة هذا الدين النابعة من ذاته ، فحاملو هذا الدين هم الذين عليهم عبء تحمله والعمل بما فيه . ولو كنا نتصور هذا الدين بالكيفية التي يعمل بها من ذاته ، لما كان على النبي ﷺ وهو قائد هذا الدين وقدوته ، أن يدعو الكفار إليه ويصبر على أذاهم ويتحمل المشاق في سبيل تبليغه ، ولا عليه أيضا أن يجاهد في سبيل الله عز وجل ويتضرع بالدعاء إلى ربه لطلب النصر ولا احتاج الأمر في أن تشج رأسه وتكسر رباعيته ، وكذلك الصحابة معه ومن بعده ، لمَا دعاهم الأمر لركب الصعاب وتحمل المشاق ما دام هذا الدين يعمل من ذاته . إنها الطاقات البشرية التي تؤمن بهذا الدين وتعمل به [(٢)] . فكلما اقتربت منه بتحقيق عبوديتها لله عز وجل ، فإنها بهذا الدين تصل إلى أعلى مراتب العبودية ويعزها الله تعالى على أعدائه ويمكن لهم في الأرض . أما إذا بعدت عن تحقيق عبوديتها لله عز وجل من خلال تفلتها من هذا الدين ؟ أذلها الله تعالى وأذاقها لباس الجوع والخوف وسلط الأعداء

---

(١) واقعنا المعاصر - محمد قطب / ص ١٦٢ - ١٦٣ (باختصار وتصرف) .

(٢) لمزيد من الإيضاح راجع كتاب : « هذا الدين » - سيد قطب ، تحت عنوان « منهج للبشر » ص ٣ - ١٤ .

عليها بما كسبت أيديها . قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢] .

* * *

المبحث الثاني
آثار الانحراف

إن الأسباب التي سردناها في المبحث السابق - وغيرها - قد أدت إلى انحراف المسلمين وأثرت بصورة مباشرة في عبوديتهم لله عز وجل ، حتى جعلتهم لا يميزون بين الحق والباطل فجعلوا المعروف منكرا والمنكر معروفًا .

هذه الأسباب التي أدت إلى انحراف المسلمين لها آثار نتجت عنها وانبثقت منها أثرت في الدين نفسه بعد أن أثرت في حامليه .

أولا : تأثير الانحراف في معالم الدين

أثرت تلك الانحرافات في كثير من مفهومات الدين منها :

(١) مفهوم العقيدة :

وهي كلمة الإخلاص « لا إله إلا لله » وعليها أس الدين ، ويقتضي الإيمان بها وبما يندرج تحتها ، كما يقتضي الإذعان لها ، والجهاد في سبيلها ، والدعوة والتحاكم إليها ، وموالاة معتنقيها والتبرؤ من جاحديها ومحاربيها .. إلى غير ذلك مما فهمه سلف الأمة الصالح من مدلول « لا إله إلا لله » الشامل من الخضوع التام والعبودية الحقة لله عز وجل والتحرر من العبودية لكل من سواه سبحانه .

أما المفهوم الذي انحرفت إليه العقيدة ، هو ما شاع بين كثير من المسلمين بأن التلفظ بها وحده فيه النجاة من النار ، وأصبح تردادها على الألسنة مشوبا وخاليا من إيمان القلوب بمفهومها الحقيقي . زيادة على ما انتابها من مفهوم خاطيء من التوسل بالأولياء وطلب الحوائج منهم وبهم ، والموالد ، وكرامات الأولياء والتمائم والتعويذات إلى غير ذلك من المخالفات الشرعية التي تجعل المسلم العابد

لله حقا يفر منها ، والتي حدثت على يد مشايخ الطرق الصوفية ، والتي أغوت كثيرًا من العامة والخاصة ، باعتبارها هي الدين ، فانتشرت بينهم البدع الباطلة ، والمعتقدات الفاسدة والخرافات والترهات التي جاوز بها أصحاب الطرق الصوفية وغيرهم حدود العقيدة الصحيحة وذلك بتقديسهم الأولياء واتخاذهم أربابًا من دون الله تعالى .

فشرع الناس - إلا من رحم ربك - يعتقدون تلك الشركيات ويحكمون بها ويتحاكمون بغير ما أنزل الله تعالى ، وهم مع هذا يعتقدون في قرارة نفوسهم أنهم ما داموا يرددون « لا إله إلا لله » فهم مسلمون كاملو الإيمان ، حيث يكفيهم معرفة الله تعالى لدخول الجنان والبعد عن النيران ، متبعين بذلك سبل الضالين من المرجئة وغيرهم الذين جعلوا الإيمان بالله تعالى هو التصديق بالقلب فقط دون عمل الجوارح وقالوا بأنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة [(1)] .

وقد انتشر - مما يؤسف - هذا الفهم الخاطيء لكلمة التوحيد بين العامة من المسلمين مستندًا إلى فعل علماء السوء وفتياهم . أما التوحيد المستلزم للعبودية الحقة التي على الأمة الإسلامية معرفتها والعمل بها فهو ما عبر الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - بقوله : « وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا إله إلا الله ، وأن الله رب كل شيء ومليكه ، كما كان عبَّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون . بل التوحيد يتضمن - من محبة الله تعالى ، والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال ، والمنع ، والعطاء ، والحب ، والبغض : ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي ، والإصرار عليها » [(2)] أ.هـ .

---

(١) لمزيد من آراء المرجئة راجع : مقالات الإسلاميين / للأشعري / ص ١٩٧ - ٢٠٧ ، والفرق بين الفرق - البغدادي / ص ٢٠٢ - ٢٠٧ .

(٢) مدارج السالكين - لابن القيم / جـ ١ ص ٣٣٠ .

(٢) مفهـوم العبـادة :

يرتبط مفهوم العبادة بمفهوم العقيدة السابق حيث إن عقيدة التوحيد قائمة على إفراد الله تعالى بالعبادة ، فمفهوم العبادة شامل وعام . يجمع كل مفردات الدين كلها . أما في القرون الأخيرة الحالكة السواد فقد انحصر مفهوم العبادة على الشعائر التعبدية فقط من الصلاة والزكاة والصوم والحج دون غيرها من جملة العبادات . وقد كان لانفصال الدين عن السياسة والحكم أثر كبير في استقرار هذا الفهم الخاطيء للعبادة عند عامة المسلمين واستبداله بالمفهوم الحقيقي الذي كان راسخًا في قلوب وأذهان وجوارح الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – والتابعين . فكان يشمل حياتهم من أولها إلى آخرها من الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له واتباع أوامره وأوامر رسوله ، وكان يشمل صلاتهم وزكاتهم وحجهم وجهادهم لله تعالى ، كما كان يشمل معاملاتهم ، ودعوتهم وتحاكمهم إلى شريعة الله تعالى المنزلة من عنده و... و... إلخ ، فكان لفظ « العبادة » شاملا لكل حياتهم ، وهو المتمثل في قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] . أما في زماننا فقد انحصر هذا المفهوم انحصارًا ضيقا جعل من المسلمين من يظن أن بإتيانه الصلوات الخمس فقط – دون إتيانها في وقتها ولا مع الجماعة في المسجد – على أي شكل كان فقد حيز له الدين بحذافيره ، ويظن الجهال من المسلمين بالذي يؤدي الصلوات الخمس على النحو السابق أنه قد صار متدينا مستشيخا – على حد تعبيرهم – .

(٣) مفهـوم الحكـم :

إن من أعظم آثار انحراف المسلمين هو ترك التحاكم إلى شريعة الله جل وعلا .

وأولا وقبل كل شيء ينبغي علينا أن نعلم أن الحكم حكمان لا ثالث لهما .

الأول : حكم الله تعالى . **والثاني** : حكم الجاهلية .

وهذا بنص كتاب الله تعالى الذي لم ولن يتبدل ، حيث قال تعالى :

﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾ [المائدة : ٥٠] .

وبناء عليه فإن على المسلمين التحاكم إلى ما أنزل الله عز وجل ، وموالات الحكومة التي تحكم بما أنزل الله تعالى ، كما عليهم التبرؤ من أحكام الجاهلية ، والتبرؤ من الحكومة التي تحكم بحكم الجاهلية . وهذا من أعظم أصول التوحيد ودعائمه .

فحكم الله عز وجل الذي أنزله على خاتم رسله ﷺ هو المنهج الشامل لحياة الأمم في إصلاح أمور دنياهم وإسعادهم في أخراهم . وقد أمر الله عز وجل رسوله باتباع حكم الله عز وجل وألا يحيد عنه . فقال تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ [الجاثية : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وهذا الأمر باتباع حكم الله تعالى في شئون الدين والدنيا وأحكام الدولة ، والاقتصاد والسياسة والاجتماع والأخلاق والمعاهدات والقصاص والحدود والتعزيرات والوصايا والهبات والمواريث والزواج والطلاق والحضانة والنفقات ، والتجارة والصناعة و.. إلخ .. عام للمسلمين جميعا ولأئمتهم خاصة ، إذ هم القائمون على تنفيذ الأحكام في الدولة ، وحفظ الحقوق واستتباب الأمن فيها والأخذ على يد الظالمين والمفسدين . قال تعالى : ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ [الأعراف : ٣] . فكل حكم لم ينزله الله عز وجل ويخالف ما أنزله الله تعالى فهو حكم جاهلي يجب الكفر به وعدم التحاكم إليه ، فقد نفى الله عز وجل الإيمان عمن لا يرضى بحكم الله تعالى ويسلم له . فقال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتَّى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فِي أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [النساء : ٦٥] .

وقد أخبر الله عز وجل عن كفر من لم يحكم بما أنزله سبحانه ، فقال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

فهذا هو شرك التشريع الذي وقع فيه الكثيرون من المسلمين حكاما ومحكومين – إلا من رحم ربك – فقد كان المسلمون من قبل يأخذون بعضا من الأنظمة التي لدى الأمم كالفرس والروم لما يرون فيها من مصلحة للمسلمين عامة ، كما كان بعضها يفيد المسلمين الداخلين في الإسلام من تلك البقع ، وهي في مجملها لا تخالف نصا ثابتا وصريحا في الكتاب أو السنة . إنما تحقق الصالح العام للدولة ، فهذا لا بأس به [١] . ولكن حدثت في القرون المتأخرة أن نحيت جانبا شريعة الله تعالى بالكلية وحل محلها القوانين الجاهلية ، وحكم بها أغلبية البلدان التي يقطنها مسلمون بصورة يندى لها الجبين حتى لم يبق من أحكام الله عز وجل سوى ما يتعلق بالزواج والطلاق وهو ما يُحكم به رسما وشكلا ، أما مضمونا فهو اتباع لسنن النصارى بتحريم التعدد كما ينظر للطلاق على أنه جريمة لابد أن تتم أمام القضاء ولو كانت هناك أسباب توجبه [٢] . وكذا الأحكام الخاصة بالمواريث .

فوقع المسلمون – إلا من رحم ربك – في شرك التشريع – الذي هو من أهم مقتضيات ألوهية الله عز وجل وعبودية العباد لخالقهم – سواء أكانوا حكاما قد نحوا هم بأيديهم شريعة الله تعالى أم كانوا محكومين ممن فسدت فطرتهم وتلاشت غيرتهم ورضوا بالأحكام الوضعية التي تحكم بالسجن فقط على مقترفي الزنا والقتل والسرقة وشرب الخمر ، بل لا تجد لهؤلاء تعزيرا في تلك الجرائم ما دام قد تم برضا أطراف الجريمة !! وتجاوز بعض المارقين الحد تزلفا لتلك الحكومات التي لا تحكم بما أنزل الله وقال : إن التعزيرات الخاصة للقاتل والسارق

---

(١) تعليق : وهو ما نستطيع أن نقيسه في حاضرنا على قوانين المرور – مثلا – فهي بلاشك تخدم وتساعد على السلامة والتقليل من الحوادث التي تذهب بالأرواح ، كما أنها تيسر حركة السير على كثرة السيارات وأنواعها بانتظام . فهي لا تخالف بأي وجه من الوجوه شريعة الله عز وجل ولا تناقضها ، بل على العكس فإنها توافق التعليمات العامة للشريعة في حفظ النفوس والممتلكات ، وتوافق كثيرا من القواعد الفقهية كالمصالح المرسلة وكقاعدة لا ضرر ولا ضرار .. وغيرها .

(٢) راجع : ما ذكرناه في الفصل الرابع في مبحث « العبادات عند النصارى » – ص ٤٢٦ .

والزاني في الحكم الإسلامي وحشية وهمجية . ويجب اعتبار المجرمين على أنهم مرضى يجب معاملتهم ومعالجتهم وتكون هناك دراسة نفسية لظروف المجرم ولا نفكر في عقابه (١) .

ومما يؤسف أيضا أن نجد الكثير من الدعاة يعظون الناس ويذكرونهم بتوحيد الألوهية ويحذرونهم من الشرك والسجود والنذر والطواف لغير الله تعالى ، ولا يذكرون شيئا عن شرك التشريع الذي هو من أهم مقتضيات توحيد الألوهية . إذ لا معبود ولا حاكم بحق إلا الله تعالى فلا يذكرون شيئا عن من يحكم بغير ما أنزل الله أو بمن رضي بهذا الحكم .

فانفصل مجال الحكم والسياسة والتنظيم والإدارة عن نطاق الدين وتعاليمه حتى غاب عن وعي عامة المسلمين تحكيم شريعة الله تعالى .

(٤) مفهـوم القضـاء والقـدر :

انتشر مفهوم الجبر بين كثير من المسلمين فيما يتعلق بشرع الله تعالى فقط دون معاشهم التي يسعون إليها ، وذلك بانتشار الفكر الإرجائي والفكر الصوفي ، إضافة إلى التفلت البشري . فأوجد أناسا يطمعون في رضا الله تعالى دون تقديم أعمال صالحة لذلك وأحسنوا الظن في دخول الجنان والبعد عن النيران مما أبعدهم عن العبودية الحقة لله عز وجل مخالفين بذلك أمر ربهم وأمر رسولهم في الحث على العمل والرضا بقضاء الله عز وجل بعد ذلك حيث كل ميسر لما خلق له .

قال تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادِي الشكور** ﴾ [سبأ : ١٣] : وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنّي بما تعملون عليم** ﴾ [المؤمنون : ٥١] . فهذا أمر من الله عز وجل لأفضل خلقه وهم أنبياؤه ، فكيف بمن دونهم ؟!

---

(١) راجع كتاب – « الإيمان .. أركانه ، وحقيقته ، نواقضه » – تأليف محمد نعيم ياسين / ص ٢٧٦ .

(٥) مفهـوم الجهـاد :

لقد كان مفهوم الجهاد واضحا جليا في محاربة الكفار ، بدعوتهم أولا ، ثم يتم تخييرهم بين دفع الجزية أو الحرب ، فإن أبوا إلا الحرب فعلى المسلمين قتالهم والدفاع عن دينهم . هذا المفهوم كان موجودا حتى في وسط فساد بعض الحكام من بني أمية والعباسيين وفي الدولة العثمانية ، فكانت روح الجهاد التي تميز بها هذا الدين عالية قوية يخاف منها أعداء الإسلام الذين يقاتلون للحياة وللمذات الدنيا . أما المسلمون فيقاتلون لنيل الشهادة ، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم ربهم في الأرض وإقامته والقيام به ليتم بذلك عبودية الله الحقة .

إلا أنه قد تغير هذا المفهوم كغيره من مفهومات الدين ، وأصبح دفاعًا عن الأرض واللغة والقومية وليس له علاقة بدين الله عز وجل . واقتصرت كل دويلة على نفسها بما قسم لها من حدود الأرض التي تتبعها ولا تتعداه من قبل أعداء الإسلام من المستعمرين . وحين تشترك دولتان في قطعة من الأرض تنتطحان فيما بينهما وتتقاتلان قتال المستميت ، كل منهما يحاول نزع تلك القطعة إليه . هذا مع اتفاقهما في الانتماء إلى الدين الإسلامي شكلا . فأصبح مفهوم الجهاد عند المسلمين – إلا من رحم ربك – هو الدفاع عن القومية والأرض والوطن وكلها دعاوي جاهلية ليست من الدين في شيء . قال تعالى : ﴿ **إذ جعل الذين كفروا فِي قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** ﴾ [الفتح : ٢٦] . فكل جهاد يقوم على غير أساس الدفاع عن دين الله تعالى ورفع كلمته وإعلاء شأنه فهو جهاد جاهلي .

ثانيـا : تأثيـر الانحراف في حاملي الديـن

إن تأثير الانحراف على حاملي الدين له مظاهر متعددة وكثيرة يشهدها المسلمون ويدركونها بأنفسهم لأنها عقاب لهم بما كسبت أيديهم ببعدهم عن عبودية الله تعالى الحقة وبتركهم دينهم الحنيف .

لاشك أن الله عز وجل صادق الوعد فيما وعد به عباده المؤمنين بالنصر والتمكين في مثل قوله تعالى : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾ [الروم : ٤٧] .

وقوله : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** ﴾ [غافر : ٥١] . وقوله : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ [المنافقون : ٨] . ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** ﴾ [النساء : ١٤١] .

ولكن هذا الوعد بالنصر والعزة والتمكين .. لمن ؟!

فهو بلاشك كما أخبر سبحانه لعباده المؤمنين . وقد كان لهم ذلك حين كانوا مؤمنين . فلما فقدوا عبوديتهم لله تعالى وإيمانهم به جل وعلا ، استحقوا نزع العزة والنصر عنهم واستبدلوا بالعزة والتمكين الذل والهوان عقابا لهم .

إن سنن الله عز وجل التي وضعها لا تتغير ولا تتبدل في شأن عباده – الكافرين منهم والمؤمنين – إذ هم بعدوا عن شريعته و لم يحققوا عبوديتهم له سبحانه وعصوه وخرجوا عن نهجه .

فأما مع الكافرين فإنهم حين يعصون الله تعالى ويزيدون في طغيانهم وكفرهم يزيدهم الله تعالى بسطة ويمنحهم الكثير من متاع الدنيا وملذاتها ثم يأخذهم بغتة أخذ عزيز مقتدر فيكون ذلك أوقع في نفوسهم وأشد حسرة في قلوبهم . قال عز من قائل : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيْء حتَّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥] . ويقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته » [1] .

وأما مع عباده المؤمنين فإنهم حين يخرجون عن نهج ربهم ، ويتعدون على مقام عبوديتهم له سبحانه فإن الله تعالى يصيبهم بالذل والهوان ويبتليهم . فيكون ذلك عقابًا لهم على تفريطهم وحثًّا لهم على اليقظة من غفلتهم ورقدتهم ، عسى أن يتوبوا ويرجعوا ويندموا على ما صنعوا فيبدلهم الله تعالى خيرا .

---

(١) مسلم / ك : الظلم – ب : في الإملاء للظالم . (ومختصره / ح رقم ١٨٣١) .

قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال تعالى : ﴿ **ظهر الفساد فِي البر والبحر بما كسبت أيدِى الناس ليذيقهم بعض الذِى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ [الروم : ٤١] .

فكيف يكون الوعد بالنصر والعزة والتمكين للمسلمين ، وقد أصيبوا بتركهم دين الله تعالى بالذل والهوان ؟!

أيكون أجر بلا عمل ؟ أم تكون مكافأة بلا استحقاق ؟ أم يكون فوز بلا سعي ولا كسب ؟ فهذا مخالف ولاشك الحكمة الإلهية . حيث يقول تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] . ويقول تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون** ﴾ [ن : ٣٥ ، ٣٦] .

كما لا يكون جزاء الكفر والعصيان إلا الذل والهوان . قال تعالى : ﴿ **لقد كان لسبإٍ فِى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتَىْ أكل خمط وأثلٍ وشىْء من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازِى إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٥ - ١٧] .

ولقد ترتب على بعد الكثيرين من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله عز وجل آثار سيئة على المسلمين عامة كانت - وما زالت - عقابًا من الله تعالى لهم إلى أن يرجعوا إلى دينهم . منها :

(١) الذل والهوان :

وهذا أمر حتمي لما بينه ﷺ في الحديث الجامع الشامل عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - أنه ﷺ قال : « إذا تبايعتم بالعينة [1] وأخذتم أذناب

---

(١) العينة : أن يبيع شيئا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري ، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدا . وهو تحايل على الربا . (السلسلة الصحيحة / مجلد ١ - ص ١٥) .

البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذُلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » [1] .

فيبين الحديث بجوامع الكلم التي فيه المرض وأعراضه وآثاره وطريق علاجه .

أما أعراض المرض فهي : التبايع بالعينة وأخذ أذناب البقر ، والرضا بالزرع وترك الجهاد في سبيل الله تعالى ، وهو محمول على الانشغال بمتاع الدنيا والتكالب عليها فيترتب على ذلك ترك أداء الواجبات كالجهاد وغيره . ولا يقصد من الحديث ذم الزراعة والحرث بل هي محمودة ومثاب عليها . يقول الشيخ ناصر الدين الألباني : « فإن من المعلوم أن الغلو في السعي وراء الكسب يلهي صاحبه عن الواجب ويحمله على التكالب على الدنيا والإخلاد إلى الأرض والإعراض عن الجهاد ، كما هو مشاهد من الكثيرين من الأغنياء » [2] أ.هـ .

وأما آثار المرض فهو : الذل الذي يسلطه الله عز وجل على هؤلاء المرضى من المسلمين فلا ينزعه من قلوبهم إلا بشرط الدواء الموصوف لهؤلاء المرضى وغيرهم وهو الرجوع إلى دين الله عز وجل وتحقيق عبوديتهم لله عز وجل الحقة .

ومن العجب أن نجد – من مظاهر هذا الذل ومصداقا لقول النبي ﷺ المسلمين على تعدادهم البالغ ألف ومائتين مليون مسلم [3] على وجه المعمورة ، تستذلهم شرذمة ذليلة مغضوب عليها من قبل بارئها لا يتعدى تعدادهم خمسة ملايين نسمة يأخذون القدس الشريف وينتهكون حرمته ويتعدون على قبلة

---

(١) السلسلة الصحيحة / ح رقم ١١ .

(٢) السلسلة الصحيحة / مجلد ١ – ص ١٥ .

(٣) تعليق : هؤلاء جميعا هم الغثاء الذي أخبر عنه النبي ﷺ ومن بينهم فئة قليلة مخلصة إلى ربها ، تسعى لتحقيق عبوديتها في الأرض ، وهي مستضعفة ، لم تتمكن بعد من مهاجمة وقتال اليهود حقا وهم على استعداد لذلك بما أوتوا من نور الهداية وثبات اليقين . ولكنهم مستضعفون وتحت ضغط الحكومات اللادينية التي تعمل على تثبيت هؤلاء الشرذمة من اليهود ، فاللهم نسأل أن ينصر دينه وكتابه وسنة نبيه وعباده المستضعفين .

المسلمين الأولى لأكثر من أربعين عاما – وما زالوا – وما استطاع المسلمون على كثرة تعدادهم أن يستردوا القدس الشريف من هؤلاء الكفرة الفجرة من اليهود . هذا بالإضافة إلى التخلف والتقهقر الذي أصاب المسلمين في كافة المجالات الحضارية ، وتقدم أعدائهم فيها . إنه الذل والهوان الذي أُصيب به المسلمون ببعدهم عن عبودية الله تعالى الحقة وبمخالفتهم أمر ربهم جل وعلا وأمر رسولهم عليه الصلاة والسلام القائل فيما رواه ابن عمر – رضي الله تعالى عنه – : « بُعثت بالسيف بين يدي الساعة ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم » [(١)] .

وهو ما وقع بالفعل من مخالفة كثير من المسلمين أمر نبيهم وشرعه واتباع سنن الكفار من اليهود والنصارى والتشبه بهم .

(٢) تسلط الأعداء عليهم :

إن الغفلة التي انتابت الأمة الإسلامية والذل الذي لحق بها من جراء بعدهم عن العبودية الحقة لخالقهم أعطت الفرصة لأعدائهم للإغارة عليهم لسلب ملكهم ونزع سلطانهم ، ولطالما ظل الكافرون يحقدون على هذا الدين وعلى أهله ويتمنون ذلك اليوم الذي يُقضى عليه نهائيا ويسعون في تحقيق ذلك سعيا ويبذلون له كل غال ورخيص . ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يتم نوره ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [الصف : ٨ ، ٩] .

فقد استغل الصليبيون فرصة غفلة من المسلمين فقاموا بشن الحروب الصليبية على العالم الإسلامي للقضاء على الإسلام وأهله ، وبحملات استمرت قرونا من الزمان تصدى لها مؤخرا من قيضه الله تعالى لحفظ دينه والدفاع عنه ،

---

(١) رواه أحمد / ٢ – ٥٠ ، صحيح الجامع / ح رقم ٢٨٢٨ .

وهو عماد الدين أتابك زنكي [١] ، ومن بعده ولده نور الدين محمود زنكي [٢] ، ثم جاء القائد البطل صلاح الدين الأيوبي [٣] ، فحقق أكثر الإنتصارات للمسلمين وقضى على الصليبيين في موقعة حطين وأعاد الله تعالى به للمسلمين مجدهم وعزهم .

ولكن رجع الكثيرون ثانية إلى المجون واللهو والترف والإنحلال الخلقي ، والبعد عن عبودية الله تعالى الحقة . فزحفت عليهم جيوش التتار وهجمت هجوما ساحقا لإبادة المسلمين . فتحقق لهم الاستيلاء على أهم جزء من بلاد المسلمين وهو الشام والعراق وسقطت الخلافة العباسية وآل الأمر لهؤلاء التتار الذين كانوا لا دين لهم ولا أمانة . ثم جاء القائد الرباني سيف الدين قطز [٤] فقضى عليهم وأبادهم وقتلهم شر قتلة في موقعة عين جالوت بالشام . ثم جاء العثمانيون بقوتهم الحربية وأخذوا زمام خلافة المسلمين فقاموا عليها قرونًا وأثبتوا كفاءتهم في الحفاظ على الدين الإسلامي ، وكانت البلاد الكافرة كلها تهاب الدولة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية التي استمر ملكها وخلافتها أكثر من خمسة قرون متتالية . إلى أن جاء الغزو الصليبي الأخير فقضى على قوة الإسلام والمسلمين ، فغزت أوربا الصليبية الحاقدة أقطار المسلمين حين ضعفت الأمة الإسلامية وتفككت وبعد كثير من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لخالقهم جل وعلا . فغزا الإنكليز كلا من الهند

---

(١) زنكي عماد الدين بن قسيم الدولة الحاجب ، عرف بالملك الشهيد ، كان تركيا قاد ميمنة الجيش ضد الإفرنج وأجلاهم عن حلب وحماة ، ولد سنة ٤٧٨ هـ ، وتوفي سنة ٥٤١ هـ .
(الأعلام – الزركلي / مجلد ٣ – ص ٥٠ – ط ٥) .

(٢) محمود بن زنكي ، نور الدين ، توفي سنة ٥٦٩ هـ .
(الأعلام – الزركلي / مجلد ٣ – ص ٥٠ : ط ٥) .

(٣) يوسف بن أيوب – توفي سنة ٥٨٩ هـ .
(الأعلام – الزركلي / مجلد ٢ – ص ٣٩ : ط ٥) .

(٤) قطز بن عبد الله المعزي ، سيف الدين ، ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام نهض لقتال التتار بعد أن خربوا بغداد ، فخرج سيف الدين قطز من مصر لقتالهم ، ولقيهم وظفر بهم في موقعة عين جالوت بفلسطين ، توفي سنة ٦٥٨ هـ . (الأعلام – الزركلي / مجلد ٥ – ص ٢٠١ : ط ٥) .

ومصر والعراق وشرق الأردن وفرضت الوصاية على فلسطين تحت إشرافها تمهيدًا لإقامة دولة إسرائيل ، كما احتلت فرنسا سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ، كما غزت إيطاليا ليبيا . إلى غير ذلك من الحملات الصليبية الحاقدة التي غزت معظم أقطار العالم الإسلامي لتفتيت الأمة الإسلامية بأسرها جملة واحدة في وقت واحد . فاستطاع حلفاء الصليبية من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا القضاء على الخلافة العثمانية والقضاء على الإسلام .

وإليك النشيد الحماسي الذي كان يردده الجنود الإيطاليون حين خروجهم لقتال المسلمين في طرابلس والذي يدل على مدى الحقد الدفين لدى هؤلاء الصليبيين تجاه الإسلام وأهله . وهذا نصه : « إن من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره أن لا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس ، والراية المثلثة الألوان [1] والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة .. يا أماه .. أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي . ألا تعلمين إن إيطالية تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورًا لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز الأبكار للسلطان . سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن » [2] .

وقد بذل أعداء الإسلام جهودًا كبيرة لمنع عودة الإسلام إلى قوته ثانية ، وحرصوا كل الحرص أن يظل المسلمون في صراع فيما بينهم ، وضعف وافتقار إلى أعدائهم وتخلف عن أي تقدم حضاري . كما يقف أعداء الإسلام بالمرصاد لأي محاولة تدعو إلى إصلاح المسلمين وإعادة الدين إليهم ، وتقضي عليها من بدء بزوغها مستخدمين بذلك شتى الحيل والوسائل الملتوية [3] . عن طريقهم مباشرة

---

(١) وهو العلم الذي اتخذته معظم الدول الأوربية شعارا لها والذي يمثل (الحرية والإخاء والمساواة) وهو شعار ماسوني معروف . (راجع : أزمة العصر – محمد محمد حسين / ص ١٩٥) .

(٢) نقلا عن : « لماذا تأخر المسلمون » – شكيب أرسلان / ص ٣١ – ٣٢ . من الهامش .

(٣) إن ما يجري في أيامنا من أحداث خير شاهد على ما نقول به منها : حادثة اغتيال الرئيس الباكستاني ضياء الحق حين ظهر منه – رحمه الله تعالى – رغبة أكيدة في تطبيق الشريعة الإسلامية ، ومساعدته الظاهرة =

أو عن طريق عملائهم من أبناء المسلمين الذين باعوا دينهم . فقد نقل الأستاذ محمد قطب عن أنديرا غاندي قولة تفصح عن نواياهم الخبيثة في تقديرها لأحد رؤساء الدول العربية لقيامه بسحق وتقتيل الإخوان المسلمين المتعصبين [1] .

كما نقل الأستاذ – حفظه الله تعالى – عن إحدى الصحف البريطانية استياءها من مخالفة هذا الحاكم السابق الذكر لتصرف ما ، ولكنها في الوقت نفسه تمدحه وتثني عليه لما قام به من سحق الإخوان المسلمين المتعصبين [2] !

إنها الحقيقة التي أخبر الله تعالى عنها منذ أربعة عشر قرنا بقوله : ﴿ **ولن ترضَى عنك اليهود ولا النصارى حتَّى تتبع ملتهم** ﴾ [البقرة : ١٢٠] . وبقوله : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾ [المائدة : ٨٢] . وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن سطو تلك الأمم الكافرة على الأمة الإسلامية حين غفلتها وبعدها عن عبوديتها لله جل وعلا وانغماسها في ملذات الدنيا وشهواتها بقوله : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها » . قال قائل : « أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « لا .. بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن » . قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » [3] .

= للمجاهدين الأفغان وتمويلهم بالسلاح لإقامة دولتهم المسلمة ، وكذلك تحالف روسيا وأمريكا ومساندتهم النظام الأفغاني الشيوعي ضد المجاهدين الأفغان حتى لا تقوم لدولة المجاهدين المسلمة قائمة ، وكذلك ما جرى مؤخرا من اغتيال رئيس جزر القمر لعزمه الأكيد على تطبيق الشريعة الإسلامية ، أضف إلى ذلك ما يجري بالسودان من المحاولات المتتالية لتطبيق الشريعة الإسلامية ، والقضاء عليها من قبل أعداء الإسلام أولا بأول .
فهل للمسلمين أن ينتبهوا لما يجري على يد أعدائهم للقضاء عليهم وعلى دينهم ؟!!

(١) واقعنا المعاصر – محمد قطب / ص ٤٣١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) السلسلة الصحيحة / ح رقم ٩٥٨ .

(٣) إصـابتـهم بالجـوع والخـوف :

إن من أهم الدعائم الأساسية لأي مجتمع الأمن الغذائي ، واستتباب الأمن النفسي ، وتكون هاتان الدعامتان موجودتين وظاهرتين في المجتمع الإسلامي بتمسك أفراده وتحقيقهم لعبوديتهم لخالقهم جل وعلا . يقول الله عز وجل : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت * الذِى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] .

أما إذا بعد أفراد المجتمع الإسلامي عن عبوديتهم الحقة لله تعالى فإنه يبدلهم جل وعلا بسعة رزقهم جوعا ، كما يبدلهم بالأمن خوفا ، فيعيشون في رعب مستمر . وهو ما يحدث بالفعل في كثير من المجتمعات الإسلامية . وقد كان من الأولى لها أن تعي ما حدث للأمم السابقة فتعتبر . فقد ضرب الله لنا منها أمثلة . كقوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢] .

وإخباره جل وعلا عن قوم سبأ في قوله : ﴿ **لقد كان لسبإٍ فِى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتَىْ أكل خمط وأثل وشىْء من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازِى إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٥ - ١٧] .

إن الجوع والخوف اللذيْن انتشرا في كثير من البلاد الإسلامية ليفزع منه الكثيرون حيث انتشرت المجاعات وارتفعت نسبة الوفيات واضمحلت الرعاية الصحية وعمَّ الجفاف في كثير من أراضي تلك البلاد ، فاستغلت هذه الحالة جمعيات التنصير هناك في إطعام المسلمين هناك مقابل تركهم إسلامهم واعتناقهم النصرانية . فيقبلون تحت ضغط الفاقة وشدة الحاجة وإلا فالموت أمام أعينهم يشاهدونه يوميا بالمئات [١] .

---

(١) مما تجدر الإشادة به ما تقوم به هيئة الإغاثة العالمية التابعة لرابطة العالم الإسلامي من جمع التبرعات والإسراع في إعانة ونجدة إخوانهم المسلمين في البلدان الإسلامية التي أصابها الجفاف والمجاعات ، نسأل الله تعالى لهم العون والسداد فيما يبذلونه .

(٤) ضياع الخشوع وعلماء الأمة العاملين :

إن بُعد المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله تعالى وانسلاخهم من دينهم لينزع من قلوب الكثيرين خشية الله جل وعلا كما ينزع من الأمة أغلى أعمدتها وهم العلماء العاملون حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا هم قمة الجهل ، ولكنهم في نظر العوام علماء فأفتوهم بما يوافق أمزجتهم فضلوا وأضلوا . وهو تصديق لما أخبر به المصطفى عليه الصلاة والسلام عن مآل هذه الأمة بتركها دينها . فعن أبي الدرداء – رضي الله تعالى عنه – قال : قال ﷺ : « أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعا »[١] .

وأما عن ضياع العلماء العاملين الذين هم ورثة الأنبياء وحملة الدين وحاميه ومنارات الهدى لعامة المسلمين ، فقد أسهم فقدانهم – أو بمعنى أدق قلتهم – في ضياع المسلمين وإضلالهم عن دينهم . فعن عبد الله بن عمرو – رضي الله تعالى عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »[٢] .

(٥) عدم استجابة الدعاء :

وهذا من أعظم آثار انحراف كثير من المسلمين ظهورا ووضوحا . حيث يدعوا المصلون منهم ربهم في اليوم والليلة سبع عشرة مرة بقول : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ بصيغة الجمع ﴿ **اهدنا** ﴾ ولكن ما نراه من حال المسلمين الذي يزداد سوء لا يحقق استجابة للدعاء .

فهل من غفلتهم ؟ أو من بعدهم عن العبودية الحقة لخالقهم ؟ أو من عقاب الله تعالى لهم ؟

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب – للمنذري – تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني / ك : الصلاة – ب : الترهيب من عدم إتمام الركوع والسجود (ح رقم ٥٤٣) .
(٢) بخاري / ك : العلم – ب : كيف يقبض العلم .

كل هذا حق وواقع ويمكن أن يقال . ولكنا لا نستطيع بحال أن نشك في وعد الله عز وجل في قوله : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم** ﴾ [غافر : ٦٠] .

فهلّا راجعنا أنفسنا لنعلم أسباب تأخير الاستجابة من الله عز وجل !

والتي منها انشغال الكثيرين من المسلمين بملذاتهم وشهواتهم ولهوهم عن ذكر الله تعالى ، وهذه من عوامل تأخر الاستجابة في الدعاء بل عدمها بالكلية لقوله عليه الصلاة والسلام : « واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » [(١)] .

إضافة إلى عدم مبالاة الكثيرين في التحري من طيب الرزق ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » [(٢)] .

(٦) جملة من الآثار في انحراف المسلمين :

هذه جملة من الآثار التي ترتبت على انحراف المسلمين حكاما ومحكومين لبعدهم عن عبوديتهم الحقة لله جل وعلا أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ من حديث عبد الله بن عمر – رضي الله تعالى عنه – حيث يقول : « يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم ، إلا منعوا القطر

(١) ترمذي / ك : الدعوات – ب : ٦٦ . (وصحيحه / ح رقم ٢٧٦٦) .
(٢) مسلم / ك : الزكاة – ب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها .
(ومختصره / ح رقم ٥٤٠) .

من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا [1] . ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم . وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » [2] .

فهذا حديث جامع . ينبغي على المسلمين دراسته دراسة وافية يتم بها صلاحهم وإصلاحهم ، فيتعرفون فيها على ما هو واقع بالفعل ومشاهد في حياتهم اليومية بما يغني عن البيان ، فيفيق الغافل من غفلته ويستيقظ النائم من رقدته . هذا بالإضافة إلى العديد من الآثار الناجمة عن بُعْد كثير من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله جل وعلا والتي نسأل الله تعالى أن يردهم إليها ردا جميلا . قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتَّى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد : ١١] .

* * *

(١) لقيام البهائم بعبوديتهم تجاه خالقهم جل وعلا من التسبيح والسجود وغيرها مما قد بيناه بالأدلة الثابتة في الفصل الثاني من الرسالة .

(٢) ابن ماجة / ك : الفتن – ب : العقوبات (وصحيحه ح رقم ٣٢٤٦) .

المبحث الثالث
طريق النجاة

رأينا في المبحثين السابقين أسباب انحراف كثير من المسلمين عن العبودية الحقة لخالقهم جل وعلا ، والآثار التي ترتبت على بعدهم عنها ، من خلال الواقع الذي يعيشه المسلمون .

وها نحن في هذا المبحث نحاول جادين في الوصول إلى حلول تمكن المسلمين من الوصول إلى طريق النجاة وتأخذ بيد كثير من المسلمين ممن أصابهم مرض البعد عن الله جل وعلا ، إلى بر أمان العبودية الحقة لله تعالى .

ولعلي أسجل هنا سطورًا يمليها عليّ قلبي ويحتمها عليّ ديني . ليست من نظرة الباحث فحسب ولكنها ابتداء نظرة المسلم الغيور على دينه ويريد الخلاص من الذل والهوان اللذين أصابا المسلمين ، ويأمل العزة والنصر والتمكين التي وعدها الله تعالى عباده المؤمنين إن هم رجعوا إليه سبحانه بتحقيق عبوديتهم الحقة له جل وعلا . قال تعالى : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ [المنافقون : ٨] . وقال : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ [غافر : ٥١] .

فهذه السطور التالية تبحث بصفة خاصة عن الحلول العملية لتصحيح مسار المسلمين للرجوع إلى دينهم القيم . ولا أعني بالحلول العملية ، الحلول التي تبقى حبرًا على الورق ، أو التي تصطدم بالواقع الخارجي وليس لها تطبيق إلا في عالم الخيال والأحلام ، وهو ما وقع فيه بعض من الكتاب المسلمين – وما زال – كما نجد بعضا آخر منهم حاول إيجاد حلولا عملية ولكنها لا تأخذ ثمة اهتمام منهم ، فتجدهم يسردون خط انحراف المسلمين من الناحية التاريخية سردًا دقيقًا ومفصلا ،

وكذلك آثار انحراف المسلمين شرحًا وافيا . بما يشغل تسعة أعشار الكتاب ، ثم يأتي فيما يختص بحل القضية – وهو الأهم في الوقت الحاضر – فيسرده موجزا ومتقضبا . كما أن بعضا مما يقترحه يكون تطبيقه في الواقع الخارجي لحياة المسلمين صعبًا وخيالا .

إنني لا أطعن في نيَّات هؤلاء ولا هؤلاء فقد قصروا إلى حد كبير . لذا فإني أدعو علماء المسلمين والدعاة الذين يعملون في حقل الدعوة إلى أن يتجهوا بجهودهم إلى ما فيه خلاص الأمة وإزالة الغمة عن طريق العمل الجاد والكتابات المجدية لشفاء مرضى المسلمين من مرض البعد عن الله جل وعلا وعبوديته الحقة .

فأنا أعطي مثالا على ما يقع فيه بعض الكتاب حتى أوضح ما أقول بالحلول العملية . فيذكر بعض الكتاب المسلمين الأفاضل عن طرق خلاص المسلمين مما هم فيه فيقول : « إن المسلمين يحتاجون قبل كل شيء إلى إيمان عميق بدينهم ، وفهم صحيح واسع له ، واستعداد تام لإقامته في حياتهم ، ويحتاجون إلى يقين ثابت بأن العودة إلى الإسلام هي الطريق الوحيد للخلاص من كل ما يعانونه اليوم في مجتمعاتهم . إنهم يحتاجون إلى روح جهادية عالية و.. إلخ [1] .

إن من شأن ذلك كله أن يبعث في المسلمين قوة دافعة تهون في نفوسهم شدة العقبات وضخامة الجهود » .

ونحن نتساءل كيف يصل إلى المسلمين ما يحتاجون إليه من إيمان عميق بدينهم ، ويقين ثابت ، وروح جهادية عالية ؟!

هل هذه الإحتياجات تتحرك من ذاتها فتدخل في نفوس وقلوب المرضى من المسلمين ؟! أو هي مصل وقائي يوضع للمسلمين في حقن ؟! أو هي مشروبات وأكلات سهل عليهم اقتناؤها وشربها ؟! إنها احتياجات – ولاشك – ضرورية ومهمة ، ولكنها كلمات تبقى حبرا على الورق ، لا تعمل من ذاتها .

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر وكيف ينبغي أن يكون – خضر مصطفى النيجيري . رسالة دكتوراه – جامعة أم القرى – سنة ١٤٠٥ هـ / ص ٥١٢ ، ٥١٣ .

إني أتساءل : كيف نأخذ بأيدي هؤلاء المرضى مما هم فيه حتى نصل بهم إلى بر أمان العبودية الحقة ؟ .

وفريق من الكتاب ممن اغتر بتقدم الغرب يتأسف على حال المسلمين وكيف أن الكفار قد تقدموا ووصلوا إلى القمر وصنعوا أحدث الأسلحة والصواريخ والقنابل الذرية .. إلخ ثم يطالب المسلمين بأن يعملوا جادين في إعداد العدة للقتال ويحثهم على عمل أرقى الأسلحة لمواجهة التقدم الغربي مستدلا بقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ونحن نقول له – ولغيره – إن المسلمين اليوم لا يملكون أهم سلاح وهو عبوديتهم الحقة لخالقهم جل وعلا – إلا من رحم ربك – فقبل أن تدعوهم لاختراع أرقى الأسلحة الفتاكة لمسابقة الغرب ، مُرهم بأن يرجعوا إلى عبوديتهم الحقة لله جل وعلا التي جهلوها وانصرفوا عنها . فوالله الذي لا إله إلا هو ، لو أنهم أوتوا تلك العلوم الحديثة والمخترعات الفائقة والأسلحة المدمرة ، وتفوقوا في مجموعها على ما عند الغرب ، إلا أنهم لم يرجعوا إلى عبوديتهم الحقة لله جل وعلا . فإنهم لا عزة لهم ولا نصر ولا تمكين . أما وقد رجعوا إليها فإن نصر الله تعالى قريب ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** ﴾ [غافر : ٥١] .

وإليك – وإلى جميع المسلمين – مثال حي ينطق بالحق ، وهو : حين اطمأن بعض المسلمين الأوائل – والنبي ﷺ بين ظهرانيهم !! – على التفوق العددي في بعض غزواتهم ، عاقبهم الله تعالى ولقنهم درسًا لن ينسوه ، ولكن نسيه الكثيرون اليوم . كان ذلك في غزوة حنين إذ قال بعض المسلمين لما رأوا تفوقهم العددي على أعدائهم : « لن نغلب اليوم من قلة » فاطمأنوا على قوة العدد ، مع أنهم لم يغفلوا عن عبوديتهم لله جل وعلا . فهل نفعهم ذلك ؟ كلا فقد انتصر المشركون لمكيدة فعلوها في بدء المعركة ، اضطرت الكثير من المسلمين

إلى الفرار [1] . وفي هذا يقول تعالى : ﴿ **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم** ﴾ [٢٥ - ٢٧] . فهل من معتبر اليوم ؟! فإذا كان هذا قد وقع لخير القرون على الإطلاق وهم غير غافلين عن عبوديتهم لله تعالى ، فكيف بمن انسلخ عن العبودية الحقة وتمرغ في أوحال المعاصي ولم يعتز إلا بالقومية وقوة السلاح والعدد ؟! .

من السهل علينا أن ننطق بالحل الذي بينه ﷺ في حديث ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - إذ يقول فيه : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » [2] .

أو ما وضحه الإمام مالك - رحمه الله تعالى - بقوله : « ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

فنقول للمسلمين : إن الحل لما نحن فيه هو الرجوع إلى الدين .

ولكن من الصعب تحقق ذلك عمليا في واقعنا المعاصر . والسبب في ذلك :

أن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - حين سمعوا مقالة النبي ﷺ كانوا مدركين تماما لما تحمله كلمة « الدين » خاصة وأنه ﷺ أضافها إليهم بقوله : « دينكم » فعلموا مقالة النبي ﷺ « حتى ترجعوا إلى دينكم » ووعوها .

---

(١) لمزيد من المعلومات لما دار في تلك الغزوة « حنين » ..
راجع : « السيرة النبوية » لابن هشام / جـ ٢ - ص ٤٣٧ .
« الرحيق المختوم » لصفي الدين المباركفوري / ص ٤٦٥ - ٤٧٠ .
(٢) سبق تخريجه ص ٤٨٦ .

أما المسلمون اليوم فيعتبر رجوعهم إلى دينهم من أشق الآمال ، نظرا لما ران على قلوب الكثير من المسلمين واستقر في أذهانهم من انحسار مفهوم الدين وانقلاب الموازين في عقولهم رأسا على عقب في جعل المنكر معروفًا والمعروف منكرًا ، وتحول المفهوم الصحيح للدين إلى انحرافات في معظم مفهومات الدين – كما رأينا في المبحث السابق – أضف إلى ذلك تسلط أعدائهم وكبتهم عن محاولة الرجوع إلى الدين ولو بالشيء اليسير ثم تحالف أغلب حكام المسلمين مع الأعداء في هدم الإسلام وأهله عن طريق شبكات التجسس الخارجية والداخلية ، والقوانين التعسفية الوضعية الجائرة التي يحكم بها حكام المسلمين والتي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، ويخضع لها المسلمون دون اختيار منهم . كل هذا – وغيره كثير من العقبات الجسام – تجعل الطرق العملية والحلول الإيجابية أمرا شاقا وليس بالهين ، كما تجعل قولة النبي ﷺ : « حتى ترجعوا إلى دينكم » صعبة المنال ، عسرة التطبيق ، سهلة التفوه بها . هذا مع إقرارنا بأنها الحق المبين الذي لا مرية ولاشك فيه .

لقد وعد الله عز وجل عباده المؤمنين بالتمكين في الأرض إذ هم قاموا بعبوديتهم لله جل وعلا . هذا التمكين لهم لا ليفسدوا في الأرض ولا لينصرفوا عن ربهم وخالقهم وإنما لإقامة عبوديتهم لله تعالى ، فالله عز وجل يمكن عباده بعبوديتهم له جل وعلا لعبوديتهم له سبحانه . قال تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فِي الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذِى ارتضَى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونِنِى لا يشركون بِى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [النور : ٥٥] .

وكما يبدو لي – ولغيري من الشيوخ الأفاضل وبعض أساتذة الشريعة وبعض الدعاة ممن حاولت أخذ آرائهم في طريق نجاة المسلمين – أن الحلول العملية وتطبيقها في الواقع الخارجي الذي يرفض كل ما هو إسلامي ، أمر صعب للغاية . فلا نستطيع أن نعمل من فراغ ، وكذا الدين لا يعمل من ذاته . إذا ... فما العمل ؟!

لابد وأن نعمل في نطاق الإمكانيات المتاحة دون شطط أو بخس . فأقول : إننا نحتاج إلى قوتين للعمل الإسلامي من أجل نجاة المسلمين .

الأولى : قوة مفكرة . ينتج عنها البحث والتنقيب في المناهج والأساليب الشرعية في التغيير في شتى المجالات في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة .

والثانية : قوة مؤثرة . ينتج عنها إلزام المسلمين بالاتباع .

وهاتان القوتان يحمل ثقلهما العلماء والدعاة والمصلحون . حيث إن واجب هؤلاء اليوم بل هو من أوجب الواجبات في مجال العمل الإسلامي هو تفهيم المسلمين ما جهلوه من حقيقة عبوديتهم لخالقهم جل وعلا وتطبيق مباديء الإسلام وأخلاقياته تطبيقا عمليا .

وهذا يدعو الدعاة والعلماء والمصلحين إلى الالتزام بالدين كاملا بصورته الصافية النقية ابتداء تطبيقا عمليا فيكونوا قدوة لمن يدعوهم . ولنحذر قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾** [الصف : ٢ ، ٣] .

ولقد اقترح بعض العلماء العاملين في الدعوة الإسلامية احتياج المسلمين إلى تربية وتصفية [١] ، كما اقترح آخر [٢] التربية والبيان ، فاتفقا في التربية ، التي تعني تربية المسلمين على النهج الصحيح والخلق القويم لتصحيح المفهومات المنحرفة لدى المسلمين نحو دينهم . أما التصفية فهي تنقية ما علق بالكثيرين من خرافات وبدع وأحاديث موضوعة وضعيفة ، كما يقصد بالبيان إزالة الجهل عن الأمة بتوضيح وتبيين ما جهله كثير من المسلمين . وكلاهما (التصفية والبيان) قريب من الآخر .

فيقصد بالتربية أيضا الجانب العملي للدين ، وبالتصفية والبيان الجانب العلمي

---

(١) الشيخ / ناصر الدين الألباني .

(٢) الشيخ / محمد قطب .

للدين . وهو ما يوافق ما اقترحته من قبل بالقوتين المفكرة والمؤثرة .

فأقصد بالقوة المفكرة الجانب العلمي للدين ، وبالقوة المؤثرة الجانب العملي للدين . والسبب في تعبيري عن الجانب العملي بأنه قوة مؤثرة هو ما أدعو إليه العلماء والدعاة والمصلحين أن يلتزموا عمليا بالدين ابتداء بالواجبات ، ثم المندوبات في أداء الفرائض والواجبات كما يظهر في سلوكهم : الأخلاق والتضحية والإيثار وبذل المعروف ، والتعاون على البر والتقوى ، وتفقد أمور المسلمين واحتاجاتهم ، والسمت الطيب ، والمخبر الحسن ، والوفاء بالعهد ، وما إلى ذلك من تعليمات الدين الحنيف التي تمنح الملتزمين بها قوة في التأثير على الآخرين ، فتجعل فيهم قوة مؤثرة في إصلاح المنحرفين عن العبودية الحقة فيشار لهؤلاء الملتزمين بالدين الحنيف بأنهم إسلام يمشي ويتكلم ، فلا يحتاج منهم كثرة البيان باللسان والقلم ، فيكفي سلوكهم القويم وقوتهم العملية المؤثرة النفوس للتأثير فيها . وهي ما يعبر عنه شرعا بالأسوة الحسنة أو القدوة الحسنة لقوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فِي رسول الله أسوة حسنة** ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وقوله : ﴿ **أولئك الذين هدَى الله فبهداهم اقتده** ﴾ [الأنعام : ٩٠] وهو ما كان بالفعل موجودا في نفوس الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – من تأثرهم بالقوة العملية للدين الحنيف المتمثلة في شخصية النبي ﷺ والتي ألزمتهم بالإيمان به وبالدين الذي جاء به من عند الله تعالى . وكانوا كذلك من بعده القوة العملية للدين والتي ألزمت المخالفين في دخول دين الله أفواجا وملكوا بها مشارق الأرض ومغاربها . هذه القوة العملية للدين متمثلة في القيام بعبودية الله تعالى الحقة والتي ندعو العلماء والدعاة والمصلحين ابتداء إلى الالتزام والقيام بها ثم بعد ذلك الدعوة إليها . إذ هم دون غيرهم حملة ميراث النبوة من العلم ، وهذا العلم لا يغني ولا يسمن من جوع إن لم يترجم إلى واقع وسلوك فعلي ، فإن العلم الذي لا يورث العمل به فالجهل أولى به . فعجبا أن يتردد على ألسنتنا بأن الذين فتحوا جزر الملاوي وأندونيسيا وجاوا هم المسلمون التجار وأنه قد دخل كثير من أهل تلك الجزر – أو كلهم – في الإسلام بتأثير القوة العملية للإسلام المتمثلة في أولئك المسلمين

التجار وهم ليسوا بعلماء ولا مختصين في الدعوة . إنما هم مسلمون تجار تحققت فيهم قوة من العبودية الحقة لله عز وجل أثرت في قلوب هؤلاء الناس وألزمتهم بالدخول في الإسلام . هذه القوة المؤثرة التي ينبغي على العلماء والدعاة والمصلحين التحلي بها لا التخلي عنها ، مع ما لديهم من قوة مفكرة كافية لرجوع المسلمين إلى دينهم وعبوديتهم الحقة لله تعالى . فمن واقع حياتنا من افتقارنا إلى العلماء العاملين – إلا اليسير النادر – جعل كثيرا من الهيئات الإسلامية القائمة بالدعوة تترجم العديد من الكتب الإسلامية وأولها كتاب الله تعالى ثم كتب السنة وأشهرها الصحيحان إلى كثير من لغات العالم ليتمكن أهل الملل والديانات المحرفة من التعرف على حقيقة الإسلام وهو ما يمتاز به هذا العصر إذ ساعد ذلك على انتشار الإسلام في جميع أنحاء العالم ولكن مما يؤسِف أن المسلمين – إلا من رحم ربك – يفتقدون القوة العملية المؤثرة التي بوجودها مع الكتب المترجمة عن الإسلام ، يدخل معظم العالم في دين الله تعالى أفواجا وكأن تلك الهيئات الإسلامية تقول بلسان الحال : يا من تريدون الدخول في الإسلام عليكم أن تقرءوا هذه الكتب لتتعرفوا على حقيقته وعظمته . أما نحن المسلمون فلا نملكه ! إنما هو في الكتب ! والذي يدخل في الإسلام ولا يعرف عن حال المسلمين من الابتعاد عن العبودية الحقة لخالقهم جل وعلا ، ولكنه قرأ عن الإسلام الذي في الكتب المترجمة فإنه حين يصطدم بواقع المسلمين ، يصاب بخيبة أمل وقد يؤدي ذلك إلى فتنة تصيبه في دينه والعياذ بالله تعالى .

هذا بخلاف المسلمين الأوائل – كما أسلفنا – الذين حققوا العبودية الحقة ، فكانت حياتهم تتكلم إلى من يدعوهم بلسان الحال والمقال معا فما احتاجوا إلى الترجمة بشكلها الواسع وبكمياتها الضخمة وبإمكانياتها العالية التي عليها الآن . بل دفعوا الناس إلى تعلم اللغة العربية ليعثروا على الكنوز التي في هذا الدين العظيم ليهتدوا بها من ظلمات الجهل والغي والضلال .

إن جل كلامي ينصب بالدرجة الأولى على العلماء والدعاة والمصلحين فهم أعمدة الأمة الإسلامية وقواعدها الثابتة القوية التي تنبني عليها .

يقول الأستاذ محمد قطب – حفظه الله تعالى – عن دور العلماء في إصلاح الأمة : « لقد كان علماء الدين دائما في تاريخ الأمة هم قادتها وموجهيها ، وهم ملجأها كذلك إذا حزبهم أمر ، وملاذها عند الفزع تتجه إليهم لتتلقى علم الدين منهم ، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة ، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم . بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وكان العلماء يُضطهدون من قبل ذوي السلطان أحيانا ويُلقون في السجون أحيانا ، ويُؤذون في أبدانهم وأموالهم وكرامتهم أحيانا . ولكنهم يصمدون لهذا كله ، تقديرا لمسئوليتهم أمام الله – وهم الذين منَّ الله عليهم بمعرفة دينه – حين يسألهم ربهم يوم القيامة عن « الأمانة » الكبرى الملقاة على عاتقهم ، عن مهمة دعوة الناس إلى الحق – حاكمهم ومحكومهم – ومهمة النصيحة في الدين لأولي الأمر خاصة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للراعي والرعية سواء . وإمامهم ﷺ يشجعهم على احتمال البلاء في سبيل هذه الأمانة . فيقول لهم : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » [1] ، وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في أمورها السياسية والإجتماعية والإقتصادية والفكرية والروحية . فكانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان . يذكرونها بالله واليوم الآخر والجنة التي تنتظر المجاهدين الصامدين وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم أحيانا ، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان .. » [2] .

إنني ما زلت أصرخ في وجوه العلماء والدعاة والمصلحين بأن يرجعوا إلى عبوديتهم الحقة لله عز وجل وتحقيقها في أنفسهم . فوالله الذي لا إله غيره إني لأكتب هذه الكلمات وأتجه إلى الله العلي أن تجد لها قلوبا واعية وآذانا صاغية ونفوسا ذاكرة في وسط الكم الغفير من الذين يعلمون كثيرا ويعملون قليلا ، فآمال الأمة كلها بهم . إذ هم الفرقة الظاهرة . فيقول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ٣٥٦٩ ، السلسلة الصحيحة / ح رقم ٣٧٤ .

(٢) واقعنا المعاصر – محمد قطب / ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

« ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » [١] . فيذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - نقلا عن البخاري - رحمه الله تعالى - أنهم أهل العلم [٢] .

وأهل العلم المقصودون في الحديث هم العالمون العاملون . فهو حث للعلماء أن يعملوا بما علموا وإلا فحسابهم عسير يوم القيامة حين يلقون ربهم جل وعلا . فبهم ترقى الأمم ، وبهم تتردى .

يقول د. بكر أبو زيد - حفظه الله تعالى - : « وتأمل سرا عظيما من أن ترقي الأمة وانحطاطها وانضباطها أو فشلها يؤول إلى ركن ركين وأصل أصيل قوة أو ضعفا ، اجتماعا أو تفرقا إلى « رابطة العلماء » ولما يقوم بهم من احتساب يصغر دونه الاكتساب ، واجعل نظرك إلى قيام « رابطة العلماء » مقياسا تقيس به الدول وتزن به الأمم فيمن غبر وحضر . والعالم العدل هو (المحتسب) الذي لا يحترف بالإسلام ولا تثنيه الأطماع . هذا الواجب هو الذي من أجله سميت هذه الأمة (خير الأمة) ، ومن أجلها صاروا (أمة وسطا) ، وصاروا (شهداء على الناس) ، هذا هو المتعين على العالم المتأهل : تفاعل مع الدعوة ، وقيام بها ، وأن تكون دائرة همه ، وتفكيره ، فلا يهمه إلا همها ، ولا يفكر إلا بسبيلها ، طلبا لبناء الأمة في (غربتها الثانية) ، بناء وتأسيسا على منهاج النبوة ، على يد علماء الأمة العاملين من التربية والتوجيه والتعليم ، والإرشاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، شعورا بهذا الواجب ، وأداء له ، وإقامة للحجة على الخلق وحفظا لرأس المال (المسلمين) ، وطلبا للربح . أما أن يتولى أهل العلم عن مهمتهم في موقع الحراسة لدين الله ، ويتأخرون عن مواجهات عصرهم ، فهذا من التولي يوم الزحف » [٣] .

---

(١) بخاري / ك : الإعتصام بالكتاب والسنة - ب : قول النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » .

(٢) فتح الباري / جـ ١٣ - ص ٢٩٣ .

(٣) حكم الإنتماء - بكر أبو زيد / ص ٥٠ ، ٥١ .

وقد كنت من قبل أطالب بوجود « رابطة العلماء » بنفس الاسم الذي أطلق عليه د. بكر أبو زيد . إلا أنني وجدت هذا المطلب صعب المنال في وسط الهيئات اللادينية التي تعمل بكل جهدها لإخمادها وتمنح المؤسسات الدينية قدرا من التحرك دون المساس بها أو بخططها ، بل يكون هذا القدر الممنوح في خدمة الهيئات التي لا تحكم بما أنزل الله تعالى ، لا في تعكير صفو حياتها الإنحلالية .

لذا فوجدت أن أوجه النداء إلى العلماء والدعاة والمصلحين للرجوع إلى عبوديتهم لله جل وعلا وتحقيقها في أنفسهم ، ثم يقومون بعد ذلك – أو عند ذلك – إلى دعوة الناس إليها وانتشارها بينهم انتشارا أفقيا بمعنى أنه يشمل ويضم دعوة العديد من المسلمين إلى العبودية الحقة لله جل وعلا . علما بها وعملا لها عن طريق الاحتكاك بالمسلمين من خلال خطب الجمعة بموضوعاتها المفيدة والمركزة في تفهيم الناس عبوديتهم لخالقهم ، وحلقات الدروس اليومية والأسبوعية وفي المدارس والجامعات والمؤسسات . كل حسب قدرته وطاقته ، وكل حسب الإمكانيات المتاحة له ، فإن كانت الإمكانيات التي حولنا ضيقة ومحدودة على حسب ما بيناه آنفا ، فالقدرات والطاقات التي لدى العلماء والدعاة والمصلحين لابد وأن تكون واسعة وقوية ومركزة نحو الهدف في رجوع المسلمين إلى عبوديتهم الحقة لله جل وعلا . ونحن نجد هذه الأيام بشائر خير على يد بعض العلماء والدعاة والمصلحين في دعوة الناس إلى الرجوع إلى دينهم بما يسميه بعض الدعاة بالصحوة الإسلامية .

إنه رغم ما حدث من الانحراف لكثير من المسلمين في مفهومات الدين . إلا أنه ما زال يقر في قلوبهم حتى المنحرفين منهم تقدير أهل العلم والدين واحترامهم والإلتجاء إليهم في حالة التوبة والندم . وهذا يدعو العلماء والدعاة والمصلحين إلى استغلال هذا مع ما أدعو إليه من التزامهم أولا بالقيام بعبودية الله تعالى الحقة ، إلى دفع المسلمين إلى الرجوع هم الآخرين إلى العبودية الحقة لله جل وعلا . وإنا لنأمل في هؤلاء العلماء والدعاة المصلحين من يخرج بينهم ويقيم للإسلام دولته وما ذلك على الله تعالى ببعيد . فقد أخبر النبي ﷺ ببعثة

من يجدد هذا الدين في قوله : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها » [(1)] .

لذا فقد ذكرت سابقًا إن انتشار الدعوة يكون أفقيا لتثبيت القاعدة التي تدعو إلى عبودية الله تعالى الحقة وتستطيع بالتالي الدفاع فيما بعد عن دينها ونفسها ، والصد لأي هجوم خارجي . أما ما يفعله الكثيرون في الانتشار الأفقي قليلا ثم ينتشرون رأسيا بمعنى الظهور المفاجيء والتطاحن مع الحكومات اللادينية فإنه لا يجدي ولا يثمر بل على العكس يقطع جذور الدعوة ويدفع تلك الحكومات اللادينية في تضعيف وتزويد قواتها وتنكيلها بالملتزمين عمومًا ، وهو ما حدث - ويحدث - مع كثير من الجماعات الإسلامية التي غرست بذور الدعوة وعملت على سقيها ورعايتها ولكنها تسرعت في الحصاد قبل الإثمار فقضت تلك الحكومات اللادينية على جذورها وعروشها ، كما قضت بجانبها على بذور لم تسق بعد .

إني أتوجه إلى العلماء والدعاة والمصلحين بهذا النداء الرباني . الذي لم يتبدل و لم يتغير ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ [الحديد : ١٦] .

فهم أعلم من غيرهم به . فهذه الآية من سورة الحديد ، وهي سورة مدنية بالاتفاق تخاطب الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - الذين ربوا تربية قرآنية ورسخت في قلوبهم العقيدة منذ أكثر من ثلاثة عشر عاما بمكة المكرمة وتحققت فيهم العبودية الحقة لله جل وعلا . يعاتبهم الله تعالى بقوله أما آن للمؤمنين أن تلين قلوبهم وتخشع وتخضع عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه [(2)] إنه لحري بالعلماء والدعاة والمصلحين أن يخاطبوا بهذه الآية - ثم يخاطب بها من دونهم - مرارا وتكرارا . حتى نعود إلى العبودية الحقة .

* * *

(١) أبو داود / ك : الملاحم - ب : ما ذكر في (قرن) المائة . (صحيح الجامع / ح رقم ١٨٧٠) .
(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير / مجلد ٤ - ص ٣١٠ .



الخاتمة ونتائج البحث والاقتراحات

رأينا من خلال هذه الرسالة الكائنات التي خلقها الله عز وجل واتحادها في الغاية التي خلقت من أجلها ، ألا وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له .

كما رأينا كيف تؤدي الكائنات كلها عبوديتها لله عز وجل وتمجده وتنزهه سبحانه ، وكيف أن الكون بأكمله قائم على توحيد الله تعالى وإفراده سبحانه بالعبادة دون غيره ، سوى ما شذ من تلك الكائنات من عصاة الإنس والجن وبعض الكائنات الأخرى فجحد بالله تعالى وكفر به .

وهكذا نأتي إلى ختام البحث لنقيد أهم النقاط التي فيه وهي :

١ - إن الغاية التي خلق الله تعالى الكائنات كلها من أجلها هي عبادته جل وعلا وحده ، وعدم الإشراك به ، لذا فهي أول الواجبات وأجلها ، كما أن عبادة غيره سبحانه من أعظم المحرمات وأكبر الكبائر .

٢ - تشترك الكائنات كلها في العبودية التامة ، وهي عبودية القهر والتسخير ، بما فيهم برهم وفاجرهم ومؤمنهم وكافرهم ، فهم لم يخرجوا عن مشيئة الله تعالى لنفاذ أمره تعالى فيهم . وافتقارهم واحتياجهم إليه أمر بدهي لديهم . وهو ما يدل على أنهم مقهورون خاضعون لخالقهم وموجدهم شاءوا ذلك أم أبوا .

٣ - وأما العبودية الخاصة فهي عبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر . وهي التي تميز البر من الفاجر ، والمؤمن من الكافر ، فهي خاصة بالكائنات التي آمنت بالله عز وجل وخضعت لأوامره باختيارها فعبدته سبحانه حق عبادته وأدت عبوديتها نحو خالقها بما أمرها ربها من العبادات للتقرب إليه ، ولكنها تفاوتت فيما بينها في درجات العبودية .

٤ - جعل الله تعالى دواعي وبواعث للكائنات كلها دافعة لهم للخضوع له

سبحانه أهمها الفطرة . فقد فطر سبحانه المخلوقات جميعا على الإيمان به والخضوع له .

٥ - اختص الله تعالى الإنس من بين الكائنات كلها وفضله على كثير منها ، وسخر له كثيرا من مخلوقاته ، وأمده ببواعث أخرى غير الفطرة وهي الشرائع والآيات الكونية ، وذلك في مقابل الأمانة التي وكلت إلى هذا الكائن البشري لحملها والقيام بها .

٦ - لم يقابل هذا الكائن وهو الإنسان هذه العناية الإلهية بالشكر وإعطاء المنعم حقه . بل وقع الكثير من الإنسان في مهاوي الشرك .

٧ - لذا ذكر هذا الإنسان في كثير من آيات القرآن الكريم على سبيل الذم والنكاية على أفعاله وأعظمها الكفر بخالقه جل وعلا .

٨ - رأينا الجانب المشرق من هذا الإنسان في التدرج في درجات العبودية لله عز وجل ، وهؤلاء القلة من هذا الكائن وهو الإنسان استحقت النسبة التشريفية للخالق جل وعلا . فكانوا عباد الله تعالى حقا .

٩ - تعتبر العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده للتقرب إليه في المنهج الإسلامي ، قائمة على تنزيه الله عز وجل ، وإظهار ألوهيته على خلقه ، كما فيها إظهار لعبودية العباد لخالقهم جل وعلا وخضوعهم له ، وبهذا يتحرر العبد من عبودية ما سوى الله تعالى ، وتتضح تماما علاقة العبد بربه تعالى . بخلاف العبادات التي في الأديان الكتابية التي حرفت على يد أتباعها ، فإنها تخلو من تنزيه الله عز وجل وإظهار ألوهيته - كما في اليهودية والنصرانية - حيث تجعل العبد أسيرا في عبوديته لغير الله عز وجل كالكهنة والقساوسة ممن جعلوا حق الغفران ومحو السيئات بأيديهم .

١٠ - تعتبر صفة « العبودية » هي أسمى الصفات التي مدح الله تعالى بها عباده ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين هم صفوة البشر ، بل هي الصفة التي وصف الله تعالى بها نبيه محمدا ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وكان

عليه الصلاة والسلام يحب أن يوصف بها وينادي ، ونهى أصحابه وقومه من بعده أن يرفعوه فوق منزلة « العبودية » أو أن يبالغوا في إطرائه ، فلا منزلة أرفع وأعلى من العبودية إلا الألوهية ، لذا فحذرهم من أن يقعوا في مثل صنيع النصارى بعيسى بن مريم عليه السلام حيث قالوا إنه الله ، وقال الكثيرون منهم إنه ابن الله – تعالى الله عما قال هؤلاء الظالمون علوا كبيرا – .

كما سد عليه الصلاة والسلام أبواب الغلو في تعظيمه كالحلف به أو إشراف قبره واتخاذه مسجدا وعيدا ، أو التوسل به ، أو الالتجاء إليه . إلا أنه قد وقع – مما يؤسِف – بعضُ المسلمين ممن ينتسبون إلى الطرق الصوفية الضالة في إطراء النبي ﷺ ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله تعالى إياها .

١١ – قام الأنبياء كلهم بعبوديتهم لله جل وعلا حق قيام ، كما دعوا أقوامهم إلى عبودية الله تعالى الحقة ، وتحملوا في ذلك الصعاب والمشاق والأذى . حيث هي الغاية من إرسالهم جميعا . وقد جاء مع الرسل ومن بعدهم أتباع حملوا دين الله عز وجل وهو الإسلام والتزموا به قولا وعملا وبلغوه لمن بعدهم فبرزت جملة من أتباع الرسل عملوا جاهدين لتحقيق عبوديتهم لله تعالى الحقة ووصلوا إلى أعلى مراتب العبودية مع النبيين غير أنهم لم يوح إليهم .

١٢ – ظن كثير من الكائن البشري أن الكائنات الأخرى من الحيوانات والنباتات والجمادات سواء ما كان منها في عالم الشهادة أو عالم الغيب لا تعقل ولا تدرك وليس لها عبودية نحو خالقها جل وعلا . وهذا الظن لا يغني من الحق شيئا إذ أن النصوص الشرعية أثبتت خلافه .

١٣ – إن للكائنات الغيرِ بشرية من الحيوانات والنباتات والجمادات إدراكا وعقلا وتمييزا يعينها على تحقيق عبوديتها لخالقها جل وعلا ، والقيام بعبادات تقربها إلى الله تعالى من التسبيح والسجود والدعاء والصلاة وغيرها من العبادت التي جمعنا الأدلة المثبتة لها . وإن عدم إدراكنا نحن البشر وعدم فهمنا

لتلك الكائنات لا يدل على عدم إدراكها وتمييزها وعبوديتها لله تعالى إذ أن خالقها يخبرنا عن ذلك بقوله : ﴿ **وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ أي أنها عابدة لله تعالى ، وهو سبحانه أعلم بها ، ولكن لا نعلم ذلك ولا نفقهه سوى النص الذي يجب الإيمان به . فقد خص الله تعالى نبيه سليمان عليه السلام وفهمه لغة الطير وغيرها من لغات الكائنات الأخرى فوجدها عليه السلام موحدة بالله تعالى . إن النصوص المتضافرة في عبودية هذه الكائنات لتدل على أنها كما أخبر الله تعالى عنها أنها عابدة له مسبحة بحمده هي وغيرها من الكائنات بما يجعل القاريء لهذه الرسالة يستمتع بما دُوِّن عن تلك الكائنات وتشتاق نفسه لمعرفة المزيد عما كتب عنها .

١٤ - لا عبرة بمن حملْ نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة في إثبات عبودية الكائنات الحيوانية والنباتية والجمادية - على المجاز ، أو بمن استبعد ذلك بالكلية . إذ هو غرور الإنسان وتعاليه . إذ عظم عليهم أن يشاركهم في العقل والإدراك والتمييز والعبادة أحد من الكائنات الأخرى . هذا مع قلة أدائهم للعبودية الحقة ، إذ هم أولى من غيرهم بأدائها .

١٥ - من جملة العبادات التي أثبتتها النصوص الشرعية من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة لتلك الكائنات - الغير بشرية - الحيوانية والنباتية والجمادية : التسبيح والسجود والخشية والدعاء والخوف والإشفاق والاستغفار والصلاة والذكر والتلبية وشهادتها بالتوحيد وإسلامها وحبها لأهل الطاعة وبغضها لأهل المعصية وسماعها الأذان وعرض الأمانة على بعضها وسلام بعضها .. إلى غير ذلك مما جمعناه من العبادات الظاهرة والباطنة . كما أن لتلك الكائنات عقلا تميز به بين تسبيح الله عز وجل وسجودها له وبين استغفارها للعالم ومعلم الناس الخير وبين خوفها من الله عز وجل وبين شهادتها بالتوحيد . وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن تعلق تلك العبادات بها على الحقيقة ولا تجوز فيه . كما لها من الإدراك ما يجعلها تحب

أهل الطاعة وتبغض أهل المعصية ، كما يبكي بعضها لفراق المؤمنين من تلك الحياة وتفرح وترتاح لموت الكافر والمنافق . كما أن بعضها مما هو في عالم الغيب وهي الجنة تشتاق لبعض المؤمنين . كما أن النار تغتاظ ويزيد حنقها وغضبها عند رؤية الكفار القادمين إليها ، وهو ما يدل على بصرها . كما أن هذا الكائنات تتكلم وتدرك الخطاب .

كل هذه الإدراكات من الحب والغضب والبكاء والحنين والشكوى والشوق والفرح والراحة والتغيظ والرؤية ، إلى غير ذلك من الإدراكات التي قيدناها في الرسالة من خلال النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة لتدل على فضل الله عز وجل على تلك الكائنات لقيامها هي الأخرى بعبوديتها نحو خالقها جل وعلا . وهو ما يقطع جذور ما شاع في ذهن الكثيرين أن تلك الكائنات لا تعقل ولا تدرك .

١٦ - لاشك أن العقل والإدراك الذي منحته تلك الكائنات هو بحسبها ، ولا نقول إنه يشبه عقل وإدراك الكائن البشري بحال ، كما أن سجود تلك الكائنات ليس كسجود البشر ، فعبادة كل كائن بحسب ما شرع الله تعالى وبينه له قال تعالى : ﴿ **كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ [النور : ٤١] .

١٧ - تعتبر عبادة اليهود للرب عبادة مصلحة ومنفعة لإعادة الهيكل وليس فيها شعور بعبودية العبد نحو خالقه ولا بألوهية الرب سبحانه .

١٨ - وضع علماء اليهود والنصارى دينا يتفق مع الأمزجة والأهواء ، وليس على أساس من الكتاب المقدس على الرغم من تحريفه .

١٩ - أساس دين اليهود قائم على العنصرية والتنقيص للذات الإلهية والمنفعة في العبادة ، كما أن أساس دين النصارى قائم على شتم الله تعالى ، وعلى قاعدة خالف تعرف .

٢٠ - إن العبودية الحقة التي قد تحدثنا عنها قد ضاعت بين المسلمين اليوم ولم يعد لديهم من إسلامهم سوى أسمائهم إلا من رحم الله تعالى ، وقد أصيبوا

بتركهم دينهم وعدم الالتزام به وبتهاونهم فيه بالذل والهوان والضعف الذي لم يك قط في عصر من العصور .

٢١ – يعتبر رجوع المسلمين إلى دينهم في الوقت الحاضر واسترجاع عزهم ومجدهم أمرا صعبا للغاية وشاق المنال لذا فإن التفكير في طريق نجاة المسلمين وانتشالهم مما هم فيه من بعدهم عن عبوديتهم الحقة تجاه خالقهم أمر صعب للغاية . فيحتاج جهودا متضافرة من قلوب مخلصة تعمل بدين الله تعالى لإعادة الأمة إلى دين الله تعالى .

٢٢ – هذه الفئة التي نتكلم عنها قد حصرت الحل فيها ، وهم العلماء الذين عليهم العبء والمسئولية الكبرى وذلك بالتزامهم هم أولا بدين الله تعالى ثم الدعوة إليه بعد أو عند ذلك . لذا طالبت العلماء والمصلحين بمضاعفة الجهود وزيادة الطاقات التي لديهم في ظروف الإمكانيات المتاحة والضيقة في مواجهة المد الخارجي المعادي من قبل الهيئات اللادينية .

٢٣ – هذا وأقترح بعض الاقتراحات التي أرجو أن تؤخذ ويهتم بها وهي :

(أ) وضع مادة « الرقائق » في المناهج الدراسية في الجامعات الشرعية . لتأثيرها الطيب على القلوب في الإخلاص لله تعالى والخوف منه والرغبة إليه والزهد في متاع الدنيا .

(ب) وضع مادة تسمى بـ « الإنتماء الإسلامي » تقوم القوة المفكرة العملية بإعداد منهجها تحث المسلمين على الرجوع إلى الإنتماء الإسلامي وإلى رباط الأخوة الإسلامية وتكون دراسة مكثفة لمحو ما علق وثبت بقلوب العديد من المسلمين وعقولهم من حب الوطن والقومية والاعتزاز بالحضارات المختلفة كالفرعونية والآشورية والبابلية والهندية وما إلى ذلك من الدعاوي الجاهلية . لمواجهة ما تفعله الهيئات اللادينية في وضع وتدريس مادة « التربية القومية » لأبنائها .

(جـ) كما أقترح بعمل دراسة مكثفة ، توضع في شكل خطب أو محاضرات أو مقالات عن المجتمعات الغربية الكافرة وإظهار حالة الانحلال والتدهور الأخلاقي والتردي في السلوك الذي تغطيه قشرة التقدم العلمي ، لتوضيح الرؤية لكثير من المسلمين ممن اغتروا بتلك البلاد .

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★



ثبت المراجع

- أ -

- القرآن الكريم .
- الإبداع في مضاد الابتداع : علي محفوظ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ط ٥ ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود محمد العمادي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان . ١٣٤٧ هـ .
- أزمة العصر : محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان . ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- الاستيعاب في معرفة الصحابة : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، الفجالة ، مصر .
- الأسفار المقدسة : علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، مصر . ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٣٢٨ هـ .
- أضواء البيان : محمد الأمين بن مختار الشنقيطي ، مطبعة المدني ، مصر . ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م .
- الاعتصام : الشاطبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- الأعلام : خير الدين الزركلي ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٩٦٩ م .
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان . ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

- اقتضاء الطراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم : ابن تيمية ، تحقيق : ناصر بن عبد الكريم العقل ، العبيكان ، الرياض ، السعودية . ط ١ ، ١٤٠٤ هـ .
- إكمال الاعلام بتثليث الكلام : محمد بن عبد الله بن مالك الجياني ، تحقيق ودراسة : سعد بن حمدان الغامدي ، مكتبة المدني ، جدة ، السعودية . ط ١ ، ١٤٠٤ هـ .
- الإيمان : شيخ الإسلام ابن تيمية ، مكتبة أنس بن مالك ، ١٤٠٠ هـ .
- الإيمان (أركانه ، حقيقته ، نواقضه) : محمد نعيم ياسين ، بدون تاريخ ولا طبعة .

* * *

- ب -

- البدع والنهي عنها : القرطبي ، دار الصفا ، القاهرة ، مصر . ط ١ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .
- البحر الرائق في الزهد الراقائق : أحمد فريد ، مطبعة نور الإسلام ، مصر . ١٩٨٦ م .
- البداية والنهاية : الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٩٦٦ م .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، تحقيق : محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر . ط ١ ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

* * *

- ت -

- تاج العروس : محمد مرتضى الزبيدي ، مطبعة الخيرية ، الجمالية ، مصر . الناشر : دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٣٠٦ هـ .
- تاريخ بغداد : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- تبيين كذب المفتري : ابن عساكر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان . ١٩٧٩ م .

- تذكرة الحفاظ : لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- التعريفات : علي بن محمد الحسيني الجرجاني ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر . ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن : حنفي أحمد ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر . ط ٣ ، ١٩٨٠ م .
- تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن كثير القرشي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
- التفسير القيم : لابن قيم الجوزية ، جمع : محمد إدريس الندوي . تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ، لبنان . ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : فخر الدين محمد الرازي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- تفسير المنار : محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ط ٢ .
- تقريب التهذيب : لابن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ط ٢ ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- تهذيب التهذيب : لابن حجر العسقلاني . الناشر : دار الفكر العربي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر أباد الدكن ، الهند . ط ١ ، ١٣٢٦ هـ .
- تيسير الكريم الرحمن : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، السعودية . ١٤٠٤ هـ .

* * *

- جـ -

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - المعروف بتفسير الطبري - : لأبي جعفر الطبري ، تحقيق : محمود شاكر ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ .
- الجامع الصحيح : للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

- جامع الرسائل : لابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، مطبعة المدني ، القاهرة ، مصر . ط ١ ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- جامع العلوم والحكم : لابن رجب الحنبلي ، مكتبة الرسالة الحديثة . عمان ، الأردن .
- الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . ط ٣ ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - لابن قيم الجوزية ، مطبعة أمين عبد الرحمن ، القاهرة ، مصر . ط ٣ ، ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م .
- الجواهر في تفسير القرآن الكريم : طنطاوي جوهري ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر . ط ٢ ، ١٣٥٠ هـ .

* * *

- ح -

- حكم الانتماء : بكر عبد الله أبو زيد ، مطابع الدرعية ، الرياض ، السعودية . ط ١ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
- حياة الحيوان الكبرى : كمال الدين الدميري ، مطبعة العامرة الشرقية ، القاهرة ، مصر . ١٣٠٦ هـ .

* * *

- خ -

- خلق أفعال العباد : محمد بن إسماعيل البخاري ، دار عكاظ ، جدة ، السعودية . ١٣٩٨ هـ .

* * *

- د -

- دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٩٧١ م .
- درء تعارض العقل والنقل : ابن تيمية . تحقيق : محمد رشاد سالم ، مطابع جامعة محمد بن سعود ، الرياض ، السعودية . ط ١ ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ابن حجر العسقلاني . تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، مطبعة المدني ، العباسية ، القاهرة ، مصر . الناشر : دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، مصر . ط ٢ ، ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٦ م .
- دلائل النبوة : البيهقي . تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان ، دار النصر للطباعة ، القاهرة ، مصر . الناشر : المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، السعودية . ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م .

* * *

– ر –

- الرحيق المختوم : صفي الدين المباركفوري ، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، جدة ، السعودية . الناشر : رابطة العالم الإسلامي ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .
- روح الإسلام : السيد أمير علي . ترجمة : أمين محمود الشريف ، سلسلة تصدر بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ م .
- روح الدين الإسلامي : عفيف عبد الفتاح طبارة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان . ط ٢٣ ، ١٩٨٣ م .
- روح المعاني : أبو الفضل السيد محمود الألوسي البغدادي ، مطبعة دار الفكر ، بيروت ، لبنان . ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م .

* * *

– ز –

- زاد المعاد في هدي خير العباد : لابن قيم الجوزية . تحقيق : شعيب ، وعبد القادر الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان . الناشر : مكتبة المنار الإسلامية . ط ١٤ ، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م .
- الزندقة والزنادقة : عاطف شكري ، دار الفكر ، عمان ، الأردن . بدون تاريخ .

* * *

– س –

- السنة : ابن أبي عاصم . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .

- سلسلة الأحاديث الصحيحة : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٣٧٨ هـ .
- سنن أبي داود : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- سنن الدارمي : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، دار إحياء السنة النبوية .
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية : ابن تيمية . مراجعة وتعليق : محمد عبد الله السمان ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، السعودية . ط ٢ ، ١٩٥١ م .
- سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
- السيرة النبوية : أبو الحسن الندوي ، المطبعة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، لبنان . ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

* * *

- ش -

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .
- شرح السنة : أبو محمد بن مسعود الفراء البغوي . تحقيق : زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط . المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الحنفي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ٦ ، ١٤٠٠ هـ .
- شفاء العليل .. في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : ابن قيم الجوزية ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان . ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- الشمائل المحمدية : أبو عيسى الترمذي . تحقيق واختصار : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، الأردن . ط ١ ، ١٤٠٥ هـ .

* * *

- ص -

- الصحاح في اللغة والعلوم : نديم ، أسامة مرعشلي . دار الحضارة العربية ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٩٧٤ م .

- صحيح الترغيب والترهيب : للحافظ المنذري . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- صحيح الجامع الصغير : السيوطي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- صحيح سنن ابن ماجة : تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .
- صحيح البخاري : الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .
- صحيح سنن الترمذي : أبو عيسى الترمذي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . الناشر : مكتب التربية العربي لدول الخليج . ط ١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- صحيح مسلم - شرح النووي - يحيى بن شرف الحزامي النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- صحيفة همام بن منبه (عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه) : تحقيق : د. رفعت فوزي عبد المطلب ، مطبعة المدني ، القاهرة ، مصر . الناشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة . مصر . ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م .
- صفة صلاة النبي ﷺ : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ٩ .

* * *

- ط -

- طبقات المفسرين : محمد بن علي الداودي . تحقيق : علي محمد عمر ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- طبقات المفسرين : السيوطي . ط ١ ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
- طبقات المكلفين ومراتبهم في الدار الآخرة : ابن قيم الجوزية . الناشر : مكتبة السلام العالمية ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، مصر . ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- طرح التثريب في شرح التقريب : عبد الرحيم العراقي وابنه أبو زرعة ، دار إحياء التراث العربي . بيروت ، لبنان . ١٣٥٣ هـ .

- طريق الهجرتين : ابن قيم الجوزية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، مصر . ١٣٧٦ هـ .

* * *

- ع -

- العبودية : ابن تيمية ، مكتبة المدني ومطبعتها ، جدة ، السعودية . ط ٢ ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ..
- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات : أبو عبد الله زكريا بن محمد القزويني مطبعة دار التحرير للطبع والنشر .

* * *

- ف -

- فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ١٣٧٩ هـ .
- فتح القدير : محمد بن علي الشوكاني ، مطبعة ونشر محفوظ العلي ، بيروت ، لبنان .
- الفَرق بين الفِرق : عبد القاهر البغدادي . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان . ط ٣ .
- فهرس أحاديث مسند الإمام أحمد بن حنبل : إعداد أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- الفوائد : ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان . ط ٢ ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر . الناشر : دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ، السعودية . ط ١٢ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

* * *

- ق -

- القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، مطبعة المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

* * *

- ك -

- كبرى اليقينات الكونية : محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٣٩٤ هـ .
- الكتاب المقدس : نسخة أجنبية باللغة الانجليزية .

HOLLY BIBLE. The Gideons International, 1974 - U.S.A.

- الكتاب المقدس : كتب العهد القديم والعهد الجديد : تصدرها دار الكتاب المقدس في العالم العربي ، بيروت ، لبنان .

* * *

- ل -

- لسان العرب : ابن منظور ، مطابع أوفست تكنوبرس الحديثة . الناشر : دار لسان العرب ، بيروت ، لبنان .
- لماذا تأخر المسلمون : شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر . ط ٣ ، ١٣٥٨ هـ .

* * *

- م -

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : نور الدين الهيثمي ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان . ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- مجمل اللغة : أبو الحسن أحمد بن فارس . تحقيق : الشيخ هادي حسن حمودي ، معهد المخطوطات العربية - الصفا ، الكويت . ط ١ .
- مجموع الفتاوي : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب . ١٣٧٤ هـ .
- مجموعة الحديث (تشمَل على تسعة كتب ورسائل) : مكتبة الصفا ، مكة المكرمة ، السعودية . ط ٥ ، ١٤٠٥ هـ .
- محاضرات في النصرانية : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٩٨٢ م .

- مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر الرازي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر . ١٩٧٦ م .
- مختصر زاد المعاد : محمد بن عبد الوهاب . تحقيق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .
- مختصر الصواعق المرسلة : لابن القيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان . ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .
- المختصر في أخبار البشر : عماد الدين إسماعيل أبو الفداء ، نسخة عتيقة مجهولة المطبعة والتاريخ .
- مدارج السالكين : ابن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان . ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- مسند الإمام أحمد - شرح وفهرسة - : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م . طبعة المكتب الإسلامي للطباعة والنشر . بفهرسة الرواة للشيخ / محمد ناصر الدين الألباني .
- مشكاة المصابيح : الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان . ط ٣ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- المصباح المنير : أحمد بن علي الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان .
- المصطلحات الأربعة في القرآن : أبي الأعلى المودودي ، دار القلم ، الكويت . ط ٦ ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (رتبه ونظمه) : لفيف من المستشرقين ، نشره : أ . ي . ونستك ، مطبعة مكتبة بريل - ليدن . هولندا . ١٩٣٦ م .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان . ١٣٧٦ هـ .

- المغني في الضعفاء : شمس الدين الذهبي . تحقيق : نور الدين عتر ، مطابع الدوحة الحديثة ، الدوحة ، قطر . ١٩٨٧ م .
- مفتاح دار السعادة : ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- مقارنة الأديان : د. أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، مصر . ط ٥ ، ١٩٧٨ م .
- مقالات الإسلاميين : أبو الحسن الأشعري ، تصحيح : هلموت ريتر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- الملل والنحل : الشهرستاني . تحقيق : محمد سيد كيلاني . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت ، لبنان . ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- منع جواز المجاز : محمد الأمين الشنقيطي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، مصر . ١٩٨٨ م .
- منهاج المسلم : أبو بكر جابر الجزائري ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان . ط ٨ ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
- المورد (قاموس : انكليزي - عربي) : منير بعلبكي ، مطبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان . ط ٢١ ، ١٩٨٧ م .
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة / الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، السعودية . ط ٢ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
- الموطأ : مالك بن أنس ، تصحيح وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر .
- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية : د. أحمد البناني ، مطبعة جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، السعودية . ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ميزان الاعتدال : شمس الدين الذهبي . تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان . ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .

* * *

- هـ -

- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى : ابن قيم الجوزية ، مؤسسة مكة للطباعة الإعلام ، توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، السعودية . ١٣٩٦ هـ .

- هذا الدين : سيد قطب ، الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية .

* * *

- و -

- واقعنا المعاصر : محمد قطب ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، جدة ، السعودية . ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- وفيات الأعيان : ابن خلكان ، طبعة دار صادر ، بدون تاريخ .
- الولاء والبراء في الإسلام : محمد سعيد القحطاني ، دار طيبة ، الرياض ، السعودية . ط ١ ، ١٤٠٢ هـ .

★ ★ ★

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الفصل الثالث

عبودية عالم الغيب

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

العبادات في الأديان الكتابية المحرفة وبعدها عن تحقيق العبودية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

★ ★ ★

مطابع ابن تيمية بالقاهرة
هاتف : ٨٦٤٢٤٠ - ٦٢٢٦٦٠